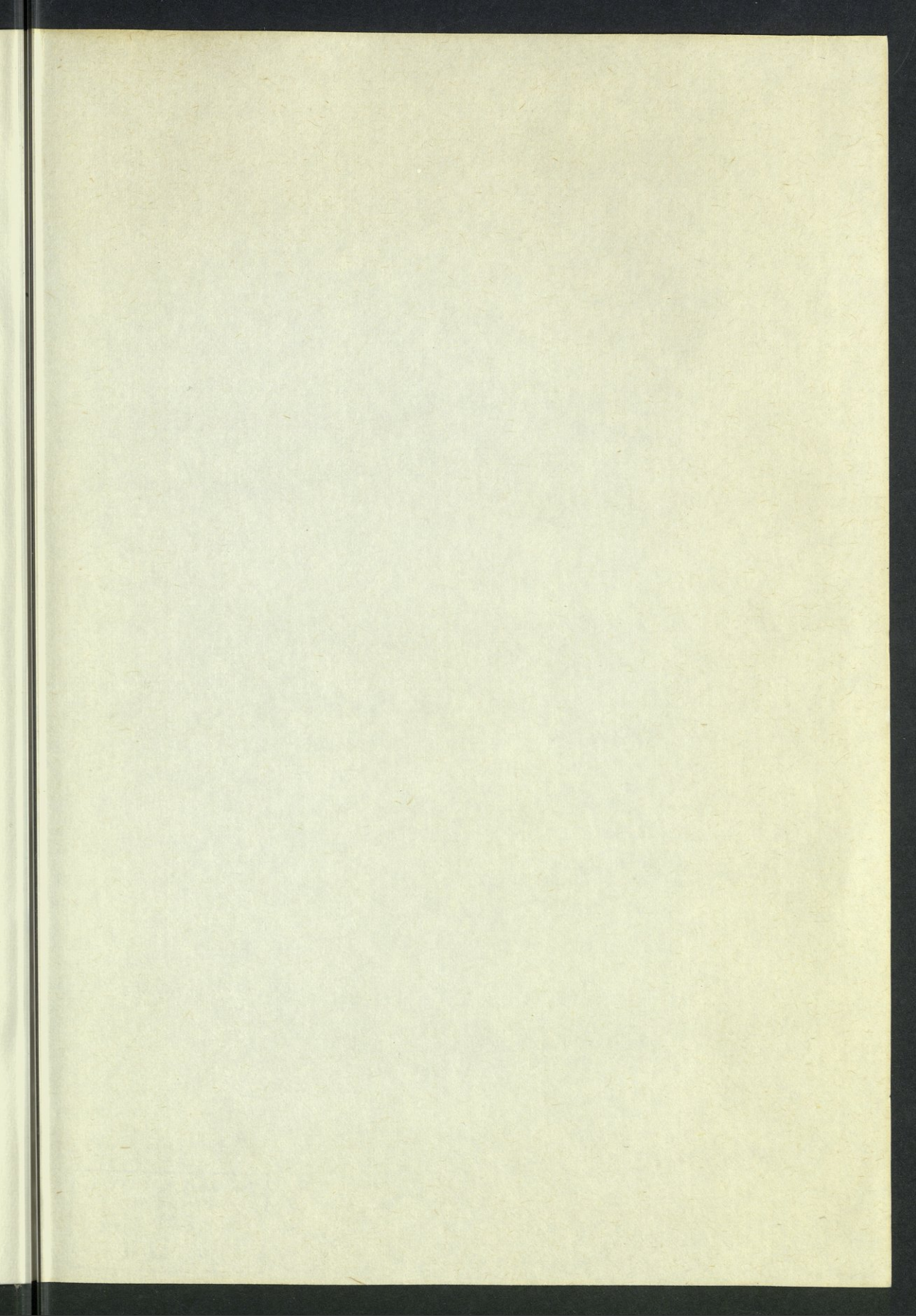


A. U. B. LIBRARY

N. MAKHOUL  
BINDERY

11 FEB 1974

Tel. 260458

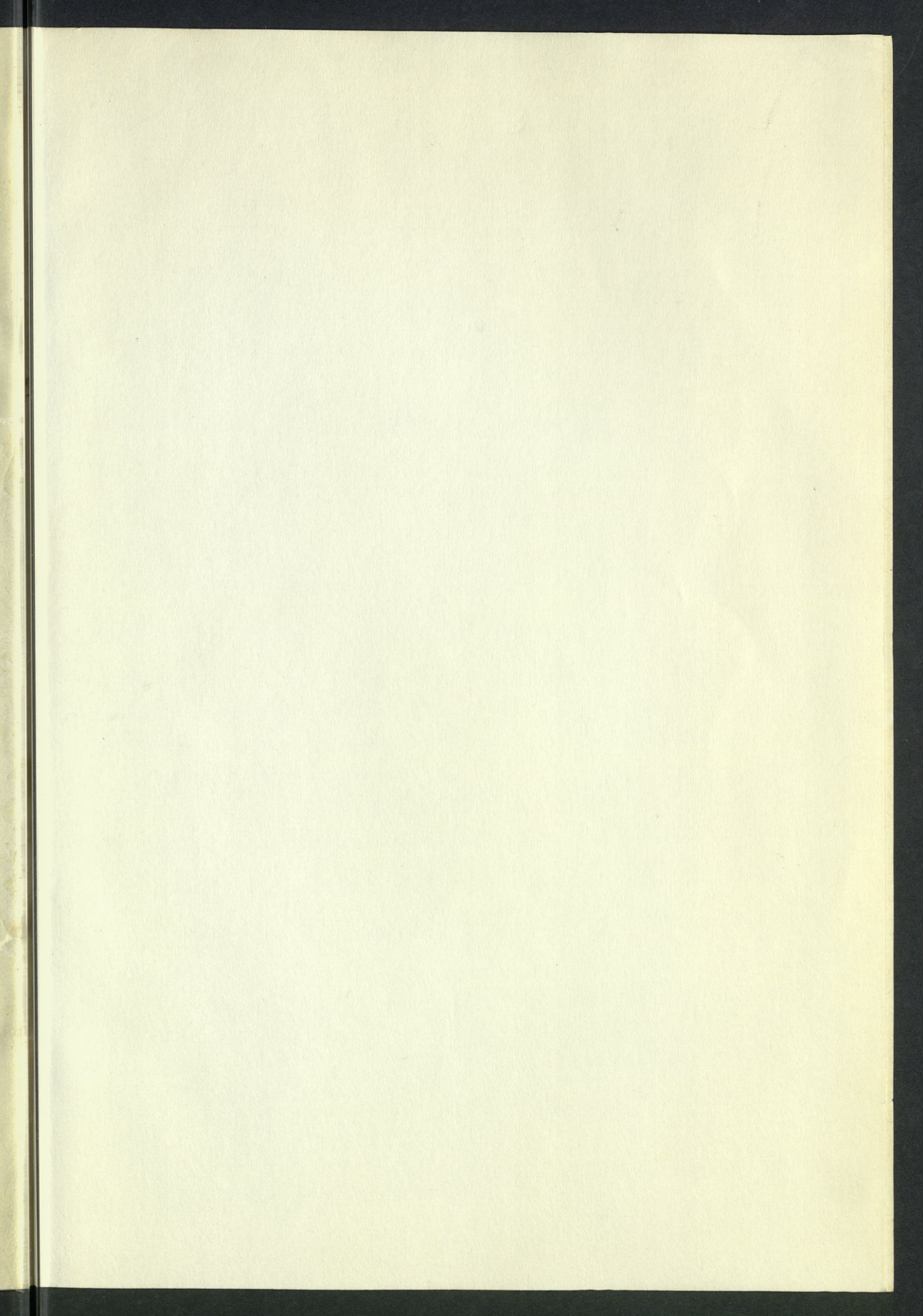


مكتبة جامعة القاهرة

المخاض والولادة

لعمارة

١٩٥٥ - ١٩٥٤



منشورات دار الكتب الوطنية بجلد

٣

089.927  
D213mA  
1954-1955  
c. 2

المحاضرة الأولى في العقائد

لعائذ

١٩٥٥ - ١٩٥٤

مكتبة جامعة القاهرة

7

08980  
1951  
1951  
2

مكتبة جامعة القاهرة

تولعا

3081-0081



## توطئة

اللهم ان سبيلنا المعرفة

ونهجنا في الحياة ان تبلغ الامة العربية اقصى امنياتها الغالية في  
الوحدة والحرية والسيادة .

وفي سبيل هذه الاهداف السامية التي هي امنية كل عربي جعلنا  
لدار رسالتها ، ورسالتها ، الى قيامها بما تقوم به دور الكتب عامة ،  
ان يتعاقب على منبرها ، كل عام ، اعلام المفكرين من شتى الاقطار  
العربية ، يتحدثون عن كل ما يشق النشئ العربي ويسير به في مدارج  
الرفي والكمال .

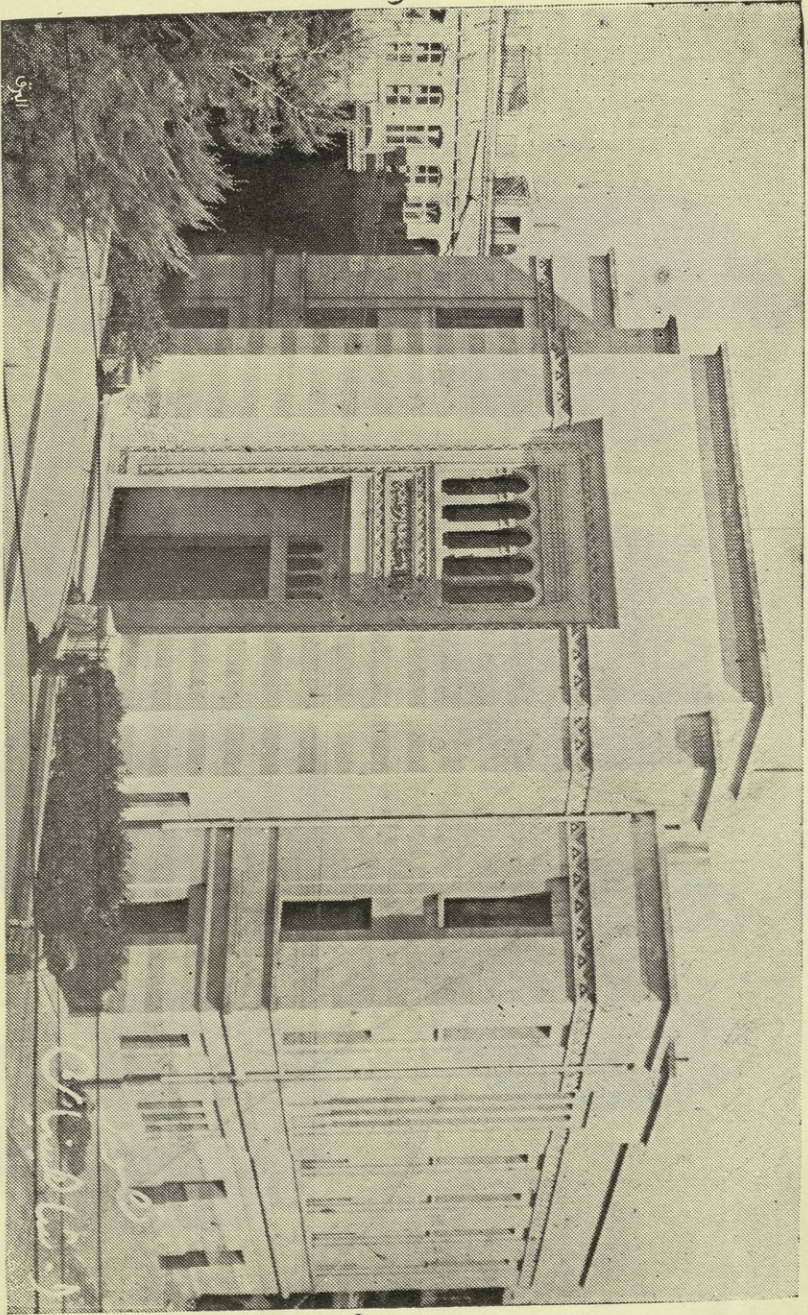
وقد رأينا ان لا نحصر فائدة هذه المحاضرات بالمستمع الحلبي بل

اردنا ان تعمّ فائدتها كل قارئ عربي ، وهذا الذي حدانا ان نجمع  
هذه البحوث . واكثرها من القيمة العلمية بمكان ، في كتب متعاقبة .  
وسبق ان اصدرنا محاضرات عامي ٩٥٢ - ٩٥٣ في كتابين مستقلين .  
وها نحن اولاء نقدم الى القارئ العربي الكريم المحاضرات التي القيت  
خلال عام ٩٥٤ ، ونرجو ان تقدم قريباً محاضرات عامي ٩٥٥ - ٩٥٦  
وبذلك نكون اتحنا له ان يفيد من هذه البحوث ، وهي تناول شتى  
قضايانا الفكرية والقومية والاجتماعية بنزعة حرة واتجاه علمي منطوق .

وفي الختام ، وقد حرصت ، حين توليت شؤون الدار ، ان  
يكون موسم المحاضرات تقليداً من التقاليد الحميدة ، ارجو ان يسير  
من يتولاها بعدي ، على هذا النهج ، وهو نهج لانبغي من ورائه الا  
خدمه هذه الامة ، كما ارجو ان يجد القارئ العربي في البحوث التي  
ينتظها هذا الكتاب مادة دسمة لغذائه الفكري والله من وراء القصد

١٩٥٥ / ١٠ / ٣٠

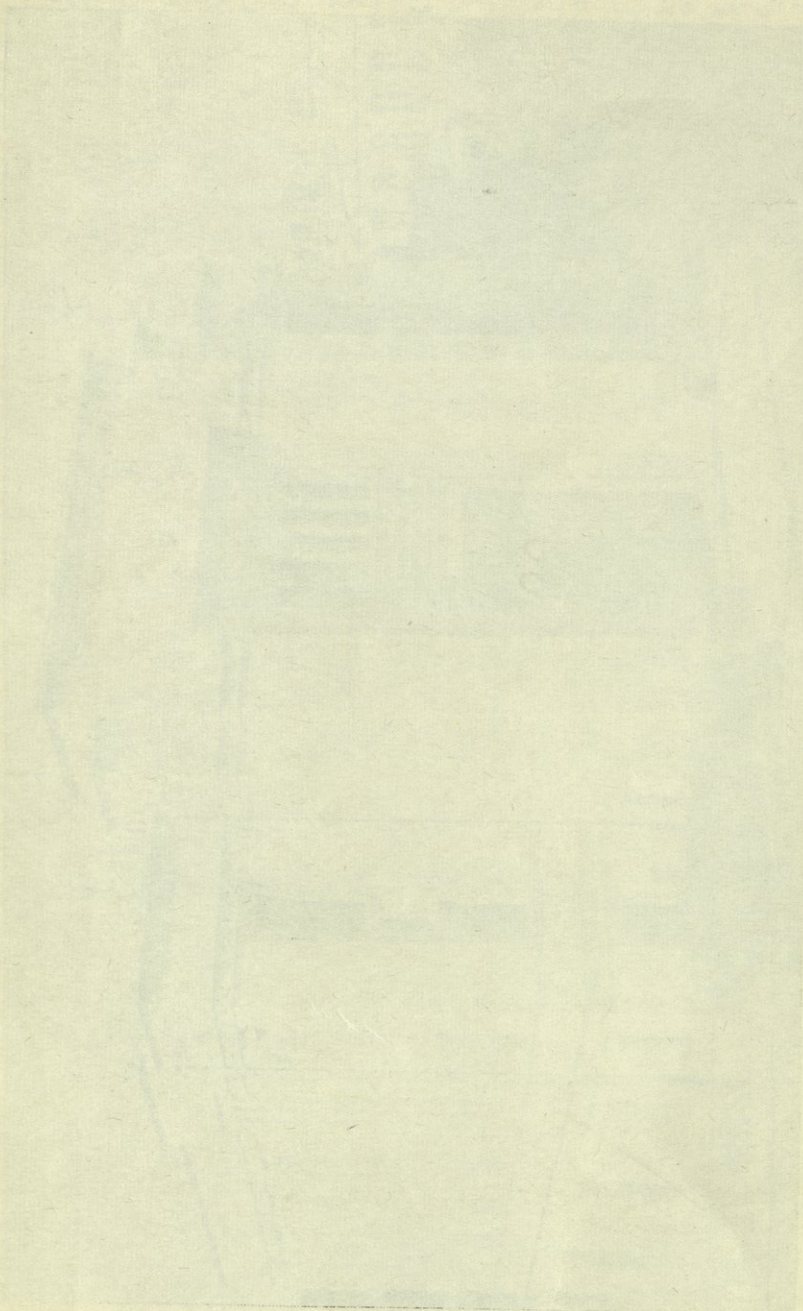
سامي الكبيالي



البرقي

دار الكتب الوطنية بحلب

دار الكتب الوطنية



Vertical text or markings on the right side of the page, possibly bleed-through or a stamp. The characters are faint and difficult to decipher, but appear to be arranged in a vertical column.

المحاضرون



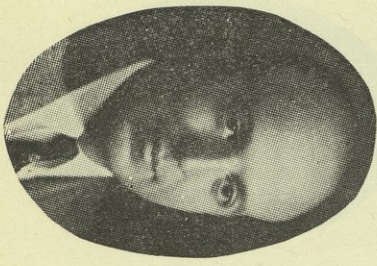
سامي الدروبي



واصف البارودي



عبد الأكرم العجم



عادل النورا



سامي بسيمو



كامل الرحمانى



كامل النائم

11110



11110



11110



11110



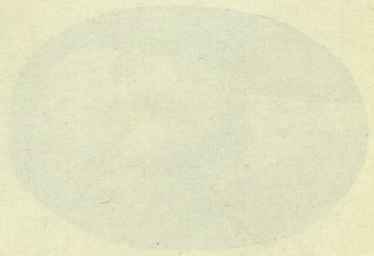
11110



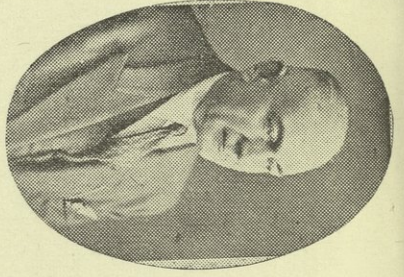
11110



11110



11110



سامي الكبياتي



فاضل عاقول



زاهية فرورہ



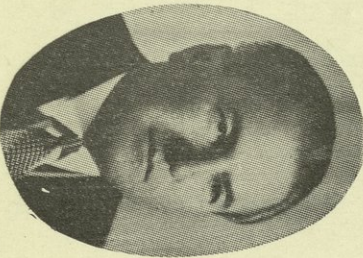
جھیل صلیما



زینب ایوب



ذہیل ہمدانی



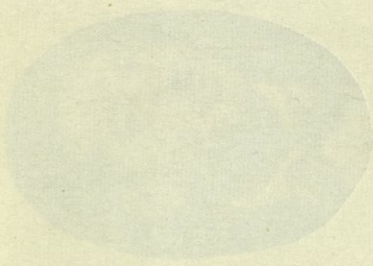
علی اسعد خانجاری



فردی



فردی



فردی



فردی



فردی



فردی



فردی



المحاضرة الاولى

## صحة الفرد و صحة المجتمع

الاستاذ عبد الله عبد الراهيم

= القيت بتاريخ ١٢ / ١١ / ١٩٥٤ =

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين  
والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله

والله اعلم بالصواب

هذا ما وجدته في نسخة

تاريخ العلم هو تاريخ تغلب الانسان على المصير والقدر ؛ هو تاريخ انعتاق الفرد من اسار العوامل الخارجية التي تحول بينه وبين كامل تفتحيه ، وانطلاقه بعد هذا الانعتاق شطر حريره ! تي هي كنه وجوده .. هو تلك المحاولة الجريئة التي تبغي انقاذ الفرد من عبودية الطبيعة والبيئة والظروف الاجتماعية السيئة ، ليكون في نهاية الامر « من هو » اذا اردنا ان نبتغي تعبير « نيتشه » اي ليصل الى كامل مايرجى منه من فيض ونتاج . انه في اعماقه ، انتصار الروح على المادة ، انتصار الحي على الجامد الساكن ، انتصار العقل على الفوضى والاضطراب واللامعقول ..

فالعلم يبغى قبل كل شيء تحرير الانسان من كل جمود وخضوع ، وزحزحة العقبات من طريقه ليكون فعلاً ذلك الكائن السيل المتحرك المنطلق .. فهو ، كما عبر عن ذلك « يكون » ، « قوة » في يد الانسان بها يذلل مايقف دون ازدهاره .

لقد كانت الطبيعة والبيئة والظروف الاجتماعية الفاسدة ، حتى عهد ليس بعيد ، تضحك من الانسان ، حين كانت تخيفه وترعبه وتنقض عليه وتحيط به احاطة السوار بالمعصم ، مضيقه بل قاتلة . وكان الجامد يضحك من الحي ، وكان الحي يصطنع مضطراً لباس الجمود والسكون ، ويخلع لباس المرونة واللين ..

كان الانسان ، ازاء الظروف الخارجية ، اشبه بشخص يتدحرج من فوق سلم : وأي مشهد اشد اثاراً للضحك والسخرية من مشهد كأن حي تفلت منه زمامه ويتغلب عليه الجماد !

بل كان الانسان في ذلك العهد الساق على سيطرة العلم يعتقد ان مثل هذا التضاؤل امام القوى الخارجية امر طبيعي لامفر منه ، وان قدر الانسان ومصيره هو هذه الحياة وسطر ظروف سيئة معاندة لا مجال الى النجاة منها . ولهذا كان يلجأ الى نوع من الصبر والى ضرب من فلسفة رواقية متحملة ، الى احتمال مصيره في تجلد وأسى ، الى موقف كموقف ذئب « فيني Vigny »

« قيم بواجبك الثقيل قيام القوي المتين  
« في الطريق التي دعاك اليها مصيرك  
« ثم تألم بعد ذلك كما تألمت ، ومت صامتاً ».

وعندما جاء العلم الحديث تحرر الانسان من مثل هذا الوهم بعض الشيء ، ورأى بأم عينه غلبة العلم للطبيعة ومظاهرها ، وتذليله صعبها وكؤودها .. غير انه ما يزال حتى اليوم ، وفي بعض المجتمعات خاصة ، ضعيف الثقة بإمكان تغلب هذا الانسان على العوامل الاخرى التي تحد من حريته وسيطرته وانطلاقه ، ونعني بتلك العوامل الاخرى العوامل الاجتماعية «

فهو في كثير من المجتمعات المتأخرة ما يزال يعتقد ان الفقر مصير محتوم ، وان الجهل قدر لامفر منه ، وان الشذوذ والمرض اشياء طبيعية ، وان الفوضى الاجتماعية هي قانون الحياة الاجتماعية .

لقد انتزع هذا الانسان من نفسه اعتقاده بقوى سحرية تسيير الطبيعة

الجمادة ، وادرك ان مظاهر الطبيعة تسير وفق قوانين ثابتة معقولة لا تتخلف عنها . غير انه لم ينتزع حتى الآن من قرارة نفسه إيمانه بوجود قوى سحرية عجيبة تتحكم في النظم الاجتماعية . وهو ما يزال يعتقد الى حد كبير ان الحياة الاجتماعية هي عالم الالمعقول ، عالم اللاتقيد ، اي انها تسير وفق الالهواء والصدف دون ان تخضع لقوانين وقواعد ثابتة ، ودون ان تكون للانسان ارادة في تسييرها .

واعل سبب قلق الانسان واضطرابه يظل اليوم ، في كثير من المجتمعات ، كما كان في ايام « أوغوست كونت » : نفي انه ذلك الفراق بين اسلوب التفكير في الامور الاجتماعية واسلوب التفكير في ظواهر الطبيعة . فالانسان عندما يفكر في هذه الاخيرة يفكر تفكيراً موضوعياً علمياً ، اي يعدها خاضعة لقوانين نستطيع السيطرة عليها . بينما هو حين يفكر في الامور الاجتماعية يفكر فيها غالباً تفكيراً سحرياً غير علمي وغير منطقي ، ويمحشد فيها كل ماهو وليد الهوى والصدفة والالمعقول ...

أفلا نجد مشقة حتى اليوم في ان تقنع بعض الناس بأن النظام الاجتماعي القائم نظام غير طبيعي ! افلا يظن بعضهم ان هذا النظام الفاسد هو وحده الطبيعي ، وان الظلم والفوضى والاضطراب من شيم الحياة الاجتماعية ؟

لقد كان الناس في اوربا حتى عهد قريب يعدون الانسان الاصم الابكم مثلاً انساناً مطروداً من رحمة الله ، لاجمال الى شقائه ، بل ينسبوا الالتماع عنه . ثم جاء الراهب « دوليبي Delipée » ومن تبعه ، فبينوا ان هذا الانسان ليس كأنساً محبوساً ضمن جدران الصمت ولا لاجمال الى ان نقله الى عالم الناطقين ، وقرروا ان في وسعنا ، اذا ماتبعنا وسائل خاصة في تعليمه ، ان نجعله قادراً

على ان يعقد مايزيد ويساهم في حياتنا نحن الناطقين . وهكذا انشئت مدارس الصم البكم ، وهكذا وجد بين هؤلاء الصم البكم عبقرية « كيهلين كيمر Helene Keller » كانت صماء وبكلاء وعمياء ، ولكنها استطاعت مع ذلك ان تترك مؤلفات عديدة وان تصبح من شهيرات النساء في مجال علم النفس .

وكانوا حتى عهد قريب ايضاً يائسين من اصلاح حال العمي ، والكنهم مالبثوا حتى وجدوا لهم طرقاً خاصة لتعليمهم ، واتقنوا من اسرار وضعهم الشاذ .

وكانوا يظنون مرضى العقول والنفوس اناساً محكوما عليهم بان يجروا اذيال حياة هوجاء لاصحو فيها ولا نجاة منها ، ولكنهم مالبثوا حتى اوجدوا الطرق الفاجعة لشفاء الكثيرين منهم من اوصابهم . .

وكانوا يعتبرون الاجرام شرراً لا بد منه ، والمجرمين اناساً يولدون كذلك ولا يجدي معهم غير الزجر او الاقصاء . ثم ادركوا ان الكثير من الجرائم اسبابها الاجتماعية والنفسية ، وان اتقاء الجريمة يكون باتقاء هذه الاسباب ، وان اصلاح المجرم يكون باقتضاء على جذور هذه الاسباب لديه .

وما يزيد ان نحصي الامثلة الكثيرة التي تؤكد هذه الحقيقة الأساسية ، وهي ان عالم الحياة الاجتماعية ، عالم الانسان في صلته مع مجتمعه ، اخذ يدخل يوماً بعد يوم في فردوس البحث العلمي ، ويخلع عنه اهاب الاستسلام والخنوع . وكل مايزيد ان نقوله هو ان المجتمعات الحديثة اليوم تنزع شيئاً بمد شيء الى تقرير هذه الموضوعة الاولية في البحث : نغني القول بأن « لاشيء من لاشيء » على حد تعبير المثل اللاتيني ، وان عالم الحياة الاجتماعية ينبغي ان يخضع لتشريح العقل والعلم وان تنظيم هذه الحياة ينبغي ان يستهدي روح العلم الجريئة التي لا يستعصي عليها شيء .

ان هذه المجتمعات الحديثة تريد ان تخلص الانسان من الصدفة والهوى والطوارئ ، وان تنضو عن حياته الاجتماعية اهاب المجهول ، اهاب عدم الطمأنينة كما نضت عن ظواهر الطبيعة المحيطة به اهاب هذا المجهول . انها تريد ان تضعه في عالم يعرفه ويألفه ولا يخافه ، لاني عالم مليء بالمجاهل والمجاهيل ، في عالم اشبه بالعماء والسديم .

وهكذا تقرر هذه المجتمعات الحديثة ان ما يمر به الانسان من ضعف وقصور وسوء حال ، هو غالباً نتيجة التنظيم الاجتماعي الفاسد ، نتيجة الاستسلام للمجتمع بدلاً من التغلب عليه وفهمه وصياغته صياغة منسقة . انها تقرر ان صحة الفرد وليدة صحة المجتمع ونظامه .

وقد لاندرك للوهلة الاولى ما في هذا القول من نهي وطاقات ، وقد يخيل الينا انه من الاقوال المكرورة المعادة .

غير اننا نعتقد ان الايمان به نقطة انطلاق اساسية في تفكيرنا الاجتماعي وان البدء به بدء بحركة محمّلة بالحياة والخيب . فهو قلب لذلك المفهوم الذي ما يزال يراود كثيراً من النفوس والذي يقرر ان صحة المجتمع وليدة صحة افراده ، وان المسئول عن سوء الاخلاق وسوء الاوضاع هم الافراد واخلاقهم ونواياهم . واكثر الناس تمسكاً بالروح العلمية . ينزلق في مثل هذا التفكير حين يجابه مشكلات الحياة الاجتماعية ، وينساق الى هذا التفسير السهل اليسير لفساد الحياة الاجتماعية اذ ينسب هذا الفساد الى فساد الافراد . وهكذا نختار حلاً كسولاً هو في الواقع فرار من الحل ، بل هو في اعماقه ضرب من تحصيل الحاصل ، بل ضرب من الدور الفاسد الذي يحدثننا عنه الشاعر بقوله .

مشكلة الدور جرت بيبي وبين من احب  
لولا مشيبي ماجفا لولا جفاه لم اشب

انه في الواقع قول « من لا يريد ان يفلح » اذا اردنا ان نتبنى تعبير الجاحظ بل نحن اذا تعمقنا الامور وركبنا المنطق قليلاً ، استبان لنا ان الفرد الخالص لا وجود له ، وان الموجود الحقيقي هو « الفرد - في - المجتمع » . والفرد من المجتمع بمناسبة الجوهر من الاجسام ، لانصل اليه الا بضرب من التحليل الصناعي والتجريد الفكري . ان هذا الفرد كأن مقذوف في مجتمعه ، مبتل به ، معانق له . انه فيه كالسمك في الماء ، او كالطير في الهواء ، او كالزهرة في التراب .

ولا يحلمن قولنا هذا على اننا نقول بتلك الفكرة السطحية ، وهي ان الافراد عاجزون عن تغيير مجتمعاتهم ، وان عمل الافراد عمل سنكره .. والذي نريد ان نقوله ، على العكس ، هو ايمان بقدرة هؤلاء الافراد والافذاد ، ولكن على ان يبدأوا عملهم لا مع انفسهم ومع ذواتهم ، ولكن مع مجتمعاتهم مباشرة : اي على ان ينطلقوا من فكرة تنظيم هذا المجتمع والتغلب على ما فيه من فوضى وصدفة ولا معقول ، وان ينسبوا الضعف الى بنيته جملةً لا الى بنية كل فرد على حدة .

وبعد ، ليس قصدنا في هذا الحديث ان نعاود هذا البحث المجرد في الصلة بين الفرد والمجتمع ، وان تقع فيما تقع فيه الابحاث المجردة من نأي عن واقع المشكلات التي تعني بها . ولهذا نؤثر ان نوضح الفكرة الرائدة التي قلنا بها ، نعني الارتباط العميق بين صحة الفرد وصحة المجتمع ، عن طريق بعض الامثلة المستقاة من بعض جوانب الحياة الاجتماعية . ففيها خير بيان لاولوية المجتمع على الفرد وشأن التنظيم الاجتماعي العلمي في تمتع الافراد بكامل قواهم ، وتيسير خير السبل لامكانياتهم ، وتفتيح انسانياتهم على اكمل وجوها .. وقد فضلنا ان تكون هذه الامثلة أمثلة غير شائعة كثيراً ، تاركين الامثلة السائرة بين الجمهور اذ يعرفها كل واحد منا .



( ١ ) ولنبدأ بأحداث العمل والعمل مادامت هذه الاحداث مما تناقله  
الالسن في هذه الآونة : ان كلاً منا يعرف اثر الظروف المادية الحسنة في تحسين  
نتاج هؤلاء العمال في معاملهم غير ان ما يزيد ان تقوله شيء يجاوز اثر هذه الظروف  
المادية المألوفة . ان ما يزيد ان تقوله هو ما دفع في المجتمعات الحديثة من تنظيم  
العمل في المعامل تنظيمًا يؤدي الى مصلحة العامل وصاحب المعمل في آن واحد  
ولعل من المستحسن ان تقدم لدينا هذا بنظرة تاريخية تبين نشأة هذا التنظيم  
الاجتماعي للعمل .

حدثت الثورة الصناعية الكبرى في اوروبا ، واخذ الناس ، كما تعلم ،  
يهجرون قراهم ومزارعها الى المدن ومصانعها . وحدثت مع هذه الثورة ثورة  
اخرى تسمى قيمة الانسان العامل . اذ كان هذا الانسان في بداية تلكم الثورة  
الصناعية الكبرى مهملًا ، مسحوقًا بضخامة الآلة . وكان ينظر اليه نظرة تجرد  
منه آلة من الآلات الكثيرة التي تدير المعامل . وكان كل ما يطلب اليه ان يشترك  
مع هذه الآلات واجزائها في تسيير عجلات النتاج الصناعي ، وان ينتج اقصى  
ما يستطيع انتاجه لاصحاب رؤوس الاموال ، وان لم يفعله يحطم وينتزع كما تنتزع  
الآلات البالية القديمة .

وجاء المهندس الاميركي الشهير « تايلور » واراد ان ينظم العمل في المعامل  
فلم يأبه للعنصر الانساني ايضًا ، واغرق في اعتبار الانسان جزءاً من الآلة ،  
مجمولاً لها . اذ جعل هدفه من هذا التنظيم ان يصل الى كسب الوقت في المعامل  
والى تحقيق اكبر مردود ممكن باقل النفقات المادية الممكنة . وتوسل الى هاتين  
الغايتين بوسائل ثلاث :

اولاً ان نجعل الآلة ملائمة للعامل بحيث نجنيه كل حركة زائدة  
لافادة منها .

ثانياً - ان ن فرض على العامل الحركات التي يستبين لنا انها اكثر الحركات

اقتصاداً . . .

ثالثاً - ان ننظم ايقاع العمل لدى العامل ( اي سرعته وبطئه ) مستندين الى التوقيت الزمني الذي نحصل عليه لدى اكثر الاشخاص بسرعة .

وقد ادت هذه المبادئ البسيطة في ظاهرها الى نتائج هامة ذات بال : اذ كان من نتائجها طرح العمال الذين لا يصلحون لهذا التنظيم المتفق عليه ، او الذين يعجزون عن الاستمرار فيه بسبب « اهترائهم » بعد سنوات طويلة من العمل .

واستمر الاحقون الذين ساروا على سنة « تايلور » هذه في النظر الى المسألة من وجهة الاقتصاد والسرعة ، لامن وجهة العامل ومصالحته ، وحققوا ما يدعى بالاصطفاء المهني الذي تعنيه مصلحة العمل دون مصلحة العامل .

ولكن هذه النظرة الضيقة ما لبثت حتى اعقبتها نظرة انسانية فسيحة . اذ ثار بعض علماء النفس خاصة على موقف « تايلور » واتباعه ، وبينوا ان مسألة العمل لا تطرح طرْحاً علمياً مالم تقم وزناً لقابليات العامل وبنيته ، ولاتقوانيين الفيزيولوجية والنفسية التي تتحكم في حياة كل فرد وتنظم استجاباته . ووضحوا بوجه خاص هذه الحقيقة الغالية ، وهي ان مثل هذه العناية بالجانب الانساني لا تؤدي الى تحسين حال العامل فقط ، وانما تؤدي في الوقت نفسه الى تحسين حال العمل والى زيادة النتاج في المعامل كيقاً وكما ، وانقاص عدد الكوارث التي تقع للعمال في المعامل وتصيب الآلة وتسيء اليها . وبهذا نربح من مثل هذا التنظيم العلمي ربحاً مزدوجاً : ربح زيادة في المردود واقتصاداً في النفقات ، كما نربح ازدهاراً في شخصية العامل واحتراماً لانسانيته .

وايكم بعض الحقائق التي توضح هذه النتيجة التي وصلوا اليها :

لقد درس هؤلاء العلماء اثر الشروط الجوية ، من حرارة ورطوبة وتهوية

واضاءة على نتاج العمال : فيين « بيدفورد Bedford » مثلاً في دراسته للعمل في  
مناجم الفحم في بريطانيا ان نسبة النتاج في هذه المناجم ترتفع من ١٧٪ في  
درجة حرارة قدرها ٤٢ الى ٥٩٪ في درجة حرارة قدرها ٢٨ . ومثل هذا  
التحسن في النتاج حصل عليه علماء آخرون في شروط من التهوية والرطوبة  
والنور جيدة .

ودرسوا كذلك اثر لون المصنع والآلات في عمل العمال ، فاستبان لهم ان  
العناية باللوان ودراستها دراسة صحيحة وجعلها ملائمة لكل نوع من انواع  
العمل ولكل جزء من اجزاء الآلة يؤدي الى زيادة في النتاج تبلغ نسبتها ١٠٪  
الى ٢٠٪ . ( على نحو ما دلت دراسة هذا الموضوع في معامل ( فورد ) خاصة ) .

وتحققوا كذلك من اثر الموسيقى في زيادة المردود وتحسينه ، بسبب  
ما تؤدي اليه من حذف للملل وبعث للنشاط ، فوجدوا ان هذه الموسيقى قد تزيد  
المردود بنسبة ٦٪ الى ١١٪ .

واقوم من هذا كله عنايتهم بدراسة قابليات العمال واستعداداتهم وتوجيه  
كل واحد منهم نحو العمل الذي يلائم استعداداته ويسير قابلياته . اذ بينت هذه  
العناية خير بيان ان توجيه العمال شطر المهن والاعمال التي هم لها اهيأ ، يؤدي الى  
تفتح شخصيتهم اولاً حين تحقق ما خلقت له ، كما يؤدي الى زيادة في نتاجهم كما  
وكيفاً ، والى اقلال عدد الكوارث التي يقعون فيها . كما بينت في مقابل ذلك ان  
اهمال هذا التوجيه وجعل اختيار المهنة بالتالي موكولاً للصدفة ، يقودان العامل  
الى حياة يائسة يقوم فيها بعمله قيامه بسخرة شاقة ويتضاءل ضمنها شعوره بوجوده  
وثقته بنفسه ، هذا بالإضافة الى ما ينجم عن ذلك من نقص في نتاجه وزيادة في  
الكوارث التي يمتنى بها هو وتمنى بها الآلات التي يشتغل عليها .

ذاك ان كل انسان ( ميسر لما خلق له ) وان اقتل شيء المرء ان يسير

في غير الطريق التي خلق لها ، وان يغالب طبعه واستعداده . وما غالب امرؤ طبعه  
وقابلياته الا علب .

وهكذا نرى من كل ما ذكرناه ان التنظيم الاجتماعي العلمي لظاهرة  
جوهرية كظاهرة العمل ، يؤدي فعلاً الى صون صحة العامل كفرد ، والى تقييده  
خير تفتح والى استخراج امكانياته والدفين من قواه ، كما يؤدي في الوقت نفسه  
الى زيادة نتاج المعامل وتوفير ربح اضخم لارباب العمل . وواضح ما ينجم عن  
مثل هذا التنظيم من فوائد قومية كبرى : انه يصون قوى الافراد اولاً من الضياع  
ويحميها من الاختناق ، ويجعلها مزهرة الاكام ، تجود بما عندها في سخاء وصبور  
وهل من هدف قومي اسمى ، اعمر كم ، من الافادة من كامل طاقات الافراد ، ومن  
اسادهم عن طريق شعورهم بوجودهم المفتوح ، وعن طريق استخدامهم لقوى  
الاداع والابتكار الكامنة فيهم ؟ ثم ان هذا التنظيم ثانياً يزيد من الثروة القومية  
كأرياباً ، حين يزيد في نتاج المعامل وحين يجعل كل شيء ينصرف منصرفه  
الطبيعي ، دون ما هدد للقوى وتبذير للنشاط .

ومن هنا تستبين لنا فكرة ننساها غالباً وهي ان التنظيم الاجتماعي العلمي  
هو دوماً في مصلحة الجميع ؛ واكبر وهم يقع فيه فريق من الناس ان يخيّل اليهم  
ان العناية بامور العمل وتنظيمها او باي جانب من جوانب التنسيق الاجتماعي  
تؤدي الى افادة فريق على حساب فريق ، ففي كل تنظيم زيادة جديدة ، واعادة  
النظر في نسيق اي مجال من المجالات لا تؤدي الى مجرد تغيير في ترتيب اجزائه  
وانما تؤدي الى اغتناء هذه الاجزاء بقوة جديدة . وهذه القوة الجديدة تقيدها  
سائر اجزاء المجال المنظم لاجانب واحد من جوانبه .

( ٢ ) ولندع العمل والعمال ، ولننتقل الى المدرسة والطالب ، نجد في هذا

الميدان الثاني ما وجدناه في الميدان الاول . ولن نعود هنا الى تلك الآراء المزجة التي تبين قيمة التنظيم العلمي للعمل المدرسي تنظيمًا يقيم وزنًا ليمول الطالب واستعداداته الجسدية والنفسية وجو المدرسة المادي والمعنوي . . فمن الامور التي لا يجلبها انسان اليوم ان مثل هذه العناية بالشروط النفسية والجسدية والمادية التي يعيش ضمنها الطالب ذات أثر فعال في حسن عمله المدرسي وتفتيق قواه . ولهذا نكتفي بالإشارة الى مسألة موازية للمسألة التي طرقتها منذ حين ، حين حديثنا عن العمل والعمال ، ونعني بها مشكلة توجيه الطلاب شطر الدراسات التي تؤهلهم لها استعداداتهم وقابلياتهم . اذ تبين الابحاث الحديثة ان مهية الشروط النفسية والجسدية والمادية الحسنة لا تكفي وحدها وان اهم انواع التنظيم العلمي للعمل المدرسي ان تختبر قابليات كل طالب ، وان يساق بعد ذلك نحو فروع الدراسة التي هو اهل لها . فلا يوجه الى دراسة العلوم الا من انجلى استعداده لها بالطرق العلمية ، ولا يوجه الى دراسة الآداب الا من كشفت الاختبارات والطرق الخاصة عن قابليته لهذه الدراسة الى غير ما هنالك من فروع . ولهذا تحاول بعض الدول الحديثة اليوم ان تنظم التعليم الثانوي تنظيمًا يحقق هذه الغاية اي يساعد على الكشف عن قابليات الاشخاص وييسر لهم اختيار فروع الدراسة المهيئين لها .

ومن اشهر هذه المحاولات الحديثة محاوله فرنسا منذ عام ١٩٤٥ وانشاء ما يدعى باسم الصفوف الجديدة في التعليم الثانوي ؛ وتبينها المشروع الشهير باسم مشروع « لانجفار - فالون » . وقد حاولنا هنا ان نحقق بعض اغراض هذا التنظيم الجديد القائم على اساس دراسة القابليات ، حين كلفتنا وزارة المعارف مع بعض المختصين بوضع مشروع لاصلاح التعليم الثانوي والمهني . ولكن مشروعنا هذا ما يزال مهملاً حتى الآن ، ولن يبعثه من عالم الاهمال الا ايمان منا جميعاً بقيمة هذه الفكرة التي جعلنا موضوع - حديثنا ، فكرة التنظيم الاجتماعي العلمي وما تحمّل في ثناياها من معجزات . . فالذي يصطدم به كل مجدد حين يحاول ان يدخل بعض

صور الحياة العلمية الحديثة في نظمنا القائمة ، ذلك الخوف العميق من كل جديد ، وهو خوف لا يفسر الا بدم تغلغل في التنظيم العلمي في نفوسنا . فالعلم كاذكرا يمحو الخوف من المجهول ، اذ لا مجهول فيه . . ولا يكن الخوف الا حيث ينعدم التصور العلمي الواضح . .

وهنا ايضاً ، في مجال المدرسة والطالب ، نجني الفوائد القومية الجملة من وراء تنظيم العمل المدرسي تنظيماً علمياً مستنداً الى دراسة القابليات خاصة . فنحن بذلك نذل الفرد على موطن الخصب فيه ، ونشق له الطربق التي هي طريقه حقاً ونقصيه عن المحاولات الفاشلة ، عن سلوك سبيل في التعلم لا يلقى فيها الا الفشل والاحفاق ، ولا يلقى فيها مجتمعه الا العقم . وبدهي ان اشتغال المرء . بما خلق له يؤدي الى جانب مجاحه في اختصاصه ، الى تقائل تجاه الحياة والعالم ، والى نظرة فرحة مبدعة ، بينما يؤدي اشتغاله بغير ما هو مهياً له الى تشاؤم من الحياة . فقد على الناس والاشياء ونظرة سوداء قائمة ؛ وكثيراً ما يؤدي الى عقده وامراض نفسية وجسدية ، واضطرابات في السلوك والخلق . وليس ثمة من قلق اعقم واقتل للنفس من قلق الفرد الذي ضل سبيله في الحياة وسار في عكس اتجاهاته واستعداداته . انه لن يكون راضياً عن نفسه في حال من الاحوال ، وعدم رضاه عن نفسه لا بد ان ينقلب حقداً على الآخرين وكراهية لهم . ذلك ان محبة الآخرين ، كما يقول احدهم ، هي امارة الرضا عن الذات . ويزيد في خطورة هذه المسألة ان القابليات في بداية عهدها غضة طرية معروضة للضمور في كثير من الاحيان ، ان لم نسهدها بتوجيه لها وتفتيح . بل ان الابحاث الاميركية الحديثة اثبتت ان العبقرية نفسها في حاجة الى حماية وتعهد ورعاية . فاذا كان هذا شأن العبقرية ، وهي التي تعرف ان تبرغ وتطل رغم العقبات ، بل بسبب العقبات في كثير من الاحيان . فما شأن القابليات العادية اذن ؟

( ٣ ) وما دمتنا قد عرضنا لكفاءات الافراد وقابليتهم ولما ينشأ عن افعال هذه الكفاءات من اضطرابات نفسية وجسدية ، المنتقل الى ميدان وثيق الصلة بكل هذا ، نعني به ميدان الاشخاص الشواذ والمرضى . . . . . ان هؤلاء ايضاً ، بل هؤلاء خاصة ، فيدون اكبر الفائدة من التنظيم العلمي لحياتهم . وكلنا يعرف ان قديماً كبيراً من الناس لا يصل الى الحال السوية السليمة التي يصل اليها الناس عادة ، ولا يكمل نموه وطريقه في الحياة ، بل يتوقف عن الاكتمال وتتمام النضج فيصيب انواعاً من الانحراف النفسي ، قد تتجلى في شكل شذوذ وقد تتجلى في شكل مرض عميق . . . . .

ولأضرب لكم بعض الامثلة عن الشذوذ ، لا يبين لكم عن طريقها كيف تلعب العناية بحالات الشذوذ هذه دوراً هاماً في صحة الفرد ، وكيف يؤدي التنظيم الاجتماعي العلمي مهمته هنا ايضاً . . . . . ان من احوال الشذوذ الجسدي الذي نجده لدى اناس مصابين بعايات حركية او حسية او نطقية . ومن انواعه الشذوذ النفسي الذي نجده لدى اشخاص مصابين باضطراب في نموهم العقلي او في طباعهم . ومن انواعه الشذوذ الاجتماعي الذي نجده لدى اشخاص يرجع اضطرابهم الى ظروف اتيرية سيئة موروثة . وهذه الحالات كلها قابلة للشفاء والتقويم ان نحن تمهدها بالبراعة والجريفة عليها الطرق التربوية الملائمة لها . ولأبين ذلك بالحديث حديثاً موجزاً عن الشذوذ الاجتماعي . . . . .

ان هذا الشذوذ كما ذكرنا يرجع الى بنية المجتمع الأسري : اذ نجده لدى الأطفال المهجورين واليتامى وفي البيئات المنزلية المتفككة رسمياً ( بسبب

الطلاق او ابتعاد الأب عن المنزل بسبب من الاسباب ) وفي البيئات المنزلية المتفككة تفككاً غير رسمي ( كما في احوال سوء التفاهم البيتي ) ووقوع بعض الامراض التي تستلزم اقامة احد افراد الاسرى في المستشفى او في ملجأ للعجزة أو . . . ) وفي حال اشتغال الأم خارج البيئة المنزلية ؛ كما نجد هذا الشذوذ ايضاً في البيئات المنزلية ذات الاوضاع الخاصة : كأن يكون الطفل فيها وحيداً او ان يكون واحداً من ابنا كثيرين جداً ، او ابناً لوالدين طاعنين في السن او لوالدين ينتمي كل منهما الى عرق او قومية او ديانة او طبقة اجتماعية .

ونلني هذا الشذوذ ايضاً لدى الاشخاص الذين عاشوا في بيئة منزلية تموزها التربية السديدة ، كان تكون تربيتهم مفرطاً في اللين او مفرطاً في القسوة او ان تكون امهاتهم مثلاً ممن يمتن الدعارة ، او ان يكون آباؤهم ممن يدمنون على ابنة الحان . . . ووقوع الشذوذ في مثل هذه الحالات جميعاً بين خيريات كيف ان تفاديه يتم عن طريق تفادي مثل هذه البيئات الاجتماعية المضطربة ، اي عن طريق عناية اجتماعية دقيقة . ان القضاء عليه بعد وقوعه ممكن وسهل اذا تبسرت السبل الحديثة في التقويم والعلاج ، واذا توافر للمصاب به الجو الاجتماعي الذي يحو اوباء جوه المصاب .

وكما ننأى عن مجال التجريد ونقرب الى اذهانكم كنه هذا الشذوذ الذي لم يستبن لكم امره حتى الآن فيما نمتقد ، نعرض حالة من احوال الشذوذ ، هي حال الشخص المفرط في الانفعال :

ان الشخص المفرط في الانفعال ، كما يدل عليه اسمه ، انسان لا يستجيب للحوادث التي تمر به استجابة مترنة مقتصدة توازي ما في هذه الحوادث من عنف او ضعف ، بل نراه على العكس يستجيب استجابة طائشة زائدة على المألوف ، وتهزه انه الاسباب ، ويشيره من الاشجان مالا يحمل اي معنى من معاني الاثارة



في نظر الاسوياء من الناس . فهذا شابٌ مثلاً يجيش في البكاء لدى اي تأنيب طفيف ؛ وهذه فتاة يفترسها فزع شديد لدى رؤية فأر ؛ وهذا طاب يحاول الانتحار بعد اخفاقه في امتحان ؛ وهذا فتى يهجر منزل ابويه مغاضباً اثر مناقشة بينه وبين احد افراد الاسرة . . ان هؤلاء جميعاً مفرطون في الانفعال وفرط انفعالهم يؤدي الى ضعف تكيفهم مع المجتمع والى عقبات يواجهونها في حياتهم . انهم غالباً قلقون مغمومون منقبضون ، كما تقول ، دون ماسب ظاهر ، حتى ان بعضهم يشعر كأن قلبه مضيق عليه معترض ، او كأن راسه مشدود بقبعة ضيقة تشد الخناق عليه . وان صوتهم في اكثر الاحيان حار يقفز ويتقطع ويتمتم ؛ وفي نطقهم ، عي واضح عند تلبسهم بحالهم الانفعالية . وتتجلى امائر هذا الانفعال المفرط في وجوههم ايضاً : فهي شاحبة باهتة ، او حمراء قانية ؛ والعينان فيها مكسوتان يبريق يناقض تمام المناقضة مافي وجوههم جملة من سكون وجمود . وكثيراً ما يتصبب العرق البارد من اصداعهم وآباطهم ؛ وكثيراً ما يتلعون الهواء او يصابون بظلاً لا يروى . بل كثيراً ما نلتقي لديهم ازمات اسهال حقيقية ولا سيما بعد توبيخ يلقونه . . .

ومن آثار فرط انفعالهم هذا انهم يخافون الاخفاق خوفاً مفرطاً ، ويخافون احكام الآخرين وسخريتهم . ومن اثاره ايضاً انهم ضعيفو الثقة بنفوسهم وانهم شديدو التأثر العاطفي بحيث توصف قلوبهم بانها « اوتار عود معلق ، ترن ان لمست » كما قال « بيرانجييه Béranger » فيهم . ومن نتائجها ايضاً انهم يخشون الجديد والمواقف الجديدة ، وانهم في الوقت نفسه ينجذبون الى المجهول والى كل ماهو مستسر دسم ، فتغريهم الروايات الخفيفة والاقاصيص المليئة بالاسرار والغموض ، وتمتعهم الافلام المزعجة والحكايات التي تنتهي بخواتيم تعيسة .

وهذه الصفات كلها تجعل منهم ، كما نرى ، اناساً صعبى القيادة ، يلقون

عسراً في حياتهم الاجتماعية ، ويلقى المجتمع من عسرهم عسراً . ولا سبيل الى تجنبهم مساوئ انفعالهم المفرط هذا ، والى تجنب المجتمع بالتالى جرائره ، الا عن طريق عناية خاصة بهم تهنيء لهم التقويم اللازم . ولن نتحدث هنا عن نوع هذا التقويم لثلا تقع في الاطالة . والذي يعيننا في حديثنا هذا هو ان نذكر كيف يحتاج مثل هؤلاء الاشخاص الى مجتمع يعنى بامور صحتهم النفسية ، وكيف يستشري الشذوذ لدى هؤلاء ان وجدوا في بيئات اجتماعية سيئة واهمل امرهم في مجتمعهم . وكيف يستطيع المجتمع فعلاً ان تبني معهم ومع غيرهم من الشواذ وسائل الرعاية الاجتماعية الناجمة ، ان ينقذهم من كثير مما يشكون وان ينقذ نفسه من كثير من الاثقال التي ينوء بحملها .

والامثلة كثيرة على حالات الشذوذ هذه ، وعلى ما يستطيع المجتمع ان يفعله فيها . والامثلة اكثر ايضاً على الحالات المرضية ، هذه الحالات التي لا يتسع المجال للحديث عنها . وحسبنا ان اردنا بيان ما للتنظيم الاجتماعي من اثر كبير في تجنب الافراد مثل هذه الحالات المرضية ، وفي تخليصهم منها ان وقعوا فيها ، ان نورد لمحة عابرة عن نزعة طيبة نفسية حديثة تعرف باسم الطب النفسي الجسدي « Médecine Psycho - Somatique » .

ان الذي يعيننا من هذه النزعة انها ترد كثيراً من الامراض الجسدية الى اسباب اجتماعية ، وانها ترى علاجها عن طريق ، سائل نفسية واجتماعية ايضاً وفي هذا مجاوزة لحدث النزعات قبلها ، نمنى النزعة القائلة بان الامراض النفسية اسباباً نفسية . فهي تزيد عليها ان لامراض الجسدية ايضاً اسباباً نفسية . وهي تفسر منشأ كثير من الامراض الجسدية الكبرى باسباب نفسية عاطفية واجتماعية فتفسر بهذه الاسباب قرحة المعدة واكثر اضطرابات جهاز الهضم ، والضغط الشراييني والربو واضطرابات القلب وكثيراً من انواع الصداع . بل تفسر بعضها بعض الامراض الجلدية نفسها ، ومرض السكر واضطرابات المفاصل والعضلات والعظام ، واضطرابات

جهاز التناسل . وهي في تفسيرها هذا تقيم وزناً كبيراً لبعض العوامل الاجتماعية التي تلعب دورها في هذه الامراض جميعها . ولأثر بعض المهن وبعض مساوي التنظيم المهني ، ولاثر جو المنزل وغيره من الاجواء الاجتماعية . وهذا تبين لنا خير بيان كيف ان عوامل التنظيم الاجتماعي تمتد جذورها الى اعماق اعماق حياة الفرد . وتلعب دوراً هاماً في امور يخيل الينا الوهلة الاولى انما هي منأى عن التأثير بهذه العوامل الاجتماعية . افلا يعني هذا اذن ان الفرد ، كما قلنا ، مبتل بماء المجتمع ، يتلقى منه في كثير من الاحيان الصحة او المرض ، الحياة او الموت ، الشذوذ او الاتزان ، التفتح او الانطواء . افلا يعني هذا حقاً أن صحة الفرد ، بالمعنى الواسع لهذه الكلمة هي وليدة صحة المجتمع ؟ او ليس من واجب المجتمع ان يحبس افراده ضمن تنظيم سليم ، من شأنه ان يجنبهم كثير أمن المهالك ويجعلهم في نجوة من عصف المخاطر ؟

( ٤ ) واخيراً يتجلى لنا اثر هذا التنظيم الاجتماعي واضحاً جلياً في امر قلنا ننتبه اليه ، هو اخلاق الافراد . فمقارنة بسيطة نقوم بها بين اخلاق الغرب واخلاقنا مثلاً ، ترينا ان اخلاق الغرب وليدة ، تنظيم الامور هناك تنظيم اجتماعياً لا يدع مجالاً كبيراً لعدم التخلق . فكل شيء في كيانهم ينفع فيه الصدق والزاهة ، والربح المادي نفسه مكتوب هنالك للتاجر الدقيق في معاملته والموظف المخلص في عمله . فكأن التنظيم الاجتماعي عندهم قوة تعلو فوق الافراد فتحبسهم ضمن سلوك صحيح سليم لا يكون لهم فوز بدونه . بينما نجد الاخلاق في بلادنا منحوقة بالنظام الاجتماعي الفاسد ، هذا النظام الذي يدعو الى عدم التخلق غالباً بحكم بنيته وتكوينه ، والذي يجر الافراد الى سلوك منحرف يصعب التخلص منه غالباً ، لان كل شيء في دولاب الحياة الاجتماعية ، يجأر به وينادي باتباعه . ولهذا نجد القابض على خلقه في مثل هذا المجتمع النخر كلقابض على الحجر . ومن العبث في مثل هذه الحال ان نطالب الافراد بالصلاح والقلاح ، مالم نجعل نظام

الحياة الاجتماعية نفسه مؤيداً لهذا الصلاح وذلك الفلاح .

وخير ألف مرة ان نقيم قواعد ونظماً ومؤسسات اجتماعية صادقة من ان ندعو الناس الى الخلق دعوة خاوية ولن ان نملأ الدنيا موعظ . ولا يعوز العربي في الواقع الشعور بالقيم الخلقية واهترازه لمعاني السلوك الرفيع . فهو ابن بحجة الخلق ، وهو في هذا ذواقة لايجارى . ولا ادل على ذلك من ان التضحية والارحية والبذل والصدق تطل لديه من بين كوى الفساد جميعها وتسمح بانها رغم كل شيء وتقاوم في كثير من الاحيان جميع مغريات المجتمع الفاسد . والذي يعوز هذه المعاني الخلقية الاصلية في نفسه هو وضعها ضمن جو اجتماعي يساعد على رعرعها ونماؤها ، لاضمن جو اجتماعي كل ما فيه يكرهها على الصمت او الانحراف . . افلا يفوق الدعوة الى الاحسان مثلاً ان نقيم مؤسسات للخدمة الاجتماعية ، وان نؤمّر الكل فريق من العاملين في المجتمع ضمناً ضد عجزهم وشيخوختهم ومرضهم ؟ افلا نرى اليوم في المجتمعات الحديثة ان روح الخلق العربي قد احتلت مكاتها منظمة فعالة في تلك المؤسسات والاصلاحات الاجتماعية وانواع الضمان الاجتماعي ؟ او لانتاج قبل كل شيء الى ان نهب لهذه الروح الخلقية كياناً وبنياً ومنصرفاً منظماً ، بدلاً من ان نبقها بحجة متصاعدة لاثبت حتى تنقلب الى فراغ ؟ ان من الخلق ان نطلب الى الناس فوق ما يستطيعون ، وان من التناقض ان نطلب اليهم في النهار ما تمحوه تنظيماتنا في الليل . . ان الخلق كالعقربة ، وككل قيمة انسانية راقية في حاجة الى صون وحماية . وسبيل حمايته ان يوضع في اطار اجتماعي يجعله ينساب سهوا رهواً ، وبعد عنه فتك الآفات .

ولا ادل على اثر البنين الاجتماعي في سلامة سلوك الافراد واستقامة حياتهم الخلقية من النتائج التي انتهت اليها البحوث الاجتماعية حول ظاهرة خلقية شاذة هي ظاهرة الانتحار تتراعى الوهلة الاولى بعيدة عن اثر المجتمع ، خاضعة

لهوى الافراد . ان هذه الظاهرة ؛ كما خيل ويخيل الى الكثيرين ممن لم يدر كوا  
الصلة بين سلامة الفرد وسلامة الجسم الاجتماعي الذي يتسبب اليه . قد ترى  
ظاهرة فردية محضة تبنتها وسوسات الفرد واهامه ويخلقها خوره النفسي . .  
غير ان الابحاث الاجتماعية ، ولا سيما ابحاث « دور كهيم » في كتابه عن الانتحار  
وابحاث « هالفاكس » من بعده ، قد بينت خير بيان اثر الحياة الاجتماعية  
والاطر الاجتماعية في مثل هذا السلوك . فلقد اعتمد دور كهيم ، كما نعلم ، على  
احصاءات عن الانتحار وتوزعه في مختلف البلدان الاوروبية بين عام ١٨٤٠  
وعام ١٨٩٠ ، فاستبان له ان الاسباب الظاهرة التي تدعو الافراد الى الانتحار  
من مثل الحب والغيرة والادمان على الخمر وخوف الفضيحة والمرض الجسمي  
والعقلي وكرهية الحياة في الشيخوخة وغير تلك من الاسباب ، ليست الا  
« مناسبات » للانتحار وابوابا للخروج من الحياة ، ولا تفسر ابدأ الاسباب العميقة  
لانتحار . فتلك الاسباب العميقة ، مجملها المنتحرون غالباً ، لانها ثابرة في المحيط  
الاجتماعي الذي يعيشون فيه . وهي واحدة لدى جميع المنتحرين في فترة زمنية  
معينة ، وان كانت تتحقق بطرق فردية تختلف من شخص الى شخص . فهاهي هذه  
الاسباب الاجتماعية العميقة ؟ انها ترجع ، كما بينت دراسات دور كهيم ، الى ازمة  
اقتصادية عامة ، او الى قيام حرب معينة ، او الى ازمة دينية او سياسية ، او الى  
ازمة اسرية او غيرها من العوامل المتصلة بالوضع الاجتماعي العام . . . وهذه  
الاسباب هي التي تفسر في نظر « دور كهيم » انتشار الانتحار على شكل « موجات »  
بل « مودات » في مجتمع معين خلال زمن معين . وتبين هذه الحقيقة الجداول  
الاحصائية التي توضح تورع الانتحار في فرنسا وبروسيا وانجلترا وساكس وبافاريا  
والدانمارك بين عام ١٨٤١ وعام ١٨٧٢ . اذ تفصح هذه الجداول عن وجود  
موجات عامة للانتحار تطفئ وتنتشر في بعض السنين . وهذه الموجات مسببة عن  
عوامل اجتماعية : ففي سنة ١٨٦٠ مثلاً زادت نسبة المنتحرين في فرنسا بسبب  
بلوغ الحكم الامبراطوري منتهى استبداده ؛ وفي عام ١٨٦٨ حدث مثل ذلك في

انكلترا بسبب تقدم التجارة تقدماً كبيراً ( ذلك ان دور كهائم يميز بين نوعين من الازمات يزداد في كليهما الانتحار : ازمة تسود فيها الفاقة وازمة يسود فيها الرخاء المفرط ) .

بل يذهب دور كهائم في تفسيره الاجتماعي للانتحار الى ابعد من هذا فيرى ان مجموع العادات والاعراف والتقاليد التي تسود في مجتمع من المجتمعات لها اثرها الكبير في تيسير الانتحار او مقاومته . حتى انه حاول ان يحدد قابلية كل امة لهذه الظاهرة الاجتماعية والاخلاقية عن طريق الاحصاءات ايضاً ومقارنتها بعضها ببعض . فوجد مثلاً ان اهل الشمال في اوروبا اهيأ للانتحار من اهل الجنوب ، ووجد بوجه عام ان ثمة قانوناً يتحكم في هذه الظاهرة قوامه ان « الانتحار يتناسب تناسباً عكسياً مع درجة التكامل في الهيئة الدينية ، ومع درجة التماسك في الهيئة الاسرية ، ومع درجة التوحد في الهيئة السياسية الوطنية » ويريد بذلك انه كلما قوي بنيان هذه الهيئات الثلاث واشتد سلطانها على الافراد الذين ينتمون اليها ، قل عدد المنتحرين ؛ بينما يزداد عدد المنتحرين اذا ضعف كيانها ووهن سلطانها واضمحلت نفوذها وتحور الافراد من رقابتها وانهار الشعور الاجتماعي في نفوسهم . ولهذا بينت الاحصاءات التي قام بها الحقائق التالية التي تثبت هذا القانون :

( ١ ) ان عدد المنتحرين في البلاد التي يسودها المذهب الكاثوليكي ، مثل اسبانيا والبرتغال وايطاليا ، اقل منه في البلاد التي يسودها المذهب البروتستانتى ، مثل روسيا وساكس والدانمارك . وهو عند اليهود اقل منه عند كلتا الطائفتين . ولا يرجع هذا في نظره الى طبيعة الدين نفسه ، والى كونه يبيح الانتحار او لا يبيحه ، وانما يرجع الى البنية الاجتماعية له . فالديانة البروتستانية مثلاً ديانة تضعف فيها الصلة الاجتماعية والكنسية

وتقوى صلة الفرد بخالفه وتشتد حرية الفكر والنقد .

( ٢ ) ان عدد المنتحرين بين العازبين يربو على عدد المنتحرين بين المتزوجين .  
ورجع ذلك الى السبب العام نفسه ، اي الى كون الزواج رباطاً اجتماعياً  
يزيد في سيطرة المجتمع على الفرد ويحسه ضمن كيان اجتماعي متماسك هو  
كيان الاسرة . .

( ٣ ) ان الازمات السياسية تقال من حالات الانتحار ، خلافاً لما بظن الوهلة  
الاولى . فلقد قلت نسبة المنتحرين في فرنسا مثلاً اثناء الاضطرابات  
السياسية عام ١٨٥١ و عام ١٨٥٢ فنقصت بمقدار ٨٪ . وقلت هذه النسبة  
كذلك فيها عام ١٨٧٧ و عام ١٨٨٩ ؛ وتناقصت ايضاً ابلن الحروب القومية  
الكبرى في النمسا وايطاليا حوالي عام ١٨٦٦ وانخفضت بمقدار ٢٤٪ .  
ومثل هذا المبعوط في نسبة الانتحار حدث ايام حرب السبعين .  
ويرجع ذلك كله الى سبب اجتماعي ايضاً هو ازدياد الحماسة القومية ومحبة  
الوطن اثناء هذه الازمات القومية الكبرى ، واتجاه جهود الافراد خلالها  
نحو اغراض مشتركة واحدة من شأنها ان تقوي الوحدة والتماكك بين  
الفرد ومجتمعه . .

ان هذه الدراسة وامثالها ان كانت تدل على شيء في تدل على شأن  
البنية الاجتماعية وسلامتها في سلامة الافراد وصحتهم الخلقية . . انها تؤكد من  
جديد هذه الصلة الوثيقة بين صحة المجتمع وصحة الفرد . .

ولولا ضيق المجال لاتينا بالامثلة الكثيرة التي تبين اثر البنين الاجتماعي  
في انتشار الجرائم عامة وتقلصها ، ولاوردنا بعض الحقائق التي اثبتت ان هنالك  
انواعاً من الامراض العصابية الاسرية والاجتماعية ، كما بينت البحوث « هوبر

Heuyer « بشكل خاص ، ولذكرنا شيئاً عن الشخصية السيكوباتية وما يمكن وراء مثل هذه الشخصية المريضة من اسباب اجتماعية عميقة . .

وفود قبل خاتمة المطاف ان نعقد مقارنة بسيطة بين هذا الموقف الذي اشرنا اليه ووكدهاه ، موقف من يؤمن بما للتنظيم الاجتماعي من اثر في سلوك الافراد وحياتهم ، وبين الموقف الآخر المناوئ له ، والذي لايعدم انصاراً او اتباعاً ، موقف من يريدون ان تكون نقطة البداية الفرد لا المجتمع :

كلنا يعلم من هو « مالتوس Malthus » ذلك الراهب الانكليزي الذي ولد عام ١٧٦٦ وتوفي عام ١٨٣٤ ؛ كلنا يعلم بقانونه الشهير الذي اوضحه في كتابه « بحث في اصول السكان Essay in the principle of population » الذي ظهرت اولى طبعاته عام ١٧٩٨ . ان مجمل هذا القانون ، كما نعلم ، ان تزايد السكان يتم وفق متوالية هندسية بينما يتم تزايد موارد المعيشة وفق متوالية حسابية . ومعنى ذلك ان تزايد السكان اسرع بكثير من تزايد موارد المعيشة اللازمة لهم . فهو لاء السكان يتضاعفون كل ربع قرن اذا لم يعق زيادتهم عائق ؛ بينما لاتنمو موارد معيشتهم الا بمقدار ضئيل . . وهكذا تصبح زيادة السكان بعد قرنين ، ان استمرت دون عائق بالقياس الى زيادة القوت ، كنسبة ٢٥٦ الى ٩ ، وتصبح بعد ثلاثة قرون كنسبة ٤٠٩٦ الى ١٣ . وآية هذا كله في نظر الراهب مالتوس ان من الواجب الحد من زيادة النسل ، وان معالجة البؤس والفاقة لا يكون عن طريق الاحسان والخدمات العامة ، وانما يكون بوقف تكاثر السكان واكتظاظهم . ولهذا ينصح بان تمنع الدولة كل مساعدة قانونية للبؤساء والمساكين ، جزاءً على تفریطهم ، لانهم خرجوا على قوانين الطبيعة واتوا بولاد لا يمكن ان يكون القدرة على اعالتهم وتربيتهم !

وقد كثر اتباع « مالتوس » حوالي عام ١٨٧٧ ولقيت آراؤه تأييداً



جميعاً وانبثقت منه مدرسة فكرية تشر آراءه وتجذبها مختلف وسائل الدعاوة والنشر. وتزعم هذه المدرسة «شارل برادلو Charles Bradlawgh» والسيدة «آني بيزانت Anny Besant»، فاصدرا عام ١٨٧٨ نشرة عنوانها «ثمرات فلسفة» كانت لها ضجة كبيرة في إنجلترا؛ كما نشرت السيدة «آني بيزانت» وحدها كتاباً بعنوان «قانون السكان» دعمت فيه آراء «مالتوس» ووزعت منه حوالي مائتي ألف نسخة. وتكونت على اثر ذلك رابطة انصار مالتوس التي يتزعمها الدكتور «درايسدال Drysdale» والتي اصدرت مجلة تدعى «المالتوسي».

وهذه النزعة مثال واضح جداً على نهج في التفكير يعاكس النهج الذي وكده هذه المحاضرة؛ اذ يرى مالتوس واتباعه ان العلة لا تكمن في تنظيم المجتمع وانما تكمن في حادثة فردية يسأل عنها الافراد هي الاكثار من النسل. ولهذا لا يرى ان وسائل التنظيم الاجتماعي كلها، من احسان وفضيلة وقوانين، وغيرها، قادرة على اصلاح ما يفسده الافراد حين يقدقون بالنسل دون ماسائل. . . ولذلك لقيت آراؤه تأييد طبقة المحافظين خاصة في انكلترا، وشمل هذا التأييد كلتا فرقتهم: الوغز Whigs والتوريز Tories. بينما لقيت مقاومة عنيفة من الفريق الآخر، فريق الذين يعملون العلة في النظام الاجتماعي لا في السلوك الفردي ولا في نقص موارد المعيشة. وعلى رأس هذا الفريق «غودوين Godwin» الاشتراكي ذلكم ان آراء «مالتوس» قد رفعت المسؤولية عن الطبقات الحاكمة والقت بمسئولية البؤس والفاقة على كاهل الفقراء انفسهم لعدم تبصرهم وعدم تقدير مصيرهم. الامر الذي ادى الى موقف غريب وقفته انطبقة المحافظة في انكلترا، اذ اصبح كل فرد من افرادها يعتقد بشرعية ما يملك، ولا يشعر باي تأنيب للضمير اذا وقف موقفاً انانياً ولم يعطف على الفقراء ولم يعن بما في المجتمع من امراض اجتماعية. . .

وقد تبني هذا الموقف ومع مزيد الاسف ، بعض الباحثين في بلادنا العربية اليوم ، فارادوا ان يرجعوا علة فسادنا الاجتماعي وبؤسنا الى عامل كثرة السكان ، وقالوا بضرورة تحديد النسل ، ولم يدركوا ان المسألة في بلادنا العربية مسألة تنظيم الثرة واستصلاح الاراضي وعناية بموارد المعيشة ، قبل ان تكون مسألة فيض في السكان . .

وهذه الفكرة الخاطئة المقلوبة هي التي نجدها في كلمة القيت في حلقة

الدراسات الاجتماعية للدول العربية عام ١٩٥٠ .

ولا شك انها اخطر فكرة يمكن ان تراود عقول باحثينا اليوم ، واقتلها الايمان السليم . . ولا يجوز ان تتهم كثافة السكان في بلد كوريا مثلاً بعد ثلاثة ملايين نسمة ، كانت في سابق عهدها تضم ثلاثين مليوناً ينعمون بالعيش الرخي ؟

وهكذا تبين لنا هذه المقارنة السريعة التي عقدناها الفرق الشاسع بين خصوبة موقف يرى ان البدء ينبغي ان يكون من المجتمع ومن تنظيمه ، وبين جذب موقف آخر يرى ان المسئول هو الفرد وان التنظيم الاجتماعي لا يجدي شيئاً . ولعلنا ندرك من وراء هذه المقارنة قيمة ما ذكرناه منذ بداية حديثنا حين قلنا ان هذا الموقف الذي نلحظ فيه ليس تقريراً للرأي مكرور ، وانما هو دفاع عن موقف يحمل في ثناياه طاقات هائلة ، وتبشيراً بحال نفسية وعقلية ان سادت معها الروح العلمية في معالجة الامور ، وتخلصنا من اوهام كثيرة في معالجة مشكلاتنا الاجتماعية . . انه موقف محمّل بحسب التنظيم وما يحمله التنظيم من معجزات . .

وبعد ، هذا قليل من كثير ، اتينا به من قبيل المثال فقط ، نبين ان

الفرد يرتفع افلويق تنظيمه الاجتماعي وان نقطة البداية في كل دعوة الى رفع مستوى الفرد ان نحسن صياغة الدرع الاجتماعية التي تلفه وتحيط به ، وان نجعل جلباب الحياة الاجتماعية جلباباً مفصلاً تفصيلاً علمياً فياضاً بالصحة والعافية .

ان مصير الكائن الانساني مصير يجعل منه موجوداً ملق في هذا العالم دون ماعون او سند ، سوى الصوى التي يضعها المجتمع في طريقه والعمد التي يقيمها متكأ له . فاذا تداعت تلك الصوى وانهارت تلك العمد ، وجد الانسان نفسه وجهاً لوجه امام القلق والحيرة والاجرام . وعناصر الخير الثاوية في الانسان لا ترقص وتطرب الا عندما يهزها نغم اجتماعي متسق ، وتشجيبها مرايع اجتماعية غرست غرساً علمياً . وهكذا يدعونا الواجب الى ان نخرج من تلك الحلقة المفرغة التي تدور فيها ، حلقة الفرد والمجتمع ، وان نجعل نقطة انطلاقنا المجتمع قبل الفرد ، او بتعبير ادق تنظيم حياة الفرد من خلال تنظيم المجتمع .

عبد الله عبد الدائم



## صراع الشباب في البلاد العربية

الاستاذ واصف البارودي

= القيت بتاريخ ١٩ / ١١ / ١٩٥٤ =

تیسرا باب

# تیسرا باب

تیسرا باب

تیسرا باب

يا ساكني الشهباء ! عندي ، لعهدكم ، قديم وداد ، لم يشب بلال ! . . .

منذ عشر سنوات ، في ايام سعيدة ميمونة ، كانت اول ذكرى للجلاء ! .  
وفي احتفالات ومهرجانات ، كانت عيداً وطنياً رائعاً ، وقفت ، فيه ، ونفقتي هذه  
ومن على هذا المنبر والانيت حديثاً عن وثبة الاستقلال . . . واتي لاشعر ، وكأني وفتي  
هذه تستمر ، منذ ذلك الزمن السعيد ! ولاعجب اذا ما انطوى الزمن ، لحظة ،  
لقلب يخفق ، متحسساً ، بما تعمر به صدوركم ، من وثبات ، تزرع بها الحياة لنهضة  
قومية ، يعود بها العرب الى سابق عهد الحضارة ، ككنا فيه ، بناه ، بعثوا ، في  
الوجود ، ما تزدهر به الثقافة ، من مات وعلوم واعمال . . . وما تسامى به الحضارة  
في تحفيزات التقدم والرفي ، من مثل ومناقب وقيم ؟ . . . وكنا قادة ، عرفوا  
كيف يحملون القوة تتفاعل في نفوسهم ، فتتحول عدلاً وانصافاً ورحمة ! . . .  
فاذا ما حبيتكم ، اليوم ، يا أبناء الشهباء ، فانما احبي ما يقظتم في نفسي من بواعث  
الحب والنهضة والامل ! . . .

ايها الناس !

ويطيب لي ان احبي استعمال هذا النداء ، وهو يعني ما تقصده اليوم اخذنا  
عن الغرب ، سيداتي . . . آسأتي . . . سادتي ! . . . فالناس ، على ما تعلمون ، اسم

جمع ، مفردة انسان ، ( يطلق على المرأة والرجل معا . دونما تفریق ! . . .  
واللغة العربية تنفرد بذلك ، على ما علم بين سائر اللغات الحية . وهو دليل ، من  
من ادلة لغوية عدة ، تثبت تأصل معاني الحضارة ، في نفوس العرب ، منذ آلاف  
السنين ! ولا يعلم التاريخ انهم فرقوا بين المرأة والرجل ، في انسانية الذات ، في  
كل منها . فمذ عرف العربي ، في التاريخ ، كان يعلن بان النساء شقائق الرجال ! ؟  
ولا ارى في عرضي السريع لهذه الفكرة ، في مغزاها البعيد ، خروجاً عن موضوعي  
اليوم ، وهو تناول البلاد العربية في صراع شبابها . . . . فيتضح ما في حضارة  
العرب ، على استمرار تاريخهم ، من اصالة في التفكير وفي التعبير . . . . فلانوافق  
من رأي ، من الكتبة والمؤرخين ، بان وثبة الاستقلال - وهو الموضوع الذي  
سبق والمعت الى اتني لازل اشعر باستمرار صليتي باجواء الحديث عنه ، منذعشر  
سنوات - انما كانت ، بلادنا صدى للثورة على السلطان العثماني ، في بلاد الترك  
ونتيجة لاعلان الدستور العثماني في ٢٣ تموز ١٩٠٨ ؟! . . . فلا بد ، ان  
من عرض مقتضب لما كان قبل الاستقلال ، وبعده ، لتبين مانحن عليه اليوم في  
صراع الشباب ! . . .

#### ١ . - ما قبل الاستقلال .

كان القرن التاسع عشر ، في الغرب ، ميداناً فسيحاً لانتشار فكرة روح  
قومية استقلالية ، نتيجة لثورات متتالية ، بدأت قبله . فهدت الطريق . وكان  
هذا القرن ، في تقدم الحياة الحرة ، فيه ، بالنظر لتحرر الشعوب ، من الطغيان ،  
في الغرب - سيء الطالع على الشعوب العربية ، اذ كانت كبش المحرقة ، في طمع  
الغرب في البلاد العثمانية ، منذ حمل نابليون على مصر سنة ١٧٩٨ ، الى غارات  
الفرنسيين على الجزائر ، وتونس . وقد بدأت سنة ١٨٣٠ . ثم غارات الانكليز  
على عدن سنة ١٨٣٩ ، واحتلال مصر سنة ١٨٨٢ . . . ولم تهدأ هذه الغارات



في القرن العشرين ، فتناوات مراكش ، وطرابلس الغرب ، في اوائله من قبل  
الفرنسيين والاسبان والاطليان ، استعمارا وحماية ، ثم سائر البلدان العربية ، بعد  
الحرب الكبرى الاولى ، منذ سنة ١٩١٨ ، حماية ونفوذا وانتدابا . . .

وما كانت هذه الحوادث ، لتمر ، دون ان تترك اثرا في نفوس الاحرار ،  
فتألفت في باريس سنة ١٨٩٥ جمعية وطنية تعمل على استقلال البلاد العربية ،  
بانفصال العرب عن الاتراك ، في المملكة العثمانية . وصدر سنة ١٩٠٦ اول منشور  
لها ، وقد ورد فيه مايلي :

ان في المملكة التركية انقلابا فكريا سلمياً ، يوشك ان يبين . ان الامة  
العربية التي قسمها الترك الى طوائف ومذاهب ، حتى تم لهم ان يسوموها بالعذاب ،  
قد انتبتت من غفلتها ، وعرفت ان لها قومية وطنية تاريخية جنسية ، فهي تحاول  
ان تفصل عن تلك الشجرة التركية النخرة ، وتنشئ ملكاً عربياً مستقلاً .

ولهذه الدولة حدود طبيعية ، تبتدى من دجلة والفرات ، الى برزخ  
السويس ، من البحر المتوسط الى بحر عمان . وتكون هذه الدولة دستورية حرة  
يتولى امرها سلطان عربي . . .

ويلاحظ فيما ذكرنا ، اعلاه من المنشور المشار اليه ، ان الجمعية الوطنية  
العربية اعتبرت المملكة العثمانية مملكة تركية ، وفي هذا اشارة صريحة لقوة  
روح الانفصال ، وفي النفوس ، والرغبة في التخلص من تسمية ، اعتبرت ، في  
التاريخ ، شاملة للجميع ، ولم تكن في حقيقتها ، الا لمجد عنصر واحد ، هو العنصر  
التركي . ثم ان روح الثورة ، على النزعة الطائفية المفرقة ، والمذهبية المضللة ، كان  
واضحاً فيما ورد . ولا يتردد من يطالع هذه القطعة ، من المنشور ، في  
التثبت بان الهدف كان صريحاً . وهو انشاء دولة عربية موحدة ، يحكمها

ولكن ما أعلن الدستور سنة ١٩٠٨ ، حتى خدع العرب ، فاطمأنوا الى ظواهر الانقلاب العثماني ، والى مبادئ الحرية والعدالة والمساواة والاخوة ، وكانت في صميم مفهوم الانقلاب . . . ولعلمهم اوجسوا خيفة من مطامع الغرب وخداعه ، فرجموا عن فكرة الانفصال التام ، ورضوا باللامركزية ، واخذوا يطالبونها ! فانشئت جمعيات عديدة : في الآستانة ، وفي دمشق ، وبيروت ، وبغداد وفي مصر وفي المهجر : كجمعية الاخاء العربي ، والمنتدى الادبي ، والجمعية العربية الفتاة ، والجمعية القحطانية ، وجمعية البصرة الاصلاحية ، وجمعية العلم الاحضر ، وجمعية الجامعة العربية . . . وغيرها . . . وعقد المؤتمر العربي الاول ، في باريس سنة ١٩١٣ ؛ وكانت اول مظاهرة قومية عربية ، شهدتها العاصمة العثمانية التركية هي مظاهرة استقبال رجال العرب وشبانهم ، فيها لنواب العرب ، وقد نظمها اعضاء جمعية الأخاء العربي العثماني ، واستقبلوهم في نادهم في اسطنبول .

ثم مالبت العرب ان تبينوا انخداعهم بإمكانية الأخاء ، بين الترك والعرب ، وكانت اعداء المشائق ابرز دليل ، بعد محاولات استسلم بها الاتراك لبواعث النزعة القومية التركية ، وسلكوا سلوك من يستأثر بالسلطة والسيادة . . ثم وجم العرب لحث الدول الكبرى بالوعود ، وقد كانوا اتكلوا عليها . في تحقيق وحدة البلاد العربية واستقلالها ، فكانت الانتدابات ، وكان وعد بلفور . . . نتيجة للحرب الكبرى الاولى . . . فعادوا للمكافأة والجهاد ضد حلفائهم بالامس . . الى ان اجلى الاجني عن سوريا ولبنان ، والجهاد مستمر في سائر الاقطار . ليتحقق فيها جميعاً ، ماتحقق في سوريا ، وفي لبنان من استقلال سنة ١٩٤٣ . ؟ . فاذا كان بعد الاستقلال ؟ . . .

## ب - ما بعد الاستقلال

الصراحة بنت الصدق والاخلاص ، وهما اساس الاصلاح ، مبدأ اعتقد به ، وادين ، مادام البحث العلمي المجرد ، يبرأ من المجاملة ، ولا يقـر بالتورية والمواربة ، ولا يعترف بمكر الدهاء ومخاتلته . . . فماذا كان بعد الاستقلال ؟ . . . هل انصرف الناس الى ذوات نفوسهم ، يتأملون فيها ويفكرون فيما رسفوا فيه من قيود ، أذلهم ، اجيالاً ! . . . وتقاليد ، استعبدتهم ، قروناً ! . . . وعقلية كانت لهم عقلاً ، اوقفهم عن السير ! . . . وانهازمية ، في النفوس ، كانت ممكناً للجبانة والتخاذل والتقاعس ؟ ! . . . ام توهموا ان القضية هي قضية حكم ، اولاً واخراً . . . فانشغلوا عن بناء ذوات نفوسهم ، بناء جديداً ، يقتضيه الاستقلال ، بالتلميذ بان أحكم أنا ، لاغيري ، فاستغل . . . وان يحكم فلان ، لاغيره ، فنستغل ، مما ، هذا الاستقلال ؟ ! . . . اعتقادي انكم توافقون ، ممي ، على ان التلميذ بشخص الافراد ، يحكمون ، قد اشغلنا عن اجتهادنا الاستقلال ، والاخذ بوجوه اجوائه . وكانى ، بنا ، نرى ان الاستقلال ، تقف عند شكلياته . من مظاهر واحتفالات وتربع على الكراسي ، في الانتخابات . . . واستثمار ، في استغلال . . . هو الهدف الاخير ترمي اليه الامم ، في جهادها وتضحياتها واستشهاد الشباب ، فيها ! ! . . . مع كهول . . . وشيوخ ! ! . . .

كلا ايها الناس ! . . . ليس الاستقلال هدفاً اولياً كمبدأ . . . فكيف يصلح هدفاً اخيراً ، كمنتهى ؟ ! . . . فالاستقلال وسيلة ، لا غاية . . . والاهداف انما هي غايات ، قد تبعد وقد تقرب ولكنها تظل مطلوبة لذاتها . فالاستقلال جو كاجواء الاثير والهواء ، لاتصلح اهدافاً للانسان ولكنها وسائل ، لاغنى عنها في اهداف تتعلق بالحياة ، تحققاً وتطوراً وتقدماً ، في سير ، يعبر عن نواميس الوجود في المجتمع - الانسان ! . . . واذا ما اتخذ الاستقلال هدفاً ، اصبح رجراجاً ،

كأن سبق ، يخشى عليه الانقلابات ، فكيف بنا اذا ما انحرفنا ، في تفهمه ، واتخذناه وسيلة لمآرب خاصة ، تبعد به عن تقدم الحياة ، في المجتمع ؟ ! .

نعم ، يعبر الاستقلال عن تقدمية . . . . وهي تقدمية هامة . . . في وسائل الحياة ! . . . ولكن التقدمية ، كل تقدمية ، تحمل اخطار انقلاباتها ، في ثنايا مفاهيمها ، وفي انحراف اتجاهاتها ، ولا سيما اذا ما صبحت الوسائل ، فيها غايات ، والغايات ، وسائل نرائي بها ، وناقض ، فنجمد ، وبجمد المجتمع ويحمل . . . فتخمل الامة ! ؟ . . . فيتلهى بنا الاغيار من الاقوياء . . . ويسخروا بنا . . . ويهزأون . . . ولا ينجحون على تقدميتهم ، من استعباد قوم ، يرونهم لا يفكرون ! ؟ . . .

ليست القضية ، في مفهوم التقدمية ، قضية افراد . . . فالفرد يذهب ، والامة باقية ، تقاسي في غفلتها ، عن ذاتها ، وعن حقيقتها ، نتائج مايبي الافراد او تتمتع بما يحسنون .

وتستمر متسامية ، في تقدمية الحياة ، اذا ما كانت على وعي ونهضة ، تعرف ، معها ، من تختار للقيادة والحكم ! ؟ . . .

يقول علماء الاقتصاد : العملة المزيفة تطرد العملة الجيدة ! ؟ . . . فهل فكرنا وقد نلنا الاستقلال باولئك المزيفين ، من الاستغلايين الانتهازيين ، يتوارون في اوقات الشدائد ، يتعرض ، فيها ، الشعب ، لويلات ونكبات : من جوع وعري وامراض واستشهاد وحرمان . . . وآلام وآلام ! ؟ . . . ثم لا يلبثون وقد انكشفت السحب وهدأت الزوابع ان يظهروا ، في الميدان ، يزوقون الكلم ويغدقون الوعود ، ويتزلفون ، ويتملقون . . . ويظهرون الاخلاص والتواضع . . . رياء . . . ونفاقا . . . ليتصدروا المجالس . استغلالا للوجهة والنفوذ . . . او

يتربعوا على كراسي الاحكام... وهم على الامة، في شعبها الساذج المغفل،  
يتأمررون؟؟... فكيف نصبح، اذا ما كانوا ممن يدفعون الشعوب للهلكة،  
ثم يتوارون وراءها، الى ان تمسح الغيوم؟!... فيرزون... وكانهم هم  
المجاهدون... المستشهدون!!... وهكذا يترف افراد، على حساب نكبات  
الشعب، اذا ما استمر الشعب على عقلته... وسداجته... وغباؤه!!...  
وهكذا، قد تحرم الامم من العملة الجيدة، في رجالاتها البقريين المخلصين  
الصادقين، اذ تطردها العملة المزيفة، من افزام، في النفس والروح لاهداف  
جشعهم في سوى الوصول والانتهاز!

هذه هي الجاهلية، جاهلية الروح، وقد تسيطر على نفوس الابداء...!  
والعلماء...! والمؤرخين...! في الصحف وفي الكتب... وفي الخطب،  
والقصائد والمحاضرات!... نتحمس لها، ونصفق، ونزمر ونطبل، ونصرخ  
ونهتف!!... ونحن في غيبوبة الانفعال، والتحمس... لانفكر، ولانأمل  
تسحرنا الكلمات، وتخدعنا أكاذيب الوعود!!... وقد كانت الشعوب، ولا  
يزال اكثرها، في الكثير من تصرفاتها، ومشورها، وتفكيرها، ضحية لنفاق  
المؤرخين، وتملق الابداء، وجمود العلماء، وخداع الزعماء، الا فيما ندر!...  
ووعيا، في هذا العصر، وهو عصر الشعوب والجمهير، بعد ان انتبه الانسان  
لذاته، انما يعني الصراع في اتقاذ ذاتها من النفاق... ومن التملق... ومن  
الجمود... ومن الخداع والمرَاوغة... والجمالة... بوعي مثقف سليم!...

والصراع في وعي الانسانية اليوم، وهي في شبابها، انما هو كفاح،  
وحرب، باردة حيناً، وحارة حيناً آخر، بين الطغيان والحرية من جهة وبين الحرية  
والقوضى، من جهة ثانية!... فالحرية، في صراعها، تحارب على جبهتين: جبهة الطغيان  
يحاوله الاقوياء... وهدفها القضاء على من لا تزال تحدته بالطغيان نفسه، فلا يرعوى... وجبهة

الفوضى ، يحاولها الشعب ، لما في نفوس افراده من كبت وزم وانكاش ...  
والهدف ، في هذه الجبهة ، رفع مستوى الشعب لينتبه الى انه هو السيد ، مصدر  
قوة من يتوهمهم اقوياء ! فعلى الشعب ان يحسن الانتخاب ، والاختيار ؛ لان  
الحرية تأبى الا النظام! ... ولا بد من قادة ، ولا بد من حكومة ، تحم ... ولكن باسمه هو ،  
وبموافقة اولا وآخرا ! ... وباختياره ، في انتخاب من يتصدر المجلس ، ويتربع  
على الكراسي ... يتم انهياره واستعباده ... او اتقاذه وتجرره ! ؟ ... فعليه ان  
يعرف المخلصين من غيرهم ، ون يميز بين الغث والسمين ... ورحم الله القائل :

وفي الاحباب متصف بوجد ! وآخر يدعي ، معه ، اشتراكا ! ...  
اذا اشتبكت دم ، في حدود ! تبين من بكى ممن تباكى ! ؟ ! ...

فوعي الشعب ، انما يثبت بتمييزه ، بين دموع الانسان والتمسح ، وهي  
دموع الكذاب المداهن ، يلائنك في القول ، وهو يقشك ؟ ... وبين دموع  
الانسان - الانسان ، وهي دموع صدق واخلاص ، يذرفها معك من يشعر  
شعورك ، وبهمه ان يرفع مستوى معيشتك وحياتك ؟ ... فهل كنا في هذه  
الحقبة من الاستقلال نعمل بوحى هذا الشعور ، بتفكير صحيح ؟ ... ام اننا  
كنا ، قادة وشعبا ، نخبة وسوقة ، تتوارى وراء انا الفرد ، لانعمل الا للمصلحة  
الخاصة ، فنختار من نتوهم به تحقيقها ... وتحقيقها ، وحسب ... وان اترف ؟  
على حساب بؤس الشعب ؟ ونكبات الامة ؟ ! ... والافكيف اضعنا فلسطين ؟ ! ...  
نفسرنا معها الكرامة ؟ ! ... والسمعة ؟ ! ... واصبحنا نحشى على كياننا ؟  
ووجودنا ؟ ان نضيعه ... عضوا ؟ عضوا .. وجزءا ؟ جزءا ! ... ؟ !

وفي هذا الصراع ؛ في بلاد العرب ... وفي صميم المعركة ... معركة  
الصراع ... بين الاستعباد والاستقلال ! ... بين المزيفين من القادة ؛ ومن حولهم من

المستغلين - وبين الخالصين من اناس ! . . . بين الطغيان . . . وبين الحرية ! . . .  
وبين الحرية وبين الفوضى ! . . . ؟ . . . في خضم هذا الصراع ، الهائج المائج ،  
والمتمدد النواحي والجهات . . . نجد صراعاً آخر ، هو امتداد لجميع ما ذكر ،  
في مظاهر الصراع . وفيه وسائل اسر الاستعباد . ووسائل تحرير الانقاذ  
الا وهو الصراع بين المحافظة . وما تلوح به من اغراءات بالجديد . . . ، وبين  
الرجعية وما تحمل من امكانيات للانقاذ ، بالتجدد ، محافظة رجعية . . . تجدد  
وجديد . . . كلمات سحرية . . . تكاد - مع غيرها من الكلمات الساحرة :  
كالحرية والتحرر ، والانقاذ ، والتقدم والاستقلال والانطلاق . . . تكاد تفتننا  
عن ذات كياننا ، وحقائقنا ، وتشغلنا عن المعاني ، وحقائقها . بالالفاظ ! . . .  
ولافرق بين من يشغل بالالفاظ ، وبين من يندفع بالسراب . . . فالكلمات والفاظها  
لا تحمل من المعاني سوى بذورها ! . . . ولا تتحقق المعاني ، وتبرز ، الا باخصاب  
النفس بها ، حرثاً ، داخل الذات ، في فؤاد الذات وفي ذهنها ، وروحها . . .  
وما اشد ماتفتك الالفاظ في حياة المجتمع - الانسان اذا ما غاب عن حقيقته ،  
وغفل عن ذاته ! . . . ؟ . . .

ففي البلاد العربية تأييد للمحافظة ، تحت ستار التقاليد ، ونفرة من الرجعية  
تغطيتها الرغبة في كل جديد ! . . . وهل نفكر ، ونحن نهرع الى الجديد ان  
لجديد ، الا فيما هو خارج عن ذات الانسان . . . وان الانشغال بما نريد ان  
نراه جديداً ، من المظاهر ، انما هو انشغال عن الذات ! ولا جديد في الذات !  
الانسان لا يزال ، هو هو ، ولم يتمخض الكون عن انسان جديد . . . وانما  
يتجدد الانسان ، متسامياً ، في تطوره ، حتى يبلغ مالا جلّه وجد ، بقيامه بما  
تقتضيه اهداف الوجود ، وتستلزمه نواميس الحياة . . . والتجدد شيء واحد  
الجديد شيء آخر : ففي التجدد رجعية ظاهرة ، والجديد معناه الا لا مثيل سابق له  
ثم ان التجدد ، يعني الصلة بين الاجيال ، وبهذه الصلة يتطور الانسان ، تطوره

التصاعدي ، متساميا ! . فاذا ماتلبي بما يحدث في محيطه ، من جديد ، يتوهمه ،  
انصرف عن تقديمية ذاته ، الى ماهو خارج عنها ، وهذا مايقصده المستغلون لغفلة  
الشعوب اذ يدعون للجديد . . . . . فيتسنى ، لهم ، وقد اشغل حب الجديد ، ولاسيما  
جديد المظاهر المادية ، الناس ، عن انسانياتهم ، ان يشبتوا دعوتهم للمحافظة على  
التقاليد . . . . . اي تثبيت ماهو كائن ، في المجتمع ، على ماهو عليه ، ليظل لهم  
ولامثالهم من انتهازي الوصوليين . مجال الاستغلال واسعا . . . . . وان لم يشغل  
الناس بالتلبي بالجديد ، شغلهم الفاقة ، في رغبة اقتنائه . . . . . وكثيرا ماتؤخذ  
الشعوب بالامل ، رغبة فيما هو خارج الذات . . . . . او باليأس من الحصول على ما به  
تتسامى الذات . . . . .

والمهم ان يدرك الناس ان ليس الخير كله في المحافظة ، وان ليس الشر  
كله في الرجعية ، فلا نعدو وراء الالفاظ . . . . . وان كان للجديد روعته ، فلتجدد  
قوته . . . . . وكثيراً ماتكون القوة في الاستغناء ! . . . . . فالامم التي يسبق اشعاها  
الذهني ، بالتفكير . اعمالها ونوניהا ، هي الامم التي تعرف على اي شيء يجب ان  
تحافظ ، والى اي اوضاع يجب ان ترجع . . . . . هذه هي الامم التي تتكامل ، في  
تقدمها ، فتسعد وتسود ! . . . . .

ان ما بيناه من مظاهر الصراع : طغيان وحرية . . . . . حرية وفوضى . . . . .  
استقلال واستعباد واستغلال واستغناء . . . . . محافظة وتجدد . . . . . رجعية وتقليد . . . . .  
جديد وقديم . . . . . انا - الفرد ، وانا - المجتمع . . . . . تقديمية وتقهقر . . . . . رقي  
وانحطاط . . . . . كل هذه ، وغيرها ، انما هي اهتزازات ، في صراع المجتمعات ،  
في امة . . . . . تحاول توازنا ، هو تجدد التكون . . . . . وتجدد التكون  
انما يتولد في صراع الذات ، في الشباب . . . . . وليس الصراع في الامة سوى  
صورة لصراع الشباب ! . . . . .



## صراع الشباب

الشباب وثبات تتفاعل ؛ في تكامل نمو الحياة ، في الانسان ، ليميلغ  
رشده . . . . ولا رشد لانسان ، تقهره نفسه ، بميولها واهوائها ؛ فلا يشعر بحريته ،  
ولا باستقلال ذاته . . . . ولا يستطيع ، في سبيل كرامته ، وفي سبيل مجد امته ،  
عن اية رغبة من رغباته ، استغناءً ، او ترصباً او صبراً !! ؟ . . . الشباب ، وهو  
اطلالة جديدة للحياة ، على الوجود ، تحاول ان تتسامى ، في الوجود ، على واقع  
الوجود ، انما هو تفاعل مع واقع المجتمع - الانسان ، يستمد ، بفاعليته الذاتية -  
من ذلك الواقع ، وبما ينبثق ، عن التفاعل ، من مثل عليا - قوته في تخطي الواقع  
وتجاوزه بنفسه وبمجتمعه . . . فالشباب ، اذن ، فاعلية وثبات للحياة في تفاعل  
الذات ، مع من يقف في طريق تقدميتها ، في تجاوز واقع ذاتها ، وتخطيه . . . مع  
من يهد لها السبيل ويسهله . . . افلا عجب اذا ما كان الشباب ، في انطلاقة  
فاعليته ، وأصالة تفاعله ، حركة وثورة وصراع : حركة انطلاق وثورة تحرر ،  
وصراع استقلال ؟ . . . ولا تهدأ نفسه الا بانتصار يسيطر به على ذاته ، في  
رشده لينسجم مع مجتمع ، يتبادل معه التسامي والتصاعد في سلم الوجود  
والحياة ! ! . . . هذا شباب ، تبلغ به الامة الاجداد ! . . . والافانه اذا ما قهر في  
معركة تحرره واستقلاله ، و كُتبت ، فلا يتكون فيه رشد صحيح سليم ، هو رشد  
الشباب . . . بل يتقهقر الشباب ، فيعود طفولة ، ويصبح الرشد في الامة رشد  
اطفال ، فيكثر فيها الانسان الطفل ، في الرجال وفي النساء . . . او يتقدم ، تقدم  
المستعجل العنيد ، فيمنى بالهرم المبكر ، او بالشيخوخة المبكرة ، على الاقل . . .  
فيصبح مجتمع الامة مجتمعا هرما شاخ في شبابه ! وياويل امة تسيخ ، في اباب  
الشباب ! . . . او تعود لدور الطفولة ، في نساء ورجال ، عجز المجتمع عن ان  
يمنحهم اجواء نمو صحيحة ، وتربية صالحة ، تتحقق معها الانوثة والرجولة ، على  
ما يجب ان تتحقق به الانوثة والرجولة ، في مجتمعات قدر لها ان تهض نهضة

وعى سليم ، وانبعث مستنير ! ... ؟

فهل كان الاستقلال ، ضاقت ام اتسع ، اجواء صالحة لصراع ، فيفاعلية  
تفاعل ، يستطيع معه الشباب ، ان ينمو هذا النمو ، بطبيعته ؛ وان ينطلق ، في  
تساميه ، انطلاقاً تحرر صحيح في بلاد العرب ؟ ... ام اننا لانزال نحافظ على  
التقاليد ، في تحدى الطبيعة ، بالضغط والشدة وحشو الادمغة ، او بالتراخي  
والاستهتار والتدليع ، وكلاهما شر ، لا ينسجم مع ما يقتضيه نمو الحياة ، في وثبات  
الشباب ، وصراعه ؟ ... هذا هو السؤال ؟ ...

الشباب صراع ، في ازمات نمو تتوالى ! ... والشباب ، في وثبات  
صراعه ، ازمة الأزمات ، اذ به تنتهي ازمات النمو ، في الانسان ، فهو ختامها  
فاما انوثة سليمة ، ورجولة صحيحة ، في الشابات والشبان ، واما تقهقر للطفولة ،  
او تقدم مستعجل أشيخوخة الهرم ؛ وكلاهما ؛ في التقهقر والاستعجال ، ويلات  
ونكبات على الامم ، والمجتمعات ، والافراد ! ! ...

والشباب امكانات مفعمة بالمتناقضات .. تتفتح في ذات الشبان والشابات  
سنة سنة ، او شهراً شهراً ، ليثبت منها ما يتلاءم مع وثبات النهضة ، وما تستلزمه  
من نشاط ... او ما يتفق مع خمون انكماش الانحطاط ، ودوافع ميول التقاعس  
والفساد ... فاية من هاتين الظاهرتين ، لشبابنا ، نختار ؟ ...

المهم ، في نمو الشباب ، تأويله الشخصي لتجاربه الذاتية ، على ضوء  
ما يكتسب من معارف ، وبفضل ما يحرث ، في داخل ذاته ، من أفكار ...  
لذلك كان اول ما تتجه اليه ذاته ، تلقائياً . هو محاولة اكتشاف ذاته ، لمعرفة  
ما تنطوي عليه من شعور وخواطر وفكرات ، وملاحظة ما يتولد فيها من معان ،  
وما تتفتح عنه من امكانات ووثبات ! ... فهل نقسح له مجال التأمل في الذات ،

والتفكير في مآتي فاعلياتها ، ام نجحبه عن ذاته ، باشغاله بما هو خارج عنها ،  
بالمناهج المكتنزة المحشوة حيناً ، وبما ندفعه اليه من نشاط حزبي او اجتماعي ،  
لا يتلاءم مع نواميس النمو في سنه؟! ... حيناً آخر! ... او بما يصرفه عن  
ذاته ، من دلغ وتدليل وترف ، او ضغط وشدة وقسوة ... ففتفتح في صميم  
ذاته عاطفة انتقام من المجتمع ، تبرز واضحة . في كسله وتمرده على بذل الجهود ،  
وعلى الالم ، ويصبح من اخلص الجنود وانشطها ، في اية معارضة للنظام  
القائم ... ويرتاح للشعب والصخب على كل من تتمثل فيه نفسية المجتمع ، من  
افراد وهيآت ...

وبما ان الشباب ، هو الذي يكون ذاته بذاته ، وبتأثير ما يتكون ، في  
نفسه ، في صراعه وتفاعله ، بما يأتيه من خارج ذاته من مؤتمرات ... فمن  
مصلحة المجتمع ان تتكون الذات ، حسب طبيعة الذات ... والا تتكون ،  
حسب ما يفرض عليها ، من خارج ذاتها ... وما اقوى ماتكون تأثير المؤتمرات  
الاجنبية عن مجتمعا ، اذ تنهار بها حقيقة المجتمع ؛ بانهميار ذاتية الافراد ...  
وما اصدق نظرة هوفدينك في مامعناه : ان امة تتبنى مثلاً عليا اجنبية عنها ؛ تفقد  
وجودها في سلم الحياة ؛ ؟ فهل نفسح مجالاً لهذا التكون الذاتي ، في الشباب ، ام  
اننا نفرض عليه ذاته ، ام نترك المثل الاجنبية ، وتأثيراتها ، فرض هذه الذات  
فتعرض لفقد وجودنا ، كامة ، في سلم الحياة ... وما اعظمه في عبرة ذلك الدرس  
القاسي عن نكبة فلسطين ... الضحية الدامية ، لتساهلنا في تربية الشباب ! ...  
ليعمل كل شاب وكل شابة ، بهذا القول المأثور في عالم التربية اليوم ، « كون  
ذاتك ، قبل ان تفرض عليك » ... فهل للمجتمعات ، في البلاد العربية  
ان تتأمل في هذا القول ، وهل لها ان تفكر . ملياً ، في مغايزه ، فلا  
تعرض الامة لنكبات ، وويلات ، بايقاف الصراع ، ضغطاً او تدليلاً ، في نمو  
الحياة في الشباب ؟! ...

لا حياة لامة ، لا يتحقق الشباب فيها . . . واسمحوا لي ان اصرح بان  
الشباب ، الذي اريده ، ليس هو شباب السن . . . فقد يتحقق شباب السن ،  
والجسد ؟ ولا يتحقق معه شباب الذهن والروح ، فيظل الانسان على ما سبق  
والمعت ، طفلاً ، او يسرع شيخاً هرماً ، في سن الشباب ويستمر طفلاً ، او  
شيخاً هرماً ، في الكهولة ، وما بعدها . . . وإما اذا ماتحقق الشباب ، كقوة  
وعزيمة وحزم ، في نموه الطبيعي ، فانه يستمر شاباً ، في رشد الكهولة ، والشيخوخة  
وما يعبر عنه حسدياً بالهرم . . . لا يهرم شباب ، قد تكون تكونه الصحيح ! . . .  
ولذلك قال نبي النهضة العربية الكبرى ، خذ من شبابك لهرمك ! فما اعظمه قولاً ،  
بوضوح عنصر أساسياً ، من عناصر تلك الوثبة ، وثبها العرب ، فقلبوا التاريخ ،  
وادهشوا الامم ! . . .

كفانا تتحدى الطبيعة . . . ويكفي ما قاومناه من نواميسها . . . آن لنا  
ان ننتبه ، وان نعي . فتنبعث في نفوسنا ، حقائق التطور في الوجود ، ونحقق  
صراع الحياة ، في من ارادته ، للصراع ، الحياة ! . . . فالى متى نعيش في الماضي ،  
ولا نحاول ان نحيا ، في مستقبل ، نشئته ونبني فيه ايجاداً ، ومناقب ، اذ نحقق  
فيه الاعمال ؟ ! . . .

لا وجود للحاضر ، وانما هو وهم : ففي اكلك لطعام حضر لك ، وهذا  
ابسط ما اتصل به نفسك ، في حاضر توهمه ، انما نعيش ، في حقيقة تلك اللحظة  
بمآض ، حضر لك فيه هذا الطعام . . . واذا ما تصورت اللحظة ، تتلذذ ، بها ،  
بطعامك حاضراً ، فانها لا تلبث ان تصبح ماضياً ، قبل ان تجد شعورك باللذة . . .  
اما ما تفكر بانشائه ، في المستقبل ، فانه يظل وكأنه حاضر ؛ حتى ولو تم منه  
ما أصبح ماضياً . . . فانت تحيا فيه دائماً ، فيما مضى منه ، وفي لحظات كينونته ،  
وفيما ستحدث فيه . . . والسبب الوحيد ، هو انك كائن حي ، يرمي دائماً في

طبيعته الى المستقبل! ؟ . . . ولا حياة سحيحة لك ، الا بقدر ارتباطك روحيا وعمليا ، بمستقبلك ، ومستقبل مجتمعتك . . .

ونحن ماذا نصنع ؟ ! . . . اننا لانزال نعيش في ماضينا ، ونحاول ان نعيش أبنائنا ، في ذلك الماضي ، محافظة على التقاليد ، ولا سيما البالية منها ، وهي هي في اصل اسباب نكباتنا . . . فيثور الشباب . . . ويصبح معنا في صراع . . . وما اشد شقاء امة ، يصرع فيها ، شبابها ! ! . . .

يعتقد فلاسفة ، من علماء الاجتماع ، ان الاعمى ، بالنظر لماضيها ، على نوعين امم تبحث ، في ماضيها ، عن اوائل تبعدها . . . وهذه في وضع انهيارى ، لا يرجي لها معه تقدم . . . وامم تقتش عن الفكرات ، تكون في تصاميم المستقبل . . . وهذه هي الامم الجديرة بالحياة . . . ولعمري فالنتيجة واضحة ؛ وهي الواقع ، في مفهوم تطورات الحياة ! ولا قيمة انسانية لاي وثبة نفسية ، في الانسان ، الا اذا كانت وثيقة الصلة بالمستقبل . . . فلا اهمية لماضى ، مهما سما ، الا بقدر ما يكون الصلة بالمستقبل . . . والافهو خداع . . . وتوهمه سراب . . . وكيف يجوز ، للانسان - الانسان ، أن يفخر باعمال لا يدله في تحقيقها . . . وان اتصلت بأبائه واجداده ، واسلافه ؟ ! . . . الا يتبرأ الاباء الواعون ، من ابناء لا يليقون بهم ؟ ! الحق لمن اضاع الاندلس ، بتلك الصورة الخزية . . . ولمن اضاع فلسطين . . . ونحجل من التعليق على كيفية فقدها ، ومن ذكر اسبابه . . . ولمن لا يزال ، في وضع ، يخشى معه ان يستمر بالخرسان ، وفقد الاعضاء والبلدان . . . ان يفخر بمن فتحوا العالم . . . وحضروه . . . ونشروا فيه مبادئ القوة ، بالعدل ، والقدرة بالرحمة ، والنظام ، بالتفهم والاقناع والارادة . . . ومن لا يزال التاريخ ، في غير بلادهم ، يكتشف لهم المآتى والمكارم وعظائم الاقوال والاعمال ؟ . . . كفاننا غروراً وانخداعاً . . . ويكفيننا ما طال عليه الزمن ، في استغراقنا في نوم مغمم

بالحلام الاوهام . . . فلننتبه لواقعنا ، ولنذكر حقيقتنا ، ولنعمل المستقبل . . .  
وبهذا الاتجاه نستطيع ان نحقق ، في الامة ، شبابا ، يعرفون كيف تتضامن  
الاجيال ، بين ماض وحاضر ومستقبل . . . ويدركون معاني الانشاء  
والبناء ؟ ! . . . وهل يتم هذا التضامن بتحقيق شباب الامة ، في جميع اجيالها ،  
في الحاضر ، وفي الماضي والمستقبل ، اذ لم تنبثق ، عن ذاته ، في داخل ذاته ،  
ومن صميم صراعه ، مثل عليا ، قيمها في فاعلياتها ، وفي تفاعلها مع ما يحيط بها من  
مجتمعات مواطنة قريبة . . . ومن مجتمعات اجنبية بعيدة . . . في المكان  
وفي الزمان . . . فتكون النور المرشد ، والدافع الهادي ، والمحفز الذي به  
يتحقق التسامي ؟ ! . . .

#### المثل العليا

في صميم سريرة الانسان شعلة ، لا فتأ متقدة فاعلة ، تثير نشاطه ، وتحفز  
وثيراته ، وتدفعه للعلاء ، يتسامى ، محققا معاني انسانيته ، مادامت له مثل عليا  
يدرك قيمها ، بتجرد عن الاهواء وتضحية بكثير من الرغبات والشهوات . . . فاذا  
ما سخر بالمثل ؛ او تجاهلها ، او ضعف عن تصورها ، انطفأت تلك الشعلة ،  
واصبح خاملا ، يكتفي بما هو سطحي ماذج ، ويعود لطبيعة الحيوان : لاهمه  
سوى الم لذات الحسية ، في الاكل والشراب . . . والزهو بالمسكن ، واللباس ،  
وبالمظاهر ؛ . . . فنقول : انه يعيش خارج ذاته ، يعمل على اغناء ما يحيطه ،  
بافقار ذاته ؛ . . .

اننا اليوم ، في وضع من يسخر من المثل ، فلا عجب اذا ما سخر منها  
الشباب ، بيننا ، واذا ماشك في حقائق الاشياء ؛ ! . . . وما ذلك الا لان المثل  
اشتبهت عندنا بالاوهام ، فلم نعد نميز بين المثل الاعلى ، وبين الوهم . . . فتملقنا

لمجوح خيالنا ، بما نتخيله من اوهام ، لاقدرة لنا على تحقيقها !... وهذا هو  
الفصل بين وهم الخيال ، والمثل الاعلى . . . فليس الوهم وهما ، بذاته ، وانما هو  
وهم بمجز القدرة عنه . . . فليس من الحجّة ، في شيء ان نتعلل بما يتحقق عند  
الآخرين ، اذا ما اعدوا الامور عدتها ، واكتفينا بالاماني نعلل بها النفس  
وندغدغ بها الخيال . فتظل احلاما . . . نصفق لها ونهتف . . .  
ونطبل ونزمر . . . وما اكثر مانصفق للالفاظ . . . والكلمات . . . فلا تصفق  
لنا الحوادث ولا الايام . . . والمهم اذا ما اخذنا بمثل اعلى ، ان نهني له عدته ،  
فنوازن بين القدرة والارادة . . . والا كان وهما ، يعرضنا للاخطار ، ويجعلنا  
سخرية للشامتين . واذا ما اتسعت المثل ، واذا ما بعدت ، وجب علينا ان  
لا نكون ، كذلك الذي يثبت نظره ، في الافق البعيد ، وينسى الحفرة  
التي تحت قدميه ؟ ! . . .

كفانا سخرية بالمثل وبقيمها . . . ويكفي ما نينا به ، لشدة ماشك  
بالحقائق ونجاهلها ! . . . الان نجد الكفاية في مانكبنا به وننكب ، حتى ندرك ،  
اخيراً ان الحياة لا تلعب ! وان الدهر لا يخضع الا لمن يعي ، من الاقوياء ، فلا يخمد  
ما في نفوس الشباب ، من شعلة المثل . . . والقيم . . . انا بحاجة لان نشجع ثقافة  
الحرث ، بتحقيق اجوائها ، وان نتجنب هذا التقليد ، في التعليم ومناهجه  
وفحوصه . . . وان نحذر الوئنية ، في خيال يخذعه اللفظ ، والمظاهر والتحمس  
فنصبح مدى حيويًا للاستقلال . . . لكثرة ما يسيطر علينا الانفعال . . . ولشدة  
مانقتن بسحر الكلمات . . .

علتنا في جهل الشعب ، وفي جاهلية الطبقة الخاصة ، من علماء وادباء  
ومتعلمي الوجاه . . . فلا اتقاز اذن الا بتثقيف الجماهير ولا اقول : بتعليمهم  
وحسب لتنسجم ، في ارجائنا الحياة ، فتفتتح ، في نفوسنا ، اصالة التفكير ويتم

الاتزان بين القول والعمل ! والا فاننا نظل تأميين ، لانني ما نقول ، ولذلك لا  
نفعل ! . . . فنستمر في عهد الغريزة ، يساق فيه الشعب ، كما تساق الماشية  
وليست هذه من روحية هذا العصر من شيء . . . ولا سيادة تحقق لامة ، تساق  
الشعوب ، فيها ، سوق الماشية . . . ولا استقرار . . . بله البقاء ! . . .

اننا في عصر هو عصر الجماهير . . . والجماهير تفرض ذاتها ، في تكون  
المجتمع ، وفي توجيه الحياة فيه . . . فاذا ما انفصمت عرى الانسجام ، بينها وبين  
الخاصة . . . وقعت الواقعة وتعرضت البلاد للاضطراب ! . . . والاحطار . . .  
ولم يعد بإمكان الفرد ، مها انقرض بالذكاء والقدرة ، ان يقود الشعوب للمجاد ،  
اذا لم تدرك الشعوب اللحظة . . . واذا لم توافق على منهج العمل . . . وهذا في  
صالح الشكون القومي ، وفي فائدة المجتمع ، وتقوية روح التضامن فيه . . . اذ  
لا يتعذر على الاجنبي ان يضل شعباً ، يستطيع الفرد قيادته . . . او ان يسيطر  
على الفرد ذاته ، فيسوق ، شعبه . . . وهو كالانعام بل اضل سيلاً . . . وليست  
البلاد للفرد ، او للافراد ! ؟ وانما هي للجميع ! ؟ . . . فإين نحن الآن من كل  
هذه الاوضاع في بلاد العرب ! ؟ . . .

### مفترق الطرق . . .

اننا عند مفترق الطرق ، وهو مفترق الصراع : صراع الشباب في ذاته  
مع ذاته . . . وصراعه خارج ذاته ، مع مجتمع يحاول ان يشغله عن صراعه ،  
مع ذاته ، ليظل الشباب في طفولة هي اشبه بالشيخوخة المبكرة فتخسر  
الامة ، بحكم هذا الوضع ، شبابها . . . ونهضة الامة ، وقوتها ، في ماتيتها ، انما  
تقاس بنسبة تحقق روح الشباب فيها . . .

فصراع الشباب اماراة تنبه ، يحاول وعياً وبقظة ، تتفتح في النفوس ،



لانبعاث النهضة ، زهرات . . . . . تعبق منها روائح عطرة ، تندفع ، بتأثيرها ،  
الذات ، في وثبات الحياة ! . . . . . فتتحفز الامة ، كلها ، الوثة الكبرى ، واجتراح  
الديجائب والمعجزات ! . . . . . وقد لا تفتح النفوس عن تلك الزهرات . . . . . بقهر  
الصراع ، في وثبة الحياة . . . . . فيكون كبت . . . . . يؤلم الحياة . . . . . لتنتقم لذاتها  
الحياة . . . . . وما اقصى الحياة ، في ماتنقم به ، من امة ، تقف على الكبت والشدة ،  
في ايقاف وثبات الصراع . . . . . او التدليع والتدليل . . . . . في صرف شبابها عن  
الصراع . . . . . فالصراع انما يعبر عن ازمة ، والازمة انما تشتد عند مفترق  
الطرق . . . . . والبلاد العربية اليوم في هذا المفترق . . . . . وليس باستطاعة الزمن  
ان ينتظرها طويلاً ، بعد ! ! ! . . . . . والخطر في ان تحرف . . . . . فتسهل طريق  
الانهيار . . . . . فتختاره ، انما يتمثل بالترف ، قبل كل آفة اخرى . والترف في  
نظري ، انما يتحقق بتعلق القلب بما هو خارج الذات ، ومنه تؤخذ الافراد في  
الامم : فمنهم من يسير على بطنه فيؤخذ بترف البطن . . . . . ومنهم من يسير ، بمرغا  
انفه في التراب ، فيؤخذ من انفه بترف الشم . . . . . ومنهم من تبهر عيونه المظاهر  
فيتوله بها ، فيؤخذ من عينيه ، بترف البصر . . . . . ومنهم ومنهم . . . . . حتى تصبح  
الامة ضحية المترفين . . . . . وشهيدة الترف . . . . .

ولا ادري اذا كان الترف ، هو ذاته ، يؤدي للافة الثانية وهي الجبرية . . .  
وبها يصبح الانسان سلبيا في الحياة ، فلا يقاوم . . . . . بل يجد ان ما مني به من  
نكبات ، هو امر محتوم ، فلا حيلة لنا في دفعه . . . . . فكأننا لسنا مسئولين عن  
اعمالنا . . . . . وانما نبرر انفسنا باللقاء التبعة على غيرنا . . . . . فكل الناس . . . . . ومن  
فوق الناس . . . . . هم وحدهم المسئولون عن ما نصاب به من نكبات . . . . . وويلات  
اما نحن الذين نقاسي آلامها . . . . . فلم نعمل شيئاً ! . . . . . والحقيقة اننا لم  
نعمل ! . . . . . ولسنا مسئولين عن عمل . . . . . وانما مسئوليتنا الكبرى ، هي اننا  
لم نعمل ! ! ! . . . . .

فنحن اذن في سلبية فقدنا معها الذات فنتلهم بتبرير مايقع ، وباللقاء التبعة على غيرنا . . . لانهم لم يفكروا ، هم بنا . . . ولم ينصفونا . . . ولانهم يعتبرون الحق للقوة . . . ونحن اتقياء بررة . . . مساكين . . . نمتت القوة . . . ولاسيا قوة التضامن . . . وندعو لأوهام المثل . . . فلا يجوز لانسان ان يكون قويا . . . ولا ان يلجأ في تحقيق مجاده ومصالحه واطاعه لقوة ، ولايحاول . . . وكأئنا ، عندما قمنا بالنهضة الكبرى ، انما قمنا بها ، لاننا ضعفاء ، ولاننا لم نعد لهم مااستطنا من قوة ! ؟ . . . ومن رباط الخيل ! ؟ . . . رحمتك اللهم ! . . . وعنايتك . . . تجلي ، بكرمك وقدرتك ، علينا وامنح هؤلاء ، من التفكير ، مايجعلهم يدركون كيف كانت القوة ، معنوية ومادية ، في انبعاث النهضة الكبرى وفي كل نهضة ، في العالم . . . عليهم يفتنون الى ان تفكيرهم ، هذا ، لو راود عقلية الاسلاف ، لما تم للعرب حضارة . . .

ومن اثار هذه السلبية الجبرية المقبوتة ، وبما تتصل به من ترف ، انخداعنا المستمر بالمال والعلم والذكاء . . . وهذه كلها من آفات التفرغ ، اذا مااصبحت غاية لذاتها : فحب المال لجمع المال نكبة . . . وطلب العلم للعلم امارة انحطاط . . . واقسى ما في النكبات ، من ويلات ، هو استغلال الاذكيا لسذاجة الشعوب . . . وما اصدق القائل انقذنا اللهم من اذكيائنا ! . . . الم يستغل هؤلاء الاذكيا ، في العلماء وفي الاغنياء ، وفي الطامعين من الفقراء . . . كل ماتعلق به عواطف الشعوب وآمال الامة . . . ليترفوا على حسابها وليجمعوا الاموال والاجاد ؟ ! . . . وهل تورعوا عن استغلال العروبة ذاتها وهم يعملون لها على مايدعون ؟ ! . . .

افلا ترون ، ايها الناس اننا فعلا في المفترق الخطر . . . وان الاتقاذ من الانحراف ، في الاختيار ، انما يكون بوعي ، يتمد على تنبه مدرك . . . فلانخدع

بسحر الكلمات فيتحذرها المستغلون ، من الاذكياء ، طلاسـم وتعاويد ، للشهـ-وذة  
والتدجيل ... ولنعمل بما اوصى به المفكرون ، ويوصون : حددوا  
الالفاظ ...

واذا ماتكلمنا عن العروبة ، ولا سيما ، بلغة الصراع ، وفي وثبات صراع  
الشباب ، فلندرك انها اصبحت ، بعد ان حققت كل تلك الاججاد ، وبعد ان تـلقحت  
بجميع الحضارات ، وبعد ان فرضت حضارتها في العالم ... فلندرك ، بعد ذلك  
كله انها اصبحت اكثر من جنس ، واكثر من وطن ، واكثر من قومية ... انها  
في نظري ، اتجاه انساني لحضارة لاتضيق عن اي تفكير ، وتنسجم مع كل  
الثقافات ... وهي وثبات في الروح ... وصراع في الحياة ... وبها يتحقق  
شباب ... يعرف كيف يحافظ ، على حقيقتها ، من الشعوذة والتدجيل ،  
والاستغلال ...

بين الادب وعلم الطباع

الاستاذ ياسين الدروي

الطبعة الاولى ١٩٩٠م / ١٩٧٠م



## بين الأدب وعلم الطباع

الأستاذ سامي الدروبي

يأخذ من معرفة الأشياء والمرايات ونحوه موقفاً بموقف أهمية عملية  
وموقف أهمية فنية ، أما الموقف الفني فمماث للموقف في سبيل العمل ، والمسا  
الموقف الفني مماثله لموقف الفني في ذاته ، لأن سبيل شيء آخرى مخرجة عنه ،  
لذلك كالمثل ، وهو حالة من حالات الموقف الفني ، لأن المثل إنما يخرج من  
العمل ، ولأن العمل لا يشترك مع غيره ، بل يشترك مع غيره ، بل يشترك مع غيره ،  
ويخضع لقوانين واحدة ، وتفيد أيضاً ذلك في تحقيق أوضاع عملية واحدة ، ومن  
ثم قال أرسطو منذ القديم : لا شيء إلا الكليات ، أما الفن فهو يتناول شيئاً مفرداً  
بالذات ، لا ينظر إليه بما يشترك فيه مع غيره ، بل فيما يمتاز به عن غيره ، ولا يقرب  
على ذلك مثلا الصور : إن جميع أقطاعات التي في العالم هي بالنسبة إلى العالم قضية  
واحدة من الأشجار ، قضية الفلاح ، خصائصها كخصائصها ، ولها قوانينها  
الصور حين تنظر إلى قماشه بالذات قائما بنظر إليها في ذاتها ، فما تغير به عن  
غيرها ، فما جعلها هي ، وإنما لا تغنيه المثلثات المشتركة بينها وبين غيرها من الأقطاعات  
وأما بسببه شكلها هي بالذات ، ولو أنها هي بالذات ، استغنى الله ، بل لو أنها هي  
بالذات ، وهذا القليل المتساحة فوقها ، وهذه الأضواء المتكسر على سطحها المنعكسة...  
فما رشحها كان يلفت نظراً إلى حقيقتها الفردية عند ، ولولا صورة هو ، ولأرأنا  
بها نحن الأفاعية نسؤل كل قسمه يوماً = القيت بتاريخ ٢٦ / ١١ / ١٩٥٤ =

تذکرہ فقہانہ

والباقی بحکمہ بستانہ

بمقامہ رجال فاضلہ

— ۱۵۵۲ / ۱۵۵۳ —

للإنسان من معرفة الأشياء والحوادث ونفسه موقفان : موقف اسميه عمليا ،  
وموقف اسميه فنيا ، . اما الموقف العملي فغاياته المعرفة في سبيل العمل ، واما  
الموقف الفني فغاياته معرفة الشيء في ذاته ، لاني سبيل غاية اخرى خارجة عنه .  
لذلك كان العلم ، وهو حالة من حالات الموقف العملي - لان العلم انما خرج من  
العمل ، ولان العلم انما تقدم في سبيل العمل - يدرك في الشيء العناصر التي  
يشارك بها مع غيره ، ليصنف الاشياء في زمر تنطبق عليها خصائص مشتركة ،  
وتخضع لقوانين واحدة ، وتفيد تبعاً لذلك في تحقيق اغراض عملية واحدة ، ومن  
ثم قال ارسطو منذ القديم : لاعلم الا بالكليات اما الفن فهو يتناول شيئاً مفرداً  
بالذات ، لا ينظر اليه فيما يشترك فيه على غيره ، بل فيما يمتاز به عن غيره ، ولنضرب  
على ذلك مثلاً بالمصور : ان جميع التفاحات التي في العالم هي بالنسبة الى العالم فصيلة  
واحدة من الاشجار ، فصيلة التفاح ، خصائصها كذا وكذا وكذا . الا ان  
المصور حين ينظر الى تفاحة بالذات فانما ينظر اليها في ذاتها ، فيما تتميز به عن  
غيرها ، فيما يجعلها هي واياها لاتعنيه الصفات المشتركة بينها وبين غيرها من التفاحات  
وانما يعنيه شكلها هي بالذات ، ولونها هي بالذات ، استغفر الله ، بل لويناتها هي  
بالذات ، وهذه الظلال المنساحة فوقها ، وهذه الاضواء تنعكس على صفحاتها المخملية ..  
فاذا رسمها كان يلفت نظرنا الى حقيقتها الفردية هذه . ولولا صورته هو ، لارأينا  
فيها نحن الاتقاة تـؤكل فتسد جوعا او تظفي ظمأ ، الاتقاة بين تفاحات

كثيرة تتصف جميعها بخصائص واحدة ، وتحقق جميعها اغراضاً واحدة ، اللهم الا ان نكون فنانيين . فزى التفاحة بعين الفنان ، لابمين الانسان ، الجوعان او الظمان . ولكننا لسنا جميعاً بالفنانين ، ذلك ان الحياة قبل الفن ( وقبل التفلسف ايضاً ) ، والحياة تقتضي ان لا ندرك من الشيء الا ما يفيد ، الا العناصر التي يشترك فيها مع غيره ، اما المجموع الاصلي الذي يتكون منه ، فيغيم في ادراكنا ، ومن الخير ان يغيم . وهل اعوق للتلاؤم مع الواقع من ان يقبل الظمان على كوب ماء ، فاذا هو بدلا من تناول الكوب وشرب الماء ، يأخذ بتأمل اتساع الكأس بالماء ، وتكسر الاشعة على الماء واضطراب صفحة الماء في الكأس يؤرجح الاضواء لئن كانت الفلسفة قد امانت حمار بوريدان ، فان النظرة الفنية ، لو كان جميع الناس فنانيين ، اى لو كان كل انسان لا يدرك من الشيء الا شكله ولونه وما يجعله هو اياه ، لتبدد العلم بالكليات ، ولقلت سيطرتنا على الطبيعة تبعاً لذلك ، ولانقرضت الحياة . غير ان الحياة تعرف كيف تحتال لبقائها ، فحتى الفنان ليس فناً فحسب وانما هو انسان وفنان ، انسان حين يدرك الشيء في صفاته المشتركة بينه وبين غيره ، ليتلائم معه ، او يستفيد منه ، ثم لا يزيد على ذلك شيئاً ، وفنان حين ينظر الى هذا الشيء في ذاته كفرد متميز عن سائر الافراد .

ان جميع العيون في نظر العالم من شمكية وقرنية وقزحية وما الى ذلك ، تستوي في هذا العين التي فيها حور ، والعين التي ما فيها حور . ان هذه العين التي تعانق نظرتها نظرتك ، فاذا انت من سكر تترنح ، ان هي الا شبكية وقرنية وقزحية وما لا درى ايضاً ، بل ان هي في التحايل الاخير الا مادة عضوية تتألف ، كسائر المواد العضوية ، من آزوت وفحم وماء ، كل العيون هكذا : آزوت وفحم وماء ، بل هكذا كل آيات الله حين خلق الله الانسان على صورته الساق التي تجري فيها موسيقى ، فاذا المشي لا كالشيء ، واذا الجسم كله طيف يخطر في منام ، او نغم يجري على هون ، او شعاع يتراقص خفيفاً رشيقاً ، ان هي الا



فحم وآزوت وماء ، وكذا النحر والشعر والصدر . . . بل كذا الرجل والمرأة  
بل كذا الانسان والحيوان والنبات : آزوت وفحم وماء . بل ما للفحم والآزوت  
والماء ، في تحليل أبعاد ، الا الكترولونات وبروتونات تدور على نحو معين وبسرعات  
مبينة ، فالمادة العضوية والمادة المعدنية تلتقيان في هذا ، فاذ العالم كله أخيراً ، من  
انسان وحيوان وحماة ، الكترولونات وبروتونات ، تدور وتدور . . .

على ان العلم لا يذهب الى هذا المدى في التحليل ليقف عنده ويستقر عليه ،  
بل يعود القهقري ، فيصنف الكائنات في حية وجمادة ، ويفرق في الجمادة بين  
مختلف المعادن ، ويفرق في الحية بين الحيوان والنبات ، ويفرق في الحيوان بين  
الناطق وغير الناطق ، وقد يفرق في الناطق بين غبي وذكي ، بين شخص متأجج  
العاطفة ، وشخص بارد الانفعال ، بين نشيط وكسول . . . الخ

هذا هو الميل الطبيعي للعقل الانساني : التصنيف بغية التلاؤم . والتصنيف  
لا تعنيه السمات الخاصة بفرد ، بل الصفات المشتركة بين الافراد . والانسان العادي  
في لحظاته العادية ، لا يختلف في هذا كثيراً عن الحيوان : ان الذئب ، كما يقول  
برجسون ، لا يفرق بين شاة وشاة ، فالشياه كلها في نظره فريسة واحدة تحقق  
غرضاً واحداً ، ما حلح الذئب اذ لا يرى في حروف معين بالذات الا خصائصه  
التي تميزه عن غيره ، من خطوط والوان ، بدلا من ان يتعرف فيه الحروف ، بوجه  
عام ، فينقض عليه ليسد به جوعاً . لو كان للذئب روح فنان ، اذن لعلق الاشكال  
والالوان ، ولما كان مصيره خيراً من مصير حمار بوريدان . . . ولكن الذئب  
لحسن حظه لا يملك هذه الروح ، والانسان او بعض الناس يملكها ، كدت اقول  
لسوء حظه لولا ان فرحة الفنان تذهب كل ما يعاني من شقاء وحرمان ، وتسموه  
في المراتب فوق الانسان .

قلت بعض الناس ، واولئك هم الفنانون ، ان العاديين منا قد حجب عنهم

الواقع وراء الخططات العامة ، ولكن عددا منا تستطيع ابصارهم ان تحرق هذه الحجب لترى الواقع كما هو . ليس في الواقع كليات ، بل الواقع جزئيات .

ولكن ينبغي ان نتفاهم على معنى الكلي والجزئي ، حتى لاتقع في الالتباس الذي ادار المناقشة بيني وبين احد الزملاء على هذه النقطة منذ مدة ، فلست اقصد بالكلي مانعبر عنه في الفرنسية بكلمة Total ، وانما اقصد به مانعبر عنه بكلمة général والفرق كبير بين المعنيين ، حتى ليلبغ حد التناقض ، ذلك ان كل فردي فهو كلي حتما بمعنى Total ، ولكن ليس كليا بمعنى général ولست اعني بالجزئي Le partiel ، وانما اعني L'individuel . ان الفردي كل لا يتجزأ ، والفنان يدرك الكل جملة واحدة ، خلافا للعالم الذي يحلل الكل الى عناصر او اجزاء .

وثمة اعتراض يجب ان ابدهه ، وهو الاعتراض الذي اورده زميلي ذاك حين عرضت له طرفا من هذه الفكرة . قال : ايكون الفنان اذن هو بمثابة فوتوغراف دقيق ينقل الينا موضوعا من الموضوعات بامانة تامة ، بكل خطوطه والوانه ؟ قلت : لا . ان الاشكال والالوان في الشيء تعبير عن مبدأ هو صانعها . والفنان انما يرى وراء الاشكال والالوان المبدأ الذي ينظمها . قال ليوناردو دافنشي : ( ليس فن المصور ان يتناول جزءاً من اجزاء الموديل لينقله الى قماشه ، ويمثل ، بهذه الاجزاء واحدة واحدة ، مادية الموديل . ولا هو كذلك رسم نموذج مجرد ، غير شخصي ، يصير فيه الموديل الذي يرى والتمس ، الى شيء نظري غامض . وانما الفن الحق يرمي الى تصوير فردية الموديل ، وهو من اجل هذا يبحث وراء الخطوط التي ترى ، عن الحركة التي لاتراها العين ، ووراء الحركة نفسها عن شيء اخفى ايضا ، عن النية الاصلية ، عن الصبوة الاساسية التي تربض في الشخص ، وهي معنى بسيط يعادل كل الفن الالامتناهي الذي للاشكال والالوان ذلك ماقاله سيد من نظر بعين ، وامسك بفرشاة . ان الجسم صورة لمعنى ، ان

البدن بدور الآية ، كما يقول الاستاذ زكي الارسوزي ، فالفنان هو الذي يدرك  
المعنى وراء الصورة ، هو الذي يدرك الآية وراء الجسم الذي به تحلت . فهل عجب  
ان يقول تهوفن : انه يسمع في الحانه صوت الله . . . الله مصدر الآيات . ونعود  
فنستعير من برجسون احد تشابيهه فنقول : مثل العالم في النظر الى الصورة ،  
اعني الصورة التي تجليها المعنى او ندرت به الآية ، كمثل شخص رأى اثر قدم  
في رمل الصحراء ، فاخذ يدقق في ذرات الرمل ، يحللها ويدرس قوائمين  
انضمام بعضها الى بعض ، دون ان يعنيه ان هذه الحفرة هي اثر قدم داست  
هذا المكان . . .

وبعد ، اراني قد اطلت الكلام على العلم والفن بوجه عام ، بينما كنت اريد  
الكلام على علم الطباع من بين العلوم ، وعلى الادب من بين الفنون . ولكن لاصير  
ان ما ينطبق على العلم عامة ينطبق على علم الطباع ، وما ينطبق على الفن عامة ينطبق  
على الادب ، والعلاقة بين علم الطباع والادب كالعلاقة بين العلم والفن اللهم عفوكم  
فقد بلغت : ان علم الطباع يقوم من حيث العمومية والتجريد في الوسط بين علم  
النفس والادب ، والتعارض بينه وبين الادب في هذا المعنى اقل من التعارض بين  
علم النفس والادب ، حتى يمكن القول انه الصلة التي تربط بين الفن والعلم :  
لاهو من العلم ولا هو من الفن ، بل هو بين بين ، كما يريد له اصحابه ان يكون  
وسترون تفصيل ذلك . واسمحوا لي اذن ايها السيدات والسادة ان اطيل  
مقدمتي اكثر مما فعلت ، فايين العلاقة بين علم النفس والادب من  
هذه الزاوية .

لئن استطلعنا ان تقول او ان نوحى ، بصدد الكلام على العلم والفن ، ان  
الفن اصدق في معرفة الواقع الحي من العلم ، بمعنى من المعاني ، لانه يعرف الشيء  
المفرد ، في حين ان العلم يفرض على الواقع اطراً مجردة ، ورموزاً اصطلاحية

ففي وسعنا ان نقول ان الادب ، وهو المرقف الفني من النفس الانسانية من حيث هي نفوس افراد بالذات ، اعلم بالنفس من علم النفس . نعم الادب اعلم بالنفس من علم النفس . وذلك تعبير غريب يشتمل على استحالة ، وعلى تناقض ظاهر . فكيف يكون الادب ، وهو ابن الخيال ، اعلم بالنفس من علم النفس وهو ثمرة الدرس والتجريب ؟ لا تتوروا واليكم التوضيح يردكم الى ماثلناه بصدد العلم والفن :

ان علم النفس يدرس من النفس الانسانية ماهو مشترك بين جميع الافراد . فجميع الافراد ينطبق عليهم قانون فيبر الذي ينص على انه لا بد لمؤتمر من المؤتمرات التي تقع على الجواس من ان يبلغ درجة من الشدة معينة حتى ينعكس على صفحة الشعور احساساً ( وذلك هو قانون العتبة الدنيا ) وقانون فيبر الذي ينص على انه لا بد ان يكون بين مؤثرين فرق في الشدة معين حتى نشعر بهما احساسين اثنين . ( وذلك هو قانون العتبة الفرقية في الاحساس ) ، وقوانين التداعي التي ترى ان المعنيين يستدعي احدهما الآخر في الذهن اذا كان بينهما تشابه او تضاد ، اذا اقترنا في تجربة سابقة مر بها الفرد ، وما يعرفه علماء النفس من ان للانفعال مصاحبات فيزيولوجية هي كذا وكذا وهكذا كل القوانين التي انتمى اليها علم النفس التجريبي ، ومن قبله علم النفس التحليلي الذي كان علماء النفس الانجليزي في القرن التاسع عشر ، حين اعتبروا النفس الانسانية ذرات كذرات العالم المادي تتجاذب وفقاً لقوانين هي قوانين التداعي ، فارجعوا كل ظاهرة نفسية الى الاحساسات والصور ، وما بين الاحساسات والصور تدافع وتجادب .

والسؤال الآن هو : ماذا تقدمنا هذه القوانين ، صحت او لم تصح ، في معرفة الناس ؟

ان جميع افراد البشر يخضعون لهذه القوانين : يخضع لها نابليون بونابرت

وشارلي شابلن ، والجاحظ ، وفيروز ، ومعاوية بن ابي سفيان . الخ . واخضع لها انا ، وتخضع لها انت ، وتخضعين لها انت . ولكن اهذا كل ما كان نابليون ومعاوية والجاحظ ؟ اهذا كل ما انا وانت وانت ؟ اننا نختلف في اكثر مما تتفق ، وكما انه ليس بين وجهين من قوة الشبه ما يجعل اولهما عين الثاني كذلك ليس ثمة شخصان يتشابهان في ملامحها النفسية فاذا الاول عين الثاني . انا لست هذه الذرات النفسية فحسب ، كما ليس جسمي آزوتا وفحما وماء فحسب .

اني شيء آخر . اني اغنى من هذا ، واكثر امتلاء بالحياة . واعمق اغراقا في الفرد والاصالة .

وتفتحون كتابا في علم النفس ، فتقعون على فصل يدرس ظاهرة الانفعال فاذا هذا يقول ان الانفعال هو الانعكاس الشعوري لاضطرابات فيولوجية ، واذا ذاك يقول ان الاضطرابات الفيزيولوجية هي ، بالعكس ، ناشئة عن الانفعال الذي ولده التصادم في الافكار . ولذا ثالث يوفق بين الرأيين . وترون القائلين جميعاً يصنعون الانفعالات في غضب وخوف وحزن وفرح وما لادري ايضاً ، ويزاوجون بين هذه الانفعالات البسيطة ليخرجوا منها انفعالات مركبة ، هي الغيرة مثلاً والحسد ، والقلق ، وما لادري ايضاً . . . . . وتصنيف الانفعالات يصنف الناس ( وها هنا يلتفت علم النفس الى فروق بين طوائف من الناس ) ، فاذا الافراد تلصق عليهم عناوين ، فهذا غضوب ، وهذا حزين ، وهذا خواف ، وهذا فرح مرح وهذا غيور الخ ، تبعاً لغلبة احد هذه الانفعالات في حياته . وقد يتعمق علم النفس اكثر من ذلك فيقول : ان الغيرة مثلاً اذا استبدت بنفس العاشق ، ولدت من مظاهر السلوك كيت وكيت ، فهو يرتاب في اية بادرة ، وهو يعمى عن كل ما لا يتفق مع عاطفته المستبدة ، الخ . وقد يتعمق اكثر من ذلك في ذكر التفاصيل ، فيروح يصنف الغيور وصفا مسهباً .

ولكن الغيور الذي يصفه علم النفس لوجود له في الواقع ، انه هيكل عظمي للغيور ، هيكل عظمي لالحم يكسوه ، ولا دم يجري في اللحم ، ولا روح تترقرق في هذا كله . انه في احسن الظن صورة نوعية . هل تذكرتم الصورة النوعية ؟ ،

اذا جئنا بمائة شخص او بالف شخص ، او ، خيالياً ، بعدد لانهاية له من الاشخاص ، ثم التقطنا لاحدهم صورة فوتوغرافية ، ثم التقطنا للثاني صورة فوتوغرافية فوق الصورة الاولى ، وللثالث صورة فوتوغرافية فوق الاولى والثانية ، وهكذا صورنا الجميع صوراً يتوضع بعضها فوق بعض ، فاننا سنحصل على صورة تمثل النوع الانساني ، هي التي تسمى بالنوعية ، فهي تمثل النوع ، ولكنها في الحقيقة لا تحمل طابع اي فرد من هؤلاء الافراد الذين صورناهم ، هي صورة الكل ، ولكنها ليست صورة احد .

الى شيء من هذا يرمي علم النفس ، في احسن الظن ، حين يرسم لنا صورة الغيور ، وترون اذن ان ما يصل اليه ليس من الواقع في شيء . ان الواقع اغنى من ذلك بكثير . ولا كذلك يفعل الاديب . انه لا يبحث في الغيور اجمالاً . انه يبحث في غيرة فلان من الناس ، انه يصور غيرة فلان من الناس ، هو (عطيل) مثلاً ، الذي صورته شكسبير ، سيد من امسك بقلم وكتب مسرحيته . ان عطيلاً حالة فردية . ونحن ان وضعنا عطيلاً بأنه (الغيور) . فذلك لانه لا بد من التخاطب لا بد من التفاهيم بمعان عامة ، لا بد من لصق عناوين على الحالات الفردية ، عناوين تشير الى قرابة الحالة الفردية من عدد من الحالات لجامع بعض الصفات في كل ونحن اذن انما نسمي عطيلاً بالغيور لفائدة عملية . ولكن شكسبير لم يعنون مسرحيته بعنوان الغيور ، وانما اطلق عليها اسم بطلها « عطيل » وكذلك فعل في سائر مسرحياته ( مكبث ) ، ( روميو وجولييت ) ، ( الملك لير ) ، الخ ولكن

عالم النفس هو الذي بعد ان يرى عطيلاً وغيره من الغيورين ، يستخرج الصفات المشتركة بينهم . ليصف لنا الغيور على وجه العموم ، والغيور الذي يصفه عندئذ ليس هو بالحالة الواقعية المشخصة الحية ، وانما هو طيف مجرد لوجود له في الواقع .

ولا بد ان نعترف ان علم النفس قد اقترب ، على يد التحليل النفسي ، من الواقع العياني بمض الشيء ، ونشأ ما يسمي بعلم النفس العيادي . ولكن لا بد لنا من القول ايضاً ان علم النفس العيادي ، من حيث هو علم ، ان تصفح الافراد واحداً واحداً ، فلكي ينتهي من ذلك الى قوانين عامة تنطبق على الجميع ، تماما كما يفعل عالم الطبيعة - ين يتقبل من دراسة الحوادث الى القانون الذي تخضع له . وهذا فرويد ، مؤسس علم النفس التحليلي ، يدرس الحالات الفردية ليقرر بعد ذلك ان للطفل حياة جنسية تمر بمراحل معينة هي المرحلة الغمية ، فالمرحلة الساوية فالمرحلة التناسلية ، وهذا هو المكتشف ان طابع كل مرحلة من هذه المراحل ، وما يعتورها من ملابسات ، يلقي ظله على مستقبل الفرد ، فيكون طبعه وجملة شخصيته . وهذا كله قد يكون صحيحاً وقد لا يكون صحيحاً ، من حيث هو علم ونحن اميل الى تصديقه من حيث هو كذلك ، اي من حيث هو تجريد وتعميم ورمز واني لالح على كلمة رمز ، لان الواقع الجنسي الذي اوضحه فرويد ليس جنسيا بالمعنى الصحيح الحصري لهذه الكلمة ، ليس تناسليا بالمعنى الضيق ، لذلك اطلق عليه فرويد اسم الليبدو ، ووسع مفهوم الليبدو حتى كاد يعني الدافع الحيوى اجمالا ، الوثبة الحيوية عند برجسون ، و ارادة الحياة عند شوبنهاور ، ومالا ادري ايضاً عند غير هذا وذاك ، ثم هو لا يخرج عن هيكل عظمي ان صح التعبير ، هو الصورة النوعية لجميع الافراد . وهذا الهيكل العظمي لا يمثل الواقع الحي كما رأينا . على ان من الانصاف لفرويد ان نذكر انه عالم وفنان في آن واحد كان عالماً حين استخرج قوانينه تلك التي تنطبق على جميع الافراد، ولكنه كان

فنانا قبل ان يكون عالماً ، وكان فنانا بعد ان كان عالماً . انه فنان من جبهتين . كان فنانا حين المهمه حدسه مايضطرب في اعماق اللا شعور من ضروب النزاع . وقد ادرك هو ما بين عمله وعمل الاديب من قربى . فاعترف الاديب كدستويفسكي بانه هو المحلل النفسي الاول وبان ما بصره دوستويكي بحدسه كفنان هو عين ما دركه فرويد - يعني نفسه - بتصفح الحالات الفردية على طريقة العلم . وكان فنانا من جهة اخرى هي معالجته للافراد المرضى . انه في معالجته لكل مريض كانما يعتبر كل مريض دنيا قائمة في ذاتها ، وحالة فذة لاتكاد تشبه غيرها ، حتى لينطبق عليه قول من يقول ، ليس ثمة امراض ، بل هناك مرضى . . .

وانعد الى فرويد العالم . ان التحليل النفسي ، اذ يستخرج قوانين عامة للحياة العاطفية ، لا يخرج عن نطاق العلم ولا يقل بعداً عن الواقع الفردي الحي من سائر العلوم . ان جميع الناس ، كإيرى فرويد ، يعانون عقدة اوديب ولكن عقدة اوديب مفهوم مجرد ، وهي عند فلان من الناس غيرها عند فلان الآخر . والذي ينفذ بنا الى اعماق عقدة اوديب ، ويجعلنا نشاهدها حقيقة واقعية حية ، لانها فردية ، انما هو الاديب ، انما هو روستوتيسكي مثلاً في روايته ( نيتوتشكا ) .

يقول لنا فرويد : ان البنت تحب اباها وتكره امها ، تحب اباها حباً جنسياً ، وان هذا الحب يولد في نفسها شعوراً بالاثم ، اليها يرجع كل ماتعانيه من قلق واضطراب وخوف . . . واننا لننفر من هذا القول في صورته هذه ، ولكن دستويفسكي يعرف كيف يجعلنا نلمس هذه الحقيقة بالاصبع ، فاذا نحن نتعاطف مع الطفلة نيتوتشكا ، ونشعر شعورها ، وننفذ الى اعماقها ، وما يفهم فهو مبرر ، ولوفهم فيها عامضاً غير ذي حدود ، فيقل نفورنا بل يزول ، بل لعلنا نتصور اننا لو كنا مكانها لما فعلنا غير ماتفعل . ان مشاعرنا طبيعية . انها مشاعرنا نحن .



وتقولون لي معترضين ، ايها السيدات والسادة ، كيف تكون مشاعرها هي  
 مشاعرنا ، قررت او كدت ان كل فرد حالة فذة اصيلة لا تكاد تشبه غيرها . هل  
 بي من حاجة ايها السيدات والسادة الى ان اعود الى مساقه برجسون بصدد حل  
 هذه المسألة . ان في كل انسان كل الانسان على حالة الكون او الغفو ، وانتي ان  
 اختلفت عن غيري اختلاف كل وجه عن كل وجه فان في نفسي اناسي " نائمة " ،  
 بعدد ما في الكون من اناسي ، فيستطيع الاديب ان يصور احد الاناسي ، بطلا ،  
 ان يوقظه من مرقدته بين النائمين في نفسي ، فيتحرك ، فاذا انا احس اني كالبطل...  
 او انتي ذلك البطل... والا فكيف يتاح لحقير في بعض اللحظات ، ان يستشعر  
 معاني الرفعة في رفيع ، فاذا هو من ذلك يبكي للدرك الذي هو فيه ! قال ولـيم  
 جيمس انه لم يعان التجربة الصوفية التي يتحدث عنها المتوصفة ، ولكنه حين يقرأ  
 لاحد المتصوفة . فان في نفسه لشيئا يهتز ، كأن متصوفا في نفسه نائم ، حتى اذا  
 سمع النائم ، في منامه ، صوتا من دنياه استيقظ او كاد وحرك عطفه او غمغم...  
 في كل انسان كل الانسان او كل الاناسي . . اما لماذا كنت انا انا ولم اكن  
 غيري فذلك انه كان لابد ان اكون واحدا لا كثيرا . . . وهناك ، عند  
 مفترق الطرق ، حين كان لابد ان اسير في طريق واحدة لافي الطرق جميعا ،  
 اختارت لي وراثتي اولا ، واختارت لي ظروف ثانيا ، واختارت لي  
 ارادتي الحرة اخيراً ، الطريق التي ستكون طريقي ، فكنت هذا من الاناسي  
 لاذك . . وفي الاعماق من نفسي نامت الاناسي الاخرى . . . فانا اذن  
 واحد وكثير . . .

ودعونا من هذا الآن . ومرة اخرى فلنعد الى فرويد ، والى دستويفسكي .

سيأتي يوم نصدق فيه فرويد ، معدلاً او غير معدل ، كما نصدق عالم  
 الفزيولوجيا الذي يقول لنا ان عين موناليزا مؤلفة من شبكية وقرنية وقزحية .

دوستويفسكي وحده هو الذي سيرينا عقدة او ديب في شخص نيتوتشكا، يرينا اياها  
بلم العين وام القلب جميعاً، كما كان ليوناردو دافنشي قادراً وحده على ان يرينا عين  
مونا ليزا بلم العين وام القلب جميعاً كذلك .

ويقول لنا فرويد ان الطفلة في سن المراهقة او قبلها بقليل تمر بمرحلة  
جنسية هي حب شخص من جنسها نفسه . ولكن ده ستوتيسكي يرينا نيتوتشكا في  
هذه المرحلة ، كاتيا حيا فردا ، فذا ، يجب هذا الحب . ويبكي من اجله ، ويأرق  
ويتعب ، ويجد لذة في عذابه ، في تضحية . وهذا مايشير اليه فرويد - اعني لذة  
العذاب - مطلقا عليه اسم المازوخية . وامام المراهقة نيتوتشكا لنا دوستوتيسكي  
المراهقة كاتيا ، البنت اللعوب ، التي نجها نيتوتشكا ، وتحب هي نيتوتشكا ايضاً ،  
ولكنها تجد لذة في تمذيب حبيبتها وفي الظهور نحوها بمظهر من لايجبها ، بمظهر  
من يحقرها ، بمظهر من يسخر من عواطفها ، وهذه هي السادية التي تحدث عنها  
فرويد في مقابل المازوخية . وبعد ، ان ماروخية مافي ذلك شك ، وان سادية  
كاتيا هي من السادية مافي ذلك ريب ، ولكن المازوخية والسادية عنوانان لحياة  
عازمة ، غنية بالتفاصيل والالوان ليست هي عينها عند فردين اثنين . اين هذه  
المازوخية الناعمة المحببة من مازوخية مازوخ ؛ واين هذه السادية الطفلة من  
سادية البارون ( ساد ) !

ان عالم النفس انما يحلل ويجرد ، يحلل صفات الافراد ليستخرج منها  
العناصر المشتركة ، ويرسم التصور المجرد . ومن هذا التجريد او قولوا من هذا  
الاقطاع ، انما ينشأ بعض الخلاف بين مدارس علم النفس . وفرويد مثلاً يرى  
ان الدافع الجنسي هو الموجه للسلوك ، لانه انتزعه من الموكب الحي الغني الذي  
تألف منه الحياة النفسية ، ثم فرضه على هذا الموكب الذي لايمكن ادخاله في  
اطار وجبسه في نطاق . فلما جاء آدلر قال : لا . . . بل الموجه للسلوك انما هو

ارادة التفوق . ان آدلر ايضاً يفعل مثلما فعل فرويد : ينتزع هذا الدافع ، ارادة التفوق ، من موكب الحياة النفسية لدى الافراد ، ليفرضه عليه بعد ذلك ، او ليحبسه فيه ، وهيهات . . . ولكن دوستويفسكي ، الاديب ، لايفعل مثل هذا وانما يدرك الدوافع كلها تصطرع وتتفاعل وتتناغم لتتألف منها سمفونية الحياة الاصيلة المتجسمة في فرد . فاذا عرّف لك هذه السمفونية نبضت حياتك الداخلية معها ، وعشتها في ذات نفسك . ان نيتوتشكا مثلاً مازوخية ولكنها لا تنسى رغم ذلك ان تثور في وجه حبيبها كاتيا ثورة جامحة حين وجهت اليها هذه كلمة احتقار بصدد ثوبها التي كانت ترتديه ، وانها لتشعر بغير قليل من الزهو اذ تتفوق على حبيبها في تعلم اللغة الفرنسية بسرعة . ارأيتم كيف يتصالح فرويد و آدلر في حدس دستويفسكي ، الفنان الذي لا ينظر الى الواقع من احد وجوهه وهو خارج عنه ، وانما ينفذ الى داخله ، فيراه كله دفعة واحدة ، واحداً كثيراً في آن .

وفي هذه الرواية نفسها « رواية نيتوتشكا » التي نرى فيها افكار فرويد حية تسعى ، يتصالح فرويد و آدلر مرة اخرى في حدس الفنان ، فنرى افكار آدلر كذلك حية تسعى . اين ؟ في شخص يافيموف . زوج ام نيتوتشكا . ان يافيموف هذا موسيقي ، اوتي موهبة كان يمكن ان تبده ، لولا ان صاحبها لم يؤت العزم الكافي لتثقيف الموهبة ، واعمالها في خلق آثار موسيقية ، فضلت الموهبة محتفية تحت الكسل ، متوارية وراء عوائق التمربن ؛ ويكاد يشعر يافيموف بالهوة بين ما اليه يصبو وهو كثير ، وبين ما عليه يقدر وهو قليل ، فيكون من ذلك في تمزق وقلق قاتل ، ولكنه يظل مع ذلك يجاهد الحقيقة ويغطيها زاعماً لنفسه ولغيره انه هو العبقري الفذ ، وانه ان لم ينتج فأنما تقع تبعة هذا على امرأته التي لا تفهم من امور الموسيقى شيئاً والتي تقيد حريته وتمنق موهبته ، وتقع تبعة ذلك ايضاً على ما هو فيه من فقر مدقع وبؤس . ان يافيموف مخفق ، ولكنه يغطي اخفاقه ولا يريد

ان يراه ، ويصر على توكيد ذاته ، وتوكيد تفوقه ، وستر نقصه ، او التعويض عن نقصه بلغة آدلر . فكيف يكون سبيله الى ذلك !؟ السبيل هو السلبية ، هو النقد ، يوجه مرآة الي كل موسيقي ، هو الوقاحة يصفع بها وجوه اصدقائه قبل اعدائه ، هو الزهو والصلف والكبر . . . في غير طائل . . . هو الادمان على الخمرة تعشى سحبها حقيقته ، هو التشرذم من عمل الى عمل سعيا الى نجاح يلوح طيفه هنيهة ثم يموت . وتأتي اللحظة الحاسمة ، فيستمع صاحبنا الى موسيقى كبير يعزف موسيقى كبيرة ، ويصحو الخفق من منامه ، منام العبقرية ، ويشعر انه لاشيء ، وان اوهامه اوهام ، وان موهبته باطل كقبض الريح ، فيتحطم ، يتحطم توازن عدله اولاً ، فيجن وبمد الجنون يأتي الموت ، في حفرة عند الغابة بعد انتهاء الطريق وتهدأ العاصفة . . .

هكذا يتصالح فرويد و آدلر في هذه الرواية على يد حدس في عظيم .

وما اظنني بهذه الاسطر القليلة قد رسمت لكم صورة يافيموف ، وهـل استطيع ان اسممكم السفونية التاسعة لبتوفن ، اذا انا حدثكم عنها بالكلام . او هل استطيع ان اريكم رقص آمبريه ارختينا اذا انا وصفته لكم بالفاظ ؟ اللهم لا . . . وغفران الفن . . .

ومثل هذا فعل آدلر حين وصف السلبية التي تتولد عن من يشعر بالتخلف او من يعاني « مركب النقض » كما يقولون ، وحين وصف ما يتجلى في سلوكه من روح الهجوم والاستهتار بالآخرين والوقاحة والغرور . . . واين اين هذا التحليل من تصوير روستريفسكي لشخصية يافيموف حين يضعه لنا في ظروف من الحياة فذة ، وحين يحركه امامنا في سلوك ، او يحرك لسانه في كلام ؟ انا لنفهم عندئذ فيها هيات ان يبلغه المخطط العلمي الذي رسمه آدلر . . . وانا عندئذ ، من فرط

معايشتنا للحالة الروحية التي يحياها يفيموف لانكاد نرى في سلوكه ما يثير الدهشة ولا الاستنكار ، اننا نضمه فنبره ، بل نجبه ونشفق عليه ، كما نجب انفسنا ونشفق عليها ، الم يوقظ دوستوفسكي في ذات كل منا يفيموف النائم فينا جميعاً ؟

ذاك ، ايها السيدات والسادة ، الفرق بين العلم ، علم النفس ، وبين الادب ، فالاول يدرك الصفات المشتركة بين الافراد ، ويخلق منها تصوراً مجرداً ذا شمول كبير ، وتضمن قليل ، على لغة المناطقة ، والثاني يرى الواقع الحي افراداً كل منها اصيل ، فريد .

وبعد ، فإين يقع علم الطباع من هذا ؟ سبق ان قلنا ان علم الطباع يقع بين العلم والفن ، من ناحية التجريد ، فهو اقل تجريداً من علم النفس ، وهو اكثر تجريداً من الادب لقد لاحظ العلماء ان الناس ان تشابهوا في عناصر مشتركة تكون مفهوم انسانيهم ، فانهم يختلفون في ملامح طباعهم وخصائص سلوكهم اختلافاً يمكن معه ان يصنفوا في نماذج ، فافراد كل نموذج من النموذج تشابه فيما بينها في صفاتها وتختلف عن افراد النماذج الاخرى في هذه الصفات . وقد يصنف هيبوقراط الناس في اربعة نماذج : النموذج الصفراوي ، والنموذج البلغمي ، النموذج الدموي ، والنموذج السوداوي وقد اقام هيبوقراط تصنيفه هذا على اساس من البيولوجيا ، واعتقد ان الصفات النفسية التي يتميز بها كل نموذج من نماذجه الاربعة انما ترجع الى غلبة احد سوائل الجسم على السوائل الاخرى في افراد النموذج ، فالصفراويون - وقد وصفهم هيبوقراط من الناحية الطبيعية اضافة معينة - انما كانوا كذلك لان الصفراء هي التي تغلب في حسمهم على السوائل الاخرى ، والدمويون كذلك ، وكذلك البلغميون والسوداويون . وقد كان هيبوقراط يعتقد ان في الجسم سوائل اربعة هي الصفراء والبلغم والدم والسوداء واضيف الى هذه السوائل بعد ذلك السائل العصبي ، فيما اعتقد علماء ذلك الزمان

ولازيد الآن ان نؤرخ هذه الحركة ، حركة تصنيف الناس في نماذج طبيعية ،  
وحسبنا ان نقول الآن انها وثبت وثبة كبيرة على يد الاخلاقيين الفرنسيين في  
القرن الثامن عشر ، وعلى يد علماء النفس الفرنسيين - ريبو ، مالاير ، فوييه  
وغيرهم - في نهاية القرن التاسع عشر ، وما انفكت تتسع وتعتني بروافد تمدها بها  
الدراسات النفسية الطبيعية من هنا ومن هناك حتى صارت في عصرنا هذا الذي  
يسمى تارة بعصر الذرة ويسمى تارة اخرى بعصر علم النفس فرعاً من اهم فروع  
علم النفس ، فرعاً يحظى باهتمام العلماء اكثر من سائر الفروع . فقد شعر علماء  
النفس - وهم في هذا على حق - ان من الخير لعلم النفس ان يدرس العناصر  
المشتركة بينهم والقوانين التي يخضعون لها جميعاً ، فمن شأن هذا ان يقرب علم  
النفس من معرفة الواقع الحي ، ومن ادراكه عن كذب ومن تضيق الخناق على  
الحقيقة الفردية على قدر ما يستطيع العلم ذلك . فلئن كان صحيحاً ان جميع الناس  
انفعاليون مثلاً - اي انهم جميعاً يعرفون الغضب والفرح والحزن - وان ظاهرة  
الانفعال هذه تصاحب لديهم جميعاً بتبدلات فيولوجية يدرسها ويقسها علم النفس  
العام ، فان الافراد ليسوا على درجة واحدة من الانفعالية ، فرب شخص حار  
العاطفة ، عنيف تأجج الهيجان ، في حي ان شخصاً آخر لا يتأثر بمثل هذه  
السرعة ، او لا يصل انفعاله الى هذه الدرجة من القوة ، وينبني ان تدرس  
الفروق بين الافراد من هذه الناحية ، وذلك فعلاً ما يفعله علم النفس الفرقي فيما  
يفعل اذ يدرس الفروق بين الافراد ، وبين طوائف الافراد ، من ناحية الذكاء  
والاستعدادات الحركية وغيرها اولاً ، ومن ناحية خصائص الطبع والشخصية  
ثانياً ، وذلك هو موضوع علم الطباع .

ولا نستطيع الآن نعرض لجميع الدراسات التي تناولت هذه الناحية من  
الفروق الفردية ، اعني خصائص الطبع ، وحسبنا ان نشير اشارات عابرة لاهمها ،  
وان نتوقف عند واحدة منها وقفة غير طويلة . انرى بعد ذلك ان يقع علم الطباع

من قطبي العلم والفن ، او العلم والادب ، على وجه ادق .

اول هذه الدراسات جدارة بالذكر دراسة يونج التي فرقت في الناس بين نموذجين ، النموذج المنطوي والنموذج المنبسط . اما المنطوي فهو ذلك الذي لا يعني بالموضوع قدر عنايته بالذات ، وذلك الذي لا يلتفت الى العالم الخارجي ، قدر التفاته الى العالم الداخلي ، ذلك الذي يتأمل نفسه ويضعها في مركز الوجود ، ليدور حولها الوجود ، يتجلى ذلك في سلوكه في الحياة وفي موقفه من المسائل ، وفي نظراته الى الكون . وهو من هذا في تشاؤم وفي حزن ، ميال الى العزلة ، يرم بالحوادث وبالناس . واما المنبسط فهو ذلك الذي انفتحت نفسه للعالم الخارجي يدرسه ، ويحسن التلاؤم معه ، ويعرف كيف ينجح في الحياة ، وكيف يتعامل مع الناس ، يهدف الى الموضوعية ، ولا ينكفي على ذاته يتمقها ويحفر فيها ، فهو عنها في شغل بالخارج المتجدد الذي يقتضي حسن الاستفادة منه تغيرا في المشاعر والسلوك مقابلا لتغيره ، فلا اجترار ولا استمرار . ولم يفت يونج طبعاً ان يشير الى ان الناس لا ينقسمون هكذا طائفتين اثنتين تتصف احدهما بالانطوائية اطلاقاً وتتصف الاخرى بالانبساطية اطلاقاً ، وانما الانبساطية والانطوائية في كل نفس ، على اختلاف في المقدار ، فبعضهم تغلب فيه الانبساطية ، وبعضهم تغلب فيه الانطوائية .

وهناك الدراسة الواسعة العميقة التي قام بها العالم الالماني كرتشمير ، وفيها فرق في الاجسام بين ثلاثة نماذج تقابلها في النفوس ثلاثة نماذج ، اما النموذج الجسمي الاول فهو النموذج العريض ، وهو يتصف بصفات جسمية معينة يحددها كرتشمير تحديداً دقيقاً فيما يتعلق بالنسبة بين مختلف اجزاء الجسم بعد القياس الدقيق ، وهو من الناحية النفسية النموذج الدوري الذي تدكرنا صفاته ، بعض الشيء بصفات النموذج المنبسط الذي وصفه يونج . واما النموذج الجسمي الثاني ،

في تصنيف كرتشمير ، فهو النموذج النحيل ، وتذكرنا صفاته ، بعض الشيء ،  
بالنموذج المنطوي الذي وصفه يونج ، واما النموذج الجسمي الثالث فهو النموذج  
الرياضي ، الذي يتصف بصفات جسمية تختلف عن صفات النموذجين السابقين ،  
وتختلف صفاته النفسية عن صفات كلا النموذجين السابقين اختلافاً تغفل تفصيل  
القول فيه الآن ، لضيق المقام .

وان الدراسات التي تناولت معرفة التقابل بين صفات جسمية معينة ،  
وخصائص طبيعية معينة ، وصنفت الناس في نماذج جسمية تقابلها نماذج طبيعية ،  
لا أكبر من ان تحصى ، فهناك دراسات المدرسة الايطالية - فيولا وبانده وغيرهما -  
وهناك دراسات المدرسة الفرنسية التي انتهت الى يدي الدكتور كورمان في  
وقتنا هذا ، وهناك اخيراً دراسات علماء النفس الامريكان المعاصرين التي تعد  
دراسة الدكتور شلدون اتمها واكملها ، لانها تناولت فحص الوف من الناس من  
الناحية الجسمية ومن الناحية الطبيعية ، بتكنيك تجريبي دقيق ، ومناهج احصائية  
دقيقة ، وقد انتهى شلدون ومعاونوه . بعد القياس والاحصاء ، الى ان ثمة ثلاث  
مقومات جسمية هي المقومة الاندومورفية والمقومة الاكثومورفية ، والمقومة  
الميزومورفية ، والى ان كل فرد من الافراد تغلب فيه احدى هذه المقومات الثلاث  
على المقومتين الأخرين ، والى ان ثمة ثلاث مقومات نفسية تلازم غلبة احداها في  
الفرد غلبة مقومة جسمية معينة ، وقد وصف لنا شلدون صفات كل نموذج من هذه  
النماذج وصفا مسهباً ، من جميع نواحي السلوك والطبع والخلق وما الى ذلك ، ولا  
يتسع المقام الآن لعرض هذه النماذج الثلاثة ، ولو عرضاً موجزاً . وانما نجد ان  
تقف وقفة ليست بالطويلة على كل حال - لانتخافوا ايها السيدات والسادة على دراسة  
من هذه الدراسات الطباعية هي دراسة جامعة جرونج بهولانده ، هذه الدراسة  
التي تناولتها يد الفرنسيين في ايامنا هذه ، فوسعتها أو نمتها حتى صارت هي بعينها  
علم الطباع (Caractérologie) في اذهان الفرنسيين ، فمتى قلت علم الطباع في فرنسا



انصرف الذهن اليها ، ذلك ان اليد الفرنسية الاولى التي تناولتها يد جبارة ، هي يد الاستاذ رونييه لوسن الذي توفي في الشهر الماضي عن انتاج فكري ضخم ، بعد ان اسلم هذه المدرسة الطباعية لتلاميذه الذين يعدون بالعشرات بين اساتذة الفلسفة في فرنسا ، وجهابذة الفكر فيها . وانما اطلق عليها اسم مدرسة جرونش لان استاذين من اساتذة جامعة جرونش بهولاندة ، هما اللذان قاما بهذه الدراسة ، او شقا الطريق الى نتائجها الضخمة الفذة ، وهما الفيلسوف الكبير هيمنس وزميله الدكتور فيرزما . ويجدر بنا ان نذكر قبل عرض نتائج هذه الدراسة انها قد ابتلعت الدراسات التي سبقتها ، ان صح التعبير ، اي انها ادخلتها فيها بل اجرتها في شرايينها حتى اصبحت من صلبها .

كان هدف هيمنس وفيرزما في اول الامر ان يدرسا تأثير الوراثة وتأثير البيئة في تكوين طبع الفرد ، فوضعا استجوابا يتألف من ثمانين سؤالاً تتناول مختلف وجوه الطبع ، وزعا هذا الاستجواب نسخاً مطبوعة على اربعة الآف طيب من اطباء هولاندة والمانيا ، راجين منهم ان يملئوا اوراق الاستجواب باجوبة عن طبع افراد الاسر التي يعرفونها بحكم كونهم اطباءها . وجاءت نسخ الاستجواب مملوءة ، واخذ العالمان يفضانها ويفحصانها ، وانتهيا من فحصها الى نتائج فيما يتعلق باثر الوراثة واثر البيئة لسنا بصددها الآن . وانما الذي نحن بصدده ملاحظاه من امور كانت نقطة البداية للتصنيف الذي قالا به بعد ذلك لقد لاحظ هذان العالمان ان ثمة صفات في الطبع ان توفرت في فرد - بحسب اوراق الاستجواب - لزم عنها توفرت صفات اخرى كانها ملحقة بها ، او كأنها متفرعة عنها ، مشتقة منها ، ولاحظا - بالاحصاء - ان هذه الصفات ثلاث : هي الانفعالية ، والفعالية ، والترجيع ، او ترجع الاشياء في النفس مدة تطول او تقصر . اما الانفعالية فواضح امرها : ان من الناس ، كما رأينا من يهتز لايسر الامور اهتزازاً قوياً عنيفاً ، ومنهم من لا يهتز لأكبر الامور مثل هذا الاهتزاز

القوى العنيف ؟ واما الفعالية فواضح امرها كذلك : من الناس من يعمل ليل  
نهار ، ثم هو لا يشعر من عمله بتعب او اعياء ، فهو يعرف من بحر ان صح التعبير  
وبعضهم لا يعمل الا قليلا ، واذا عمل ، فانما يحمل نفسه على العمل حملاً ويلهث  
اثناء العمل ، فكأنما هو يقدُّ من صخر واما الترجيع فليس في مثل هذا الوضوح :  
ان من الناس من يهتز بسرعة لهدأ بسرعة ، من يحزن الآن ليفرح بعد قليل ،  
من يغضب في هذه اللحظة ليصفو بعد ساعة ، من لا يحمل في نفسه حقدا ولا  
سخيمة ، من يعيش في اللحظة الحاضرة ، لا ينظر الى امام ولا الى وراء ، لا يتعظ  
مثلاً بتجارب الماضي ، ولا يرسم على ضوء ذلك خططا بعيدة لمستقبل بعيد ، ومن  
الناس من هو على خلاف ذلك ، لا يهتز بسرعة ولكنه ان اهتز ظلت اوتار نفسه  
في اهتزاز مدة طويلة ، يلتفت الى الماضي ويتطلع الى المستقبل بنظرة توحد بين  
الماضي والحاضر والمستقبل فكأنه لا يعيش في الزمان بل فوق الزمان يطل عليه  
ويراه كله . اما الاول فيمكن ان نقول فيه ان ترجع الاشياء في نفسه قريب ، واما  
الثاني فيمكن ان نقول عنه ان ترجع الاشياء في نفسه بعيد .

هذه هي الصفات الطبيعية الاساسية الثلاث التي اكتشفها هيمنس وتيرزما  
بتصفح نتائج الاستجواب ، على اعتبارها اقطابا ثلاثة تتجمع حولها صفات فرعية .  
وعلى اساس تجمع هذه الصفات الثلاث لدى الافراد صنف هيمنس وفيرزما الافراد  
في ثمانية نماذج هي التالية :

الانفعالي غير الفعال ذو الترجيع القريب ، وقد اطلقا عليه اسم العصبي		
العاظمي	=	ذو الترجيع البعيد
الغضبي	=	ذو الترجيع القريب
البطولي	=	ذو الترجيع البعيد
الدموي		غير الانفعالي الفعال ذو الترجيع القريب

غير الانفعالي الفعال ذو الترجيع البعيد      العقلي  
 غير الانفعالي غير الفعال ذو الترجيع القريب      الهلامي  
 المتبادل      البعيد = = = = =

وقد عمدا كذلك الى حياة رجال التاريخ ، فاستمدا من حياة كل منهم اجوبة على الاسئلة الثمانية التي يتألف منها الاستجواب ، ونسباه الى نموذج من هذه النماذج الثمانية على اساس ذلك . فتمين لهما فيما تبين ان النموذج العصبي يضم اكبر عدد من الشعراء . . . الشعراء الذين كان شعرهم من الشعر المحض ان صح التعبير ، اولئك الذين يتجلى لهم الكون احساسات ومشاعر يعانونها ويعبرون عنها ، قبل ان تبرد في نفوسهم لتستحيل الى تصورات مجردة . وتبين لهما ان الشعراء الفلاسفة او الفلاسفة الشعراء انما ينتمون الى النموذج العاطفي ( كركجرد ، مين دويران ) وتبين لهما ان النموذج الغضي يضم اكبر عدد من رجال السياسة الثوريين ، والخطباء الموهوبين ، وان النموذج البطولي يضم اكبر عدد من اصحاب الرسالات الذين عاشوا لفكرة وحققوا انقلابا ، وان النموذج الدموي يضم من بين الادباء اولئك الذين يتصفون بالنظر الموضوعي الى الامور ، والذين تشبه ثقافتهم ثقافة الموسوعات وهم كتاب البحوث والروايات الساخرة والمقالات يعرفون كل شي ، ولا يتعمقون اي شي ، وتبين لهما ان النموذج العقلي يضم اكبر عدد من الرياضيين والفلاسفة العقلين والفيزيائيين الذين يميلون الى المذهبة والتوحيد وارجاع الكثرة الى الوحدة ، وتميز النظام في الكون، ومعرفة القوانين العامة . وتبين لهما عرضا وعلى دهشة منها في اول الامر ، ان ليس بين رجال التاريخ من ينتمي الى النموذج الهلامي او الى النموذج المتبادل ، ثم زال عجبها حين تذكر ان من حرم القوتين النفسيتين المنتجتين الخصبيتين ، الانفعالية والفعالية ، لا يمكن ان يسجل له التاريخ في صفحاته شيئا ، فهو يعيش على هامش المجتمع ، ضعيفا خاملا .

هل عليّ بعد هذا ان اصور لكم الوجه النفسي لكل نموذج من هذه النماذج؟ لو فعلت ، ايها السيدات والسادة ، لطالت سهرتسا الى ما بعد منتصف الليل . وقد بدا لي انه لا بد من رسم ، ( كرويكي ) على الاقل ، لواحد من هذه النماذج على الاقل ، حتى اعطي فكرة عن التصنيف الطباعي الذي نحن بصده وتساءلت اي النماذج اختار لحديثي هذه الليلة . واحترت ثم احترت ، ثم لم اجد للخلاص من الحيرة الا ان امتمعمل طريقة القرعة ، وكان ان وقعت القرعة على النموذج الغضي ، وساحاول ان اصوره ببضع خطوط ، كما يفعل رسام (الكرويكي) كما اسلفت وقد قاتني ان اذكر لكم ان اصحاب هذا التصنيف انما يسوقون في وصف الغضي الصفات التي اسوق ، غير مستمدة من خيالهم وما يتصورون ، بل من النتائج الاحصائية التي حصلوا عليها بواسطة الاستجواب ، الا انهم يعاملون هذه النتائج بعد ذلك بالعقل ، ثم يعاملونها بما اسموه المعاشة الداخلية للنموذج ويخرجون من ذلك بوصف ترتبط اجزاؤه بعضها ببعض ارتباطاً حياً . ولتعد الى الغضي الذي وقعت عليه القرعة :

ما سميناه كذلك لان ابرز خصائصه الغضب ، فلعل الغضب ان يكون اخص بالعصي ، وانما هي تسمية اصطلاحية ، فجردوا هذه الكلمة ، ارجوكم ، من معناها المألوف ، وحملوها خلال هذه الصفحات ، معنى اتصاف المرء بصفات اساسية ثلاث ، منها تنحدر جملة ملامح طبعه ، وخصائص سلوكه اعني ، قوة الاهتزاز العاطفي ، ووفرة النشاط العملي ، وسرعة ترجع الاشياء في النفس .

وتتضح لنا صورة الغضي اذا قارناه بالعصي : ان العصي هو ذلك الذي اجتمعت فيه الخصائص الاساسية الثلاث : قوة الاهتزاز العاطفي ، وضعف النشاط العملي ، وسرعة ترجع الاشياء في النفس . واذن فالفرق بين العصي والغضي هو ان الاول كسول ، والثاني نشيط ، ومن اختلافها في هذه

الصفات الاساسية ينتج ان الوجه النفسي لكل منها يختلف عن وجه الآخر  
اختلافا كبيرا .

فالعصبي في حالة اهتزاز عاطفي دائم ، وكذلك الغضي ، ولكن بينما الاول  
يهتز في مكانه ان صح التعبير ، لا يحضه الانفعال على الفعل . ولا يكاد يشرع في  
عمله حتى تثبط عزيمته ، ويقعد به كسله عن المضي والاستمرار ، فان الغضي  
لا يني يعمل ، ولا يجد الراحة الا في العمل ، وكل انفعال يقوم في نفسه فهو اندفاع  
الى امام ، ونافذة تطل على مشروع ، وامل يلوح في الافق ليمضي اليه الغضي  
خفيفا كالسهم ، لا يبالي الحواجز ، بل يحطم الحواجز ، او يحتمل عليها . ان  
العصبي ، وابن عمه العاطفي ، يكتفیان من الحياة باجترار الامل ، وعند الضربات  
والجروح التي يتلقيانها من العالم ، والتوجع والتفجع ، اما الغضي فان كل حادثة  
تحفزها الى عمل ، وكلما وقع قام ، وكلما كبا نهض ، كأنه ما وقع ولا كبا ، وكان  
الوقعة او الكبوته مازادته الا توفرا ومضاء .

فالعصبي لا يستطيع ان يقعد عن العمل : هو من عمله في راحة ، ومن  
راحته في تعب ، ذلك ان به طاقة لا بد من انفاقها ، حتى اذا حبسها كان كالختمتق  
بفيض حيويته ، لذلك كثيرا ما نراه يولي التوافه من الامور جهدا جبارا لاستحققه  
فما يكون ثمة توازن بين الهدف والوسيلة ، وكثيرا ما نظن فيه عندئذ رقة العقل  
تسائل تجاهه : امن اجل غاية يسيرة وهدف طفيف يعمل ليل نهار دون كلال  
ولا ملال ، ولو انصفنا لادر كنا انه انما يحقق بذلك ذاته ويجد سعادته . لماذا يلعب  
الطفل ؟ اليس اللعب اجمل مثال على اختلال التوازن بين الهدف والجهد ؟ الا ان  
الغضي لطفل تمور نفسه بجيوية فائضة ، لا بد ان تجد لنفسها مخرجا .

لو قد اتيح لغضي ان يتقلب ، في لحظة ما ، الى عاطفي ، بفعل معجزة ،

فيستعرض شريط حياته الماضية ، في لحظة من استرخاء واجترار ، لارتسمت على  
 شفته ابتسامة مرة ، ولقال لنفسه : أكانت تستحق الحياة كل هذا النصب والعناء؟  
 الا ما كان ارق عقلي ! ذلكم بعينه ما يقوله عاطفي ، حين يرى الغضبيين بضطربون  
 في ارجاء الحياة ، ويناضلون ، وبكافحون ؛ ولكن الغضبي ، هو ، لا يدور في خلد  
 ان يتساءل هذا التساؤل : انه من عمله في شغل عن الاجترار ، ومن رفعة نشاطه  
 انما تستمد غايته رفعتها ، ولو نظر العاطفي الى التاريخ نفسه لما رأى فيه الا عبثا .  
 يؤدي الى مأس وفواجع : رجال يسعون الى حتفهم بظلمهم ، وشعوب تحطم نفسها  
 في سبيل عقيدة مزعومة او مبدأ موهوم . اما الغضبي فانه حين يستعرض التاريخ ،  
 يرى فيه عيداً بهيجاً ، حياة مواراة ، حذرة ذات الوان ، نضالا لا يحفز الهمة  
 ويبث الفرح في القلب . لذلك نرى الغضبي يحب قراءة التاريخ ، لا هذا فحسب ،  
 بل انه يساهم في صنع التاريخ ، فهو ميال الى السياسة والى الحكم والى النضال  
 الشعبي والاشترك في الثورات وقيادتها . فان لم تساعده مواهبه ولا ظروفه على  
 المشاركة في صنع التاريخ ، وجد عزاءه في قراءة التاريخ وفي كتابة التاريخ ،  
 فاذا هو مؤرخ . وان لم يكن مؤرخاً ، فلا اقل من ان ينصرف الى ما يشبه التاريخ ،  
 من حيث ان التاريخ تصوير للحياة في صراعا واحداثها وتوازنها وفواجعها  
 وافراحها ، لا اقل من ان ينصرف الى الرواية ، الى القصة . ففي القصة ما يروى  
 ظاهراً الى المشاركة في الحياة في اعنف صورها ، ولو بالخيال . . . واحب الوان  
 القصة الى نفسه ، تلك التي تقوم على كثرة الحوادث وعنفها ، لا على دقة التحليل  
 ورهافته ، انه ينشد في القصة ما ينشده في الحياة ، والقصة البوابسية تلقى من نفسه  
 هوى عظيماً يقرؤها ان كان مستهلكاً ، ويكتبها ان كان منتجاً ، وكذلك شأنه  
 مع الملاحم وقصص المغامرات والحروب . والقصة الوان كما تعلمون ، فهي بين يدي  
 القصاص العاطفي او الغضبي تحلل العواطف وتغوص الى اعماقها ، وهي بين يدي  
 القصاص الباردة عاطفته ، اميل الى الدراسة الفلسفية او الرواية الساهرة ، وهي  
 بين يدي القصاص الغضبي الذي نحن بصدد حافلة بالاحداث المثيرة والانفعالات

المنيفة والمواقف الحرجة الخطيرة . ان قصته تمثل حياته الصاخبة ، الملائمى  
بالمآزق والمشاكل والازمات ، يخرج منها بشكل او بآخر ، ليتورط في غيرها بعد  
حين ، لانه لا يستطيع ان يحجب نفسه عن الشروع في عمل ، اي عمل .

وإذا كان الغضبي شاعراً ، رابت شعره يميل الى الخطابة ، ليست الخطابة  
في جوهرها حضا على الفعل ؟ ان شعر الغضبي يعكس ببنائه ونبرته ومعانيه  
واغراضه الصبوة الي الفعل التي تضطرم في نفس الشاعر . ولا عجب بعد هذا  
ان نرى الشعراء الغضبيين ( هو جو ، المتني ) يتقبلون بين اشعر والسياسة ،  
ويكون شعرهم في بعض الاحيان سبيلاً الى السياسة ؛ وشعر العاطفي والعصي  
شعر حزين كثيب ، اما شعر الغضبي فشعر عنائي جارف ملهم ، وشعر العاطفي  
تقد من صخر ، وينحت ويصقل ، اما شعر الغضبي فهو يخرج كما تخرج الانفاس  
من الصدر سهلة حارة . فالغضبي يغرف من بحر ، بحر الالهام الغني الثر . على ان  
هذه الميزة في شعر الغضبي قد تستحيل الى آفة في بعض الاحيان ، اذ يسف  
الشاعر ، فيكون شعره كلاما اجوف طنانا يرن كثيراً دون ان يقول شيئاً .

وهل تريدون ان تروا الغضبي بعين الرأس ؟ هو ذا :

وجه متورد ، حي ، عينان واسعتان ، واحياناً بارزتان ، صوت قوي ،  
مرح في الغالب الاعم ، متصاعد القوة على قدر تصاعد الانفعال ، جسم بدين في  
الاکثر . غير ان حركاته يمكن ان تكون رشيقة لطيفة وان كانت واسعة  
عريضة . هؤلاء الناس يفرضون انفسهم على بيتهم بقوة الجسم احياناً ، الا ان  
هذه القوة ليست مستبدة ، وهي في الغالب تهب الى خدمة الناس واكرامهم . ان  
الغضبيين سرعان مايكسبون ود الآحرين ، حتى لقد يقودون طباعا اخري ليس  
بينهم وبينها من قرابة .

ولهذا الجسم القوى حاجاته الحيوية الكثيرة ، لا يستطيع الغضبي الا ان يلبسها ويرويها ، فهو يحب الطعام والشراب ، ويتذوق لذائد المائدة ، وهو من حياته الجنسية في مثل ذلك ، يندفع الى الحب في حميا وعنف ، ولكنه يتنقل في حبه ، لا يعرف الهوى الثابت المستقر الذي يستبد بحياة من اولها الى آخرها ، وانما ينشد اللذة ، حيثما وافت واني وافت ، على ان نشدان اللذة لا يصرف الغضبي عن العمل : انه يجمع بين السعي الى اللذة ومواصلة العمل المنتج الجبار . فمؤلفات الاديب العصبي او العاطفي تعد على اصابع اليد ، شعراً كانت او رواية او غير ذلك ، اما مؤلفات الاديب الغضبي فهي تعد احياناً بالمئات ، انه يقوم من لذته الى عمله ، ومن عمله الى لذته ، في سهولة ويسر ، لا تجور هذه على ذاك ولا يطني هذا على تلك ، وهذا الانسياق الى اللذة ينعكس في فكر الغضبي موقفاً فلسفياً واتجاهاً في الاخلاق : يمجذ الغرائز ، ويدعو الى الثقة بالطبيعة والاستسلام لها والى الانطلاق والتحرر ، ويكره كبح الاندفاعات العفوية .

والغضبي يحب المجتمع ، ويسعي الى معايشرة الناس ، ويكثر من علاقاته بالآخرين ، ويقيمها على المودة والمحبة والتراحم وال عاطفة الحارة . ثمة افراد من غير هذا النموذج يميلون الى المجتمع ايضاً ، ولكن الميل الى المجتمع الوان : هذا امرؤ بارد العاطفة يميل الى المجتمع هو الآخر ، ولكن ميله الى المجتمع من نوع آخر : انه يجب ان يختلف الى الصالونات ، يتحدث في هدوء وتصنع ، ويعرض بضاعته الثقافية جبا بالظهور ، ويتعرف الى عدد كبير من الافراد رجاة مصلحة ، ويمقد صلات كثيرة بوجوه القوم ليكون من الوجوه ، علاقته هذه خالية من حرارة الحب ومن انطلاقة القلب الى القلب في غير حساب . اولئك هم افراد النموذج الدموي . و ثمة افراد آخرون يحبون المجتمع ، ولكن حبهم هذا تتحكم فيه المبادئ وسيطر عليه العقل . فهم يتصلون بالناس لتحقيق عقيدة ، لتكثيل الجمهور حول خطة اصلاحية مثلاً ، حبهم للافراد من حبهم للمجتمع كمشعب او



انسانية ، ماهو بالرحمة تفيض على كل قلب وتتواصل مع كل انسان، اولئك هم افراد النموذج البطولي الجامح ، وثمة افراد يسعون الى الناس الآن ليهجروهم بعد حين ، يحبونهم اليوم ويكرهونهم غدا ، ولا تستقر عاطفتهم على حال ، ويتقلبون بين العزلة والمعايشة ، وتلهيهم ذواتهم عن غيرهم على ابي حال : اولئك هم افراد النموذج العصبي . زيد ان تقول ان الميل الى المجتمع الوان تختلف باختلاف طباع الناس ، والطبع الغضبي هو الطبع الذي نستطيع ان نساعد اليه الروح الاجتماعية الى اقصى حد ، انه الحيوان الاجتماعي الى ابعد الدرجات . وهو لذلك ذو شعبية ، ولكنه قد يصل من فرط تقربه من الناس ، وتبعثره بينهم ، وتودده اليهم ، الى حد الاسفاف والعامية والابتذال ، حتى اذا كان سياسياً ، رأيناه ، في مثل هذه الحال يغفل عن الغاية بالوسيلة ، فاذا هو يتقاد للجمهور اكثر مما يقود الجمهور ، نتيجة لشدة حرصه على اكتساب المودة .

والغضبي شديد الحماسة ، وقد تفيض حماسته حتى تفرقه ، فتفقده الرصانة ، صوته يرتفع وعيناه تلهتان ، وحر كانه تعرض وتكثر وتعنف ، فاذا هو من ذلك في بعض الاحيان عرضة لسخر الساخرين لايسمعم ازاؤه الى ان يتسموا ورب بسمة اقتل من صفة ، ولكن الغضبي لفرط حماسته ولحسن حظه او لسوء حظه لاينتبه للبسمة ، بل يمضي في حمياه لايلوي على شي .

وهو جم التفاؤل عظيم الثقة بالمستقبل لايشعر بالحواجر التي يمكن ان تقف حائلاً دون تحقيق مشاريعه ، حتى اذا اعترضته ، حطمها او قفز فوقها او دار حولها ، اللهم الا أن تتكاثر حوله ، فهو عندئذ يترك العمل ويعتدل عن مشروعه راضحاً . وهذه الثقة بالمستقبل تتجلى في فلسفة هي ( التقديمية ) ، فالغضبي سي الظن بالماضي ، برم بالحاضر ، نزاع الى المستقبل ، مؤمن بان ماسيكون

خير مما كان . والى ثقته بالمستقبل تضاف ثقته بالناس ، فهو قليل النقد ، قليل سوء الظن ، يخلع على الآخرين صوراً مثالية ، لا يعرف الحقد الطويل ، يهب الى معونة البشر بلا تحفظ وليس معنى هذا انه غير اخرق ، لا يحسن التصرف . انه بارع ، يعرف كيف يخرج من المآزق ، واثن كان يقع في كثير من المآزق فما ذلك لانه اخرق ، بل لانه لا يصبر على القعود عن العمل ، فيورط نفسه في مشاريع محفوفة بالمخاطر ، وتسكره السرعة ويتراخ من نشوة ما يصيب من نجاح .

وبعد ، ان الغضبي موصول اوتار النفس بالحياة ، تهزه الحياة فيهتز ، ويهز الحياة فهتز ، وهو من حيويته في مرح وايمان وبشر ، يحسده الجميع على طبعه ولا يحسد هو احداً .

ذلكم ، ايها السيدات والسادة ، هو النموذج الغضبي ، احد النماذج الثمانية التي رأت مدرسة جرونينخ ان الناس يتصنفون فيها .

لنعد بعد هذه مرة اخيرة الى عالم النفس والاديب ، لنعد الى المثال الذي ضربناه لنبين ان الاديب اعلم بعلم النفس من عالم النفس . اعني مثال ظاهرة ( الغيرة ) التي يحدثنا عنها عالم النفس ( دانيل لاغاش ) في كتابه « غيرة الحب » والتي يرينا ايها شكسبير في مسرحيته « عطيل » ، ولنتساءل : كيف يدرس علم الطباع هذه الظاهرة . ان الغيرة لم تعد الغيرة على وجه العموم ، وانما اصبحت ثماني ( غيرات ) ان صح التعبير ، على عدد النماذج التي يتصنف فيها الناس ، فغيرة العصبي تختلف عن غيرة الغضبي ، وهذه تختلف عن غيرة الدموي وهذه تختلف عن غيرة العاطفي وهكذا دواليك ان الغيرة تتخذ لدى كل نموذج من هذه النماذج وجهاً خاصاً ، وتصطبغ بلون خاص وتكون لها ملامح خاصة . هكذا يقتر بعلم الطباع من الواقع اكثر من علم النفس العام ، ويصبح من حيث التجريد بين الادب وعلم النفس .

وانما وجد علم الطباع في هذا القرن خاصة على صورته العلمية لان علماء النفس لاحظوا ان المجرذات التي ينتهون اليها لا وجود لها في الواقع الحي ، وان على علم النفس ان يزيد احتكاكه بالواقع الحي .

ومن اجل تحقيق هذا الغرض على الوجه الاكمل رأيت لوسن نفسه مضطراً لان يزيد عدد النماذج ، فقال ان كل نموذج من هذه النماذج الاساسية ينقسم الى نماذج فرعية ، بل ان كل نموذج فرعي ينقسم الى نماذج تحت فرعية ، تبعاً لقوة كل مقومة من المقومات الاساسية الثلاث تبعاً لتدخل مقومات ثانوية ذكر بعضها وترك قائمتها على كل حال مفتوحة امام الاكتشافات الجديدة ، هذا كله عدا عن تأثيرات البيئة وتاريخ الشخص . وان احدنا ليستطيع عندئذ بعملية حسابية بسيطة ان يرى ان نماذج لوسن ان ارادت ان تزيد ادراكاً للواقع الحي تربو على الالف نموذج . ولعل لوسن رحمه الله ، ان يقول لنا : هذه طبيعة العلم يصنف ، والاصناف لا وجود لها ، وانما الوجود للافراد ، واذا شئتم الحقيقة فقولوا ان هناك من النماذج عدد ما هنالك من افراد . لئن لم يكن في الغابة ورقتان تشبه احدهما الاخرى شهماً تاماً ، فان هذا اصدق على افراد البشر منه على اوراق الشجر . فاذا اراد علم النفس ان يرسم الواقع الحي كما هو فلا بد ان ينحل الى الادب ، بل لا بد ان ينحل في الادب ، ان يدوب في الادب .

علم الطباع اذن حد وسط بين الادب وعلم النفس . فبينما يدرس علم النفس الانسان عامة ، وبينما يتناول الاديب الاناسي فرداً فرداً ، فان علم الطباع يرى في الاناسي نماذج فيها يحشرون .

وعلم النفس العام وعلم الطباع كلاهما يقتطعان اذن من الواقع الحي بعض

الصفات التي يشترك فيها الافراد او زمر من الافراد ، ليرسم الهيكل العظمي لهؤلاء الافراد ، ان صح التعبير ، بينما الادب يصور هذا الواقع الحي كما هو .

وثمة سؤال : اليس يقطع الادب هو ايضاً ، ان تلك الفترة من حياة عطيل التي صورها شكسبير ليست منفصلة عن الفترات التي سبقتها ، بل ان الحوادث التي ذكرها شكسبير من هذه الفترة ليست كل حياة عطيل في هذه الفترة ، وعطيل مرتبط بعصره ، مرتبط بالتاريخ كله . والتاريخ كله مرتبط بعوامل قد تكون فلكية . . . لا يستطيع شكسبير ان يذكر كل التفاصيل من حياة عطيل . ولو فعل ذلك لما كان فناً بل لكان مؤرخاً شأنه تجاه عطيل الفوتوغراف تجاه منظر طبيعي او وجه انساني ، انه لو فعل لاغرق النعمة الاساسية التي هي روح عطيل تحت ركام التفاصيل . وانما الفنان هو ذلك الذي يدرك الوحدة وراء الكثرة ، لا الوحدة المجردة ، بل الوحدة العيانية التي ليست الكثرة الاتجلياتها المختلفة ، ومتى ادرك مؤلف الدراما تلك الوحدة وراء الكثرة سهل عليه ان يقتطف من الكثرة بعض وجوها اعني الوجوه التي تنحدر مباشرة من الاصل تقول عليه او قولوا توحى به انما الفنان ، كما يقول الاستاذ زكي الارسوزي ، هو ذلك بما يمد اليه من اساليب هي هنا الصور المقتطعة من الواقع ، يشبه الساحر الذي يهيء الجو لحضور المارد ( بنجر ، تراويل ) . والسحرة يتفاوتون قدرة ، فبعضهم لا يظفر في احضار المارد مهما يبذل من جهد ، وبعضهم تكفية كلمة واحدة هي كلمة السر ، فاذا المارد طوع البنان .

ايها السيدات والسادة :

ايكون حديثي هذا اسخفاً بالعلم على وجه العموم ، وبعلم النفس على

وجه الخصوص؟ اللهم لا... انتم ادرى بقيمة العلم في هذا العصر الذي حطم  
الذرة، وبقيمة علم النفس في هذا العصر الذي اقام تنظيمه للعمل على اساس  
خصب من علم النفس. ليس حديثي هذا استخفاقا بالعلم ولكنه ان شئتم  
دفاع عن الادب.

سامي الدروبي



المحاضرة الرابعة

## مشاريع الخطوط الحديدية في سوريا

الأستاذ المهندس محمد العالم

= القيت بتاريخ ٣ / ٢ / ١٩٥٤ =

تبرکات

ایرود بنی تبرکات الی یکتا و سید لست

بالتا بنی تبرکات الی یکتا

— ۱۰ —





تركيا

سوريا

شرق الأردن

البحر الابيض المتوسط

بيروت

دمشق

القدس

عمان

القاهرة

المنة

الرتة

حلب

اردب

اللاذقية

بانياس

عماه

محص

طاب

بيارة

حيفا

ناب

السويداء

لذرا

البياربن

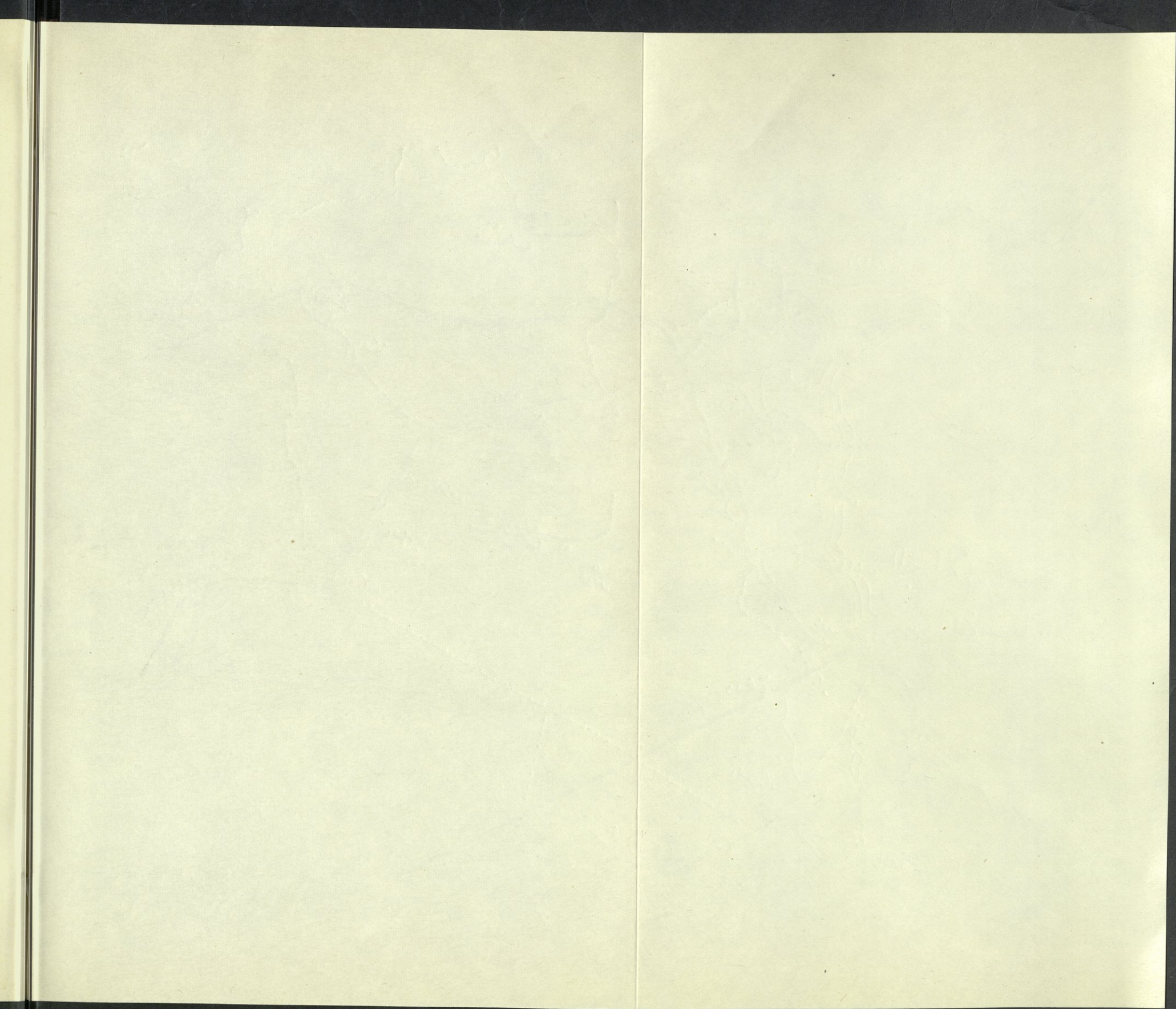
البركان

القطر العربي المشرق

الغزات

الحرصه

تدمر



## المقدمة

كان المواطنون بين الحربين العالميتين يجمعون على التفكير في هدف واحد ويعملون على تحقيق غاية واحدة هي الاستقلال السياسي ، وفي هذه السبيل بذلت جميع الجهود والتضحيات . حتى اذا ما تحققت الآمال وغادر الاجني بلادنا العزيزة واصبحت سيدها مصيها ظن الكثيرون ان الحياة ستصبح لينة ناعمة لاننا بلغنا المنى وحققنا غاية الغايات .

غير ان الواقع الملح وتطلبات الحياة الفردية والعامية سرعان ما نهت الى ان الاستقلال لا يمكن لو حده ان يكون غاية الغايات واننا ان اقتنا على الاكتفاء به اضغناه او اضغنا معناه . وقد انبعثت اثر هذه اليقظة صيحات عالية تنادي بدعم الاستقلال وجعله اساساً نهوض دائم وتقدم مستمر ، ولم يغفل المفكرون والعاملون عن ان من اقوى ما يدعم الاستقلال السياسي النهضة الاقتصادية الشاملة وفي سبيل النهضة الاقتصادية اخذ الافراد والحكومات المتعاقبة يضعون المناهج لتعزيز المرافق الاقتصادية فكان لنا من ثمرات الجهد الحكومي مشروع الثلاث سنوات الري والذي خصص له ( ١٣ ) مليوناً من الليرات ومشروع الطاقة الكهربائية الذي قدر له ( ٥٠ ) مليوناً من

الليرات تنفق على خمس سنوات ومشاريع الروج والغاب ومرافق الاذقية ومن ثمرات الجهود الفردية الشركات الصناعية المختلفة والانتاج الهائل من الجيوب والقطن فقد ارتفعت محاصيل الجيوب من ٧٠٠٠٠٠٠٠ طن في عام ١٩٤٧ الى ١٠٥٠٠٠٠٠٠ طن في عام ١٩٥٤ وارتفع محصول القطن المحلوج في الفترة نفسها من ٥٤٠٠ طن الى ٧٠٠٠٠٠٠ طن وارتفع على هذا الاساس الدخل القومي من حوالي ١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ليرة الى ١٠٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠ ليرة .

ان الواقع يزداد الحاحا وواجباتنا في دعم الكيان الاقتصادي تزداد ثقلاً ووضوحا لاسيما بعد ان ادركنا ان العدو الرابض على حدودنا الجنوبية ، في قلب البلاد العربية المتطلعة للوحدة ، لن يقدر له ان يعيش الا اذا استطاع ان يغزو تلك البلاد اقتصادياً . فكل تقاعس في دعم الاقتصاد في البلاد العربية يترك ثغرة ينفذ منها الاقتصاد الصهيوني الحديس ونحن لانعدو الحقيقة اذ نقول ان تحصين بلادنا اقتصادياً لا يقل اهمية عن التحصين العسكري منها بلغت منتهى .

اننا ننظر بارتياح عميق الى هذه النهضة الاقتصادية المباركة تشمل انحاء البلاد ونستقبل بالطمأنينة والرضى الاخبار السارة عن تأسيس المعامل والمحالج وعن وفرة المحاصيل الزراعية وعن الخطوات السريعة لانجاز مرافق الاذقية . ولكن هل يكفي اننا اسسنا المعامل واننا انتجنا القناطر المقنطرة من القمح والقطن وان مرافق الاذقية اصبح على استعداد لاستقبال السفن الضخمة ؟ علينا ان نصدر مافيض عن حاجتنا وان نستورد ما نحن في حاجة اليه ، لاسيما لزيادة الانتاج ، ولان يكون هذا ميسوراً سهلاً الا اذا أمنا وسائل النقل الرخيصة الكافية . ان السرعة في الانتاج يجب ان تقابلها سرعة في تأمين المواصلات والا اصبحت قدرتنا الاقتصادية الجبارة مغلوله مشلوله .

لسنا بحاجة الى كثير من الصراحة لنعلن ان سياسة المواصلات لم تتضح

اتجاهاتها بعد ، فهي لازالت غامضة مهمة وعرضة للتغيير والتبديل في كل آن .  
فقرار لجنة المواصلات لجامعة الدول العربية في آب من عام ١٩٤٦ والمقترحات  
التي قدمها اذ ذاك دولة السيد خالد العظم ومقترحات السيد الكسندر جيب وشركاه  
في نيسان ١٩٤٧ ومقترحات الخبير المصري السيد نقولا قبعين في تموز ١٩٤٨  
واخيراً فان المقترحات المفصلة التي قدمها مدير المواصلات السيد انيس شباط في  
كانون الثاني عام ١٩٤٩ تحت عنوان « سياسة السكك الحديدية » لم يقدر لها بعد  
ان تغدو اكثر من مقترحات . وكذلك فان الدراسة الاولية التي قامت بها ادارة  
الخطوط الشمالية لخط حديدي يربط المحافظات الاربع الاذقية وحلب والفرات  
والجزيرة لازالت تنتظر التحقيق .

نعتقد انه قد حان الوقت لنصمم وننفذ فان الوقت لا يستطيع ان ينتظر .



ان نحاول هنا بيان سياسة جديدة للخطوط الحديدية في سوريا لان هذه  
السياسة كما قلنا قد اشبعت بحثاً وتفصيلاً ووضع لها الباحثون خطوطاً عامة جاءت  
في اكبرها مقارنة متشابهة ولذا سنقصر بحثنا على ايضاح اربع نقاط :

أ - حاجتنا الى خطوط المواصلات .

ب - المقارنة بين الطرق والخطوط الحديدية .

ج - مشاريع الخطوط التي يجب انجازها .

د - تمويل هذه المشاريع .

أ - حاجتنا الى خطوط المواصلات

ان ماسردناه من الاسباب الوجيهة يفصح بيان عن حاجتنا الملحة الى

خطوط المواصلات تربط اجزاء البلاد بعضها ببعض وتربط هذه البلاد مباشرة او  
عن طريق البحر بالبلاد العربية والاجنبية .

وسندعم هذه الحقيقة بالارقام التي توضح الفرق الهائل بين خطوط

المواصلات في بلادنا وخطوط المواصلات في البلاد التي تتطلع لمجاراتها في

الاقتصاد ( الملحق رقم ١ ) .

البلاد التي تربطها خطوط المواصلات الحديثة والبلاد التي تربطها خطوط المواصلات القديمة  
والبلاد التي تربطها خطوط المواصلات الحديثة والبلاد التي تربطها خطوط المواصلات القديمة  
والبلاد التي تربطها خطوط المواصلات الحديثة والبلاد التي تربطها خطوط المواصلات القديمة

والبلاد التي تربطها خطوط المواصلات الحديثة والبلاد التي تربطها خطوط المواصلات القديمة  
والبلاد التي تربطها خطوط المواصلات الحديثة والبلاد التي تربطها خطوط المواصلات القديمة  
والبلاد التي تربطها خطوط المواصلات الحديثة والبلاد التي تربطها خطوط المواصلات القديمة

والبلاد التي تربطها خطوط المواصلات الحديثة والبلاد التي تربطها خطوط المواصلات القديمة  
والبلاد التي تربطها خطوط المواصلات الحديثة والبلاد التي تربطها خطوط المواصلات القديمة  
والبلاد التي تربطها خطوط المواصلات الحديثة والبلاد التي تربطها خطوط المواصلات القديمة

والبلاد التي تربطها خطوط المواصلات الحديثة والبلاد التي تربطها خطوط المواصلات القديمة  
والبلاد التي تربطها خطوط المواصلات الحديثة والبلاد التي تربطها خطوط المواصلات القديمة  
والبلاد التي تربطها خطوط المواصلات الحديثة والبلاد التي تربطها خطوط المواصلات القديمة

ملحق رقم ١

الخطوط الحديدية (كيلو مترات)		الطرق (كيلو مترات)		الساحة كيلو مترات مربعة	عدد السكان
لكل مائة الف نسمة	لكل ألف مربع	لكل ألف مربع	الطول الاجمالي		
٦٠	١٦١	١٤٠	١٠٦٩٠	٣١٠٠٠٠	٨٣٨٩٠٠٠ بلجيكا
٧٠	١٠٠	—	—	٣١٤٠٠٠٠	٤٥٠٠٠٠٠٠٠ انكلترا
١٠٠	٧٥	١٥٠٠	٦٣٠٠٠٠ (٣)	٥٥٠٠٠٠٠	٤١٠٠٠٠٠٠ فرنسا
٣٠٠	٤٥٣	٣٤٠٠	٧٩٥٠٠٠	٩٣٩٥٠٠٠٠	١٤١٠٠٠٠٠٠ الولايات المتحدة
٢٤	٤٨	٩٠	٣٥٠٠ (١)	١٨٠٠٠٠٠	٤٠٠٠٠٠٠٠٠ سوريا

(١) منها (٣٣١) كم من الخطوط الضيقة .

(٢) عدد ٣٥٠ ألف كم من الطرق المحلية .

ولكن هذه المقارنة لوحدها لاتعطي فكرة واضحة عن حالة المواصلات في سوريا . فاذا اضفنا الى هذه الصورة الكمية الصورة الكيفية ازدادت الفروق وضوحاً فنحن مثلاً لانستطيع ان نقارن طريقاً عرضها تسعة امتار (العرض الاقصى في بلادنا) عبدت على طريقة عام ١٩٠٠ بطريق جديدة عرضها يتجاوز الخمسين متراً وقد يصل الى المائة تتحمل من السيارات اقصى السرعة واثقل الاوزان .

ونحن لانستطيع ان نقارن خطأً حديدياً وزنه ٣٢ كغ بالتر تسير فوqe قطر لانستطيع ان تجر حمولة تتمدى الالف طن بسرعة تجارية قدرها ٣٠ كم في الساعة بخط حديدي وزنه ٧٠ كغ تسير فوqe قطر تجر حمولة وصلت الي ٢٣٥٠٠ طن في احدث القطارات الكهربائية في اميركا ، هذه القطارات التي تستطيع ان تسير بسرعة ٩٠ كم في الساعة .

## ب - المقارنة بين الطرق والسكك الحديدية

مادامنا قد لمسنا هذا النقص الهائل في خطوط المواصلات فسنحاول حتماً تلافي هذا النقص ولكن باي الوسائل ؟ ازيادة شبكة الطرق او اطالة الشبكة الحديدية ، لابد لنا قبل ابداء الرأي الفصل من المفاضلة بين هذين الحلين :

١ - الاستطاعة : ان امكانيات النقل في السكك الحديدية تفوق بكثير امكانيات السيارات وقد دلت الدراسات النظرية والعملية على ان

حصاناً بخارياً واحداً ينقل في الطائرة	١٣ كيلو غراما
= = = =	= ٤١
= = = =	= ٢٩٠
= = = =	= ٦٤٠



اي ان حسان القطار الحديدي ينقل ٥٠ ضعفاً ماينقله حسان الطائرة  
 و ١٦ ضعفاً ماينقله حسان سيارة ديزل ولهذا السبب فان ماينقله القطار العادي  
 الواحد اي ١٠٠٠ طن من البضائع لا يمكن نقله الا بـ ١٠٠٠ سيارة حملتها ١٠  
 اطنان . ان الخطوط الشمالية بوسائلها القديمة الهزيلة تستطيع نقل مايزيد عن  
 ٦٠ الف طن في الشهر الواحد بينما يتطلب تأمين هذه النقلات اكثر من ٨٠٠  
 سيارة ديزل .

٢ - استهلاك الوقود : اثبتت الاحصاءات العالمية ان السيارات تستهلك  
 مقداراً عظيماً من المحروقات اذ ان نقل الطن الكيلو متري الواحد يتطلب :

٢٤٠	وحدة حرورية بسيارة ديزل	ثمانها ٢،٢	قرش سوري
١٢٠	بالبقطار البخاري	٠،٨	=
٤٨	بالقطار ديزل	٠،٥	=

تدل هذه الارقام على ان السيارات لا تكلف مبالغ طائلة لشراءها وصيانتها  
 فحسب بل انها تبدد مقادير هائلة من المحروقات التي ترى بلادنا بامس الحاجة اليها  
 لتأمين مصالحتها الزراعية والصناعية والتي تدفع ثمنها ، وبالاسف ، قطعاً نادراً .

٣ - رأس المال : ان المقارنة بين كلف النقل بواسطة السيارات  
 والسكك الحديدية تلقي نوراً ساطعاً على ميزات هذه الاخيرة . سنفرض ان  
 محاصيل محافظتي الفرات والجزيرة تبلغ سنوياً ٦٠٠ الف طن يجب ان تنقل  
 خلال ستة اشهر كما نفرض ان مسافة النقل القصوى تبلغ ٥٠٠ كيلو متر ومسافة  
 النقل الوسطى ٤٠٠ كيلو متر ، لان ادوات السكك الحديدية تستهلك على ٣٠  
 سنة فستتخذ هذه المدة اساساً في الحساب .

فنقل هذه المحاصيل بواسطة السيارات يتطلب :

أ- انشاء ٥٠٠ كيلو متر من الطرق بسعر ٥٠ الف ليرة سورية لكل  
كيلو متر . ٢٥ مليون ليرة سورية

ب- شراء ١٣٠٠ سيارة ديزل حمولتها ١٠ اطنان تساوي قيمتها ٤٠  
مليون ليرة سورية . ولما كانت السيارات تستهلك بمدة لاتزيد عن ٥ سنوات فان  
ثمان شراء السيارات على ثلاثين سنة يكلف البلاد ٢٤٠ مليون ليرة سورية

ج- صيانة الطرق وتقدر هذه الصيانة بـ ١٠٠٠٠ ليرة سورية للكيلو متر  
الواحد في السنة وعلى ثلاثين سنة تكلف صيانة ٥٠٠ كيلو متر ١٥ مليون ليرة  
سورية وقد تبلغ اكثر من ذلك عندما يزداد النقل وتزداد حمولة السيارات ١٥  
مليون ل.س.

د- صيانة ١٣٠٠ سيارة خلال ٣٠ سنة ( منها ١٤٠ مليون ليرة سورية  
للمطاط فقط ) . ٢٩٥ مليون ل.س .

هـ- محروقات سائلة قيمتها

٢٥  
المجموع ٦٠٠ مليون ل.س.

اما نقل هذه المحاصيل بواسطة السكك الحديدية فيتطلب :

أ- انشاء ٥٠٠ كيلو متر من الخطوط قيمتها ٧٠ مليون ل.س.

ب- صيانة الخطوط الحديدية على ٣٠ سنة ٢٤ مليون ل.س.

ج- شراء ٩٠٠ شاحنة و ٢٥ قاطرة ٢٢ مليون ل.س.

د- صيانة ٩٠٠ شاحنة و ٢٥ قاطرة خلال ٣٠ سنة ٤٥ مليون ل.س.

المجموع ١٧٥ مليون ل.س.

ان هذه الارقام المستقاة من اوثق المصادر ومن الاحصاءات العالمية الدقيقة ومن احصاءاتنا في الخطوط السورية ، هذه الارقام لاتحتاج الى تعليق ولكننا اذا تذكرنا ان ثمن المطاط اللازم للسيارات - لال ٣٠ سنة اي ١٤٠ مليون ليرة سورية بالاسعار الحاضرة وجدنا ان هذا المبلغ يسد تقريباً جميع حاجات السكك الحديدية بما في ذلك نفقات الانشاء وشراء وصيانة الادوات وثمان المحروقات ، وبالفعل فقد اشترت سوريا خلال عامي ١٩٥٣ / ١٩٥٤ فقط من السيارات والمطاط وقطع التبديل ما يكفي لانشاء الخط الحديدي بين حلب والجزيرة او بين حلب واللاذقية .

٤ - نظام التعريفات : يخضع النقل في السكك الحديدية ، التي تعمل في خدمة المصلحة العامة ، الى نظام يمكنها من تأمين حاجة التجارة والزراعة بدقة واستمرار وباسعار ثابتة على عكس السيارات التي تعمل في خدمة المصالح الخاصة فان اسعارها تتقلب حسب العرض والطلب فاجرة نقل الطن من الحبوب بسيارة من الجزيرة الى حلب مثلاً تتراوح بين ١٨ - ٥٥ ليرة سورية وهذا التفاوت الكبير يجعل من المستحيل على التاجر حساب كلفة البضاعة التي يريد تصديرها الى الخارج . ونتيجة لزيادة اسعار النقل قد يمتنع التصدير او تهبط اسعار المحاصيل فتبلغ حداً ادنى من كلف الانتاج وهذا ما حدث اول الموسم الزراعي لهذا العام اذ بلغت اسعار الشعير ١٢٥ ل.س. للطن مع ان اجور نقله بالسيارات من الجزيرة الى اللاذقية كانت ٧٥ ل.س. ومن جهة اخرى يمكن مساعدة للتصدير ان تدرس الاسعار في الخطوط الحديدية بحيث تنقل البضائع الرخيصة باسعار قليلة وتنقل

البضائع الغالية بأسعار اعلى كما هو الحال بكثير من بلدان العالم كتركيا مثلا  
وهذا الحل لا يمكن تطبيقه في السيارات التي تنقل على اساس الوزن وحده .

٥ - الامان : تؤمن السكك الحديدية النقل بامان تام لأن انظمتها الصارمة  
لاترك مجالا للاهمال والاهواء الشخصية كما هي الحال في قيادة السيارة حيث تحدث  
في كل يوم طوارئ مختلفة تذهب غالباً بالارواح والاموال . وقد دلت احصاءات  
عام ١٩٥٠ بفرنسا ان نسبة الوفيات لكل مليار راكب كيلو متري

٦٣ في الطائرة

١٠٨ في السيارة

٠٠٦٤ في السكك الحديدية

وفي امريكا ( الولايات المتحدة ) عام ١٩٥٣ تدنت النسبة الى ٠٠٤٠ اي  
اصبحت ١٥٧ مرة اقل من الطائرات و ٢٥٠ مرة اقل من السيارات وبالمناسبة  
تؤكد انه لم يقتل اي راكب على خطوطنا منذ سنوات عديدة ( استناداً الى  
هذا الاحصاء يموت شخص واحد خلال ٤٤٥ سنة بسبب القطارات على الخطوط  
الشمالية ) وهذا مالا تستطيع السيارات تأمينه حتى ليوم واحد .

٦ - الرفاه : ان امكانيات القطر من حيث السرعة والراحة تفوق بكثير  
امكانيات السيارات وليس من العدل في الحكم ان تقارن قطاراتنا من طراز عام  
١٩١٢ بالسيارات الفخمة من طراز عام ١٩٥٥ بل يجب ان تقارن هذه بما تتمتع  
به قطارات عام ١٩٥٥ من ميزات . فالقطار الذي يسير بين باريس ومارسيليا  
مثلا يقطع المسافة بسرعة وسطى قدرها ١٢٢ كم في الساعة وهذه سرعة لم تبلغها  
السيارات . اما عن الراحة والرفاه فلا سبيل المقارنة لان الفرق جده شاسعة .

٧- كف الصيانة : لقد بدأت البلاد الاوروبية والاميركية تشعر بمساوىء السيارات الثقيلة التي زاد استعمالها في السنين الاخيرة اذ ان هذه السيارات تتلف الطرق بسرعة غريبة ولا حيلة للحكومات الا باعادة انشاء هذه الطرق وصيانتها صيانة كثيرة الكلفة وهذه الكلفة تقع على عاتق الدولة لاعلى عاتق اصحاب السيارات بينما تدخل نفقات صيانة الخطوط في حساب كلفة النقل بالسكك الحديدية . وقد اجمعت آراء الخبراء في بلادنا على ان طرقنا الحاضرة لم تعد تصلح لسير السيارات الثقيلة عليها وان الحل الجذري لهذه المشكلة هو انشاء شبكة طرق جديدة لان كل عمليات الترقيع التي تقوم بها الاشغال العامة سنويا عمليات محكوم عليها بالفشل المحم .

هذه بعض الحجج الدامغة التي تدفعنا الى تعزيز الخطوط الحديدية .

غير انه يجب الا يفهم مما قلنا اننا نستطيع الاستغناء عن سيارات النقل . فالسيارات ضرورية لتأمين النقلات على مسافات قصيرة ولا بصال المحاصيل الى الخطوط الحديدية . تدل الاحصاءات على ان تكاليف النقل على مسافات لاتزيد عن ٢٠٠ كيلو متر ادنى بالسيارات منها بالسكك الحديدية وذلك لانه على هذه المسافات القصيرة تؤثر اجور التفرغ والتحميل تأثيراً كبيراً في الكلف النهائية . فالسيارات تنقل البضاعة مباشرة من محل الانتاج الى المستودع واما الخطوط الحديدية فتحتمل الى وسيلة لتأتي بالبضاعة من محل الانتاج الى شاحناتها ثم لنقل هذه البضاعة من الشاحنات الى المستودع وتتخلل هذه العمليات عمليات تحميل وتفرغ عديدة . هذا مع العلم ان الاساليب والادوات الحديثة التي تستخدمها السكك الحديدية في نقل البضائع من مخازن المصدر الى مخازن المورد تنقص كثيراً من النفقات النهائية .

وعلى هذا الاساس يجب تعميم المواصلات بشكل تصبح به الخطوط

الحديدية شرايين رئيسية تفرع عنها شرايين ثانوية قد تكون طرقا وقد تكون سككاً حديدية حسب اهمية المحاصيل وبعد المسافات على الاينشأ طريق حيث يوجد خط حديدي وعلى العكس ونذكر على سبيل المثال ان الحكومة الايرانية بعد ان انشأت الخط الحديدي عبر ايران قامت بتخريب الطريق الموازية له .

فاذا تجنبنا اخطار مزاحمة السيارات للسكك الحديدية وانحسار الفجادة التي تنجم عن هذه المزاحمة لكل من هاتين الوسيلتين اللتين تتمم كل منهما الاخرى نكون قد وضعنا اسساً ثابتة لسياسة المواصلات .

ونحن نرى انه يجب ويمكن تجنب هذه الاخطاء في بلادنا الناشئة فـيما تنوي الحكومة عمله بعد اليوم لدرء اخطار المزاحمة والاقتصاد في النفقات ونشير بالمناسبة الى ما اتخذته بعض الحكومات الاوروبية من تدابير لتأمين الانسجام بين وسائل النقل بالقطارات والسيارات :

« ١ - عدم السماح بنقل البضائع بواسطة سيارات الشحن الا لمسافات ضئيلة معينة في كل دولة فهي لا تتجاوز الثلاثين كيلو متراً في سويسرا و ٥٠ كيلو متراً في المانيا و ١٠٠ كيلو متراً في النمسا » .

« ٢ - اخضاع جميع شركات النقل بالسيارات الى اذن خاص من هيئة حكومية تقوم بدراسة الطلب ولا تسمح به الا اذا انسجم مع سياسة الدولة الاقتصادية » .

« ٣ - تقسيم الطرق الى صنفين . الطرق الموازية للسكك الحديدية من جهة والطرق غير الموازية لها من جهة ثانية ولا يسمح بالنقل على الطرق الموازية للسكك الحديدية الا باذن خاص وذلك في الحالات القصوى وباسعار اعلى من النقل

على الطرق غير الموازية .

### ج - مشاريع الخطوط الحديدية

قلنا ان بعض الهيئات والخبراء قاموا بدراسة برنامج شامل لشبكة الخطوط الحديدية في سوريا فاذا رجعنا الى هذه المقترحات وجدنا ان الكتل يجمعون على تفضيل خطين رئيسيين :

( ١ ) خط حمص - دمشق العريض ماراً بالقرينين او بالنبك وطوله حوالي ٢٨٠ كيلو متراً .

( ٢ ) خط الجزيرة - حلب - اللاذقية الذي يمر بوادي الخابور والفرات وبين سهلي الروج والغاب وطوله حوالي ٧٠٠ كيلو متر .

ان اقوى العوامل التي تدعونا الى التفكير في السكك الحديدية بصورة خاصة وخطوط المواصلات بصورة عامة هو ازدياد محاصيل الفرات والجزيرة باطراد وضرورة تصريف هذه المحاصيل عن طريق اللاذقية المرفأ السوري الوحيد. ولذا يصبح من البديهي ان يحتل خط الجزيرة - اللاذقية المقام الاول وان نعزم اول مانعزم على انشاؤه بكامله .

ولكن اذا منعتنا الصعوبات المالية من تحقيقه بشطريه الجزيرة - حلب ، حلب - اللاذقية فباي شطر يجب ان نبتدىء .

لابد قبل الاجابة ان نذكر ان الطرق - ان صحت تسميتها بهذا الاسم - التي تصل المحافظات الشرقية بالمحافظات الغربية في حالة مؤلفة وان الخط الحديدي

ليس في حال تبعث على الطائفة لاسباب التالية :

اولاً : يمر هذا الخط في اقصى الشمال ويؤلف معظمه جداً بيننا وبين البلاد التركية بل ويمر على طول ٣٨٠ كم داخل الاراضي التركية مع ان طولها في الاراضي السورية لا يتجاوز ٤٥ كم وهو لذلك لا يخدم من الاراضي السورية الا شطراً بقع الى جنوبه .

ثانياً : ان مرور الخط بالاراضي التركية لا يحقق الانسجام اللازم في تسيير قطره ويخلق باستمرار صعوبات تعرقل الاستثمار وقد تؤدي احيانا الى اعاقة النقل بل توقفه وهذا ما يحدث مرات كثيرة كل عام بسبب نقاذ الفحم او نقص القاطرات والشاحنات على الخطوط التركية .

وفيه ق هذا فان معظم اجور النقل يدفع الى الخطوط التركية ولا يبقى للخطوط السورية اكثر من ربع الربع حتى ان مادفعناه الى الاتراك عام ١٩٥٠ قد بلغ ثلاثة ملايين ونصف المليون من الليرات السورية اديت بالعملة الصعبة - جنيتها استرلينية - وفي عام ١٩٥٤ استتعدى حصتهم خمسة ملايين ولو ان سوريا جمعت هذا الربع فقط خلال عشرين عاما لانجزت به خطها الجديد .

ويجب ان لا ننسى الصعوبات التي يعانها الشاحنون والمسافرون والنفقات التي يتكبدونها بسبب الجمارك والامن العام اذ يتعرضون للنفتيش : اربع مرات للمسافر من القامشلي الى حلب في القامشلي ونصيبين وجوبان بك واخترين - وسبع مرات للمسافرين الدوليين مرة على الحدود العراقية السورية في تل كوجك ومرتين على الحدود السورية التركية في القامشلي ونصيبين ومرتين على الحدود التركية السورية في جوبان بك واخترين ومرتين ايضاً على الحدود السورية التركية في ميدان اكبس واصلاحية .



هذه العراقل وغيرها تبعد المسافرين والتجار عن السكك الحديدية .  
يكفي ان نذكر ان توقف القطار على الحدود من القامشلي الى حلب يبلغ ساعات  
للقطارات السريعة و ٦ ساعات تقريباً للقطارات المختلطة ونعني بذلك التوقف  
النظامي . اما مدة التوقف الطارئ والتأخر فقد يزيد عن مدة سير القطار بكاملها  
وهي ١٥ ساعة للقطارات السريعة و ٢٣ ساعة للقطارات المختلطة .

ثالثاً : ان الخط الحالي لا يتناسب مع التطورات الحديثة للخطوط العالمية  
فهو ضعيف لا يتحمل اكثر من ١٦ طناً في القطة الواحدة بينما تتجاوز حمولة  
القطة الواحدة ٢٥ طناً في البلاد الاوروبية حتى انها تقارب الاربعين طنناً في  
اميركا . . . وهذا يعني اننا لن نتمكن من تسيير قطارات ثقيلة على هذا الخط  
وبالتالي ان سعر الكلفة لا يمكن ان يتدنى فتبقى تعرفه النقل مرتفعة .

رابعاً : واخيراً نجد بان هذا الخط محكوم بالافلاس لان الاتراك الذين  
لا يروق لهم اضطرارهم لاجتياز الاراضي السورية لنقل محاصيلهم وبضائهم  
وجنودهم ينشئون في الوقت الحاضر خطاً يصل جرابلس بعينتاب ونارلي وعندما  
ينتهي هذا الخط خلال عام ١٩٥٦ سيستغنون عن خطنا وسنخسر بذلك استناداً  
الي احصاء عام ١٩٥٤ - اربعة ملايين ليرة سنوياً ناهيك عن الصعوبات التي  
سنلقاها من جراء استغنائهم عنا وحاجتنا اليهم .

هذه الاسباب ، فقدان الطرق التي تربط اجزاء محافظة الجزيرة ببقية  
المحافظات وفقدان الطرق التي تربط اجزاء محافظة الجزيرة بعضها ببعض ، وسوء  
حال الخط الشمالي في حاضره وبؤس مستقبله واخيراً امكانية اصلاح الطريق بين  
حلب والاذقية بنفقات لا تزيد عن ثلاثة ملايين من الليرات السورية ، هذه  
الاسباب مجتمعة تفرض علينا ان لم يكن في وسعنا انجاز خط الاذقية - الجزيرة  
بكامله ان نبدأ في القسم الممتد بين حلب والجزيرة . ويؤيد هذه النتيجة

ما يتمتع به هذا الخط من ميزات في شتى النواحي الفنية والاقتصادية والعمراية والاجتماعية والعسكرية .

مميزات خط الجزيرة

١ - الفائدة الزراعية : ان الخط المصمم يمر في مناطق الانتاج الكبرى اي الاراضي التي يرويها الجعجع والخابور - والفرات وتشير الاحصاءات الرسمية الى ان ٣٤٠٠٠٠٠ هكتار من الاراضي الزراعية في الجزيرة والفرات وحلب هي غير مزروعة . واذا قدرنا انتاج الهكتار بطن واحد من القمح اتضح لنا ان محاصيل هذه المناطق سوف تفوق كل ما يمكن ان نتخيله وانها في الحقيقة العنصر الهام في ثروة البلاد .

٢ - هبوط كلفة النقل : من الامور المسلم بها ان اسعار النقل في السكك الحديدية تتدنى كلما زادت الكميات المنقولة . ولما كانت الاراضي المزروعة تزداد سنة بعد سنة وبالتالي المحاصيل فسوف تهبط اجور النقل هبوطاً محوساً . ونحن نتوقع ان لزيادة كلفة نقل الطن الكيلو متري الواحد عن ٣ قروش بظروف اقتصادية مشابهة للظرف الحالي اي ان نقل الطن الواحد على مسافة ٤٠٠ كيلو متر سوف لا يكافئ اكثر من ١٢ ليرة سورية في حين ان الطن الكيلو متري الواحد يكافئنا في الوقت الحاضر في السكك الحديدية ٦ قروش وفي السيارات ٨ الى ١٠ قروش وجلي ان لهذا الهبوط في اسعار النقل اثراً كبيراً في الاسعار النهائية للحاصلات الرخيصة .

٣ - تعزيز الصلات التجارية والترازيت بيننا وبين العراق : لا يربطنا بالعراق في الوقت الحاضر سوى الخط الحالي وقد بينا مساوئه وسوف يكون

الخط المصمم نواة الخط مباشرة بين سوريا وهذا البلد الشقيق بعزز تبادل المنتجات بيننا وبينه ويسهل نقل البضائع بالترازيت من العراق الى البحر الابيض المتوسط كالتمور والاعناب وسواها . وسيحقق هذا الخط بعد مد خط حلب اللاذقية ربط الخليج الفارسي بالبحر الابيض المتوسط وقد دلنا التجارب انه كثيراً ما يعترض نقل المحاصيل العراقية عبر سوريا ارتفاع اسعار النقل فتتقل عن طريق البحر من البصرة وعدا ذلك فان في هذا العمل تحقيقاً لاهداف بنود توصيات لجنة المواصلات للجامعة العربية التي انعقدت في صوفور عام ١٩٤٦ .

٤ - الاستغناء عن الطرق التي تنوي الحكومة انشاءها : تفكر الحكومة في انشاء طرق عديدة في شرقي البلاد ولكن بما لاشك فيه ان الخط المصمم سيغنيها عن انشاء كثير من الطرق المعبدة في المحافظتين الشرقيتين . فالطرق تكلف مبالغ كبيرة كما بينا سواء أكان لانشاءها او لصيانتها ومن الطرق الكبيرة التي سيغنيها عنها خط طريق القامشلي الحسكة وطريق الحسكة دير الزور اي ما يعادل ٢٥٠ كيلو متراً من الطرق ونذكر بالمناسبة ان ليس على الفرات سوى جسرين في الاراضي السورية وهما جسر الرقة وجسر دير الزور . وهذا يعني انه لا يمكن اجتياز الفرات الابهاتين النقطتين مما يعرقل تنقل الاشخاص والبضائع داخل الاراضي السورية ، فاذا انشيء الخط الحديدي المصمم وفر على الدولة نفقات جسر كبير تقدر تكاليفه بخمسة ملايين ليرة سورية . ان الجسر المنوي انشاءه حيث يجتاز مشروع السكك الحديدية الفرات يقع في مسكنة وهي نقطة متوسطة ما بين جرابلس والرقة .

٥ - سهولة الانشاء : ان مد خط حديدي في الاراضي الشرقية من السهولة بمكان لانبساط الاراضي . وليس هناك من الاعمال الصناعية الكبيرة سوى جسر على الفرات وقد بينا انه من الضرورة انشاء مثل هذا الجسر ولولم يعتمد

الى انشاء خط حديدي . وتفيد الدراسات الفنية الاولية ان كيلو متراً من الخط الحديدي ماين حلب والاذقية يكلف اكثر من مثلي كلفة الكيلو متر الواحد ماين حلب والجزيرة . اي ان الخط المصمم ويبلغ طوله ٤٦٠ كيلو متراً يكلف المبلغ الذي يتطلبه انشاء خط حلب الاذقية والذي طوله ٢٠٠ كيلو متر فقط . الخط الاخير يسير في مناطق جبلية لا يمكن اجتيازها الا بواسطة الانفاق والجسور الكبيرة . ومع ان تكاليف الخطين متقاربة فان واردات خط الجزيرة تزيد عن مثلي واردات خط الاذقية .

٦ - قصر مدة الانشاء : ان الوقت الذي يتطلبه انشاء خط الجزيرة على طوله اقل من الوقت الذي يتطلبه انشاء خط الاذقية على قصره فمدة دراسة خط الاذقية لاتنقص عن السنة ونصف السنة بينما دراسة خط الجزيرة لاتطلب اكثر من سنة . وقد قدر الاختصاصيون مدة انشاء خط الاذقية بربع سنوات على الاقل ولا تزيد مدة انشاء خط الجزيرة عن ثلاث سنوات اذا توفر المال اللازم .

٧ - استحالة مزاحمة السيارات : قلنا ان سعر النقل يتدنى بزيادة الكميات المنقولة . وبما لاشك فيه ان كلفة الطن الكيلو متري على خط الجزيرة سيكون ضئيلاً جداً اسببين اولهما سهولة الخط فالقاطرة التي تجر ١٥٠٠ طن على خط الجزيرة لا يمكنها ان تجر اكثر من ٦٠٠ طن على خط الاذقية وهذا يعني ان كلفة الطن الكيلو متري على خط الجزيرة ستكون اقل من نصف كلفة الطن الكيلو متري على خط الاذقية ويمكن التأكيد بان كلفة النقل على خط الجزيرة ستكون غير قابلة للمزاحمة . اما كلفة النقل على خط الاذقية فستكون مرتفعة بالنسبة الى خط الجزيرة وقد قدرنا بخمسة قروش للطن الكيلو متري وبهذه الاسعار ستزاحم السيارات الخط الحديدي مزاحمة شديدة لوجود طريق معبدة بين حلب الاذقية ولوجود انحدارات ومرتفعات كبيرة تحد من امكانيات

القاطرات . اما اذا كان هناك خط مباشر ما بين الجزيرة واللاذقية يعوض عن غلائها على خط اللاذقية .

٨ - تعمير الاراضي : ان هذا الخط سيمر باراض غير معمورة فيعمرها وسيكون وسيلة لدعم الامن وتحضير البدو وتعميم الزراعة .

ولكن علينا ان نعمل لانشاء الخط الكامل من الجزيرة الى اللاذقية بكامله وليس هذا بالامر العسير اذا علمنا ان تمويل المشروع ليس بالامر الصعب وبذلك نكون :

١ - قد امنا ايصال محاصيل الفرات والجزيرة الى البحر مباشرة لتصديرها .

٢ - حققنا ربط الميناء السوري بالمدن السورية المستهلكة والمصدرة والسكة الحديدية ضرورية لازمة من ضرورة المرفأ .

٣ - وصلنا المدن العراقية بمرفئنا السوري واختصرنا الخط الذي يطل بين بغداد وبحر الابيض المتوسط من ١٣٥٠ كم الى ١٠٥٠ كم اي بنسبة الربع تقريباً كما ربطنا بحر الابيض المتوسط بالخليج الفارسي عن طريق البصرة .

وبعد ذلك نعمل الى انجاز الخط الثالث خط حمص - دمشق لتصبح العاصمة على اتصال بخط حديدي سوري منسجم الاجزاء .

واذا رفعنا القضية الى مستوى اعلى من المستوى المحلي وارادنا ان تكون المشاريع المقترحة منسجمة ومشاريع خطوط المواصلات في الدول العربية وتوصيات مجلس الجامعة بهذا الشأن - وجدنا ان مشاريع السكك الحديدية المقترحة

هي افضل من مشاريع الطرق التي تطرح على بساط البحث من حين الى آخر .

تعالج الصحف الآن مشروع طريق دولية عربية عريضة (Autostrade) واخذت هذه الصحف في الآونة الاخيرة تتحدث عن اهتمام بعض رجالات الدول العربية بهذا المشروع وتشيد بميزاته وفوائده .

ولذا بات من الضروري دراسة فوائد الطريق الدولية دراسة واقعية ومقارنتها مع الفوائد المنتظرة من مشاريع السكك الحديدية .

اقترح الطريق الدولية المستر مور رئيس شركة الارامكو ويتبين من الخريطة انها تبدأ من بيروت ثم تمر بدمشق وتدخل بعدها البادية التي لا يؤمل ان تتحول الى منطقة منتجة حتى في المستقبل البعيد - وهي تسير موازية لانايب البترول التي انشأتها التابليين ولكنها قبيل نهايتها تعطف جنوباً موازية للخليج الفارسي - مارة بالمناطق الغنية بالبترول في الكويت والمملكة السعودية حتى تصل الى مرفأ الدمام البترولي على الخليج الفارسي .

اما الخط الحديدي فيبدأ من اللاذقية ثم يمر بحلب ( حيث يتفرع عنه خط حلب - حمص - دمشق وبيروت ) ومنها الى الرقة ودير الزور والقامشلي والموصل وبغداد والبصرة مع امكان تمديده الى الكويت ونجد . واذا اردنا اختصار المسافة عمدنا الى ربط بغداد بدير الزور مباشرة عن طريق البوكمال على الحدود السورية العراقية .

ان فوائد السكك الحديدية على الطرق بصورة عامة - وعلى المسافات البعيدة بصورة خاصة كالمسافات التي نحن بصدها - في مختلف النواحي المالية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية ثابتة معروفة اوضحناها بتفصيل .

اما بالنسبة للطريق الدولية المقترحة فتتجلى هذه الفوائد بصورة اوضح  
اذ بينما تمر الطريق الدولية بمناطق صحراوية وتخدم المصالح البترولية بالدرجة  
الاولى . يمر الخط الحديدي بمناطق الانتاج الكبرى للدول العربية في آسيا  
( ماعدا اليمن ) ويربطها برباط متين سيصبح وسيلة فعالة من وسائل الانعاش  
الاقتصادي لهذه البلاد وعماداً من اعمدة وحدتها في المستقبل .

وحبذا لو تضافرت الجهود بين البلاد العربية سوريا والعراق  
والكويت والمملكة العربية السعودية لتحقيق هذا المشروع الحيوي الهام ، وليس ذلك  
عليها بعسير .

### د - تمويل المشروع

عرفنا مما تقدم ان هناك حاجة ملحة لانشاء الخط الحديدي بين الجزيرة  
وحلب واللاذقية وقد اقتنعت الحكومات المتعاقبة بهذه الحاجة لاسيما بعد ان اثبتت  
دراسات المصرف الدولي للانشاء والتعمير ان مشروع خط حلب - اللاذقية  
مشروع راجح فكيف بمشروع حلب الجزيرة . وادلت حكومتنا الحاضرة برأيها  
صريحاً في هذا الموضوع فجاء على لسانها في بيانها الوزاري ما نصه : «انها ستدرس  
مشاريع السكك الحديدية اللازمة لسوريا لتحسين مواصلاتها واستقلالها بخطوطها  
الحديدية » وتقدمت كثير من الشركات من بلدان مختلفة تعلن استعدادها لدراسة  
هذه الخطوط والانشائها وتجهيزها وقبض نفقاتها بالتقسيم على عشر سنوات او  
اثنتي عشرة سنة . فما يمنعنا من الاقدام على العمل ؟ اهو المال ؟ يمكن تدارك الاموال  
اللازمة لهذه المشاريع من مصادر كبيرة نكتفي منها بثلاثة مصادر .

١ - مبالغ توضع في ميزانية الاعمال بمعدل ٥ ملايين ليرة في السنة  
فيكون المجموع على عشر سنوات ٥٠ مليوناً هذا المبلغ السنوي يؤلف ٢ ٪ فقط

من الميزانية المالية المقترحة لعام ١٩٥٥ .

٢ - ارباح الخط خلال السنوات الست التي تلي انجازه وقد قدرنا هذه الارباح بسبعة ملايين ليرة سنويا وفي ست سنوات يصبح المجموع ٤٢ مليون ليرة.

٣ - تملك الدولة اراضي شاسعة في المحافظتين الشريقتين على جانبي محور الخط الحديدي المنوي انجازه وملكية هذه الاراضي تساعدنا في اتقاص عمليات الاستملاك اللازمة له الى النصف ومن جهة اخرى اذا خصصت للمشروع الاراضي التي على جانبه بعرض معين ويعد بعد انشائه وسيزيد سعرها اضعافا مضاعفة غطت قسما كبيرا من تكاليفه . فاذا فرضنا ان الاراضي المخصصة على الجانبين بعرض ١٠ كم كانت مساحة الاراضي المخصصة له ١٠٠٠ هكتار لكل كيلومتر من الطول ولان المسافة التي يجتازها في اراضي املاك الدولة تقدر بمائتي كيلو متر فان المساحات الكلية تصبح :

$$١٠٠٠ \times ٢٠٠ = ٢٠٠٠٠٠ \text{ هكتار}$$

فاذا بيعت الاراضي بعد الانشاء بـ ٣٠٠ ليرة سورية للهكتار الواحد بلغ :  $٢٠٠٠٠٠ \times ٣٠٠ = ٦٠$  مليون ليرة سورية .

هذه المبالغ مجتمعة ٥٠ + ٤٢ + ٦٠ = ١٥٢ مليون ليرة سورية تزيد عن المبالغ التي نحتاجها للانشاء والتجهيز والتي قدرت بمائة واربعين مليون ليرة .

هذا واننا لم نتعرض الا للوارد المباشرة التي يمكن عن طريقها تغذية المشروع فلم نتطرق الى تعديل نظام الضرائب وما يجره هذا التعديل من زيادة في واردات الخزنة ، ولم نذكر مشروع زيادة النقد المتداول الذي بقيت كميته



دون تغيير محسوس رغم ازدياد الدخل القومي ٥٠ ٪ في السنوات الاخيرة واهملنا القروض الداخلية كسندات الخزينة والقروض الخارجية التي يمكن عقدها لتمويل المشاريع الانشائية المنتجة . كما اننا لم نتعرض لزيادة عائدات البترول التي يجب ان تزداد اضعاافا مضاعفة ولا الى الاحتياطي في خزانة الدولة . هذه المواد وغيرها يمكن بها تغذية مشاريع الكهرباء والري كمشروع سد يوسف باشا واشباهه وانا لنأمل ان يضم هذه المشاريع جميعاً برنامج ل عشر سنوات يقوم على تحقيقه مجلس اعمار كمجلس الاعمار في العراق ،



## الخاتمة

في كل عام تبذر في الاراضي عشرات الملايين من الليرات وتخرج الارض بركايتها فتدر على اصحابها والبلاد مئات الملايين قمحاً وشعيراً ورزاً واقطاناً .

وفي صيف كل عام يتسابق التجار والمزارعون في نقل حاصلاتهم من الجزيرة الى حلب ومن حلب الى اللاذقية ويستثمر مالكو السيارات هذا التزامهم فيرفعون الاجور حتى تصل الى مستوى يضج منه اصحاب المحاصيل فيجأرون بالشكوى ويطالبون الحكومة بالحيولة دون هذا الاستغلال .

ان خير اتنا لا يصح ان تبني اكواما مكدسة في القرى والحقول ولا يصح ان نهدر القسم الكبير من جهودنا واموالنا لنقدمها ثمناً للسيارات نستهلكها في

بضعة اعوام بل علينا ان ننقل هذه المحاصيل من مصادرها باقل كلفة مستطاعة  
ونبعث بها الى من يشتريها في اوروبوا امير كاليعوضنا عنها بما يعزز انتاجنا ويزيد دخلنا  
القومي . ولن يتيسر لنا هذا الا اذا انشأنا خطوطنا الحديدية .

## ماذا في تل اييب ؟

الاستاذ شاكِر مصطفى



## ماذا في تل ابيب ؟

اتحدث اليوم على طريقة لاجئها ، ولكني تعمدها حتى لأكاد انكر ممها نفسي ، واتحدث في موضوع لاجئها ولكني اشعر في اعماقي بضرورته القومية . واعتذر عما فيه من خوف ، فما كان التعامي عن الواقع يوما سبيل النصر .

### ماذا في تل ابيب ؟

منذ اثنتين وسبعين سنة ، وفي يوم لا ادري : كان لاهباً من القميص او كان يشرق بالضباب الاسود ، وصلت ميناء يافا السفينة ( اصلان ) قادمة من اوديسا على البحر الاسود . ونزات على سلامها حوالي مائة عائلة من اليهود ( الاشكنازيم ) سرعان ماتحولوا بيوتاً في الجنوب الشرقي من يافا عند ( عيون قارا ) . ما كانت ولا عيون نبي في ذلك الوقت لتستطيع ان ترى في هذه المجموعة من الناس سفاحي دير ياسين ، وقبية ، وفاجعة مليون عربي يمضغهم السل والتشرد وقيام بن غوريون وبن تزي وشرتوك حكاما في عشرين الف كيلو متر ، من بلادي . وعلى مليون ونصف المليون من اليهود الملهمين من كل عتمة بشعة . ان عيوننا نحن مازال

الى الآن مستديرة من الدهشة ، لاتعرف كيف تصدق هذه الحقيقة الواقعة هنالك  
على بعد مئات الكيلو مترات فقط : دولة وجيشاً وشفرات مسنونة وصدور أمتعة  
بالحد . . . فماذا هنالك ؟ ماذا في تل ابيب ؟

ان جزءاً من وطننا العربي يغيب عنا بشجره وفراشاته ورباه واهله  
وبياراته وبثره وشجرة البرتقال وما في اذهاننا عن ذلك الوطن غير صورة بساط  
احمر ، وقبضة شتائم . ان ستاراً كثيفاً فيه النعمة وفيه العناد وفيه الخوف يلفف  
ماوراء الحولة والاردن من بلادنا . فماذا هنالك ؟ ماذا في تل ابيب ؟ ان اشلاء  
المركة المقبلة تنتثر منذ الآن في خواطرننا المتعبة والدماء كجمع السيول ، تتدفق  
في رؤانا من كل فج عميق .

وسوف نحارب طائعين او مرغمين « كتب القتل والقتال علينا » ذلك  
قدرنا ، ويجب ان لا يكون رحنا ، كرمحدون كيشوت ولافمننا للعدو كفهه -  
تبارك فهه - عن طواحين الهواء . . .

فماذا هنالك اذن ؟ ماذا في تل ابيب ؟

اود لو يمسح كل منا خاطره ، مسح الغيم لنبع القمر بعض الصور الباكية  
او الناقاة فلن نتحدث عن مأساة ، فلسطين ابداً ، ولن اصوغ الحجج البليغة في  
الرد على واقع يمتص ، كالرئة المسلولة ، حشاشة بلادي . ولن اكون معربداً  
والحدود تنتظر ان تسمعنا جميعنا منتقمين ، لا !

هذه الحكومة في تل ابيب قائمة فما كيانها ؟ ما قوامها ؟ ماهي ؟

دولة تل ابيب اولا نتيجة حركة متشعبة جداً ، تجر اذيلها في اعماق .

القرون . وانما بدأت تتركز في القرن الماضي فقط ، وما كانت فلسطين بالضبط هدفالها في مطالعها ولكن هذه المنطقة كانت لحد ماضحية الخرافة ، ضحية تلك النبوءة التي احتضنها ربانة اليهودية والحاخامون قرناً بعد قرن منذ تهدم الهيكل في القدس . . . وما يزالون يحملونها حتى ينبت في الارض المسيح المنتظر . . من جديد . . في ١٤ مايس ١٩٤٨ ( وفي التاريخ العبرى ٥ مايس ٥٧٠٨ بعد بدء الخليفة ) اعلن في تل ابيب انشاء دولة ( اسرائيل ) في منطقة بلغت مساحتها ٢١ الف كلم . وليست هذه اول دولة يهودية بعد دول العهد القديم .

فقد قامت لليهود ما بين بحر الخزر وبحر قزوين ، دولة في اواسط القرن الرابع عشر كان قوامها عشرة ملايين من المغول اعتنق مليكهم فاعتنقوا معه اليهودية . ولكن قياصرة موسكو مزقوا هذه الدولة واجبروا اهلها على النزوح الى اكرانيا ووسط اوربا . . ايكونوا كتلة يهود روسيا الآن ويهود نيويورك معاً .

على ان اوضاع حكومة تل ابيب لم تستقر الا في مطلع ١٩٤٥ اذ تألف اول ( كنيست ) مجلس نيابي يهودي وانتخب بعد ذلك حايم وايزمن اول رئيس للدولة .

لم يضع اليهود دستوراً لهم لانهم اختلفوا كثيراً في امره فاجلوه معتبرين قوانين البرلمان حدوداً دستورية .

والسلطات العليا في الدولة هي ،

١ - رئيس الدولة وهو اليوم اسحق بن تزي ويقارب السبعين من العمر وقد وصل فلسطين عام ١٩٠٧ وكان يسكن حتى عهد في قريب في عش خشبي

بجوار القدس وهو ضليع في اللغة العربية مطلع على آدابها وتاريخها .

٢ - الكنيست : وفي الصيف المقبل ينتهي اجل البرلمان الثاني الذي تسلم السلطة التشريعية في آب ١٩٥١ لمدة اربع سنوات وفيه ١٢٠ عضواً منهم ٤٥ من حزب الماباي و٢٠ نائباً من الصهيونيين العموميين و ١٥ من المابام و ٨ من حيروت و ٨ من العامل المزارحي و ٥ من الشيوعيين و ٤ من التقدميين و ٣ من الآغودات و ٣ من الديمقراطيين العرب و ٢ من اليهود الشرقيين و ٢ من المزارعين و ١ من عمال الآغودات و ١ لكل من يهود اليمن وعرب الناصرة والدروز . مجلس كاترون منسجم تماماً . . . فيه من العرب ثمانية هم رستم بستوني من المابام ، وتوفيق طوبى واميل جيبى باسم الشيوعية ، وفيه سيف الدين الزعبي واسعد قسيس وجابر معـنـذى باسم الديمقراطيين ، وصالح حنيفس باسم التقدميين ، وفارس حمدان باسم المزارعين .

ويجري الانتخاب هنالك على اساس القائمة الحزبية لالتشيح الشخصي

٣ - السلطة التنفيذية : وهي بيد وزارة تتألف اليوم من ثلاثة عشر وزيراً فيهم من حزب الماباي خمسة ومن الصهيونيين العموميين اربعة والباقوت من الكتل الدينية ، ويرأس الوزارة موشه ( شاريت ) وهو روسي الاصل في الثامنة والخمسين ، وصل فلسطين عام ١٩٠٦ وحارب مع الجيش الالماني برتبة ضابط وقد جاء اثناء الثورة السورية الى جبل الدروز وبقي هنالك ثمانية اشهر ، وهو يعرف سبع لغات معرفة جيدة منها العربية والتركية والعبرية والانكليزية والفرنسية والروسية . ومن ابرز الوزراء ( غولدا ماريسون ) وزيرة العمل وهي تبلغ الخامسة والخمسين : تحمل لقب



استاذ في العلوم وذات مقدرة فذة في الخطابة .

٤ - المحكمة العليا : وتألف من قاض للقضاة وسبعة اعضاء .

٥ - واخيراً الحاخامون وبرزهم ( حروساء ) رئيس حاخامي تل ابيب . ثم رئيس حاخامي اليهود الاشكنازي ( السكناج - الغريين ) ورئيس اليهود الشرقيين ( السفاراد ) وحاخامون في القدس وحيفا وطبريا . يقوم من وراء هذه السلطات تنظيم حزبي واسع ومعقد . . . وبرز الاحزاب الماباي : ( مضليفت بو على ارض اسرائيل ) اي حزب عمال الوطن فلسطين . وهو الحزب الاشتراكي المعتدل . ويعتبر اقوى الاحزاب واقربها الى تولي السلطة . وقد بدأ تشكله عام ١٩٢٠م برز عام ١٩٣٢ وليس في تاريخه شيء لامع سوى سياسته الانتهازية . فقد تعاون بالترتيب مع روسيا ثم مع بريطانيا ثم مع اميركا . ويشترك في كل المؤتمرات العالمية سواء كانت من ذات اليمين او ذات اليسار . وله فروع في مختلف انحاء العالم وسياسته الحالية تقوم على تشجيع الهجرة وتشجيع الرساميل وتشجيع الاستعمار ( اي الاستيطان ) . وزعيم الحزب منذ عشرين سنة ( بن غوريون ) الروسي الاصل الذي عاش معظم سنواته الخمس والستين في مستعمرة ( داغانيا آ ) على حدود سوريا . وقد كان ضابطاً في الجيش التركي ثم في الجيش الانكليزي . ومن رجال الحزب ( شاريت وغولدا ماير سون ) وبيخور شطريت وزير الشرطة . ويوسف شيرنزاك رئيس الكنيست وشموئيل دايان والد رئيس الاركان الصهيوني موشه دايان .

حزب المابام : حزب العمال الموحد : مغليفت بو عليهم مؤ حيدت - وهو حزب اشتراكي يساري . وقد حمل هذا الاسم منذ عشر سنوات وتجمعت فيه

عدد من العناصر الاشتراكية القريبة من الشيوعية - ويميل الحزب في سياسته الى تأييد روسيا . ولكن على اساس قيام حركة جماهيرية لرفع مستوى الشرق الاوسط . ولهذا فهو يرى ان التفاهم مع العرب ضروري لدعم كيان الدولة الصهيونية . وقد انقسم هذا الحزب مؤخراً فألف ابرز زعيم فيه وهو الدكتور (موشه شنه) الضابط الصحافي البولندي حزب اليسار وانضم للشيوعيين بينما انسحب زعيم آخر هو (اسحق بن اهرن) وائف حزب اتحاد العمل الذي لا يريد الانسياق في التيار الشيوعي .

حزب الصيونييين العموميين : وهو الحزب الصهيوني الاساسي الذي وجد قبل ان تشكل الاحزاب : حزب (هرتسل ووايزمن) وغيرهم . وكان يضم جميع الهيئات المعتدلة والرأسمالية الصهيونية كالمكابي وهاداساويزو - اتحاد المزارعين - اتحاد الملاكين - اتحاد التجار - اتحاد الصناعيين... وكان الحزب همزة الوصل مع جميع الهيئات الصهيونية في امريكا وبريطانيا وفرنسا . وطابعه الرأسمالي الواضح يفسر ضالة نفوذه في فلسطين وعظم نفوذه بالمقابل في نيويورك ، واستيلاءه في الوزارة اليهودية على الوزارات المالية والاقتصادية ليضمن مؤازرة اميركا الدائمة لتل ابيب . ولهذا فهو يحارب الاشتراكية ويدعو دون قيد او شرط الى التعاون مع اميركا .

حزب حيروت : ظهر هذا الحزب عام ١٩٤٨ وكان قبل ذلك منظمة عسكرية مؤسسها الاول (فلاديمير حابوتسكي) الذي خرج من المؤتمر الصهيوني عام ١٩٢٦ غضباً فاسس منظمة ما لبثت العناصر المتطرفة فيها ان ازاحته واتخذت القتل والارهاب سبيلها « لتطهير الفكرة الصهيونية » من المعتدلين . . . ثم انقسم عن هذه المنظمة الارهابية اكثر عناصرها فتسمى باسم عصابة (شترن) وقد طلبت بريطانيا بعض الجواسيس لمحاربة حكومة فيشتي في سوريا ولبنان ومحاربة

رشيد عالي الكيلاني في العراق فتطوع افراد (شترن) لذلك وقتل زعيمهم ازيال في مطار الجبانة . . . وعندئذ تولى زعامة المنظمة الارهابية البولوني مناخم بيغن وبعد مقتل برنادوت تحولت المنظمة الى حزب (الحرية) - بيروت . امانتظياتها العسكرية السرية فما تزال قائمة .

ولا يجاوز زعيم الحزب (بيغن) الثانية والاربعين . وصل فلسطين منذ اثنتي عشرة سنة ، وكان يساهم قبل ذلك في ارسال الاسلحة والمهاجرين من وسط اوربا الى فلسطين : وهذا الحزب هو الذي قتل اللورد موين وزير بريطانيا في الشرق الاوسط . وقتل الضباط البريطانيين ، وحاول قتل المندوب السامي واحتل يافا وقام بمذابح (دير ياسين) ان شعاره هو : قذف العرب الى الصحراء بالرصاص وترسم جريدته مصور سوريا الجنوبية كلها حتى دمشق وبيروت وعمان . وتكذب تحتها : ارضنا التي يحتلها العدو . الاحزاب الدينية . بعض منها صهيوني مثل : أ - الحزب الصهيوني المزراحي : وجمهور انصاره من يهود اوربا الوسطى ويرجع الى عام ١٩٢٣ ، ويؤيده عدد كبير من حاخامي اليهود المتدينين في العالم . ومن ابرز زعمائه الحاخام فيشمان (ميمون) وهو في الثمانين من العمر .

ب - حزب العامل المزراحي : وهو اقوى الاحزاب الدينية لانه يوافق على الحلول الاشتراكية في الامور الاقتصادية ولا يتمسك كثيراً بالامور الفلسفية الدينية .

وبعض الاحزاب الدينية غير صهيوني ، لايقله الا الدين : مثل الآغودات : ومركزه الرئيسي في نيويورك . ويرفض ان يحمل اسم حزب فهو (جمهورية) ويرى اعضاء الآغودات عدم استعمال العنف او اتخاذ اي اجراء قومي حتى يعود المسيح المنتظر ، وعدم الخدمة العسكرية ، وضرورة مراعاة الدين باوفاو الدقة وبعضهم

الف منظمة سرية ارهابية باسم المدافعين عن الدين كادت تنسف الكنيسة بالديناميت عام ١٩٥١ . وهناك عمال الآغودات ، وهناك التقدميون الصهيونيون . . وهناك اخيراً الشيوعيون .

الشيوعيون : واذا كان تاريخ الشيوعية في فلسطين يرجع الى عام ١٩٢٤ فان الحزب الشيوعي قام مع قيام دولة تل ابيب . ولا يقل اعضاؤه اليوم عن ٩٠ الفاً ربعهم من العرب .

هذا التنظيم السياسي كله يستند الى منظمات خلفية ، قديمة . جاءت نتيجة تاريخ معقد طويل ابرزها الجمعية الصهيونية : وهي جمعيات شتى باسماء تختلف باختلاف اقطار العالم ورؤساء هذه الجمعيات يتألف منهم المؤتمر الصهيوني العالمي : وهو اعلى هيئة صهيونية في العالم . يعقد مرة كل سنتين . بدأ عام ١٨٩٧ في ( بال ) وما زال يجتمع الى اليوم في القدس .

وضع في انعقاده الاول برنامج الصهيونية ثم اسس اول مستعمرة اشتراكية في فلسطين ( دعانيا أ ) ١٨٩٩ ثم اسس الصندوق اليهودي القومي ١٩٠٥ ( الكيرن كاييمت ) وبنك ( انجلو - بالستين ) ثم الصندوق اليهودي التأسيسي ( الكيرن هايسود ) عام ١٩٠٧ . ثم شركة تحسين الاراضي ، ثم اقامة الجامعة العبرية عام ١٩١٣ واخيراً عام ١٩٢٣ اقام الوكالة اليهودية وعام ١٩٣٣ وضع العلم الصهيوني والنشيد الصهيوني الرسمي ( هاتفاكا ) وفي ١٩٤٦ قرار انشاء الدولة اليهودية و . وضع لها ميزانية حربية مقدارها ( ١٥٥٥ ) مليون جنيه استرليني .

يختار المؤتمر الصهيوني عادة لجنة مؤلفة من ٣٧ عضواً تدعى :

( اللجنة التنفيذية الصهيونية ) : والمجلس الاداري لهذه اللجنة يتألف من ١٦ عضواً هم المعروفون باسم الوكالة اليهودية ، ومركزها الرئيسي القدس ، ولها فروع في مختلف بلدان العالم ، ونصف اعضاء الوكالة من غير الصهيونيين ليضمن الصهاينة معونة باقي اليهود في العالم .

وتألف الوكالة من عدد من الدوائر هي : دائرة الهجرة ودائرة الاستيعاب ودائرة الاستعمار ودائرة الثقافة والتعليم ، ودائرة الدعاية والاستعلام ، ودائرة تنظيم الشباب ودائرة الشؤون الاقتصادية ودائرة تحسين القدس ودائرة الخالوتسيم اي دائرة منظمات يهود العالم... هي حكومة كاملة ولهذا فالكثير مما تصطدم مع حكومة تل ابيب ، وقد كان لها من قبل دائرة سياسية ودائرة للامن والدفاع .

وتعتمد الوكالة اليهودية على مؤسسات مالية كبرى هي :

١ - الكيرين كايमित : ( صندوق المال القومي اليهودي ) الذي اقيم لشراء الاراضي باسم الشعب اليهودي كله وتأجيرها لليهود فقط . واموال الصندوق تتجمع من تبرعات ٥ ملايين صندوق للصدقات في مختلف البيوت والدكاكين والمعابد اليهودية .

٢ - الكيرين هايسود : وهي المؤسسة التي تعمل على انشاء المستعمرات وعلى الاستيطان والري . تماما لعمل الكيرين كايमित وهناك مؤسسات يهودية تساهم في تمويل الدولة .

بنك انجلو - بالستين وهو اليوم ( بنك اسرائيل الوطني ) تأسس عام ١٩٠٢ في لندن وبدأ عام ١٩٠٣ بفتح فرع في له فلسطين . وهو الذي يصدر النقد الاسرائيلي .

البيكا : ( بالستين يديش كولو نيراشين آسو سيشن ) وهي مؤسسة البارون روتشيلد القديمة ويتبعها ٤٢ مستعمرة لها تجارة الخمر في البلاد .

الجبابة : بلغ عدد الجمعيات اليهودية التي تجمع التبرعات والصدقات ٥ آلاف جمعية فتضايقت الجمعية الصهيونية وبعض الجمعيات الاخرى فاجتمعت على اقامة صندوق موحد للجبابة وقد استطاع الصندوق مثلاً عام ١٩٢٨ ان يجمع ٢٥٠ مليون دولار .

الهداسا : ( الاتحاد النسائي لاعمال البر ) وهي جمعية نسائية في اميركا هدفها رفع المستوى الصحي لليهود في فلسطين . ولها عدة مستشفيات في فلسطين .

وهناك جمعية الجوينت : الخيرية وجمعية البوند الاشتراكية التي تقاوم الصهيونية . . . الخ

على ان اهم منظمة كبرى في فلسطين هي دون شك المستدورت : اي ( المنظمة ) وقد تأسست عام ١٩٢٠ لتضم جميع العمال الاشتراكيين وقد تقلبت عليها الاحوال كثيراً قبل ان تصبح منظمة لخدمة جميع الشغيلة في جمعيات تعاونية . وهي تضم اليوم عمال الماباي كما تضم عمال المابلم وفيها عمال الصهيوينيين العموميين كما فيها الشيوعيون .

وللمستدورت نشاط اقتصادي واسع في جميع النواحي ، فلها ( ١٢ ) شركة كبرى ولها مساهمة فعالة في نشر التعليم ، ومؤسستها الصحية ( كوبات خوليم ) واسعة الفروع في كل البلاد ، والجمعيات والتعاونيات التي تتبعها كثيراً جداً كما ان لها جرائد وفرقاً تمثيلية ورياضية ، ومصرفاً من اكبر المصارف اليهودية .

وننتقل الآن من الوضع السياسي الى الوضع الاجتماعي . في فلسطين

المختلة اليوم ( ١٤٥٠٥٠٠٠ ) نسمة من اليهود يضاف اليهم ١٨٩ الف عربي والمجموعة اليهودية خليط غير متجانس ولا متفاهم ، تربطه روابط اربع : رابطة الدين ، ورابطة الاحلام اليهودية المقبلة ، ورابطة النعمة على جميع شعوب الارض ، ورابطة الخوف ، من العرب . . . وما عدا ذلك فالمجموعة من التباين بحيث لا يمكن ان تجد تقاطعاً لتتقرب بينها ، فمن اقصى الشقرة الى اعماق السمرة ومن الطول الى القصر ومن زرقة العين الى الاسود . . . ومن اوساط اوربية الى اوساط هندية . . . برج بابل الحديث .

الكتلة الكبرى من يهود فلسطين اتت من وسط اوربا فهم بين المان وبولونيين ورومانيين ومجريين يبلغون نصف مليون واما من شرق اوربا وجنوبها فليس هناك اكثر من ( ٢٠ ) الفاً ، وما تبقى فهو من البلاد العربية اولاً : من اليمن والعراق ومراكش ، ثم من تركيا وايسيا وايران ثم من الهند والحبشة وافريقيا الجنوبية .

ويتوزع السكان حسب الجنس في القرى والمستعمرات فهناك ٨٢ مستعمرة يهود اوربا و ٦٧ يهود فلسطين القداماء و ٥٧ يهود اليمن و ٥٣ يهود العراق الخ . . . وهناك تناهد قوي وعميق بين اليهود الشرقيين عامة ويهود الغرب . ولا قيمة اجتماعية للاوائل فليس لهم بالتالي مركز سياسي وكلمة ( شا-ور ) و ( ليفاقتي ) من كلمات التناهد الدارجة على السنة الغربيين . والاقلية العربية هناك مضطهدة اشبع انواع الاضطهاد ويسود بمض مناطقها الى اليوم الحكم العربي ويمنع العمال العرب من العمل او من مغادرة قراهم ويعطون اجراً اقل من اجر اليهودي .

وقد توقف منذ ستين التزايد المريع الذي حققه الصهيونيون في فلسطين فقد كان عدد اليهود عام ١٩٤٨ ( ٧٠٠ ) الف فقط فاذا هم يبلغون عقب ذلك

الطوفان في الهجرة خلال ثلاث ٤٠٠ مليون .

ان اكثر الرؤوس رزانة لا بد ان يميل مع الهجرة بعد ان سعى قيام الدولة  
لكن هذا المد الذي لم يعرف مثله القرن العشرون قد توقف ، ومال في السنة  
الماضية الى الجهة السلبية وقد استقبلت تل ابيب هذه السنة ( ١٢ ) الف فقط بينما  
ودعت ( ٤٠ ) الفاً .

وعدد اليهود في العالم هو ( ١٣ ) مليوناً ، في روسيا منهم ( ٤ ) ملايين  
وفي نيويورك ( ٣ ) وفي فلسطين ( ٠٥ ) وماتبق موزع في انحاء العالم وقد  
كشفت جريسة ( كريستيان سنس ) عن الكذبة اليهودية الضخمة التي تدعى  
ابادة هتلر لستة ملايين يهودي والواقع ان الاضطهاد لم يتناول اكثر من عشر  
هذا العدد بدلالة الارقام الرسمية .

وقد وضع ( بن غوريون ) مشروعه لمدة خمس سنوات على اساس ان  
يصبح يهود فلسطين ٤ ملايين في نهاية سنة ١٩٥٤ ولكن المشروع فشل وهم  
يضعون الطم الآن لاغراء ٤٨ الف مراكشي يكتفون بهم .

ان مشكلة الاستيعاب وهي من اعقد المشاكل لا يمكن ان تحل مع اتساع  
فلسطين الحالي ولذلك ما يزال هناك ، رغم توقف الهجرة : ما يزيد عن ١٥٠ الف  
مهاجر جديد في ( المعبروت ) يمضون البؤس في ابنية التنك وفي الخيام  
والخناشب .

وتحاول حكومة تل ابيب والوكالة اليهودية العمل معاً على  
توطين المهاجرين في المستعمرات . . انها تبلغ الان ٧٨٤ مستعمرة - ٤٠  
١٠٦ قري عربية .



هذه المستعمرات تنتشر كأنفراط العقد في أنحاء فلسطين ، بين كبيرة وصغيرة ، على ان اكل مستعمرة الحزب الذي تنتمي اليه والنظام الخاص الذي تتبعه فمستعمرات ( حزب الماباي ) اي ( كيفوتسا ) اشتراكية تعاونية ( كوبرايف ) ومستعمرات المابام ( كيبوتس ) اشتراكية يسارية تشبه ( الكونخوز ) السوفياتي . والمواشاف مستعمرة عمالية قد تكون للعامل ( مواشاف عو قدجم ) وقد تكون زراعية ( ميشيك شيتوفي ) وهناك اخيراً المواشاف وهي مستعمرات مستقلة فيها خليط من السكان والاحزاب .

على ان نصف المستعمرات الـ ( ٧٠٠ ) انما انشئ منذ سنوات فقط لاغراض دفاعية خالصة ولهذا نجدها تقوم على الحدود ولا يسكنها الا الجنود المسرحون . وقد يختارون اختياراً من اعرق العسكريين . فعلى الحدود السورية التي ابعد عنها العرب مسافة ٣٠ كلم يوجد ( ١٤ ) مستعمرة في كل منها من ٤٠ - ١٠٠ رجل من مسرحي الجيش ، وعلى الحدود اللبنانية التي اخذت بدورها من العرب ( ٢٧ ) مستعمرة على خطين دفاعيين وفي النقب ( ٢٤ ) مستعمرة مجموع سكانها ( ١٢ ) الف نسمة فقط اهمها ايلات ثغر البحر الاحمر ( ٢٠٠ ) نسمة فقط .

على ان المستعمرات الكبرى القديمة قد اصبحت الآن مدناً كمثل ايبب وناثانيا وبتاح تكها كما ان على خليج حيفا ( ٤٢ ) مستعمرة هي عصب الصناعة الحربية والثقيلة في فلسطين . .

ولا يتكلم اليهود لغة واحدة . وبالرغم من الجهود الكبرى التي تبذلها الحكومة والمستدروت فان ٤٠٪ من السكان فقط يعرفون العبرية او بعضها وبالرغم من ان اللغة العبرية والانكليزية هما اللغتان الرسميتان فان لغة التفاهم بين

يهود الغرب هي الالمانية التي يتكلمها ٧٠ ٪ منهم ولغة اليديش التي يعرفها ٨٠ ٪ منهم . اما يهود الشرق فيتكلمون لغة اوطانهم الاولى وليس في الارض تقريباً لغة هامة لاتجد من يتكلمها في فلسطين .

وبلبلة اللغة تقوم كمشكلة اولى من مشاكل التعليم في فلسطين . والمشكلة الثانية هي مشكلة برامج التعليم اذ ليس هنالك من برنامج موحد ، فلكل جماعة منهجها ، كما ان مشكلة التعليم الديني تجرح كل محاولات الصهر والتوحيد بين اليهود . فالصراع بين الاشتراكية العلمانية وبين المتدينين عنيف يبلغ عند الطرفين حد الهوس . يضاف الى ذلك مشكلة التعليم الحزبي ، فلاحزاب هنالك ايضاً مدارسها .

على اننا يجب ان لانسى ان اليهود الغربيين على الاقل مثقفون . كما ان جميع المدارس تتفق في تقوية الروح الصهيونية القومية بين الطلاب فهناك درس على الاقل كل يوم لمادة ( هاسكلاه ليثوميت ) اي الدروس القومية لتاريخ اليهود والصهيونية وجهاد زعمائها . . .

وتصرف الحكومة سنوياً ٣٠ مليون ليرة على التعليم فهناك ١٣٠٠ مدرسة فيها ٦٣٥٠ معلماً وحوالي ٢٠٠ الف طالب .

والمدارس انواع منها للصناعات والحرف والتجميل والرقص والموسيقى ، ولعمال الفنادق ولتخريج الموظفين ورجال السلك السياسي والزراعة والاسلكي والعميان والصم البكم والسكك . .

على ان كل الحركة الثقافية في فلسطين تتمركز في الجامعة العبرية التي وضع اساسها عام ١٩٢٤ وفيها ١١ كلية هي الكيمياء والعلوم والرياضيات والفلسفة

والعلوم الاجتماعية والآداب واللاهوت والحقوق والآثار واللغات الشرقية والطب، وفي الجامعة مكتبة من أكبر مكتبات العالم إذ انها تضم أكثر من نصف مليون مجلد فيها ١٥٠ ألفاً بالعبرية وفيها عدد من المخطوطات العربية النادرة .

وهناك مركزان آخران من أكبر المراكز العلمية في الشرق هما معهد ( زيف ) و ( وايزن ) للتجارب الكيماوية في ( روجوبوت ) وكلية الصناعات الفنية ( التخينكوم ) في حيفا في هذه المراكز الثلاثة تقوم الآن الأبحاث الذرية تشرف عليها لجنة من وزارة الدفاع مع الدكتور برغمن السويدي وبونشكارفو البريطاني وروكاح الايطالي وكوهن الاميركي وسيمبورسكي الروسي الفلستيني.

وتهم هذه اللجنة العالمية بثلاثة امور : انتاج الماء الثقيل من الماء العادي بواسطة التقطير بدل الغليان . وانتاج الاورانيوم من الفسفات بنسبة ١/٦٠٠٠ ، وجعل مياه البحر صالحة للزراعة .

ولعلنا نعرف انتشار التعليم في فلسطين من الصحافة . والصحافيون هنا قد يكونون اكثر تقديراً لهذه الناحية اذا عرفنا ان لليهود : ٧٢ نشرة صحفية دورية لها محررون يتقنون جميع لغات العالم فهناك من الجرائد العبرية : جريدة دافار : لحزب الماباي تأسست ١٩٢٤ وتطبع ١٣٧ الف نسخة يومياً . جريدة هاآرتس المستقلة تأسست ١٩١٨ وتطبع ٥٠ الف نسخة يومياً . جريدة هابوكر : للصيونيين العموميين تأسست ١٩٣٤ وتطبع ٢٧ الف نسخة يومياً . جريدة عل هامشمار : لحزب المابام تأسست ١٩٤٣ وتطبع ٣٢ الف نسخة يومياً . وجريدة حيروت التي تطبع ١٢ الف نسخة . وجريدة قول هاعام : للشيوعيين التي تطبع ١٠ آلاف نسخة ، هذا عدا جريدة جروزالم بوست وتوزع ١٥ الف نسخة ، ويديعوت بالالمانية وعدا الصحف بالغات الاخرى ومنها بالعربية : جريدة الاتحاد

للسيوعيين ، واليوم للماباي ، و حقيقة الامر للهستدروت، والمرصادالمابام، والموسيط  
للصهيونيين ويشرف عليها المطران حكيم .

وننتقل بعد ذلك الى الاوضاع الاقتصادية :

ومن المعلوم ان الصهيونية بدأت جهودها على اساس الزراعة وامتلاك  
الارض وعلى هذا فان اليهود اليوم يزرعون مامساحته ٤ ملايين من الدونمات  
اكثر من ٩/١٠ بعلي . وتبلغ قيمة الانتاج الزراعي حوالي ٤٠ مليون ليرة ،  
ولكن هذا الانتاج لايقدم الا ١٠٪ من حاجة اليهود للقمح والزيت و ٣٥ ٪  
من الحلب والبيض و ٤٥ ٪ من السمك و ٣٠ ٪ من الخضار .

والزراعة الآلية تسع حتى لتمتد التراكاتورات بحوالي ( ٥ ) آلاف  
تراكتور . واهم قضايا الزراعة قضية الجفاف والمياه . وقد قام عدد من الخبراء  
البريطانيين والاميركيين بدرس مصادر المياه في البلاد واشهرهم الدكتور والتر  
( لوزر ميلك ) الاميركي صاحب المشاريع الكبرى في وادي تنسي وقد استخدمه  
اليهود ثلاث سنوات .

وهناك خبراء شركة تاهل اصحاب مشروع تحويل نهر الاردن .

واذا كانت شركة ( ميكورت ) اهم الشركات الصهيونية التي تعمل بالري  
ومصادر المياه منذ ١٩٢٤ وتعمل اليوم في مشاريع ثلاثة هي : ١ - مشروع  
الجليل الغربي لارسال المياه الى مرج ابن عامر . ٢ - مشروع غور بيسان لجر  
المياه من اطراف الاردن الى الغور . ٣ - مشروع وادي الصرار قرب الرملة .  
الا ان اهم المشاريع التي تعيننا نحن هي :

١ - مشروع تحييف الحولة : وقد كاد يتم الآن . اذ شقت في طول الحولة وعرضها اقنية على شكل ( H ) جفت جميع المستنقعات حول البحيرة كما جفت البحيرة نفسها بتوسيع مجرى نهر الاردن وتنظيمه وتمميجه في جنوبها وشمالها . وقد ادى هذا المشروع الى زيادة امكانية الاستيعاب في فلسطين بمقدار ربع مليون مهاجر .

٢ - مشروع تحويل مجرى الاردن : الذي يراد منه سوق مياه الاردن من شمال الحولة وعلى الضفاف الغربية المرتفعة حتى ( بيت نتوفا ) حيث يقام الخزن الاكبر لكل مياه الشمال . ويؤخذ من هذه المياه كمية تسقط بمساقط شلالية متكررة على بحيرة طبرية بمجموع مساقطها ( ٢٥٠ ) متراً تقريباً تعطي من القوة الكهربائية مائة مائة الف ( ٤٠ ) الف كيلووات ساعي .

٣ - مشروع جر المياه من بيت نتوفا باتجاه النقب وجمع مياه الوديان على طول فلسطين اليها لتروي اكبر المساحات الممكنة في النقب .

٤ - مشروع جر مياه البحر الى طبرية : ويعمل على الاستغلال الزراعي بجانب تعاونيات المستعمرات عدد من الشركات الكبرى منها : ( شركة تحسين الاراضي ) التابعة لبنك اسرائيل وشركة البيكا - الصهيونية التي انشأها روتشيلد للاستعمار ، و ( شركة نتوفا ) وهي لجميع المنتوجات الزراعية وقد انشأها المستدروت . و ( شركة هامشبيرها مركزي ) لتصريف الانتاج الزراعي ، وشركات ( ياخين ) ، ( بستان الكرمل ) ، حاكال ( نير ) الخ . . . . .  
واما في الصناعة : فقد كان برنامج الصهيونيين ان تصبح فلسطين اول

دولة صناعية في الشرق الاوسط . ولا شك انهم خطوا خطوات واسعة نحو هذا الهدف ، بالزعم مما يقرره الخبراء في تقاريرهم من ان الصناعة تسير بدون هدف وانها مضطرة الى الاقتصار على الانتاج المحلي لان المقاطعة الاقتصادية العربية تطوقها ولانها لن تبلغ من الجودة ما تنافس معه المصنوعات الغربية ولن تبلغ من الرخص ، مع ارتفاع تكاليفها ، ما تستطيع معه غزو الاسواق والثبات المنافسة .

ومعظم الصناعات بأيدي الرأسماليين والشركات ذات الاتصال العميق بالرأسمالية الاميركية - وهذا في الواقع يفسر وجود دولة تل ابيب جميعاً - فان ٥١٪ من مصانع فلسطين ملك شخصي وان ٣٢٪ ملك للشركات والباقي للتعاونيات والعمال . وتحاول الدعاية الصهيونية ما امكنتها المحاولة ان تشيع عن وجود الثروات الدفينة في البلاد لاجتذاب الرصاميل الاجنبية .

ويبلغ عدد المصانع اكثر من ( ٨ ) آلاف بين كبير وصغير . يشتغل بها حوالي ( ١٤٠ ) الف عامل على ان معظم المواد الاولية اللازمة للصناعة مستوردة عدا ما يتوفر في البلاد من املاح ومنتجات زراعية .

واتفاق العلم والابحاث العلمية مع الصناعة في التطبيقات قد بدأ يظهر بوضوح وقد كان الدكتور وايزمن يشرف بنفسه على هذا التعاون الذي يتسلمه الآن الدكتور سامبورسكي .

ويعاون التقدم الصناعي بجانب ذلك مصرف صناعي انشئ سنة ١٩٣٣ وشركات صناعية للتصريف . واتحاد لاصحاب المصانع يتعاون مع الحكومة والوكالة اليهودية . على ان عدداً كبيراً من الصناعات ، لاسيما فروع المصانع الاجنبية كشركة فيلبس مثلاً تفلس هناك بسبب عدم تصريف البضائع . واهم ما تنتجه

فلسطين من المعادن : ١ - معادن البحر الميت : بمختلف املاحه من ملح الطعام الى كلور الكالسيوم والبوتاسيوم وبروميوم والمغنيزيوم . . .

٢ - ملح منطقة اسدوم : سادوم الفاسقة ايها .

٣ - طمي منطقة الحولة الذي يقدر بمشرات ملايين الاطنان والذي بدأ يستخدم كسماد زراعي ووقود ايضاً .

٤ - الفوسفات الذي يؤخذ من الحليقات غربي غزة والحديد من ع-ين الجديان شمالي العقبة . والنحاس من الكرنب في النقب والاسفلت والرخام .

اما في الوقود : فان مشروع روتنبرغ لتوليد الكهرباء على الاردن قد نقل الى مقربة تل ابيب . ومجموع ما ينتجه هذا المشروع مع مشروع كهرباء القدس هو حوالي ( ١٠٠ ) الف كيلوات ساعي . ربحها يستخدم في الصناعة .

واما في المصنوعات فهناك عدا مواد البناء على اختلافها ، و عدا صناعة الزيوت والشحوم والصابون والخمور ، و عدا معامل النسيج والاحذية : معامل الصناعة المعدنية . فمعامل ( واغنز ) في يافا تصهر الحديد وتسكب الفولاذ ، وتصنع قطع السيارات المختلفة ، ومعامل ( ثيوب ) الاميركية قرب حيفا تصنع انايبب الفولاذ . ومعامل ( هانا باخ ) في تل ابيب تصنع الرشاشات ، ومعامل ( كايزر فرايزر ) في حيفا كانت تصنع السيارات بمعدل عشرين سيارة يومياً وقد توقف انتاجها الآن . . .

وهناك الى هذا اكبر مصانع العالم لقطع الماس وصقله في تل ابيب ، عدا الصناعات الكيماوية المختلفة والادوية ، والبلاستيك والبرادات والكبريت

والزجاج والاطارات المطاطية والاصبغة . وهناك محاولات علمية لانتاج المواد الغذائية بتكاليف بسيطة . .

والميزان التجاري لفلسطين خاسر خسارة هائلة . وقد كانت نسبة الاستيراد الى التصدير كنسبة ١٠٠ الى ١٥ وكان مقدار العجز يزيد عن ( ٢٠٠ ) مليون ليرة ثم اصبح الآن اقل من ١٠٠ مليون بسبب اموال التعويضات الالمانية واستغناء تل ابيب عن الاستيراد . واول الدول المستوردة من فلسطين بريطانيا ثم الولايات المتحدة ثم الدانمرك . .

والمواصلات اليهودية شبكة واسعة .

في الملاحة البحرية : ذكر بن غوريون في احدى خطبه ان فلسطين ضيقة المساحة وان ليس امامها غير البحر لتوسع مجال حيويتها ، ولهذا انشأت الحكومة شركة ( تسي ) تسي - مستخاري اي اسطول تجاري .

كما ان هنالك شركتين اخريين هما ( عتيد ) و ( ديزنكوف ) وبمجموعة حمولة الاسطول التجاري اليهودي ( ١٥٠ ) الف طن موزعة على ( ٣٧ ) سفينة . وبرنامج اليهود يقضي بزيادة حمولة الاسطول الى مليون ونصف المليون من الاطنان وان يحتوي على ناقلتين للبترول وست بواخر لنقل الحمضيات . واكبر المرافئ اليوم هو مرافئ حيفا الذي اصبح يمتد حتى مصب نهر المقطع . واما مرافئ ايلات فقد فشل .

وفي الملاحة الجوية قامت شركة ( المال ) منذ عام ١٩٤٩ بربط فلسطين مع نيويورك وباريس وروما وزوريخ ، وبمباي والقليين والحبشة . وقد اقيمت عدة مدارس للطيران ، واهم المطارات مطار اللد الذي يستقبل طائرات ( ١٣ )



شركة اجنبية ، ويليه مطار حيفا ثم ايلات وصفد وناثانياعدالمطارات العسكرية.

وفي الخطوط البرية ، كان اهم ماصنع اقامة طريق بين بئر السبع وايلات كلف كل كيلو متر منه ١١ الف جنيه ، والعمل يجري الآن لمد خط حديدي من الرملة الى بئر السبع وايلات ، كما انتهى ربط تل ابيب حديدياً مع حيفا . . واهم شركات النقل شركة ( ايغود ) التابعة لهستدروت .

ونصل الى الوضع المالي : فنجد ان النقد اليهودي المتداول الآن يصدره ( بنك اسرائيل الوطني ) وليس له من تغطية مقبولة سوى رأسمال البنك وما تملكه الحكومة من نقد اجنبي ولما نقصت هذه التغطية اصدرت الحكومة للتكملة سندات عقارية على املاك الدولة .

والسعر الرسمي الاصيل لليرة الاسرائيلية هو جنيه استرليني لكن قيمتها قد تدنت حتى اصبحت تعادل الليرة السورية الآن . وكانت ثلاثة دولارات تعادل ايرة تقريباً فاصبحت ثلاث ليرات تعادل الدولار ، والحكومة اليهودية لاتخشى تدهور نقدها خارجياً ولكنها تخشى من تضخمه في الداخل وليس لديها من وسيلة لامتصاصه . .

والنقد المتداول اليوم يبلغ ( ٩٨ ) مليون ليرة وكان هذا الرقم عام ١٩٤٨ لايزيد عن ٢٨ مليون . ولهذا فالغلاء شديد جداً والاسعار ارتفعت ( ١١ ) ضعفاً عما كانت عليه في ايلول ١٩٥١ حسب التقدير الرسمي .

وميزانية الدولة تقسم الى ثلاثة اقسام : الميزانية العادية وهي لاتزيد عن ( ٨٥ ) مليوناً للنفقات ومثلها للواردات ، وميزانية التحسين والانشاء وتغطي عادة بالقروض والسندات وتصل الى ( ١٥٠ ) مليون ليرة . ثم ميزانية الدفاع وهي

سيرية ، ولا تقل عن ( ١٠٠ ) مليون .

ولا شك ان مثل هذه الموازنات بالاضافة الى تقص الاغذية وتدني النقد  
وخسارة الميزان التجاري بحاجة الى تعويض من النقد الاجني ، ومصادر تل  
ايب منه واسعة ، فانها رغم عجزها المستمر وانقطاعها مرات عن دفع رواتب  
الموظفين ، تلتقي سنويا المال من المصادر التالية :

( ٥٠ ) مليون ليرة من سندات القرض ( وكانت تأمل بـ ٥٠٠ مليون ) .  
و ( ٣٧ ) مليون ليرة من الجباية الموحدة ، و ( ٧٠ ) مليون ليرة من اموال  
التعويضات الالمانية ، و ( ٥٠ - ٦٠ ) مليون من المعونة الاميركية ، و ( ٢٠ ) مليون من  
التبرعات ، و ( ١٢ ) مليون من الرساميل الاجنبية ( ولا يسمح لها بالخروج )  
هذا عدا ( ١٠٠ ) مليون ليرة قيمة الاعتماد الذي فتحه لها بنك الاستيراد  
والتصدير الاميركي ، وعدا الاعتماد التجاري الفرنسي بقيمة ( ٢٠٥ ) مليون وعدا  
الاعتماد السويسري بحوالي ستة ملايين ، وعدا القروض الداخلية  
المختلفة و اموال الصناديق القومية . ونقطة القلق في هذا الوضع هو هذا السؤال  
الذي يقرض ضمير اليهود :

هل يمكن ان تستمر هذه الموارد ؟ .

وبعد فتلك هي الدولة ، وذلك هو مجتمعها ، وهذه هي اقتصادياتها . ان  
كل قواها متجهة اليوم الى زيادة السكان والاسكان والتقدم الزراعي والصناعي لزيادة  
الدخل القومي والى توسيع المواصلات والتعليم واستغلال كل مورد في البلاد  
يؤيدها في ذلك عقيدة قومية عنيفة الحدود ومنظمات عسكرية واسعة متشعبة ،  
وعلم يحاول ان يضع نفسه في خدمة الغزوة اليهودية وضغط صهيوني عالمي له وزنه  
وله قواه الرهيبة .

ووجوه الضعف في هذا التكوين ان عدد السكان قليل فلا هم يمثلون  
اكثريه اليهود في العالم ولا هم يوزنون بالامة العربية التي تطوقهم ثم انهم غير  
منسجمين ويمثلون اوساطاً وشعباً متباينة جداً ولا يمكن للبلاد ان تستوعب  
اكثر مما استوعبت . . .

وقد توقفت الهجرة اخيراً بهذا . . . وانتاج البلاد اقل بكثير من ان  
يكفي خمس السكان والمقاطعة الاقتصادية العربية تخنق الصناعة لحد كبير .  
والنفوذ الرأسمالي الاجنبي واضح ويأخذ بزمام الدولة ويستطيع ان يقطع الموارد  
والاعانات عنها .

يضاف الى ذلك ان الاتجاه العسكري الذي يربى عليه الجيل الجديد يلقى  
مقاومة عميقة في النفوس اليهودية ولا يمكن ان يستمر طويلاً في ضغطه اليائس .

ترى هل لي ان استنتج من هذه الموازنة شيئاً ؟

ان شاعراً يهودياً بولوني الاصل . اهارون امير كتب قصيدة قال فيها :

بين الكروم عند خرائب لا كيش وبيت ايل .

سرت اسم هواء ارض القدم الازلي .

وحيداً افاجى التراب ، وفوق رأسي اغصان التين .

واغنام ظهرت تسوقها راعية . . انها اختي ، اختي فاطمة الفلاحة العربية ،

بنت هذه الارض .

اختي الفلاحة التي هي اقرب الي من ابني لانها بنت امي الارض .

ارضنا . . . بل ارض فاطمة الفلاحة ارض كنعان .

انها تفتح صدورها لها ولكنها تبخل بزرعها على الاغراب

هؤلاء القادمون من بولونيا ومنهم ابي واقاربه وابناء بلده  
ليس لهم علاقة بهذه الارض التي تطوي في ترابها جود فاطمة الفلاحة  
ايه ايها الارض ! هل تقبلين ان اكون ابنك .

هل تحتضنيني مثل فاطمة وبني قومها ؟

لا ! انك غاضبة تصرخين لان الاجانب شردوا ابناءك . . . اني اشعر ان  
كل دفقة دم في عروقي . كل معول في بلادي يقول سنعود ياارضنا . . . سنعود «

ان المغامرة الصهيونية الكبرى التي كلفت حتى الآن ما يزيد على ( ٣ )  
مليارات دولار عدا الجهود البشرية خلال سبعين سنة لا يمكن ان تدوم لانها  
لن تعطي الثمرة المرجوة منها .

فلا اجتمع اليهود ولا استثمر الشرق الاوسط ! ! بينا القوة العربية في  
نمو مستمر .

واولئك الذين وصلوا على الباخرة « اصلان » ذات يوم لادري كان  
لاهباً من القيط او كان يشرق بالضباب الاسود سيعودون على باخرة من مثلها . .  
او اسوأ منها .

سيخرجون كما خرج الرومان من فلسطين وكما جلا الصليبيون ! وسترجع  
( فاطمة ) الى ذلك التراب ! . . .

دمشق

لماذا تخلف العرب عن الكشوف العلمية

الدكتور محمد يحيى الرهاشمي

بسم الله الرحمن الرحيم  
الحمد لله الذي جعل في كل شيء  
لنا حكمة وعبرة  
والصلاة والسلام على  
سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

هو كذا...  
في كل شيء...  
والصلاة والسلام على...  
سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَهُدًى بِنُورِ الْهُدَى

والصلاة والسلام على...  
سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى  
سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ

والصلاة والسلام على...  
سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين

١٤٢٠ / ٠٦ / ٢٦

## لماذا تخلف العرب عن الكشوف العلمية

منذ مطلع القرن الثامن عشر يتمخض الغرب عن اكتشافات علمية هائلة في سقى ميادين العلوم . ولم تكن هذه الكشوف وليدة يومها ، بل تقدمتها جهود جبارة اسفرت عن نتائج ذي بال . ولم يتح للغرب السير في هذا الطريق الا بعد ان قام في اطلاق الفكر من قيوده ودك مبدأ السلطنة ، ذلك المبدأ الذي يعطل قوى الحواس والنقد النزيه ويقضي على الاحكام القبلية والمقيدة قضاء مبرما ، ودأبه وديدنه التحري عن الحقيقة الناصعة دون طلاء خداع ولا برقع غشاش كسراب ببيعة يحسبه الظلماء ماء ، ان العلم اذن لم يتقدم الا بعد ان اعلن ثورته على الاوهام الزائفة وعلى كل مايؤخر ركب التقدم والاطلاع الشخصي ، سواء كان ذلك بعين البصر او البصيرة ، فالحق حق بقطع النظر عن مصدره ، سواء كان القائل اميرا او حقيراً . لقد كان علماء النهضة « رينسانس » هم اولئك نفر من العلماء الذين اوقدوا الشعلة الواهجة الي العصور المقبلة معلنين اليقظة الروحية والثورة الباطنية على كل مايؤخر الفكر والاستنباط ، ناكرين الاحتكار العلمي وطأطأة الرأس لسلطان اناس معينين ، كانت لهم مكانتهم في العلم . ان امثال هؤلاء هم الذين خدموه حقيقة نزيمه مجردة ايضاً ، ويعلنون على رؤوس الاشهاد ان الحقيقة

لا ضرورة لان تكون مدعمة بقول عالم كبير ، بل تلك التي تكون واضحة للعالم  
اجمع ، فهي ملك لكل انسان . وهم لا يرون الكون بعيون السلف ، غير حاكمين على  
انفسهم بالعمى مع ان الله خلق لهم عيوناً ليصروا بها ، ضارين صفحاً عن  
عميان القلوب ، لانه في كثير من الاوقات ، لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب  
التي في الصدور . ابوا الرجوع الى الوراء سائرين وراء الموتى ، متخذينهم اربابا  
من دون الله وقدوة في كل امور حياتهم . بل يتطلعون الى الافق البعيد حيث  
يكن النور مبددين الظلمات الخالكة التي تمنع رؤية الشعاع الواضح .

يروى لنا تاريخ العلم ما قاساه هذا النفر من الناس في استخلاص الحقائق  
ولنا في سير غاليله و كومر نيكوس ولا فوازيه من العظات اللينات التي هي تذكرة  
لاولي الالباب . ولولا التمهيد الفكري من اولئك الحكماء امثال ديكارت  
وسبينوزا وماسكال وغيرهم لما كان لجهود العلماء المارين ذكرا من ثمرة مزجوة .

لم يكن الشرق العربي في القرون الوسطى بهذا التأخر الذي هو عليه في  
العصر الحاضر ، بل خاض غمار العلم في كل ميدان من ميادينه ، وكان له فضل  
القدم والسبق ، وان نته بعض الجاهلين بالتقاييد المحض والنقل عن الاوائل .  
فعم انه كان في البدء مقتبساً ، ثم اصبح مبتكراً فذاً . حتى ان مبدأ ذلك السلطة  
وتحمري الحقيقة يعزیه بعض المحققين الى العرب الاوائل . وهكذا ذكر الاستاذ  
مصطفى نظيف في كتابه عن ابن الهيثم انه من الشائع المتواتر ان البحث العلمي على  
الطريقة العلمية الحديثة لم يبدأ في تاريخ تطور الفكر الانساني الا بعد عصر  
النهضة في اوربا ، وينسب اكبر قسط من الفضل في نشوء طريقة البحث الحديث  
الى فرنسيس بيكون . . . فهو يعد اول من بين ان الطريقة المثلى هي الاعتماد  
على الحقائق المشهودة والمضي في جميع المشاهدات وتبويبها وترتيبها بغية الوصول  
بالاستقراء الى المعلومات التي تتفق والواقع . والاستقراء من الدعائم الاساسية



التي يقوم عليها العلم الحديث ( ويقصد بالاستقراء طبعاً الاستقراء الموسع لا - استقراء  
ارسطو المعروف بالصورى ) . وقد نقل لنا هذا الاستاذ طريقة ابن الهيثم التي تتفق  
وطريقة العلم الحديث :

ونبتدى في البحث باستقراء الموجودات وتصفح احوال المبصرات وتمييز  
خواص الجزئيات وتلقت بالاستقراء ما يخص البصر في حال الابصار وما هو مطرد  
لا يتغير ، وظاهر لا يشبهه من كيفية الاحساس . ثم نترقي في البحث والمقاييس على  
التدرج والترتيب مع انتقاد المقدمات والتحفظ في النتائج . وجعل غرضنا في  
جميع ما نستقرئه وتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى ، ونتحرى في سائر  
ما نميزه ونتقدمه طلب الحق لا الميل مع الآراء : وختم كلامه بقوله : وما نحن مع  
جميع ذلك براء مما هو في طبيعة الانسان من كدر البشرية ، ولكننا نجتهد بقدر  
ما هو لنا من القوة الانسانية . ومن الله نستمد المعونة في جميع الامور . ويعاقق  
مصطفى نظيف على قول ابن الهيثم بعد ان سرد تفسيره لمظاهر النور واعتماده على  
المثل الميكانيكية دون ان يتقيد كما تقيد نيوتن من بعده :

وما اشبه ابن الهيثم في هذا بموقف بعض اساطين علم الطبيعة في اواخر  
القرن التاسع عشر . . . الذين رأوا ان يمثلوا للامور الطبيعية بمثل ميكانيكية ،  
جعلوها صوراً تبين بالمحسوسات المعاني الخفية التي تنطوي عليها تلك الامور ، والتي  
تتضمنها البحوث النظرية او المعادلات الرياضية التي تتعلق بها . وهم يتميزون في  
تاريخ تطور علم الطبيعة بمذهبهم هذا . وليس اليق من ان نسميهم ( اصحاب  
المثل الميكانيكية ) . . . وليس من الخطأ ان نجعل ابن الهيثم من ثلثهم ، فهو قد  
رأى مثل رأيهم ونهج مثل منهجهم .

يكون خروجاً عن الموضوع ولا شك اذا تكلمنا عن الجهود العلمية  
الاوائل من العرب امثال جابر بن حيان والكندي وابناء شاكر وغيرهم الذين

اتخذو النسب الرياضية اساساً لفهم القانون العلمي ، حتى ان قانون النسب الرياضية عند بروسست في التراكيب الكيميائية نجده عند جابر . ان المبدأ الذي هو اشداصلة هو مبدأ الميزان عند جابر لان خواص الاشياء في مملكة الكيمياء حسب مبدئه قابلة للقياس ، ولا يكون تناسب المواد مع بعضها بعضا الا بنسب عديدة . وهكذا يرى جابر النسب العددية في الاجسام والقانون الرياضي هو الذي يعطي ترتيب الاجسام وانسجامها ، وهو المفهوم المجرد لعالمنا ، فالميزان عنده رمز النظام في العالم . وقد استعاض عن المقولات العشر لارسطاطاليس بمبدأ واحد واتجاه واحد وهو سيادة النظام الطبيعي او الميزان . ويرى بعض المحققين ان في نظرية جابر الطرافة والعمق ، لاننا نجد الشغل الشاغل والههم الاكبر للعلم الحديث بكل انواعه وفروعه يتجه الى احلال النسب الكمية محل الخواص الكيفية في كل تفسير لاي مظهر من مظاهر الوجود . ويكفي ان يكون جابر قد شعر شعوراً واضحاً قوياً بهذا الاتجاه لكي يتبوأ مركز الصدارة في تاريخ العلم كله قديمه وحديثه . ويضيق المجال ان نذكر المنهج الواقعي وعن تراثه المختلفة عند كل من الجاحظ والكندي وابن سينا واخوان الصفاء والبيروني وغيرهم من العلماء الافذاذ ولا بد لي من تأدية الامانة وان اتقل لكم ماقاله البروفسور نويرات مدير معهد الميزولوجيا في جامعة بون اثر محاضرة القاها عن الجغرافيين العرب في بحثهم عن المعادن :

« اننا لم نتسلق سلم المجد على اكتاف اليونان كما كنا نظن بل على اكتاف العرب . »

منذ القرن السابع الهجري او الثالث عشر ميلادي اخذ الشرق يضع تراثه ، فقلما نجد بحثاً علمياً له قيمته ، وانتقل التراث بالتدرج الى الغرب الذي عرف الاستفادة منه وتسميته . في هذه الفترة من الزمن كان الشرق العربي في

ظلام دامس ، وقلمنا نجد في بطون الكتب بحثا علميا مبتكرا ، اذا استثنينا من ذلك طبعاً المفكر الاجتماعي وواضع اسامات النقد التاريخي ابن خلدون ، والطبيب ابن النفيس الذي اكتشف الدورة الدموية والذي خالف في نظرياته آراء جالينوس وابن سينا ، والذي بقيت نظريته في زوايا النسيان والاهمال الى ان بعثت منذ مدة قريبة من مرقدتها . ويعثر العلماء بين آونة واخرى على بعض الابحاث التي لها قيمتها . وليس طابع هذا العصر خلوه تماما من المواضيع العلمية ، ولكن عدم متابعة البحث بصورة متواصلة ودأب لا يعرف الاقطاع . لان المعول في النهضة العلمية لاعلى وجود افراد قلائل بعبقرية فذة ، بل على التعميم والتواصل . تلك الميرتين الهامتين اللتين لانجدهما في عهد سقوط المدينة العربية وتدهورها .

في مطلع القرن التاسع عشر تدب في الشرق العربي نهضة جديدة كان مصدرها البعثات العلمية التي ارسلها محمد علي الى اوربا . كانت هذه النهضة تبشر بمستقبل باهر للعرب اجمع لو انها كانت متواصلة وسائرة على نفس السرعة التي بدأت فيها . ان هذه اليقظة كانت قبل يقظة اليابان ، وانه ليعترينا الاندهاش اذا اطلعنا على المشاريع التي تمت في تلك البرهة القصيرة وعلى الكتب العلمية التي ترجمت الى اللغة العربية . وقد اطلعت على بعض الكتب عن الكيمياء المنقولة الى اللغة في هذه المكتبة ، لاخلال انه خفي شيء عن المترجم مما عرف عن هذه المادة في ذلك العصر . ولو ان الامة العربية تابعت الاقتباس بتلك الخطوات لكان لها اليوم شأن غير شأنها الحالي ، ولكانت لاتقل عن اليابان في مجارة الامم الغربية ان لم تزد عليها ، ولا يبعد ان يكون لها في الابداع الذاتي نصيب وافر .

اما النهضة العلمية التي يمكننا اعتبارها متتابعة الى حد ما ، فهي تلك النهضة التي حدثت بعد الحرب العالمية الاولى والتي كانت ولازال تمشي مع النهضة القومية جنباً الى جنب . ورغم اننا نجد في بعض منا احساسا عميقا بضرورة اللحاق

بالغرب فالمسافة بيننا وبينهم لاتزال بعيدة جداً ، وقد ذكر عبد الرحمن الكواكبي قبل نصف قرن من الزمن ان تقصيرنا عن اللحاق سوف يكون وبالاً علينا ، واننا لنقرأ في كتابة ام القرى صيحة داوية ، هي في الحقيقة كما وصفها هو نفسه صيحة في واد او نفضة في رما ، ولقد بين على لسان الرياضي الكردي : والحاصل ان تقصيرات العلماء الاقدمين واقتصارات المتأخرين وتباعد الشرقيين الى الآن عن العلوم النافعة الحيوية جعلتهم احط بكثير من الامم . ولا شك اذا ، ادى تباعدنا هذا خمسين عاما اخرى تبعد النسبة بينهم وبين جيرانهم كبعدها ما بين الانسان وباقي انواع الحيوان . . . . . وها قد مضى اكثر من خمسين سنة على هذا القول واننا لم نتقدم في العلم كما ينبغي ، رغم ان التعميم في العلوم خطأ خطوات لا بأس بها . علينا اذن ان نتحرى الاسباب في ذلك .

يظن بعض المفكرين في الغرب ان هذا التأخر هو حتمي لانه على زعمهم من الخصائص العرقية . وقد تبجح في ذلك الكثيرون . وقد ذكر احد الكتاب المعاصرين في الغرب الا وهو « هرمان كارغه » في كتاب نشره باللغة الالمانية الانسان والشعب يقول فيه : ان اكبر المساهمات والاشتراك الفعلي في مضمار الرقي لافيمة له اذا لم يفهم فيها جيداً : وهذا على زعمه ما يجعل العرق الابيض يتميز عن بقية العروق . وهو على ما يدعيه سر تفوق هذا العرق ووصوله الى اعلى الدرجات في الحظ مرة لانه فيه قوي فعالة ، وهو جدير بفهم جهود المبدعين من ذويه ، وبمقدرته جمع القيم وتمييزها والاستفادة منها ، لذلك كان هذا العرق على دعواه في ارقى الدرجات .

اذا امعنا النظر في هذا القول لو جدنا ان الشق الاول من هذا الحكم صحيح ، لان اكبر المساهمات في مضمار الرقي لاجدوى منها اذا لم تقترن بالتقدير

اللائق . اما الشق الثاني من هذا الحكم فهو غير صحيح وناجم عن النتائج المشاهدة ولكن هذه النتائج هي ليست حتمية وضرورية . لان كثيرين من ابناء امتنا قد اتيح لهم ان يكونوا من السباقين في ميادين العلوم والفنون عندما كانوا يدرسون في تلك الديار . اما هذا الجمود الذي نراه فهو ليس من الخصائص العرقية . بل ناجم عن عدم صقل المواهب عندنا في الوقت الذي اتيح ذلك في الغرب .

ان الغرب قطع طريقا طويلاً للوصول الى هذه النتائج التي نراها اليوم ، وليس من المنطق في شيء ان تقوم فنقطع الطريق نفسه ، بل انما مضطرون على اخذ النتائج كما هي ، لذلك كان الاقتباس من اجلنا ضرورة لا بد منها . واذا اردنا تشبيه عصرنا بعصر من العصور العربية الاولى ، فيقتضي تسمية هذا العصر بعصر الترجمة الذي كان في اواخر العهد الاموي واولئ العهد العباسي . ومما يؤسف له حقا انه لم تقم في العصر الحديث حركة ترجمة منظمة كما كانت في اناضي والتي كانت السبب في النهضة العلمية المعروفة والتي لعبت دورها ايضاً في تاريخ الثقافة العالمي . لانه لا يمكن الحصول على الابداع الا بعد قطع مرحلة الاقتباس بفهم جيد واسلوب موحد لا بلبله فيه ولا تشتت ، على ان نأخذ هذا الموضوع بصورة جدية لامعالجة على الهامش .

اضف الى ذلك انه من الضروري عمل مختبرات توجيية من شأنها التنبيه على الثروات الاقتصادية في البلاد ، فاذا ما شعر طالب العلم ان هذه العلوم العصرية تكون السبب في زيادة الثروة القومية اقبل عليها بكلية ، وعندما يتذوقها ويفهم دورها العملي عند ذلك لا يقوى على تركها واهمالها .

من اهم ما يجب علينا القيام به تغيير اساليبنا في التدريس ، كي لانكتفي في حفظ المواد واستظهارها بل في تفهمها ، لاننا نجد هذه النزعة مسيطرة علينا

في مدارسنا ، هكذا نجد ذلك في مدارسنا الابتدائية منها والثانوية ، وما للتجارب الا شي ء ثانوي لا اساسي . وفي المدارس الثانوية يضاف الى مشكله الحفظ القوانين الرياضية ليحصل الطالب على الشهادة التي يصبو اليها للتوظيف . ان هذا التوجيه دون امكان تطبيق العلم على العمل وعلى الثمرة المرجوة هو من اهم الاسباب في ابتعادنا عن علم الكشف والابداع .

لاشك ان طريقة العلوم تمشي في الوقت الحاضر على المنهاج الآتي :  
المشاهدة في البدء ، ثم الفرضية ، فالتجربة فالتقانون . ولكل مرحلة من هذه المراحل يحتاج الى تدريب خاص . حتى ان المشاهدة نفسها تحتاج الى تمرين خاص فكثيراً ما لا يحاول الطالب ان يرى بل يحاول التخيل ، لانه قد ادخل في روعه انه اذا حصر فعاليته الذهنية بالمحسوس فقط ، فذلك انتقاص من قدره وامتهان لمكانته ، لانه كثيراً ما يرى نفسه اعظم من ان يحصر فعاليته الذهنية بالمشاهدة المحسوسة التي يقدر عليها كل فرد عادي ، وهو يرغب التحليق في افق الخيال وتوهم اشياء غير واقعية ، يريد التحليق في السماء وهو لم يتعود السير على الارض بعد . ولعل هذه النزعة التي تبعدنا عن تفهم العلوم بالصورة المضبوطة انت الينا من الادب الوهمي لا اقول الخيالي . لان في الخيال الخصب ثمرة مرجوة ايضاً . وقد تغفل هذا الاتجاه في نفوسنا حتى تعدها بصورة لاشعورية الى دراستنا للعلوم الطبيعية وقد غاب عن فكر الكثيرين ان الهرب الى الخيال المحض او بالاحري الى الوهم كما بينا لضيق معين الفهم لاستيعاب خفقات الطبيعة الحية ، ومن الجهل من ان آيات الكون الاصلية هي اعمق واجدى وانفع من الخيال الذي لا يرتكز على اساس .

لا يمكن الانتقال من المشاهدة الى الفرضية بصورة آتية بل لابد من مساهمة قوية الاستنباط في تفهم الفرضية . اي انه يلزم اشراك الفعالية الذهنية الشخصية

في تفهم مايجري في الطبيعة . بعد هذه المقدمات المختلفة يلزم ان نتعرف الى القوانين الرياضية التي وضعها العلماء لتفسير مايجري في الطبيعة . وان موقع القوانين الرياضية هي في الدرجة الثانية لافي الاولى ، فاذا ماشاهدنا خلافاً في جريان الطبيعة تطبيقاً على القانون الرياضي ، فيجب علينا تصحيح هذا القانون وعده مغلوطاً وغير صحيح .

نعم اننا وان كنا بحاجة ماسة الى اقتباس صحيح متقن دون مواربة ولاخداع النفس ، فان هناك بعض المطالب النفسية التي يجب علينا مراعاتها للانتقال من الاقتباس الى الابتكار ، لان الاقتباس الصحيح يولد شيئاً له قيمته ، اما الاقتباس المغلوط والناقص فانه عقيم ولا يولد شيئاً . من اجل ذلك كانت هناك بعض المطالب الروحية التي يقتضي مراعاتها ، فانه لايمكننا ان نكون من المبدعين ما لم نغير ما بانفسنا ، وان الدراسة الآلية غير المسبقة بمقدمات نفسية عميقة لايمكنها اعطاء الثمرة اللازمة . واننا اذا دققنا في تاريخ حياة المكتشفين ، نجد هناك اموراً نفسية عميقة ساهمت مساهمة فعالة بالخلق والتوليد و « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » : اذا عقلنا ذلك كان لنا المطمح في ان لانكون عالة على الغربي في يوم من الايام في اليجاد الذاتي . ان هذه الخبرة الذاتية لها قيمتها ، فليس القصد ان يقلد الانسان تقليداً اعمى بل ان يدع الشيء يتغلغل الى داخل نفسه ويتبع بعد ذلك بصورة عفوية منها . ويقول نيتشه في هذا الصدد على لسان زردشت عندما التقى به مريدوه ، وقالوا له ايها المعلم اننا نؤمن بك ، وقف زردشت هازناً متهمكاً قائلاً لهم : « انكم لم تجدوا انفسكم بعد ، فكيف وجدتموني . ابحثوا عن انفسكم بادي ذي بدء ، فان وجدتموها ، عند ذلك سهل عليكم الوصول الي . وان كنتم قد اضعمت انفسكم فانكم لن تجدوني ويضيف هذا المفكر الى ذلك قوله : « اريد البقاء احقق اعتقاداً على زندي من ان اكون عبقرياً اتكلاً على غيري . ويذكر اقبال الشاعر

الباكستاني على لسان البراعة :

إذا حلك الظلام كعين ظبي انرت بنور اضلاعي طريق

إذا كنا نريد حقاً ان نتبع هذه العلوم من انفسنا علينا معرفة انتقالها الى ساحة اللاوعي والاشعور ، وان نرى المشاكل العلمية حتى في احلامنا . وكم من مبتكرات علمية انبعثت من العقل الباطن فقدمت العلم عصوراً عديدة . وإذا كان الاخلاص رائدنا والصدق دليلنا فيجب علينا الاعتراف بان العلم لم يشكل بعد هوى باطنياً عميقاً لدرجة لانستطيع هجرانه سواء فلنا من ذلك فائدة مادية ام لم نل . ويقول الشاعر فريد الدين العطار :

فان تقرأ علوم الناس الفأ بلا عشق فما حصلت حرفا

وكم نحن بعيدين عن ذلك المثل اللاتيني القائل : « نتعلم من اجل الحياة لامن اجل المدرسة » . ومن الواضح الجلي ان الكثيرين منا يتعاملون للمدرسة ولاجتياز الفحص فقط ، فاذا انتهى ذلك انتهت مهمة العلم ، ولم يشأ احد الا مارحم ربك قراءة الكتب بينه وبين نفسه للثقافة الخاصة والالتقال من ظلمات الجهل الى يفاع النور والاستعمار . حتى ان الشغل الشاغل في العلم استظهار امثولات لكتابتها بالفحص وان كانت مغلوطة لان المعول عندنا على الشهادة لا على العلم الصحيح .

ان اول مايجب علينا عمله تحرى الطريق الواضح للاخلاص للعلم وان كان الطريق شاقا عسيراً . وان ايجاد هذا الطريق وغرسه في نفوس الناشئة لهواشد اهمية واكبر فائدة واعظم عائدة من تثقيف الادمغة بالمعلومات الكثيرة التي يشعر الانسان بثقل ظلها على النفس او اتخاذها وسيلة فقط للربح المادي بحيث تصبح



ميكانيكية آلية خالية من شعور بالرسالة ومن تلك اللذة المعنوية العميقة التي تفوق  
كنوز الارض . ان هذا الهوس وهذه الهواية هي التي تسوق الانسان الى البحث  
والاستقصاء اننا لنجد هوايات عديدة عندنا في مختلف الالعاب ، ولكن قلما نجد  
مثل هذه الهواية في العلم بحيث لانقبل به بديلا ، فاذا رأينا احدا ان الاشتغال في  
تجارة اضمن ربحاً من العلم لطلقة طلاقاً لارجعة فيه . لعل الذي ضاقت به سبل  
العيش معذور في هجره للعلم او في عدم الاشتغال به الاشتغال الكلي ، ولكن  
ماعدن اولئك الذين رحبت تجارتهم ومع ذلك لم يكلفوا انفسهم عناء متابعة الدراسة .  
نرى في بلادنا كثيرا من اطباء الذين راجت مهنتهم من الوجهة المادية بدرجة  
لا يحتم مثلها امثالهم في الغرب وقلما يخطر ببال احد منهم الاطلاع الجديد على  
المكتشفات العصرية او القيام في دراسة الامراض المستعصية بشق  
الوسائل الممكنة .

ان يقظة الضمير الحر هي من اهم اسباب الرقي في العلم وهي التي تجبرنا ان  
نكون مخلصين لقابليتنا الذاتية ساعين لاكتشاف الميول عند غيرنا وبذل الجهد  
في انماها ذلك التعليم التوجيهي الذي اعتي به الغرب واهملناه كل ميسر لما خلق له  
والنبوغ كما هو معلوم اليوم لا يهبط من السماء فهو كالبذرة ان لم تجد التربة الخصبة  
والمواد الانباتية الصالحة ذبلت وماتت واصبحت نسيا منسيا . ومن البديهي ان  
الانسان الذي تضطره ظروف قاهرة لان يسلك طريقاً لم يخلق له ، سوف يكون  
تعسا مقهوراً ، لا يكون النجاج حليفه ، وان غش وخدع ، وداهن وناق ،  
ومال ووارب ولف ودار ، وكذب وموه . قد ينجح مادياً ولكن لا يتاح له ان  
يتقدم قيد اذلة تقدما صحيحاً . وما يؤسف له حقاً اننا لانزال نتبجح  
بالقول المأثور : « حلال على الشاطر » وامامنا مأساة فلسطين ونتيجتها المروعة  
اكبر عبرة لنا ، وقد جرفت في تيارها المذنب والبريء وجعلت ما يقرب من مليون  
انسان بلا مأوى ، بل سببت لنا عارا عالمياً اطمعت المدوفينا وجملته يوالي اعتداءاته

علينا . اذن ان عدم الاخلاص لا يقف محذوره عند العقم العلمي بل يتعداه الى كل نتيجة في الحياة و « الرحمة مخصصة والبلى عام » .

فما يجب الالتفات اليه بصورة خاصة الروح الحركية السائدة في الغرب والتي كانت من اهم العوامل في تقدمه وسيره الى الامام ، ان هذه النزعة ( كما سبق لنا وبيننا ) تود تسخير قوى الطبيعة ، فالريح والماء والحرارة والنور والكهرباء والمادة والقوى المختلفة والطاقات الذرية كلها تحت تصرف الانسان الحركي وفي قبضة يده . ولم يكتف برقعة الارض الضيقة بل يحاول الاتصال بالعالم العلوي عالم الكواكب . لعل هذه النزعة قد دبت عند افراد قلائل منا ، وبما يجب علينا عمله ضم تلك الجهود الفردية الى بعضها بعضا لتكوين جهود جماعية متعاونة وبما يجب الاشارة اليه انه يجب علينا عدم اقتباس هذه النزعة دون قيد ولا شرط ، بل تجنب سيطرة الآلة العمياء التي يشكو منها الغرب والتي احدثت ازمة هائلة زادت في بلاء الانسان ومحنته وتفنتت في ايجاد وسائل التدمير . وعلى كل فان الحركة لاتأتي عفوا من تلقاء نفسها ، اذا لم تكن منبعثة من صميم نفوسنا ، ولنعلم ان الابطاء في البت في الامور والتسويق الذي بلينا به ، هو من اكبر آفاتنا ومن اكبر عوامل تأخرنا ، فالزمن ليس هو مرور شيء موهوم ، فاذا لا توجد هناك حركة في اذهاننا وتقدير لسير الزمن ، لفظنا سيره السريع جانبا واصبحنا اسطورة من اساطير الماضي ، فالامة التي ليس بمقدورها خلق الجديد في العلم لاتسير مع الزمن ، ولا فائدة من ذهابنا الى الغرب ما لم نقم بتجديد نفوسنا . اننا لنجد الشعب الالابي مثلاً ( ذلك الشعب الذي يعيش بين السويد والنرويج ودانياركه ) مع انه يعيش في قلب الامم الاسقانديناوية التي قطعت شأواً بعيداً في مضمار التقدم العلمي لا يزال على تأخره و بداوته . هناك المهمة الكبرى الملقاة على كواهل مثقفينا وقادة الرأي فينا ، الا وهي خلق الاسباب وتوفير الوسائل لجعل الفكر حرياً بالاقتباس . اننا نشعر طبعاً بتأجج بصيص

ضئيل من هذه الروح الحركية ، ولكننا نحشى على هذا البصيص ان ينطفئ  
بتعاقب الزمن ان كان المحيط بارداً ولم نجد النفخ في كل فرصة سانحة ، لان المنعول  
في كل رقي وتبديل هو الانقلاب النفسي .

ان روح المغامرة والطموح هي ( كما هو معروف عند كل احد ) من اهم  
الاسباب في التقدم العلمي ، فلو لم تكن هذه الروح سائدة عند كريستوف كولومبس ،  
لما اتيح له اكتشاف امريكا ، ولو لم تكن عند باستور لما توفق لاكتشاف الجرثوم ،  
ولو لم تكن عند لافوازييه لما توفق في معرفة تركيب الهواء والاحتراق واكتشاف  
قانون بقاء المادة الذي لم يتزعزع الا في العصر الحاضر ، ولولاها ايضاً لما توفق  
الزوجان كورى الى اكتشاف معدن الراديوم العجيب ، ولولاها كذلك لما عرف  
هرتس سر الموجات الاثيرية التي كانت من نتائجها الاذاعة اليوم ، والامثلة على  
ذلك في تاريخ العلم الحاضر لا يحصوها عدد . هذه الروح نشاهدها عند سلفنا الماضي  
الذين شدوا الرحال وجابوا الآفاق للارتشاف من معين العلم ولاكتشاف الحقائق .  
عندما زرت قبيل الحرب العالمية الثانية منطقة « نورد كاب » اقصى نقطة في  
شمال اوروبا و اردت ان اسطر في كتاب الضيوف هناك باني اول عربي جاء الى  
هذه المنطقة ، جلب دقة نظري علم سويدي بانه يجب علي ان اكتب باني اول عربي  
في القرن العشرين ، وقد سبقني منذ الف سنة الرحالة العرب القدامى ، وقد تأكدت  
من ذلك عند زيارتي متحف بوغن الذي وجدت فيه نقود عباسية من عهد المتوكل  
على الله وجدت في كتب الجغرافيين تفاصيل هامة عن رواد العرب . عندما  
اطلعت على ذلك تعجبت من نفسي كثيراً ، كيف ساق الهمة القعساء اولئك الرواد  
الى تلك الاماكن النائية مع ضعف وسائل النقل . ان هذا المثال وحده يرينا  
مدى التقاعس الذي بلينا به نسبة الماضي ، وما ذلك الا لضعف روح الاطلاع ،  
تلك الروح التي متى ماتتغلغت في النفس لا يهدأ صاحبها الا بالوصول الى الهدف  
ولسبرغور اعجوبة من اعاجيب العلم .

ان التعلم في ديارنا يكون غالباً لاجتياز الفحص فقط، لاحقاً في الاطلاع، ذلك الهدف القريب الذي يقتل فينا كل نشاط وفعالية . وكثيراً ما نشاهد اذا حدث احد الاساتذة طلابه عن نبذة جديدة اطلع عليها ، يسألونه على الفور ، وهل هذا الشيء داخل في الفحص ، فان علموا ان لا دخل له في ذلك اظهروا التأفف عن السماع . ولعل قساوة الحياة هي التي فرضت عليهم ان يكونوا قانعين بالهدف القريب ، وان تكون المواضيع العلمية من اجلهم وسيلة لا غاية.

« شباب قنع لاخير فيهم وبورك بالشباب الطامحين »

هكذا يكتفون بالكتب المقررة غير راغبين في توسيع افق اطلاعهم . وفي الحقيقة فان العلم القليل مع تقوية روح له اكبر فائدة من العكس اي سعة العلم مع ضعف روح الاطلاع . واغرب شي نسمعه وجود كتب مقررة تفرض فرضاً على طلاب الجامعة .

اذا درسنا قصص العباقره والذين خلدوا اسماءهم في تاريخ العلم نجد فيهم روح الاطلاع قوية حتى عند بعضهم اقوى من الحياة اعز شي عن الانسان ، فكم من ضحايا ذهبت لاكتشاف الجرائم ومفعول بعض العقاقير، ويروي عن ذلك الذي كان يريد معرفة تأثير اول اكسيد الفحم في جسم الانسان قدم نفسه ضحية واخذ يدون مايجرى معه وعند شعوره بالاعياء اوماً الى زميله ليتابع التدوين بما حصل له . وانا لنقرأ في ترجمة حياة محمد بن احمد البيروني من علماء القرن الخامس الهجري انه كان يجهد قضية من القضايا الرياضية ، وقد اتاه زائر وهو في مرضه الاخير ، فطلب منه ان يشرح تلك الغوامض ، فقال له الزائر افي هذه الحالة . فاصر عليه البيروني ، فشرح الزائر الكيفية ، وما كاد يقطع بضع خطوات عن منزل هذا العالم ، حتى سمع صراخ النساء بالحادث الجلل ، وكأ ان البيروني

كان يريد ان لا يغمض عينيه الى الابدية وهو جاهل لذلك . هنا نجد العلم غاية  
لاوسيلة . وليس هذا شأن البيروني او العلماء الذين ذكرناهم بل جميع الذين اتيح  
لهم الخلود عبر العصور . ان من اسباب تأخرنا رغم وجود جيوش جرارة من  
المعلمين ضعف هذه الروح . وان التعلم دون يقظة روح الاطلاع قوية في النفس  
هو نصف العلم ، وان نصف العلم لاشد ضرراً على النفس من الجهل ، فالجاهل  
الذي يعرف حدوده متواضع ، ونصف العالم غر احمق ، يجب الدعوة  
الفارغة التي لالب فيها .

ان الصراع من اجل الشهادة قوى عندنا ، وقد فاتنا معرفة ان هناك  
كثير من العباقرة شقوا طريقهم الى مجد الخلود دون ان يكونوا من حملة  
الشهادات ، فها هو سيمنس الذي ركب اول محرك كهربائي كان حداً بسيطاً ،  
وان ديزل مركب المحرك المعروف باسمه كان ميكانيكياً بسيطاً ، عرف التجرد من  
ربكة الآلية فاهتدى الى محركه . وان اديسون ابو الاختراعات والاكتشافات كان  
عاملاً بسيطاً في ادارة البرق . ولكن نشاطه وعبقريته لم يعرفا حداً يقفا عنده .  
وان الذي حل لغز الخزف الصيني بعد ان ظل قرونا عديدة في الغرب لغزاً من  
الالغاز كان عامل فاخورة بسيط ، فبحدة ذكائه توصل الى معرفة السر  
وانقذ معامه من الموت .

اننا كثيراً ما نضيق رحمة الله الواسعة ، فالنبوع لا يعرف حداً ، فبدلاً من  
طلب المجد الحقيقي ننام على الالقاب ، ونقف عن متابعة العمل . وكما نادى المصلح  
الديني محمد عبده نداه الشهير :

ولكن دينا قد اردت صلاحه مخافة ان تقضي عليه العاهم

فنحن بحاجة ماسة الى مصلح علمي يقول : « ولكن علما قد اردت اتقاه

مخافة ان تقضي عليه الشهادات »

لازريد ان ندعي ان الشهادة من معهد علمي لاقيمة لها ، ولكن مانود  
الإشارة اليه بان العلم الحقيقي هو حركة دائمة لايعرف الوقوف ابدأ ، ان كنا  
مخلصين فاننا نبني دوالمزيد وقل « ربي زدني علما » . ومن لم يرغب الاسـتـزادة  
وظن نفسه انه وصل الذروة وقع على الارض صريعاً . من اجل ذلك كانت شهادة  
الدكتوراه في الغرب هي بدء العلم وعندنا هي نهايته ، فنحن ننتهي مع الاسف من  
حيث يبدأ غيرنا . وان كثيرا من افراد امتنا مع الاسف ( كما قال الشاعر المصري  
حافظ ) ، يعشقون الالقباب في غير العلي ويفدون بالنفوس الرتبا .

يحدثنا تاريخ العلم عن دور بريق الفكر ، كما حدث ذلك مع ارشميدس  
عندما اكتشف شروط الغوص في الماء والوزن النوعي وهو يغتسل في الحمام ،  
فركض صارخا في شوارع سيرا كوز من جزيرة صقلية وجدتها وجدتها ، ( اريكاريكا ) .  
ولم يكن هذا الحادث الوحيد من نوعه بل تكرر مرات عديدة وبصورة اشكال  
متباينة يبعثها الى حيز الوجود توارد الخواطر وتداعي الافكار ، كما حدث  
للكيميائي « ككوله » عندما حل لغز صيغة البنزين وكان في غفوة ينظر الى لهب  
النار ، فترأى له كأن افعى تمض ذنبا ، فخطر له ان هذه الصيغة لا يمكن ان  
تكون الا اذا قبلنا انها دورية مغلقة . وان اديسون اعجزته الخيل في عمل  
المصباح الكهربائي ، ففي جلسة هادئة وهو يتناول الطعام مع زوجته  
وولده ، قالت له زوجته ان ابنه بليد فارغ الدماغ ، فاجاب نعم يجب علي تفرغ  
المصباح من الهواء .

لايزال لغزا من الالغاز كيفية انبجاس المعرفة بغتة وبصورة مفاجئة .  
هناك عوامل نفسية اصبحت واضحة على ضوء النهار ، ولكن هناك امور الاتزال

غامضة . واذا تسألنا ياترى ، لماذا نسمع صراخ « وجدتهما » في عالم الغرب ، ولم نسمع مثل هذا الصراخ في علمنا اليوم مع انه كان لنا نصيب في الماضي كما نقرأ ذلك في الكتب التي تبحث عن تاريخ العلوم امثال كتاب الحكماء لابن القفطي ، وعيون الانباء في طبقات الاطباء وغيرها من الكتب . ان الجواب على ذلك ان هناك عوامل يقوى فيها هذا البريق وعوامل يضعفها فلنتخبر اي العوامل تسيطر علينا ؟

ان تفرغ التوتر ، وانتقال المعرفة الى اللاوعي والاهتمام بالموضوع والشعور بالرضى والحرية وراحة البال والضمير والتنظيم في العمل هي من اهم الاسباب في تفجر ينوع المعرفة والكشف الجديد . اما وضعنا الحاضر فليس مناسباً لذلك ، فاننا لنجد اعصابنا متوترة ، وقلمنا تنتقل المشاكل العالمية الى ناحية اللاوعي ، وكذلك الاهتمام فهو ضعيف جداً . واذا اردنا التفتيش عن الرضى عن النفس وراحة البال والضمير ، لوجدناها امور صعبة التحقيق في محيطنا ، لذلك كان مثل هذا الجو لايساعد على الكشف والابداع . وكثيراً من الحقائق يخشى بعضنا الجهر بها خوفاً على مستقبله ، وقد يضطر بعضنا ان يقول للبن اسود اذا اقتضت مصلحته في ذلك ، فمن اجل ذلك « فاز المتملقون » . ان مثل هذا الجو الخائق لايساعد على فتح القلبية وتقدمها ، بل يكون عاملاً من عوامل التقليد الاعمى عدو كل ازدهار في الكون ، فالعمل في جو مثبط للهمم ، هو عمل آلي عقيم ، ان لم يكن هداماً .

نعد من اغرب الامور في فتح القابلية بالعلم الصلة بين العلم والفن بالمعنى الواسع . ان المدقق السطحي يزعم ان لاصلة بين العلم والفن او بين العلم والادب ، ولكن لدى امعان النظر نجد العالم المبدع فناناً بالطبع ، واذا درسنا قصص المخترعين والمكتشفين ، فاننا لنجدهم وثيق الصلة بذلك . حتى اننا يمكننا التصريح والقول

انه لا يوجد مكتشف له قيمته الا وله ميل خاص لفن او ادب ، لان ابداع شي جديد سواء كان ذلك في مملكة العلم او الادب او الفن ، لا يتاح الا لروح فنية فذة ، فبين انعام بيتهوفن ولد تشكل الآيلين في بون ، تلك المادة الهامة التي هي الحجر الاساسي في الصبغات الآيلينية . وان مكتشف السلفرسان الجديد « ازيلخ » او الدواء المعروف بـ « ٦٠٦ » قد وصل الى هدفه وكانت الافكار المولدة تبجس من نفسه في موسيقى الرقص . وكانت السيدة « كورى » مكتشفة الراديوم مغرمة باشعار هاينريخ هايني وموسيقى بيتهوفن ، وكانت جديرة بتفاعل نشاطه بعد هذه الاستراحة الفنية . وقد كان ديني مكتشف المعادن القلوية التي هي فاتحة عصر جديد في عالم الكشوف المعدنية له ميل عظيم لقرض الشعر ، وكانت قريحته تجود في العمل الفني . وقد قال عنه احد سفراء الانكليز انه لو لم يصبح من اكبر علماء الكيمياء في عصره لكان من اكبر الشعراء ، وقد استمال السامعين بسحر بيانه . وان الفكرة التي خامرت « وهلم » ان مجاهدة الفكرة التي كانت نقول : « ان هناك عقبة كأداء لا يمكن بين عالم الحياة والاحياء » من وحي فني استمدته ومن خياله الفياض وصل الى غايته ، لانه كان يعتقد في قراره نفسه يعتقد ان القوة الحيوية المزعومة ليست الا ستاراً لما نجهل ، وكان يردد في نفسه ذلك الشوق العظيم : « آه لو تمكنت من تركيب احدى هذه المواد التي لم يؤثر تركيبها الا في الجسم الحي . . . لاستطعت ضرب الفكرة السائدة ضربة قاضية ، اقوى من الضربة التي وجهها لافوازيه للنظريات القديمة . »

يعد من اكبر الفلاسفة الذين وضعوا المفهوم الكمي اساس الكون هو الفيلسوف اليوناني « فيثاغورس » ، وهو الذي قال بانسجام انغام الافلاك ، كان من اكبر العلماء والفلاسفة وفي الوقت نفسه من اكبر الفنانين . اننا لنجد هذا التوازي ايضاً في العصر الحاضر ، فان هناك تشابهاً عظيماً بين تنسيق الجواهر للعالم الروسي مندليف والالماني ليرماير وتناسق الالحان . ومن اغرب ما حدث في



هذا الشأن ما ادعاه احد العلماء البريطانيين ( جون نيولندز ) ، اما اذار تبنا العناصر حسب اوزانها الجوهرية لاحظنا ان كل عنصر ثامن يشبه العنصر الاول ، ووجد في ذلك غرابة تسترعي النظر ، فشبّه جدول العناصر باصابع اليانوا الثمانية والثمانين .. ولكن هذه الفكرة التي سخر منها اعضاء الجمعية الملكية البريطانية تابعها العالم الروسي مندليف ، فجاءت قريبة من الواقع ، فاوجد طوائف عديدة للعناصر وان اختلفت بعد ذلك من حيث التنظيم اتفقت في الاصل وانتهت اخيرا بالعدد الجوهري العمدة في تنظيم العناصر اليوم . حتى ان اينشتاين الشهير هو من كبار علماء الموسيقى ، وله تأليف فيها . وان الطبيب الانساني الكبير ( البرت شو ايتزر ) الذي اكتشف دواء مرض النوم في أفريقيا وقاسى في سبيل ذلك ما قاسى والذي منحه السويد منذ مدة قصيرة ( وسام الاستحقاق الدولي ) هو في الوقت نفسه من كبار الموسيقيين ، وعرف في عالم الفن قبل ان يعرف في عالم الطب ، وقد انبثق نجم جديد في سماء سويسرة في الوقت هو طفل صغير في مدينة ( بازل ) يقول عنه العلماء انه سوف ينضم الي قائمة العباقرة الرياضيين في العالم ، اظهر في الوقت نفسه ميلا عظيما للموسيقى حتى انه لقب بالفيثاغوري الصغير .

لايخدم الفن العلم من هذه الناحية فقط ، بل يخدمه من ناحية التشويق بالعلم للناس ، فوسائل الايضاح هي عمل فني وتدوين سيرة العلماء والمخترعين هو عمل ادبي مجدى . فنحن مقصرون في هذه الناحية من جهتين :

١ - اننا مبتعدون عن الروح الفنية المولدة ، فيوم كنا مبدعين في الفن كنا ايضاً من المبدعين في العلوم ، ولما اصبحتنا مقلدين سواء كان ذلك للاوائل او للعرب دون فهم قابلياتنا الخاصة اصبحت الابداع بعيداً عنا بعد الارض عن السماء .

٢ - كان باستطاعة الادب والفن خدمة العلم ، فينقل لنا سواء عن طريق الرسوم والتماثيل او القصص سيره الذين ابتكروا في العلوم .

اذا قارنا بين الكتب المعدة للقراءة التي تدرس في مدارسنا ومدارس الغرب لرأينا الفرق شاسعاً ، ففي كتاب القراءة لمدارس الصناعة مثلاً نجد ماييلي :  
قصة ذلك الفلكي الكبير الذي كان عاملاً بسيطاً ، الجهود الصناعية في العالم القديم ، قصة الميكانيكي وايميل ، وما يمكن عمله بكيلو من الحديد ، وقصة ( ديزل ) واغنية المطرقة ، ورسالة المهندس ، سرور العمل ، العمال الذين اقدرهم ، البناء الجديد ، قصة اسرة نجار عصامية ، المعمل الذي فيه روح ، النور على النافذة وقصص عديدة عن الفنانين والادباء والمغامرين والانسانيين الكبار الذين يقوون رغبة الحياة من ناحية ابداعية . اما كتبنا فقد وقع في يدي عن طريق المصادفة الكتاب المعد للصف السابع الثانوي عندنا فوجدت المواضيع الاتية : الملك السجين ، انه امير اسير ، السجن والاسر ، مصطفى كامل على فراش الموت ، فارس يحيى اهله بعد الموت ، بطل يرثي نفسه قبل الموت ، خالد على فراش الموت ، ( تأبين ) ولدي رجاء ، تأبين الحكماء للاسكندر ، شاعر منفي يرثي زوجته ، رثاء هر ، كناري ( فيه رثاء موته ) ، يادماء الشباب ، الكمنجة المحطمة ( شعرا تبدي ، تبدي شاهدتها كاليت في اكفانه ) . فكلها موت ورثاء وبأس ، ولا نجد من القراءات المحفزة للهمم الا الشيء القليل مثل اكتشاف انعام الجديد والرحلة في الصحراء عدا عن ذلك فنكاد لا نري فنكاد لانجد شيئاً من سير اولئك الذين شقوا طريقاً جديداً في الحياة وكتبنا خلوة من اللوحات الفنية الفريدة .

ان نفخ روح الموت في البراعم التي لم تتفتق بعد لا يتفق والروح التربوية التي من شأنها بعث الامل في النفوس . وهنا ينطبق مايقوله نيتشه في حق وعاظ الموت : ( هؤلاء هم الذين سئمت نفوسهم من الحياة ويكادون لم يلدوا يأخذون

بالموت ويشتاقون الى تعاليم الاعياء والحرمان ، يريدون تقوية ارادة الموت ويلزموننا دعم ارادتهم . احترسوا من ايقاظ ارادة الموت وفتح التواييت التي فرضت عليها الحياة فرضاً . ويقصد بذلك اوائك الذين هم احياء في اجسامهم واموات في نفوسهم . ان اكبر كارثة وقعت فيها المانيا لانجد لها رثاء في كتبهم واشعارهم ، واذا سألتناهم عن السبب يحميونا على الفور بدلا من الرثاء والحزن ، فنقوم ونبني ماتهدم . وهذه لعمري هي الطريقة الجليية . وشتان بين العمل المشمر والعمل العقيم .

ان من اهم الاسباب في تقدم الغرب سيادة روح التعاون والاهتمام بالمنتسب الى العلم وتقديم المدد له ماديا ومعنويا ، فاذا ما فاجأنا الغرب باكتشافات واختراعات جديدة ، اذا تعمقنا في الحقيقة فاننا انجد ان ذلك غير ناجم عن جهد فردي ، بل تضافرت جهود عديدة لابراره الى حيز الوجود . هناك معاهد عديدة في الغرب وظيفتها البحث والتنقيب واكتشاف الغوامض ، وان جميع الجامعات العالمية تهدف دوما لذلك . فضلا عن ذلك فهناك مؤسسات وجمعيات خيرية غايتها تشجيع العلم والبحث ، حتى انه في جميع المعامل الكبيرة ادارة خاصة لفحص المقترحات ومكافأة اصحابها ، ولحفظ حقوق امثال هؤلاء تأسست دائرة التسجيل التي اقتبسناها ايضاً من الوجة الاسمية ، ولكننا لم نسمع حتى الآن تسجيل شيء له قيمة عالمية . اذا شئنا السير في هذا الطريق فلا بد لنا من ان نبتدىء بتأسيس معهد خاص للبحث التطبيقي ، فمن التطبيق يمكننا بعد ذلك الوصول الى العلم المحض لانه يجب ان لا يغرب عن بالنا ان كثيراً من الابحاث العلمية تنهي ان قريباً او بعيداً بالاستعمال الصناعي ، لان اقدم المعارف الكيميائية والفيزيائية والميكانيكية كانت تستعمل لايجاد مواد جديدة وتحسين المواد المعروفة ، ولتقسيم او تحسين طرق العمل الصناعية .

ان اهتمام العلماء بالعامل الانساني في الصناعة ازداد توسعاً يوماً بعد يوم

الى ان احدث علما جديداً في علم النفس غايته دراسة المشاكل النفسية المتعلقة بهذا الفرع المسمى بالعلم النفس الصناعي . ان مخابر البحث تهتم بالطرق المختلفة العملية . وهي عبارة عن مخابر جامعية وحكومية ومؤسسات خيرية ومخابر لشركات صناعية محدودة ( عامة وخاصة ) واخرى فردية . ان المخبر الفيزيائي الوطني في بريطانيا ومؤسسة الراج في المانيا قبل الحرب التي ورثتها اليوم عدة مؤسسات ، والمخبر المركزي للكهرباء في فرانسة ، والمكتب النموذجي للولايات المتحدة في واشنطن ومؤؤسسات البحث في روسيا السوفياتية هي امثلة للمخابر الحكومية التي ادت لفروع عديدة من فروع البحث العلمي التأسيسي خدمات جلي للصناعة .

اذا اردنا ان نفحص حقيقتنا من هذا القبيل لوجدنا انفسنا مقصرون جداً ، وقد استبشرنا خيراً في العام الماضي بتأسيس مجلس الثروة القومية في وزارة الاقتصاد الوطني ، ولكننا لم نسمع عنه شيئاً بعد ذلك . وما اشبه المؤسسات التي تقوم بها مثل سيل الصحراء يأتي غزيراً في وقت قصير وبعد برهة وجيزة يجف ، كأن لم يكن هناك اي اثر للماء . وعلى ما يظهر لم نطقن بعد الى عامل الزمن الذي نعيش فيه والذي ضرب الرقم القياسي في السرعة في العمل مع الابتعاد عن الارتجال في آن واحد . ان هذا التعاون المنتظم هو سر تفوق الغرب علينا .

نأتي في كثير من الاحيان ببعض الخبراء الاجانب دون ان نشرك ابناءنا في ذلك ، فاذا لم يكن عندنا من خبراء فيلزم ايجادهم وان كانوا ضعفاء فيلزم تقويتهم ، سواء كان ذلك في اشراكهم في الاعمال او في وصلهم في المعاهد الراقية وان الاهتمام والثقة والتدريب المتواصلة تصقل مواهب الانسان وقلة الاهتمام يعمل عكس ذلك ، ولضعف روح التعاون فينا فاننا نهمل خبراءنا اهمالاً تاماً لان « بلبل الحلي لا تطرب مزامره » ، وما يؤسف له حقاً ان هذا التخاذل لا يقف

عند حد الجاهلين ، بل يتعداه حتى الى المنورين والمتقفين ، وكثيراً ما نرى التلاعب على الحخير الوطني وازدراء اعماله اذا لم يكن منتمياً الى حزب من الاحزاب او هيئة سياسية او اسوة تلعب دورها في البلاد ، من اجل ذلك فاننا لانآزر صاحب الفكرة منا ، وهكذا فاننا نمنق الفكرة في المهد بدلاً من ان نجعلها تنمو وتتقدم . والفكرة كسكل كأن حي لا بد من تضافر عدة قوى لاتجاهه نحو النور مثل النبات الذي تضافرت قوى الارض والسما لنضوجه من البذرة الى ان يستوى قائماً على الارض . ادرك الغرب ذلك فتضافر لمثل هذه الامور ، اما نحن فرائدنا اما وضع العراقيل والاهمال او تساميط عوامل الهدم التي لاتقف عند حد ابدأ . وعوامل الهدم مع الاسف هي في طبيعتها اشد اثرأوا كبر مفعولاً من عوامل الانشاء والبناء ، فيكفي تسليط معول الهدم على صرح شامخ وجعله انقاضاً مبعثرة . اما البناء فيتطلب تنضيد الاحجار فوق بعضها بعضاً بتراس حكيم وانتظام متقن . وهذا يتطلب الاعتناء بكل حجرة من الاحجار على حدة . نحن مسؤولون حكومة وشعباً عن تأخرنا ، واذا لم نبدل هذا التخاذل بالتعاون لن يكون لنا شأن في العالم . ان النابغة الرياضي في سويسرة المار الذكر تماونت رفاقه واساتذته وغيرهم من الناس في اظهار مواهبه ، وقد تساءلت بيني وبين نفسي ماذا يكون نصيب مثل هذا الطفل في بلادنا ، لاشك ان رفاقه يقضون على مواهبه بالتهكم والازدراء .

ان اكبر الآفات المتفشية فينا السخرية والتهكم ، نحن نسخر دوماً من اعمال بعضها بعضا وان الضحكات الصفراوية التي نوجهها الى بعضها بعضا هي في الحقيقة السهام المسمومة التي نصوبها الى قلوب بعضها بعضا فنعيش مفككين «تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى» ، والحياة المئمة لاتكون الا بالجد والتآزر ، لا بالهزل والتخاذل ، فطريق النجاح لافي بروز الكشوف العلمية فحسب ، بل في جميع مرافق الحياة لا يكون الا بالتعاون . ويقول المرابي الكبير ساطع الحصري في

هذا الصدد : « ان تأثير الانظمة والترتيبات الاجتماعية في الحياة البشرية تشبه شهاً عظيماً الدور الذي تلعبه الآلات البخارية والكهربائية ، فكما ان هذه الآلات زادت قوى الانسان زيادة هائلة ، فالترتيبات الاجتماعية ايضاً قد زادت قوى الافراد زيادة مذهلة . »

بمجبني في هذا الصدد ماقرأته عن شاعر غربي معاصر : بعنوان الى الشباب :

( اصعد الى اعلى ذروة تستطيعها ، لا يزال الطريق يقود الى ثمرات يانعة والى كل ماتصوبو اليه نتمسك لك سلم الصعود) .

بلينا مع الاسف ايضاً بانمزاية قليلة الشبيبة ، نحن نرسل البعثات العلمية الى الغرب للتغني بالتخصص والاطلاع على مباحث جديدة ، بل الوصول بالعلم الى حد معين لايتجاوز المهنة الآلية . وان تبادل الافكار مع المعاهد الغربية الراقية يرفع سويتنا ، لان ريق الحق يشع من تصادم الافكار . ان مثل هذه الاتصالات الفعلية تقدر زناد الفكر واعلمها تولد فينا المروءة ان نقندي بغيرنا بالنشاط والحيوية . واذا اردت ان اضرب المثل الذي اختبرته بنفسي اعلمنا درجة الاهمال الذي فيه واقعون . حصلت في العام على دراسة منمصلة عن فوسفات شرق الاردن الذي يتخلله معدن الاورانيوم من جامعة بون ، وقد اردت اشارة هذا الموضوع في الجمعية السورية في العام الماضي ، فاهتمت الجامعة بذلك وطلبت مني تقديم البحث فقدمته والقيت محاضرة على مدرجها الكبير دون ان يجلب دقة نظرنا في استغلاله ، واليوم تقرأ في الصحف ان اسرائيل عثرت على معدن الاورانيوم في أرضها ولعلنا لو كنا من الذين يهتمون لعثرنا على ذلك قبلها . كلفني المعهد المعدني في الجامعة الالمانية نفسها اشراك الجامعة السورية

بواسطاتي ببعض الابحاث عن تشكلات غريبة من السليكات البركانية بين الكتيبان الرملية ، وقد بينت ذلك عن طريق وزارة المعارف دون ان احظى باي جواب حاسم عن ذلك ودون الاشتراك الفعلي الذي يرفع قدر سويتنا العلمية . وفي هذا الاثناء سافر الاستاذ الذي اثار الموضوع الى البرازيل وبعد ان انهى المشاكل المدنية بالاشتراك مع الوطنيين هناك ، قفل راجعا الى المانيا ومن ثم تعاقد مع تركيا كاستاذ في الجامعة الهندسية في الاستانة وخبير معدني ، يسعى في الاولى لتعليم الطلاب وتهيئة استاذ وطني مثله ، وفي الثانية للقيام باختبارات معدنية جديدة ، وقضيتنا البسيطة لاتزال معلقة . استدعتني ابط الجامعة الهندسية في شو تغارت لاعطاء دروس عن دور العلوم الطبيعية العربية في القرون الوسطى على هامش الذكرى الالفية لابن سينا ، لان هذه الجامعة قررت جعل هذه السنة سنة ابن سينا ، وكلفتني حلقة المحاضرات في مونيخ القاء سلسلة من المحاضرات عن الحضارة العربية في مختلف المدن الالمانية ، كنت اقدر استغلال هذه الفرصة عدا عن الدعاية الطبية لبلادي ودحض ترهات اسرائيل ، الاطلاع على بعض المباحث العلمية لتعريفها لبلادي وتسهيل دراسة السوريين هناك لو قدر هذا الموضوع حق قدره .

ان تخلفنا عن الكشوف العلمية بجانب انخذالنا في قضية فلسطين والدعايات المغرضة في حقنا جعل اسمنا في عالم الغرب مشوها مع الاسف الشديد ، ولا يمكن تلافي ذلك الا في العلم الصحيح والتعاون الصادق على خير العمل ، والشعوب لاتنظر الى ماهية الامة وجوهرها ولا الى ماضيها وسلفها ، بل تنظر الى وضعها الحاضر ومساهماتها في وضع لبنة في الرقي العالمي ادا قنا برسائتنا عند ذلك نأمل ان يتاح لنا ان نقول ماقله وزير المعارف الالمانى قبل الحرب العالمية الاخيرة : ( انه من دلائل القوى الحيوية في شعب عريق

صحيح غير فاسد ان ينبرى من بين ابناء امته اناس مجهولون ضربوا بالنشاط  
السهم الاوفر يأتون بجهود يمتاز تقديرها ارض الوطن ، موجبين ابصار العالم  
اليهم . لالتقف عند السوية التي وصل اليها الغرب ، بل لتكمل ما نقص من  
حضارته تحقيقاً للمثل الاعلى الانساني ، فنحن على المحك ، هل نحن اهل لما يتطلب  
من هذا العصر ، ام اننا سنعيش على الهامش في العلم ، ان ساعدتنا الظروف  
بالبقاء على الحياة .

الدكتور محمد مجي الرهاشمي



## السينما وتأثيرها في سلوك الأحداث

للمدكتور سمير بيسمو

قاضي الاحداث في حلب

= القيت بتاريخ ١٧/١/١٩٥٥ =



لقد كان من نتائج انتشار دور السينما في مختلف البلدان في هذا العصر ،  
وتقدم التمثيل ، التصوير وبلوغها درجة كبيرة من الدقة والابداع ان اقبلت  
الجمهور كافة على مشاهدة ، مرات هذا الفن الحديث اقبالاً منقطع النظير ، ولا سيما  
الروايات البوليسية الملامية بالعصابات وحوادث المغامرات والمخاطرات ، والروايات  
الغرامية والجنسية المثيرة للعواطف والغرائز الفطرية . ولقد صرح لي ما يزيد على  
تسعين في المئة من الالف حدث جانح الذين قمت بمحاكمتهم في حلب هذا العام  
انهم من المعتادين على رؤية الافلام السينمائية المواعين بارتداد دورها بصورة منتظمة  
بل ان فريقاً من هؤلاء الاحداث قد بدا شغفه بالسينما زائداً عن الحد ، واكد لي  
احدهم انه قل ان يمر به يوم واحد دون ان يشاهد رواية سينمائية او اكثر ، وانه  
اذا لم يفعل ذلك يوماً اصيب فيه بنوبة عصبية عنيفة . فهل ترى يمكن ان يكون  
للسينما واحال هذه تأثير في سلوك الاحداث الجانحين او غير الجانحين ، وهل  
يصح ان تعتبر السينما من العوامل المباشرة او غير المباشرة في السلوك المعوج  
ووقوع حوادث الاجرام ؟ ذلك ما سنحاول الاجابة عليه بايجاز ، بعرض الحجج  
التي يتمسك بها خصوم السينما الذين يذهبون الى انها ضارة مؤذية ،  
والبراهين التي يتذرع بها انصارها الذين يشيدون بحاسنها ومنافعها  
للفرد والمجتمع .

غير انه يجدر بنا قبل هذا ان نذكر انه قد تشكلت في السنوات الاخيرة في بعض الدول الاوربية والولايات المتحدة الاميركية ومنظمة الامم المتحدة، بموافقة الشركات السينمائية الكبرى ، لجان من كبار العلماء والاختصاصيين لدراسة تأثير الروايات السينمائية على البالغين والاحداث ، ومعرفة تأثير كل نوع من هذه الروايات على الافراد . ولقد قامت هذه اللجان العلمية باختبار آلاف من الاشخاص من شتى الطبقات الغنية والمتوسطة والفقيرة ، والاحداث في الاصلاحيات ، والمجرمين في السجون ، والطلبة من الذكور والاناث . كانت دراستها مبنية على اسئلة وضعت باسلوب علمي دقيق ساهم في تحضيره كثير من مشاهير علماء النفس وكانت هذه الاسئلة تعطى للافراد ليحجبوا عليها دون ذكر اسمائهم تأمينا للصراحة المطلقة والصدق في الجواب . وانا لسوف نعتمد في بحثنا هذا المساء ، في الاغلب على ما سفرت عنه تلك الدراسات من حقائق واستنتاجات .

### مساوى السينما

من العلماء فريق يعتقد ان مشاهدة انواع معينة من الاشرطة السينمائية تؤذي بعض الافراد وتسوقهم مرات الى مسالك الزيف والجناح - اي الاجرام . وظهر ان ستة وعشرين في المئة من الاحداث المقيمين في الاصلاحيات الاميركية يصرون بانهم ارتكبوا الاجرام بفعل السينما ، وأكد تسعة واربعون في المئة منهم ان السينما تشجع الانسان على الخطيئة واقتراف الالم . وهم يعللون ذلك بما يظهر على شاشتها في كثير من الاحيان من مشاهد مؤذية تنطوي على مظاهر الغش والخداع والاستهتار الخلقى والانفعالات الوحشية والاعتداءات المنكرة ، وما يسود رواياتها من جو ادبي غير راق تشيع فيه السخرية والهزاء واللوان البذخ والترف مما قد يحمل الفرد ، لاسيما الصغير ، على تصور الحياة الواقعية بمثل صورها فيعمد

الى محاکمتها وتقايدها والتشبهه بابطالها . كما تغذى حوادثها ومناظرها هذه احلام اليقظة عنده واي استعداد سابق فيه للميول الاجتماعية ، وتدفعه مرات للانسياق في تيارات اللهو والمجون وحياة المعامرة والفجور . أو هي قد تفصل له اسباب ارتكاب الجريمة واصول التفنن في خداع رجال الشرطة وتضليل القضاء واخفاء معالم الجرم والافلات من يد العدالة .

وهكذا فان الكثيرين يرون ان سبب ازدياد فساد الاخلاق بين الاحداث وكثرة اخطائهم ناتج عن عظيم اقبالهم على مشاهدة انواع معينة من الروايات التي تستهوي الصغار والشبان كالروايات البوليسية والجنسية ، لاسيما تلك التي تنتجها بعض الشركات الصغيرة بقصد الربح والكسب وابتزاز المال . مما حدا بالسلطات المركزية والمحلية في معظم الاقطار حذر عرض اية رواية قبل الموافقة عليها والتثبت من انها غير مؤذية الاخلاق والآداب .

وام ما يؤثر في الروايات السينمائية تأثيراً سيئاً مناظر الرفاهية والغنى السريع السهل ، والمواقف التي تثير الغرائز البدائية ، ورؤية الاساليب الفنية في الاجرام ، وايجاد مادة جديدة تغذي احلام اليقظة عند الشبان .

فمناظر حياة البذخ ورغد العيش التي تغلب مشاهدتها في اغلب الروايات السينمائية شديدة التأثير على الجانحين والمجرمين وضعفاء العقول واولئك الذين يعيشون في بيئة متخلفة فاسدة . فهي تبعث فيهم الرغبة لتقليدها باى ثمن ، وتدفعهم للحصول على المال عن طريق غير مشروع مثل السرقة والنصب والاحتيال وغيرها وصرح خمسة وعشرون في المئة من الحكوميين بان روايات « النشل » نوّدت فيهم الحماس لكسب الثروة دون تعب ، وتقدمهم بان الحصول على المال يسير بواسطة السرقات وصرح شاب في الثامنة عشرة من عمره انه في كل مرة يشاهد في السينما

اللصوص ورؤساء العصابات الذين لا عمل لهم سوى ارتكاب الجنايات وقد أصبحوا من كبار الاثرياء ينعمون بالرغد والهناء تخطر له فكرة الحصول على مبالغ وفيرة من المال كي ينفقها في الملذات والمسرات وشراء الملابس الغالية واقتناء السيارات الفخمة . وتحقيقاً لهذه الفكرة فقد بدأ بالفعل يسلك طرقاً غير قانونية وقام بسرقة محل تجاري كبير اثناء الليل ، ولكنه لسوء حظه لم ينجح في محاولته وقبض عليه وحكم بالسجن ست سنوات .

ومما يزيد في خطورة تأثير حياة الدعة وطرق البذخ ان الروايات السينائية تعطي المرء احياناً فكرة بان الحصول على الثروات الكبيرة امر سهل لامشقة فيه ولا عناء . مثال ذلك ان يضع الشخص يده خلسة في جيب الآخرين ويسحب منها بخفة ومهارة محفظة النقود ، مما يضاعف حماس الجانحين والمجرمين الذين يشعرون بضرورة الحصول على مثل تلك الثروات وهم قادرون على ارتكاب الافعال المنوعة للظفر بالمال المنشود . ولما سئل الاحداث الجانحون عن نوع الروايات السينائية التي كانت باعثاً لهم على تحصيل الاموال بمخالفة القانون اجاب خمسة وخمسون في المئة منهم انها روايات اللصوص والعصابات والعب القمار . كما روى احد السجناء الاحداث قصته فقال انه كان يحجل من نفسه كثيراً حين يرى الملابس الثمينة والنقود الوفيرة والسيارات الجديدة لدى الممثلين في الروايات مما يجعله يفكر طول الوقت بالطرق التي تمكنه من الحصول على مثل هذه الاشياء . ولما وجد نفسه عاجزاً عن تحقيق امنيته هذه بالعمل الشريف لضالة مرتبه فقد آثر تجربة القيام بعملية « تسليح » كان قد شاهد لها مثلاً في احدى الروايات ، فاختد مسدساً وذهب الى احد الشوارع الخالية من الناس ، وترصد اول قادم واراد توقيفه ، ولكن هذا الشخص هجم عليه وجرده من سلاحه ثم قاده الى مخفر الشرطة حيث تم اعتقاله وسيق الى المحكمة وحكم عليه بالسجن .

من ناحية ثانية فان بعض الروايات السينائية التي تشتمل على المخاطرات

وافعال العنف والارهاب تقوى في عدد غير قليل من الاحداث الذين يقيمون في بيئات فاسدة ويحبون المخاطرات وحالات الشجاعة بعض النزعات الموحجة وتدفعهم للقيام بمثل تلك الافعال الموزية . ولذا فان هؤلاء الاولاد كثيراً ما يقلدون الممثلين بتطبيق ماشاهدوه على غيرهم من الصغار . ولقد ذكر لي ولد في الثانية عشرة من عمره انه مولع بالمناظر الخطرة وروايات المغامرة والبطولة والوصوية التي تمثل الرحولة . وحدث انه صادف مرة بعد خروجه من السينما ولدا اصغر منه قليلاً فاقدم على طعنه بسكين كان يحملها واتقض عليه دون ماسبب حتى القاه على الارض يتخبط بدمه .

ويوازي ذلك اهمية في الحدث او الشاب رؤيته اساليب ارتكاب انواع الجرائم التي تجعل الاجرام يبدو هينا لاخطر فيه ، مثل طرق الهرب والتقلب على رجال الشرطة ، ورشوة الموظفين ، ووسائل فتح الابواب والنوافذ والخزانات الحديدية ، واصول تسلق الجدران وكسر الزجاج دون احداث صوت ، واشكال التهديد واستعمال السلاح وقص الافعال ، وكيفية اخفاء اثر الاصابع والاقدام ، واستخدام الكحول والمخدرات لتسهيل السرقات والاعتداءات والفرار . وصرح عدد غير قليل من المجرمين الكبار والجانحين ان السينما هي التي شجعهم على حمل الاسلحة وعلمتهم فنون الاجرام .

ويجب ان لانسى في هذا الصدد ايضاً ما دل عليه الاحصاء من ان بعض الروايات السينمائية تساعد على الاكثار من احلام اليقظة حول تفاصيل امور الرواية . فاذا ماشاهد الحدث رواية تنطوي على قصة اجرام استمر احياناً يهكر فيها وخصوصاً اذا كان معجباً بابطالها ، وتتركز احلام اليقظة حولها . ولذلك ولا شك تأثير أكيد على شخصيته وان لم يشعر به ، ولقد اعترف مئة وثلاثون في المئة من الاحداث الجانحين انهم كانوا يستغرقون في احلام اليقظة لتخييل

مارآوه على الشاشة البيضاء ، وعلى الاخص حوادث المغامرات والمخاطرات .

ولعله من الواجب بعد هذا ان نشرح بوجه خاص تأثير الروايات الغرامية الواسعة الانتشار على الذكور والاناث . واحظر ماتنطوي عليه السينما معالجة الصلات الاجتماعية بين الجنسين ، وما يراه المتفرج على شاشتها من تفاصيل الغزل والمداعبة والعلاقات الزوجية شاخصة حية لا يمكن الوقوف على مثلها في مسرح او كتاب . وكل من اتصل بالاحداث الجانحين يعلم كيف تثير هذه الصور الغرائز والميول الجنسية عند البنين والبنات في دور المراهقة وطور البلوغ . وهي تخلق فيهم مرات صراعا نفسيا او قلقاً يدفعهم للاقدام على المخاطرات العمياء والمغامرات العنيفة . ولقد دلت البحوث التي قام بها العلماء ان مناظر الروايات الغرامية التي تتجلى فيها مظاهر الخلاعة والابتذال تؤذي الكثيرين من الرجال ، وتحملهم احيانا لارتياح بيوت الدعارة والاعتداء الجنسي والاعتصاب . وذكر خمسة وثلاثون في المئة من نزلاء احد السجون الاميركية ان هذه الروايات قد علمتهم طرق مداعبة البنات ، واصول تبادل الغرام . وقد ادوا انهم كانوا يعمدون كثيراً لان يصطحبوا معهم صديقاتهم ، وان ذلك كان يساعدهم في النهاية على ايقاعهن في الشرك المنسوب .

كذلك فقد ثبت ان للسينما علاقة وثقى بزيادة الجرائم عند الفتيات . وذكرت خمس وعشرون في المئة من نزيلات احدى الاصلاحيات الاميركية ان السينما من اهم العوامل التي اودت بهن الى ملوى الفساد . وقالت ابنة في الرابعة عشرة من عمرها انها تمنى حين تشاهد قبلات الممثل التي تعجب به ان تكون مكان الممثلة حتى تظفر هي بتلك القبلات . وصرحت فتاة اميركية اخري انها تعلمت كل شي من السينما ولا سيما طرق التقبيل والمداعبة والعناق وتنعيس العيون ، وعبارات الحب ، ووسائل الزينة والتبرج ، واثارة الغيرة والانفعال



في نفوس الرجال .

ولا يقل خطورة عما ذكرنا ان السينما تثير عند بعضهن الشعور بـ عدم الرضا بمعيشتهن العادية وحياتهن الراهنة ، اذ تبدو عندئذ حقيرة في نظرهن . ولقد قالت احدهن ان السينما توجد في بعض الفتيات رغبة ملحة للحصول باي ثمن على الثياب الفاخرة والنقود والحلي وادوات الزينة والتجميل وكثير من الكليات الاخرى .

تلك هي اذن باختصار اهم الحجج التي يتذرع بها خصوم السينما في قولهم بانها تؤذي الاولاد والشبان وتحثهم على السلوك المنحرف وتحملهم على مخالفة القانون والاقدام على الاجرام .

### محاسن السينما

بيد ان انصار السينما يؤكدون من ناحيتهم ان لها منافع جمة وفوائد عديدة ومثل عليا تصبو اليها وتدافع عنها . ويقول بعض الخبراء انه لا يوجد اي ارتباط بين الاجرام او الجناح وارتداد السينما ، وان ارتكاب الجريمة والذهاب للسينما قد يكونان ناشئين عن سبب واحد مشترك بينهما هو الحرمان وعدم الرضا بالواقع او القلق والرغبة في الفرار من الآلام . كما وانهم يرون بان الشخص الذي تملأ نفسه التعاسة هو الذي ينشد النسيان في عالم الصور والخيالات اي في عالم السينما ، ويصرحون بان السينما تكون عند بعض الافراد بديلا عن الافعال الضارة لامن دوافعها وعواملها .

من اهم فوائد السينما التي يجب ذكرها التأثير الرادع في النفوس واحياء

الشعور بضرورة الاستقامة في الحياة واداء الواجب ، ووخامة عاقبة الاجرام،  
وخدمة التربية والتعليم .

فشركات التمثيل السينمائي الراقي تعتمد في نهاية الروايات البوليسية الى  
القبض على المجرمين والتنكيل بهم وفرض العقوبات الشديدة عليهم وتنفيذها فيهم  
بما يكون له مفعول رادع في كثير من المتفرجين . كما يتأثر عدد كبير من الافراد  
تأثراً حيناً من الافلام الاجتماعية التي تجعلهم يشعرون بوجود الاستقامة في الحياة  
وفعل الخير وخدمة المجتمع والتضحية في سبيل الصالح العام . ولا شك في ان  
فريقاً من الاحداث يتأثرون كثيراً من مشاهدة رواية تظهر فيها ام طاعة في  
السن مثلاً تبكي لهرب ولدها من المنزل ، او مشاهدة أب فقير فرضت المحكمة  
عليه غرامة بسبب سوء سلوك ابنه . فمثل هذه الروايات تحرك في الصغار  
عادة عاطفة شديدة وقد يقبل بعضهم بسببها على طاعة والديه وتحسين سلوكه . ولقد  
صرح سبعة وعشرون في المئة من طلبة المدارس الابتدائية والثانوية بان الروايات  
السينمائية تشجع الاولاد على السلوك الحميد والقيام بالاعمال الطيبة .

وذكرت تسع وسبعون في المئة من البنات المحكومات في احدى الاصلاحات  
بان السينما قد جعلتهن يرغبن في لزوم تعديل سلوكهن وتهذيب خلقهن ، وعلى  
الاخص الروايات الدينية والخلقية والاجتماعية . غير انه لا بد من القول في هذا  
الصدد بان الشعور بضرورة القيام بالواجبات والاعمال الحسنة نتيجة حضور  
انواع معينة من الروايات لا يدوم طويلاً . ولقد قال خمسة وثلاثون في المئة من  
الاحداث الجانحين بان السينما توجد فيهم مثل هذا الشعور لمدة لا تزيد على اربع  
وعشرين ساعة . واجاب ثمانية وعشرون في المئة منهم بان تأثير السينما المصلح  
يستمر من يوم الى اسبوع ، وادعى ثلاثة عشر في المئة منهم بان هذا التأثير يستمر  
مدة تتراوح بين الشهر والسنة ، واربعة في المئة افادوا انه يستمر اكثر من سنة

ويظهر من هذه الاحصاءات ان العامل الرادع او المصلح لا يدوم الا قليلاً ،  
وتأثيره وقي قصير الامد . ولكن الحقيقة هي ان مفعول السينما الحسن قد يدوم  
مدة اطول مما يعتقد الاولاد والبنات لانه قد يؤثر على نفسياتهم تأثيراً خفياً يستقر  
في عقولهم الباطنة وينعكس منها على سلوكهم فيحسنه دون ان يشعروا به  
او يعرفوا مصدره .

ويكون للسينما اثر رادع ايضا اذا ما عرضت على الجماهير النواحي غير  
الحماسية من حياة المجرمين والجانحين ، مثل قتل رؤساء العصابات وافرادها  
وفضح مؤامرات المجرمين ، والنتائج المؤلمة التي تحل بهم من اعتقال وسجن  
واذلال وتعذيب . ولا ريب في ان الخوف الذي يتسرب الى النفس بعد مشاهدة  
الروايات التي تظهر فيها حياة الاشقياء في السجون ، او كيف يعدم المجرمون او  
يقتلوا رمياً بالرصاص اثناء فرارهم يلزم الكثيرين من الاحداث الجانحين وغير  
الجانحين ويكون احيانا من العوامل الهامة في ابعادهم عن رفاقاء السوء وامتناعهم  
عن الخطأ لما يبق في مخيلاتهم من صور مفزعة عن مصير الجناة ونهايتهم . ولقد  
ايد هذه الحقيقة تسعة وستون في المئة من الاحداث الجانحين وثلاثة وسبعون  
في المئة من الاحداث غير الجانحين ، وهؤلاء يؤكدون بان عقاب المجرمين كما  
يظهر في الروايات السينمائية يردع الاولاد والبنات عن الاعمال الفاسدة والافعال  
الرديئة المخالفة للقانون . كما ذكر مثل هذا القول سبعون في المئة من البنات  
الجانحات وست وستون في المئة من البنات غير الجانحات . وصرحت احدي  
وخمسون في المئة من البنات المنحرفات السلوك ان رؤيتهن ما حل بالنساء المجرمات  
في السينما جعلتهن يبتعدن عن الاشياء غير المشروعة المضادة للمجتمع .

بيد انه يجب الحذر من الاعتقاد بان العوامل الرادعة عن الاجرام في  
الروايات السينمائية هي امور اكيدة ثابتة ، فان هنالك ظروف وحالات تبطل

تأثير هذه العوامل وتجعلها عديمة الجدوى في كبح جماح النزعات المعوجة ، فيعود الفرد الى الاجرام ثانية . ومن هذه العوامل المفسدة للتأثيرات الرادعة ماشرنا اليه من قصر مدة هذه التأثيرات . فالأثر الرادع الذي ينتج عن مشاهدة بعض الروايات السينمائية يتلاشى بنفس السرعة التي حصل بها . ويقول أكثر السجناء انهم كانوا ينسون مارأوا من المناظر الرادعة فور خروجهم من السينما اذا تسلطت عليهم افكار اخرى تجعلهم لا يذكرون ماشاهدوا من عظات وعبر .

كما يزول مفعول الاثر الرادع في السينما اذا ما تعرض الفرد لتغريات جديدة أقوى من العوامل الرادعة نفسها . ولكم رأينا احداثا يخضمون لرفاق السوء اذا ما صروا عليهم رغم مالدتهم من افكار صالحة . ويقول احد السجناء انه رأى مرة والده رجل قتله اللصوص في حالة تفتت الاكباد لما هي عليه من بؤس وألم وحزن وشقاء ، فكان كلما يذهب مع بقية افراد عصابته لارتكاب جريمة يتخيل انه قد يكون للشخص المراد قتله ام مسكينة مثل تلك التي رآها في السينما فيتراجع ويلج على زملائه بوجوب الامتناع عن الجريمة والعدول عنها . ولكنهم اذ همزأون به ويسخرون من اقواله ويصرون عليه بضرورة تنفيذ الخطة المدبرة للاغتيال يتعد عامل الشفقة من نفسه ويقدم على الاشتراك في القتل اقدام رفاقه عليه سواء بسواء .

وكذلك يزول تأثير العقوبات الرادعة احيانا اخرى من كثرة رؤية توقيع تلك العقوبات او مثلها في الروايات المشابهة ، فلا يعود لمشاهدة ما كان لها من مفعول في المرات الاولى . كما وان كثيرا من الجانحين يحسبون انه بالرغم من النتائج السيئة التي تلحق بالمجرمين في الروايات السينمائية فان في مقدورهم التغلب على رجال الشرطة والنجاح في تضليل رجال القضاء . ويعتقد بعضهم ان سبب القاء القبض على المجرمين في السينما انما يعود الى ضعفهم وقصر نظرهم وان بالامكان

تجنب أخطأهم اذا اقترن الفعل بالحذر والتبصر الشديد .

ولا يعربن عن الببال ان مناظر انتشار الامراض الزهرية ومجيء الاولاد غير الشرعيين وما يصاحب ذلك من شقاء وتعاسة ذات تأثير فعال بصورة خاصة على مشاعر البنات والنساء . واغلبهن يصبحن بعد مشاهدة تلك المناظر خائفات من الرذيلة او تائبات . وأكد عدد كبير من الفتيات الجائحات انهن تحققن من الروايات الاجتماعية ان المرأة تدفع دائماً ثمناً باهظاً نظير حياة اللهو او الفجور التي تسلكها ، وصرح معظمهن ان بعض تلك الروايات جعلتهن يقتنعن بان لا غاية للشبان منهن سوى طلب اللذة المحرمة والتسلية الممنوعة ، وعلى الاخص افتراس البنات الساذجات . وقالت احدهن انها تعلمت من السينما درساً نافعاً هو ان الرجال بعد ان يحققوا وطرم من الفريسة يهجرونها ويتركونها وحدها ضحية الطيش والاستهتار تجر ذبول الخيبة والعار .

كما يجب ان لا يفوتنا ان نبين ان من جملة فوائد السينما نشر العلم والثقافة في البلاد . فلقد اصبح للسينما شأن يذكر في امور التربية والتعليم لا يقل عن شأن المدرسة فيها . فهي تضع امام الجمهور حالات متنوعة من حالات سلوك الانسان فتؤثر على نفسية المتفرجين تأثيراً اشد واقوى مما تحثه الكتب والمحاضرات كما اصبحت بعض المعاهد تستخدم السينما لمقاصد ثقافية بجهة كتعليم الجغرافيا والصحة وبعض العلوم الاخرى ، او لبيان عاقبة السلوك المموج ، او تأكيد قيمة المثل العليا والصفات الطيبة في الانسان . وسبب شدة تأثير السينما على خلق الافراد ، وخاصة الاحداث ، انها تجعل المتفرج يرى موضوع البحث بام عينه ، فتتطبع صورته في ذهنه لا كاصوات او احرف مجزأة قد يعجز عن فهمها وتحليلها بل كوقائع حقيقية لا يحتاج الى كثير من الاجهاد لحفظها او ادراك معناها . والمبروف ان الروايات اعمق اثراً في النفس من باقي المحسوسات . ولهذا كانت الصبورة من

احسن الوسائل لايضاح الفكرة التي تمثلها . ويسهل جيدا بالطبع على  
اي فرد ان يتذكر تفاصيل واقعة رآها اكثر مما لو سمع بها او قرأ عنها فقط .

هذه هي بجمال الآراء التي يؤكدها انصار السينما في بيان محاسنها ومنافعها  
او جزئها لكم مسرعين بعد عرض حجج الخصوم السالفة الذكر ، وبذلك  
نكون قد وقفنا بصورة عامة على اقوال الفريقين وادعاءاتهما وبراهينهما في  
هذا الخصوص .

### الخلاصة

ومها يمكن الامر فاننا نرى بان الروايات السينمائية لا تكون دائماً ذات  
تأثير واحد على جميع الاشخاص ، وان تأثيرها يختلف في الحقيقة اختلافاً بينا  
تبعا لاعتبارات عنيقة اهمها عمر الفرد واستعداداته الذاتية والخلفية واختباراته  
الشخصية وبيئته المنزلية والاجتماعية . فالاحداث التي يعيشون في البيئات  
الرديئة ذات المستوى المنخفض اجتماعياً وثقافياً ودينياً واقتصادياً يتأثرون  
بالمناظر السينمائية المؤذية بصورة سهلة سرية في حين لا يتأثر بها بمثل ذلك الصغار  
الذين تربوا في اسر صالحة ونشأوا في بيئة سليمة لما يتوافر لديهم من مناعة خلقية  
اكتسبوها بالعناية والتهديب والتوجيه السليم .

و خلاصة القول في هذا الشأن انه لا يمكن الجزم بصورة قاطعة واسعة  
ان مشاهدة السينما هي شر محض او انها خير محقق ، وان تأثيرها انما يكون  
حسناً او رديئاً في الواقع باختلاف نوع الروايات التي يجري عرضها وموضوعها ،  
وتبعا لفوارق الاستعدادات الفردية ومقومات البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها  
الشخص ، كما واننا نعتقد بان السينما سواء اكانت في مشاهدة رواية معينة او في

مشاهدة عدده روايات من نوع معين ليست العامل الوحيد في اجرام اي فرد حتى وان صرح هو نفسه بذلك . ومثل هذا التصريح يكون منبثاً في الواقع عن جهله طبيعة العوامل التي تتكون منها شخصيته ودوافع سلوكه ونشاطه في الحياة والمجتمع . ولا تكون السينما في الحقيقة ، في مثل هذه الحال ، سوى الحلقة الاخيرة في سلسلة تكاملت فيها وحدة جميع الحلقات الاخرى . وماالسينما في نظرنا سوى عامل واحد من عوامل عديدة تحدد السلوك البشري وتوجيه نشاط الفرد .

غير ان مايدعو الى الاسف حقا ان فريقاً من المشتغلين بصناعة السينما يهتمون في الدرجة الاولى باستغلال هذا الفن الى اقصى حد ممكن في جمع الامال وجلب الارباح الوفيرة بما يعرضونه من اشربة رخيصة توعد حماس الجماهير ولذا اذم وغرأزم من غير اهتمام بما تورثه من اذى او اضرار للافراد والمجتمع على السواء . ولذلك فقد اصبح واجبا على السلطات العامة مراقبة الروايات السينائية مراقبة صريحة جدية وحظر كل ما يكون فاسدا منها . كما يجب ان يتجنب الآباء والأهل اخذ ابناءهم وبناتهم لمشاهدة الروايات المؤذية للخلق المنافية لقواعد الحشمة والآداب ، او التي تعرض فيها مناظر الاجرام والرعب والارهاب . كما يحسن تشجيع الصغار قدر الامكان على رؤية الاشربة الدينية والعلمية والاجتماعية والثقافية وينصح الآباء بان لايجزوا لابنائهم الذهاب للسينما وحدهم بل ان يصطحبهم معهم لتفسير بعض المناظر الغريبة التي يرونها لأول مرة ، مالم تكن الرواية خاصة بالاحداث . و آخر ما نذكره لكم في هذا الموضوع وجوب تفهيم الطفل ان كثيرا من الامور التي يشاهدها على الشاشة البيضاء خيالية لاساس لها من الحقيقة والواقع ، وهي انما تظهر في السينما بقصد التسلية والترفيه عن النفس وجلب السرور وتمضية الوقت ، والسلام .





الإيمان القومي

الدكتور عادل العوا

= القيت بتاريخ ١٤ / ١ / ١٩٥٥ =

تذکرہ

بجایا

بجایا

بجایا

## الإيمان القوي

### الإيمان الديني

بحث الامام العزالي - رحمه الله - في الإيمان الديني بحثاً دقيقاً مفصلاً ، ونظر إليه من زوايا اللغة والشرع والفقه والتفسير . ووجد - فيما وجد - ان « الإيمان بالله وبرسوله من غير ارتياب هو قوة اليقين ، وثمره العقل ، ومنتهى الحكمة به .

وقد تحلى ابائنا واسلافنا في هذه البلاد بالإيمان الديني زمنياً يطول ويطول . واقروا بما اقر به صحبة الاسلام من ان الإيمان تصديق ، وان للتصديق محلاً هو القلب ، وان للسان ترجمانه . فلا بد ان يكون الإيمان موجوداً في القلب ، قبل اللسان ، حتى يترجمه اللسان ، وتسمعه الأذان ، وتحقق مشيئة الانسان بمشيئة الله ، ويجوز البشر رضاء الله في الدارين ، ويلغوا ما يتطلعون اليه من سمو وسعادة . وفضل ونبالة ، ومجد . فما بالناس نضباً الليلة اذنأ ونحرك لساننا بغير الإيمان الديني ، ونجراً على « التفلسف » في ماتكشف لاهل العزم والبصيرة

من السابقين الاولين ؟

اجل ، ان الغزالي ، المتصوف البارع الموهوب ، عدو الفلسفة ، خصم  
الفلاسفة ، انسان ذكي مسرف في الذكاء . وآية ذكائه انه ادرك مادركة الفلاسفة  
القدامي من ان جميع عقائد العوام مبانيها التلقين للجرد ، والتقليد المحض . وان  
لايمان مراتب كثيرة ، ودرجات متفاوتة ، ايسرها درجة الايمان الساذج ، ايمان  
الغافلين من العوام ، بل ايمان الخلق كلهم الاخواص . واعلاها ايمان النخبة  
المصطفاة ، ايمان العلماء الكرام ، وهو الايمان الكامل الذي يستنير بنور العقل  
ويطمئن طمأنينة الاقتناع والوثوق ويزدهر نامياً متفتحاً عبقاً بارجح الروح  
والريحان حتى يقوى ويرتفع شجرة طيبة اصلها ثابت ، وفرعها في السماء .

اما ابن خلدون ، فانه يلح على الجانب النفسي من واقع الايمان ، ويرى  
ان الايمان الديني ملكة اذا استقرت عسرت على النفس مخالفتها ، شأنها شأن  
الملكات النفسية ، اذا استقرت فانها تحصل بثابة الجبلية والفطرة ، وهي مرتبة  
العصمة ، والعصمة اعلى مراتب الايمان . « والايمان في جميع الاحوال هو اصل  
التكاليف وينوعها ، التكاليف القلبية والبدنية . وهو بهذه المثابة ذو مراتب . . .  
ارفعها واسماها الايمان الكامل ، والايمان الكامل « عقد وقول وفعل معاً » .

على هذا النحو - كئثال وجيز - ذهب مفكرو العرب والاسلام القدامي  
في تعريف الايمان الديني ، يوم كان الدين مالى الدنيا ، وشاغل الناس . واني  
اسارع بتفسير كلمة « كان » هذه ، واعترف بان الدين مازال ، وسيبقى شاغل  
الناس ، ومالى الدنيا ، في بلادنا وارجائنا ، والحمد لله . ولكن الذي نستطيع ان  
نأسف له ، ونألم منه ، هو ان يصبح تفهمنا للوقائع الدينية قاصر أعامياً متخلفاً بوجه  
الاجمال . بات ايماننا الديني ايمان غفلة وقنوط ، ولم تنفعنا اقوال الحكماء ،  
وتنبيهات النقاد ، منذ سالف العصور ، كقول بعض المؤلفين ، في عصر الغزالي

نفسه ، قبل الف عام :

« اماقراؤكم وعبادكم الذين تظنون انهم خياركم ، وترجون استجابة دعائهم وشفاعتهم لكم عند ربهم ، فهم الذين غروكم باظهارهم الورع والخشوع ، والتقشف والنسل من تشمير الازر والسر اويل ، ولبس الخشن من الصوف والشعر والمرقعات ، وطول الصمت ، وكثرة التنسك ، وترك التفقه في الدين . وترك تهذيب النفس واصلاح الخلق ، واشتغلوا بكثرة السجود والركوع بلاعلم . وتركوا الاكل والشرب حتى جفت ادمغتهم ، ونحلت شفاههم ، وانحلت ابدانهم وتغيرت الوانهم وانحمت ظهورهم ، وقلوبهم مملوءة حقدًا وجفاء لمن ليس مثلهم ، ونفوسهم مملوءة وساوس وخصومة مع ربهم ، بضائرهم . لم خلق ابليس والشياطين والكفار والفراعة ، والفساق والفجار والاشرار . ولم يرزقهم ويمكنهم ويمهلهم ولا يهلكهم ؟

« واما فقهاؤكم وعلماءكم ، فهم الذين يتفقهون في الدين طلباً للدنيا ، وابتغاء للرياسة والولاية والقضاء والفتاوي بارائهم وقياساتهم ، فيحللون تارة ، ويحرمون تارة ، بتأويلاتهم ، ويتبعون ما تشابه ، ويتركون حقيقة ما نزل الله من الآيات المحكمات ، فنبدوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . ويتبعون ماتلوا الشياطين على قلوبهم من الخيالات . كل هذا طلباً للدنيا ، وتكسباً للرياسة ، من غير ورع ولا تقوى من الله تعالي . فاولئك هم وقود النار في الآخرة ، او يتوبون الى الله ويستغفرونه ، فاي فخر لكم ؟ » .

\* \* \*

واني لابدر ، اذا خطرت في اذهانكم ملامتي لبعدي عن الموضوع الذي حددته لحديث الليلة ، فاعتذر مبيناً ان العرب كانوا - وما زالوا - يعيشون في بيئة

شرقية معنوياً ، حتى في بلادهم الافريقية . وهذه البيئة شغفة بالدين ، واولعت بكل ماينجم عنه ، ويتصل به وذهبت الغرابة الشاذة باللحدين من ابنائها حتى البسوا دعاويهم الزائفة ، وبدعهم الضالة ، ومجونهم الخفي ، احياناً ، ثوب الفكر الديني ، والدعوة الدينية .

وانا واثق من ان الصبغة الدينية مازالت تلون نتاج الافئدة والعقول في بلادنا العربية ، فترى من خلال منظارها الواقع والافكار . ويكفي ان اذكركم بالقول الرائع المأثور : « حب الوطن من الايمان » ، حتى ندرك ان بين العاطفة الدينية ، والعاطفة الوطنية ، عندنا ، صلة رحم قوية القوة كلها . واننا اهملنا تعقل الاولى ، فبات ايماننا الديني ، بالمقياس الاجمالي ، ايمان تلقين وتقليد ، ايمان عادة وجوارح ، لا ايمان فـكـر واع ، وتعقل نير يقيني موثوق . واعيدني ان اختص المسلمين وحدهم في شرقنا بهذا التطور غير الحميد ، بل ان المتتبع لنتطور العقائد الدينية في بيئتنا الشرقية يدرك ان الفكر المدقق يعمل على استحياء ، قليل او كثير في مختلف الديانات الدائمة بيننا . فلا عجب ، والحالة هذه ، ان نلمس تقاعساً في وعينا الوطني ، اقول الوعي ، واقصد به جانب التعقل اليقيني ، والوثوق المنير . فما اصاب ايماننا بالدين اصاب ايماننا بالوطن . واني لازعم ان عاطفتنا الوطنية - كعاطفة - قوية متأججة حية جامحة ساحقة ، مثل عاطفتنا الدينية عينها . سواء بسواء . ولكن وعينا القومي ضعيف خامل هزيل لم يبلغ درجة الايمان القومي الكامل ، الايمان الراسخ المتين ، الا لدى فئة قليلة من الناس مازال عددها ضئيلاً ، جد ضئيل .

### الديان القومي

ولعل ماالمح اليه يزداد وضوحا اذا انتقلت بحضوراتيكم الى اجواء اخرى

من عالم البشر انشاهد خلال خطفات قصيرة نبذاً عن الايمان القومي الذي انفصل  
او اخذ انفصل عن الايمان الديني في بلاد الغرب ، انفصال ما لقيصر عما لله .

الايمان القومي هو اليقين الوطني الذي يتحلى به كل فرد واع عاقل مكلف  
مسؤول ، يعيش في مجتمع منظم واحد موحد ، له ماض حافل معلوم ، وله مستقبل  
محدد مأمول ، وله بينها حياة ارضية راهنة حاضرة ، ذات اهداف دقيقة ، وفلسفة  
واضحة ، وقيم سامية مقرررة مثل .

ومن الجائز ان ننظر الى هذا الايمان الثمين من زاويتين رئيسيتين :  
زاوية فردية ، وزاوية اجتماعية .

فالقومية ، بالاعتبار الاول ، هي الجانب الروحي من حياة الانسان  
الكريم في الارض : الجانب الذي يتميز بنظرة الانسان الي علاقته بوطنه ومجتمعه  
وقيمه واقرانه نظرة تبغني التضامن الوثيق لتحقيق غاية تجعل حياته وحياة الناس  
حواله ذات معنى وجدوى ، وتخلص به من ذل الانسان المغفل المغمور ، الانسان  
التافه المجهول . . .

والقومية ، من جهة اخرى ، اى من الجهة الاجتماعية ، مبدأ مقرر ينص  
على مثل من الامثلة العليا التي تؤمن بها الدول وتعنقها الامم ، وتحتضنها الثقافة ،  
وتتأثر بها الحضارة ، وتعمل لها السياسة . وقد صار لهذا المثل الاعلى منطوق  
مبدئي يحدد بان لكل امة الحق في ان تكون دولة مستقلة ذات سيادة تامة ، وقدرة  
نافذة ، تمكنها من تقرير المستقبل ، ورسم المصير .

غير ان لهذا المبدأ القومي الجميل بلفظه ، النبيل بغرضه ، تاريخاً دامياً ،  
وحاضراً مثقلاً ، ومستقبلاً معضلاً . ونحن سنعمد الى ذكر الخطوط المشتركة

الكبرى بين مفهوم القومية والمفاهيم الاجتماعية الاخرى التي تواكبه وتجاوره وتؤازره ، ونخص باصطفائنا مفاهيم الامة والدولة والحكومة والوطن ، ونحلل بعد ذلك الايمان القومي تحليلا شاملا بايجاز ، وننتهي منه الى تتبع خطي التطور القومي في مختلف الاصقاع والاقطار ، ونختم بالاشارة الى طائفة من المشاكل والمعضلات التي نشأت وتنشأ عن هذا الايمان الجديد ، لنبين انه ايمان حقيقي واقفي قد يأتينا الغد بما هو خير منه وابقى ، ولكننا الآن مرتبطون به ، ملازمون باهون الشر ، وايسر الخطوب .

### الدوائر والحكومة

لنبدا اذن بمفهوم الدولة والحكومة .

لقد عرف المفكرون الدولة تعاريف مختلفة ، وذهبوا في ايضاح دلالتها لمذاهب شتى . وامل من الصائب السير ان نحدد هذا المفهوم بالاشارة الى وظائف الدولة وخصائصها . وفي وسعنا ان نرجع اهم هذه الوظائف الى ثلاث هي : الوظيفة الاولى : وظيفة المحافظة على كيان الوطن وصيانة سلامته بردائه العدو الاجنبي عنه الوظيفة الثانية : وظيفة العدل بين المواطنين ، وحماية النظام في الداخل . والوظيفة الثالثة : هي الوظيفة التقدمية ، وتتجلى في حرص الدولة على انعاش المصلحة العامة المشتركة ، مادية وروحية ، اقتصادية وثقافية وفنية واجتماعية .

اما الحكومة بالمعنى الواسع فانها جملة الاشخاص الحقيقيين او الاعتباريين الذين تناط بهم اعباء السياسة والادارة ، ولذا فاما تشمل الافراد والمؤسسات بما يتصل بممارسة التشريع والقضاء والتنفيذ . وليس يخاف ان السلطة التنفيذية هي لباب الحكم في الحكومة . ويتجلى اثرها بالدرجة الاولى في تطبيق القوانين



المشتقة ودستور البلاد ، دستور الدولة .

وعلى هذا فان الحكومة جسد الدولة . والدولة هي اجتماع طائفة من الناس فوق ارض معينة ، وخضوعهم لسلطة واحدة مستقلة عليها هي السلطة المكلفة بتأمين الصالح العام . وبعبارة اخرى : الدولة شخص حقوقى واعتباري يضم جملة الخدمات العامة الضرورية لوحدة الامة ، ولاستمرار حياتها ، ولتقدمها وليس للأفراد ولا للجماعات بالإضافة الى خيرهم العام المشترك سوى ارادة واحدة مستقلة ، هي ارادة المجموع ، وهذه الارادة مصدر سيادة الامة ، والقوانين الراهنة لسانها . والدولة في الواقع انما تجسد هذه الارادة ، وتشخص تلك السيادة ، وتتألف كائنا معنوياً مستقلاً عن شكل الحكومة . وعن اشخاص الحاكمين . وقد مضى زمن الملوك « آكلي الهدايا » ، الذين قال قائلهم : انما الدولة انا . . .

لنقف الآن وقفة وجيزة عند مفهوم الامة . وقد رأينا ان الدولة والحكومة معنيان لا يستقيمان الا فوق اصل مشترك هو الامة . والامة ، بمعنى ما ، هي الجوهر البشري للدولة . ويبعد بنا الكلام ، ويطول ، اذا اردنا ان نحلل مفهوم الامة بالتفصيل ، ونبين عناصرها ووجوهها ، ولذا فاننا نكتفي في هذا المقام بالإشارة الى مذهبين رئيسين نسمي احدهما بالمذهب الواقعي ، والآخر بالمذهب الروحي والمثالي .

ومن اشهر ممثلي المذهب الاول ، والنزعة الاولى ، ( مونتسكيو ) ، و ( تين ) و ( ميشله ) ، واصحاب النظرية العرقية كـ ( غوبينو ) و ( تيرى ) و ( غيزو ) وغيرهم كثير . وهم جميعاً يتفقون في الانتباه الى اهمية العناصر المادية والحسية داخل مفهوم الامة ، مثل الارض والعرق والاقايم الجغرافية

والوراثة والسحنة ونحن وان كنا نعتز بان الانسان لا يحمي في الفراغ كالارواح  
الهائمة او الحاملة ، بل يعيش فوق ارض ذات تربة وماء وهواء ، فاننا لانستطيع  
ان نسلم بتأثير العوامل الجغرافية وحدها ، او بتأثير العرق والوراثة والسحنة  
وحسب ، في نشأة الاقوام بين الناس . كتب احد المؤلفين : « لاوجد اعرق  
سامي او آري ، بل الموجود هو الحضارات الانسانية ذات الاصباغ التاريخية  
والالوان القومية » .

### الارادة

اما المذهب الآخر ، مذهب المثاليين ، فان اصحابه يعتبرون الامة بالدرجة  
الاولى روحاً مشتركة واحدة تيسر وحدة الارض والعرق اسباب تشكلها وظروف  
نماها وتطورها ، ولكنها لاتقومها ولا تفرضها . وفي هذه الروح المعنوية  
ثلاثة عناصر او ثلاثة اتجاهات ، نفسية - اجتماعية ، تتوزع في الزمن بين ماض  
وحاضر ومستقبل .

فمن الناحية الاولى ، ناحية الماضي ، تتميز الامة بانها نتاج العصور والقرون .  
وكما تشعر الاسرة بشخصيتها ، وتستنير بنور ماضيها ، فكذلك تهتدي الامة بنارها  
وتستمد من تراثها وعيها بذاتها . وهذا التراث وهذا حافل غني يضم ذكريات المجد  
والعز من جهة ، الى ندوب الالام والهزائم والتضحيات ، من جهة اخرى .  
يفخر العربي مثلاً باعمال البطولة التي حققها عظماءه وقواده وفلاسفته وعلمائه ،  
فيما سلف من شباب الدهر ، ايم اقباله وصفائه . ولكن ذكرى الالام والمصائب  
والكوارث ، وهي اثبت انواع الذكريات في النفس وفي التاريخ ، لاتضر بل  
تنفع : تنفع كحافز قوي عنيف يدفع الى نفض غبار الذل ، ومحو آثار العار ، وليس  
بخاف ان القلق بالحياة يعظم ويشدد ويضري كلما عظم الخطر ، وادلهم الخطب ،

واستشرى البلاء .

والامة - في الحاضر . عقلية مشتركة ، وذهنية ذائعة ، تنبجس الوانها عن وحدة الثقافة واللغة والدين والمعادن والاخلاق . اجل ان كل عنصر من هذه العناصر وحده لا يقوم روح الامة ، ولكنه في الواقع غذاء بعضد الاغذية الاخرى فوق مائدة الحاضر الروحي . ولعل للغة في ايامنا هذه منزلة قصوى . لان اللغة خير وسيلة للفهم الاجتماعي . وهي تحتوي فلسفة خاصة . وتنطوي على مفهوم خاص ، يتناول معاني السلوك والحياة ، والجمال والطبيعة والعالم . وهذه الفلسفة القومية الذاتية تسرب الى النفوس وتكن فيها ، وتطبعها بطابع قوي مستمر متين .

اماعنصر المستقبل في كيان الامة فقوامه الآمال المشتركة ، والارادة الجمعية ، والرغبة في المثارة على عيش متطور خلاق مجيد . يقول ( رينان ) . « الامة كائن نفسي ، ومبدأ روحي ، تتألف ذاته من عنصرين لا يختلف احدهما عن الآخر في الواقع . احدهما يمت الى الماضي ، وهو امتلاك تراث حافل مشترك من الذكريات ، والآخر يقوم الحاضر ، وهو الاتفاق الحالي ، والرغبة في العيش الجماعي ، و ارادة المحافظة على التراث العام ، والحرص على تنميته وتقويته وعلاء شأنه في المستقبل . ان الانسان ، ايها السادة ! لا يرتجل . والامة - كالفرد - ثمرة ماض طويل من الجهود والتضحيات والاخلاص . . . » .

### الوطنية

لنتنقل الآن الى مفهوم اخير ، هو مفهوم محبب الى النفس لانه حب كله ، وتقصد به الوطنية . والوطنية حب ينبوعه الوطن ، وموضوعه الوطن ، وغاياته الوطن . والوطن هو ارض الآباء والجدود . ويمكننا تعريفه بقولنا : الوطن شخص اعتباري نتجه

اليه بعواطفنا القومية ، فنحبه ، وتعلق به ونزود عنه . انه اسرة جديدة ، اسرة  
كبرى ، اسرة من نوع خاص ، هي اسرة الاسر كلها .

الوطن هو الاسم الحسي للدولة . وهو قلب الدولة وفؤادها . وانما يتميز  
الوطن عن الامة وعن الدولة بلونه العاطفي ، وصبغته الحسية . الوطن هو الرباط  
الذي يشدنا الى ارض الجدود ، تلك الارض التي تقدسها ، لانها ارض آباءنا  
واجدادنا ، ارض شعبنا وامتنا . كتب احد المؤلفين : الوطن هو الارض والاموات ، ارض  
الاموات ، ارض الجدود المقدسة . منها يولد الاحفاد والاجيال . الوطن مهد ولحد . انه  
الارض الطيبة الحافلة بالحياة وباستمرار الحياة . الارض أم . والوطن أم . والوطن الام نعت  
لانجد مثله في صدد الدولة ولا الحكومة . فلانقول الدولة الأم ، ولا الحكومة الام .

ومن هنا نعلم ان لوقائع الجغرافية ، والعناصر الارضية ، من سهل او بحيرة  
او نهر او جبل ، تتميز باهمية خاصة في مفهوم الوطن . فقد يرضي الشعور القومي  
أن تقتطع ناحية من ارض الوطن وتستبدل بناحية اخرى . ولكن الشعور الوطني  
يرد ذلك ويرفضه ويأباه . وكل مساس بارض الوطن مساس بجسم الجيب . انه  
خسارة فادحة ، وجرح ينفذ ، و كارثة أليمة لاتبرأ الا برد الجزء الى الكل ،  
ورجوع الفرع الى الاصل ، وعودة الابن الى الام .

وسبب ذلك ان القومية مفهوم يرادف معنى الوطن من الناحية النظرية ،  
ولكنه يختلف عنه من الزاوية النفسية . الوطنية عاطفة بالدرجة الاولى ، والعاطفة  
لاتجزأ . الوطنية عاطفة هادئة سامية في الاحوال العادية ، ولكنها تتأجج وتضطرم  
اذا ما ثارت أو أثرت في الاوقات العصبية ، والساعات الحرجة ، حين تلم الكوارث  
وتنزل المصائب ، وتحمل الكرب .

## القومية

اما القومية فهي بالدرجة الاولى فلسفة وفكر ، مذهب ورأي . الوطنية حب ، والحب لا يعرف حساب العقل . افنا نحب وطننا لاننا فيه ولدنا ، وله نحيبا وبنعمه نعيش ، وفي سبيله نجاهد ونستमित . اجل ان الانسان في المهجر قد يكتسب جنسية جديدة ، ولكن قلبه يخفق ابدأ للحبيب الاول ، للوطن الام .

وثمة فارق آخر بين القومية والوطنية . الوطنية تبني موضوعها وتثق به ، وتخلص له ، وتقـم على عهده ووده . فهي محافظة بجوهرها ، لا تتطلع الى التوسع ، ولا تميل الى العدوان ، ولا ترغب في الاستيلاء على اوطان اخرى . اما الفكرة القومية فمن طبعها اعتماد الخصومة والفتح ، ومن ميزاتها الحرص على اتمام عظمة الوطن باقتطاع اسباب نامية من المجد ولو تحقق ذلك على حساب القوميات الاخرى ، والاطوان الاجنبية . ولذا فان الوطني مسالم لا يعتبر اللجوء الى الحرب الا كأسوأ حل يمكن الالتجاء اليه لانقاذ ارض الوطن الخاص ، ومنع الاجنبي من احتلالها واغتصابها . اما الحرب في النظرة القومية فتبدو طبيعية جيدة . ومن شأن الانسان ان يتحول دون وعي منه من الموقف الوطني الى الموقف القومي التوسعي حين يشمل النصر ، وتعميه نشوة الفوز ، فلا تقف اطماع النفس والاعتزاز بالمجد عند نهاية اوحد . الوطن بتغي الشرف ، والشرف دفاع عن العرض لصيانتة وحمايته ، والقومية بتبغي العز ، والعز غزو ويشرب الى المجد لكسبه ونواله وتوسيعه وتنميته .

ولسنا بحاجة - بعد هذا كله - الى الاسهاب في بيان ان الايمان القومي ، كالايمان الديني ، واقع ناشط معقد ، وحقيقة حية متطورة ، فيها عناصر العقل والقلب والذراع ، فيها الفكر والحب والعمل . ان العاشق لا يرضن بالبدل

والتضحية والعطاء . ونحن لانتصور متيما يناجي حبيبه قائلاً : لك مني كل شيء ...  
ماعد الحبيب ... ونحن نؤمن بوطننا ، ونحبه ، ونحتمل صده حيناً ، وجفاه  
احياناً . فالجبال جبالنا ، والارض ارضنا ، ولوطن لنا ، ونحن منه واليه . ولن  
يسلخ عنا قبل ان يطوينا الردى ، وينزعنا الموت ، وتستهوينا الشهادة في سبيله .  
الوطنية نشوة وارتعاشة والفة وجمال ، والوطن بؤرة عارمة ، وشعلة متأججة ،  
منها يستمد الايمان القومي ناره ونوره ، حرارته وهداه .

### تمايز القوميات

وكما تميز الاديان بعقائدها وتعاليمها وأوامرها ، تميز القوميات بمذاهبها  
وافكارها وفلسفتها ومرامها . وقد اشرنا الى تفاوت الامم والاطوان بتفاوت  
الوقائع ارضية وتاريخية واجتماعية ، اقتصادية ولغوية وثقافية وفنية وحضارية ،  
ويتبع ذلك ان تفاوت القوميات الراهنة ، وتختلف اصباغها والوانها وتباين  
عناصرها ومقوماتها ، ويجوز بذلك قولنا ان القومية - كمفهوم - لاتعرف الا  
تعريفاً نظرياً ، تعريفاً صورياً . ولا بد من تفحص فحوى القوميات في كل حال  
خاصة بفحص الحوادث الاجتماعية والتاريخية والمادية والروحية المميزة لكل امة  
من الامم . وما القومية الا محصلة المعطيات الثقافية والصناعية والجمالية التي تنتج  
من وسط الامة الجغرافي ، وتنتج عن ظروف نشأتها التاريخية ، وتطورها في  
الزمان ، وبلوغها رتبة الدولة والحكومة ،

وبديهي ان التاريخ هو الجسر الاوحد الذي ينقلنا من سماء الفكر الى  
ارض الواقع . فلنرجع اذن الى التاريخ ، ولنلق عليه اسئلة قصيرة يتفق قصر  
اجوبتها مع ما بقي لنا من وقت .

## الفكرة القومية في الغرب

ان الفكرة القومية التي انتشرت في جماهير الغرب منذ قرن ونصف القرن لم تكن مألوفة لدى عامة الناس في مختلف العصور . والثابت ان نشأة الدول في التاريخ قد سبقت ولادة المبدأ القومي وتقدمته ، ولم تستند اليه بل صدر هـ عنها . ففي الشرق القديم مثلاً قامت دول قوية القرة كلها ، دول شارفت احتياز الشعور الوطني ، ولكنها لم تدرك معنى القومية بوجه من الوجوه .

اجل ، لقد سلكت الشعوب في تحقيق نهضتها طرقاً مختلفة تبعاً لاختلاف احوالها وظروفها ، وتباين بنيانها واوضاعها . ولكن ظهور القوميات فيها كان يبدأ في جميع المرات على هيئة شعور غامض مبهم ضعيف لا يثبت ان يستقر ويقوى وبلغ درجة الاوج من القوة واليقين فيتحول الى ايمان راسخ متين يزعمع الجبال ، وهو ثابت على العهد ، لا يلتوي ولا ينثني ولا يجحد .

ونحن اذا لم نفصل القومية - كفلسفة رفيعة مثلى - عن الاعتبارات الدخيلة ، ولا سيما الاستعمارية ، التي رافقتها في الواقع ، لدى الدول القوية بوجه خاص ، وجدنا ان المذهب المثالي يتحول الى نار وجحيم في الارض ، فتنشأ المساوىء والمخاذير والشرور من ذبوع المبدأ القومي في الجماهير ، وانتشاره في الناس ، وتحوله من فكرة خاصة الى عقيدة عامة ، وانتقاله من المستوي الاخلاقي الادبي الى مستوى التوجيه المادي والصناعي والطبقي ، وتأثيره في الهاب المطامع الانسانية ، وحضه ذوى المصالح التوسعية والرأسمالية والاستعمارية على تسخير الشعور القومي النبيل لخدمة المآرب العدوانية التي تعود على اصحابها وحدهم بالنفع المالى الجسيم .

لم تفرز المعمورة بالامن والرغد والسلام ، كما كان يرجى عند اقرار المبدأ القومي نظرياً ، والمبادرة الى تحقيقه في الواقع ، وتجسيده في القوانين والدساتير ، والعهود والمواثيق . وقد اختلفت الاسباب الاجتماعية والتاريخية والثقافية التي تقسر هذه الحقيقة المؤسفة الأليمة ، وسنين ذلك على ضوء امثلة واقعية تحليلية ، ولكننا نبادر الى القول ان السر الاكبر ، والسبب الاعظم ، الذي يفسر انقلاب مبدأ القومية بين النظر والعمل ، من خير ابيض ناصع جميل ، الى شر أسود قاتم قبيح ، هو - في رأينا - اختلاف مابين مبدأ الاخلاق ، وواقع الاخلاق .

### القومية مذهب اخلاقي

ان القومية - كفلسفة - مذهب اخلاقي مثالي جميل . ولكنها - كواقع - راهن - حقيقة معقدة مختلطة لا يمكن ان نصبها في قالب واحد ، لنحكم عليها حكماً واحداً . وظاهر ان منطق الاخلاق يختلف في ميدان الوقائق عنه في ميدان الافكار . وهذا المنطق ، منطق الاخلاق ، يختلف أيضاً باختلاف الامم بين قوة وضعف ، واخلاص وعدم اخلاص . وسنبرهن فيما يأتي على كذب ادعاء بعض الامم القوية بان قوميتها خير قومية اخرجت للناس ، وهي في الواقع قومية تبطن الكيد والشر والعدوان لسائر الناس ، ولاسيما الضعفاء والمستضعفين في الارض ، ونستثني من هذا الحكم بوجه خاص القومية العربية ، التي نشأت نشأة النهضة ، الاخلاقية ، وكان ابتعادها عن الغايات الاخلاقية الصحيحة اقل بعدما سجله التاريخ ، وعرفه البشر . واليكم الدليل والبرهان .

### القومية الانكليزية

لنبداً بالقومية الانكليزية . بدلنا التاريخ على ان الشعور القومي في



انكلترا اخذ يتضح ويكبر ويتوسع اثر انفصال الكنيسة الانكليكانية عن الكنيسة الكاثوليكية وانتصار الانكليز - بكلاهم البحرية - على الاسطول الاسباني الذي لايزم الارمادا ، سنة ١٥٨٨ . وقد سبهم المفكرون والادباء والشعراء في تفخ نار القومية . وقال اقدم ، وهو ( ملتون ) : « ان الانكليزي صفوة البشر » وقال انصار الاستعمار : ان لانكلترا رسالة تهذيب وتمدين . وظلت القومية البريطانية تسير بخطى وثيدة ، واكتمها وثيقة ، حتى اخذت المانيا تهدد امبراطورية الاسد والحمار في اواخر القرن التاسع عشر ، وفي الحربين العالميتين فهد الاسد البريطاني الشجاع ، وصمد الحمار البريطاني الصابر ، وانتهى الامر بانهزام الالمان اولاً وثانياً . . .

### القومية الفرنسية

وفي فرنسا ، سادت فيما قبل القرن الثامن عشر ، نظرية الحق الالهي ، وتنص على ان سلطة الملوك ظل لسلطان الله في الارض ، وان الملك يجسد الوطن ، وانه الدولة ، ومن بعده الطوفان . ولكن الطوفان التائر اتي على النظام العتيق ، ونسفت الثورة عهد الطغيان والاستبداد . ونقلت محور القومية من شخص الملك الى واقع الدلة باسرها . واصبحت القومية والديمقراطية صنوين منلازمين . واعجب المتقفون بهذا الزواج المثالي . فصارت نخبة الكتاب والادباء والمفكرين والفلاسفة من انصار كل حركة تحررية قومية ديمقراطية . ودعت هذه النخبة الى مؤازرة النهضة القومية في كل مكان . وسهمت في تحرر بولونيا والمجر واليونان وايتاليا والمانيا عيناها . ولمل من ظواهر هذا المفهوم ، أو من بقاياها ، ان دعا ( رينان ) - كما اشرفنا - الى بناء القومية فوق دعائم روحية نفسية واجتماعية . ولكن نظريته شوهت فيما بعد لدى رجال السياسة الفرنسيين . فصارت دعوة الى نشر الثقافة الفرنسية في العالم ، ولاسيما في الاصقاع المرموقة اقتصادياً واستعمارياً . وحرص

الفرنسيون في سورية سنة ١٩٤٥ مثلاً على الامتيازات الثقافية كما نعلم . لانهم  
بشرون بفكرة ضالة خطيرة خلاصتها ان كل انسان ، مها كان دمه واصله ووطنه ،  
يكون فرنسياً بالقوة اذا تغذى بالثقافة الفرنسية منذ نعومة اظفاره ، ويصبح  
فرنسياً بالفعل عندما يتحلى بهذه الثقافة ويخضع لها ، ولو ظل يعيش في بلاده  
الاصلية ، وفاته ان ينعم بالجنسية الفرنسية رسمياً . . .

### القومية الالمانية

وللقومية الالمانية - أخيراً - نفمة خاصة ، ولون طريف . فقد بدأت كرد  
فعل وجدائي في اواخر القرن الثامن عشر ضد الغزو الفرنسي بقيادة نابليون  
من جهة ، وضد كل ثقافة دخيلة ، وفكر غريب ، من جهة اخرى . واستدل  
الفلاسفة الالمان من الاغاني والاساطير والامثال الشعبية على وجود روح المانية  
خالصة حقيقية . وادعى ( هيجل ) ان الامة الالمانية صفوة الامم ، وزبدة التطور  
وخالصة التاريخ . وزعم ( فيخته ) ان اللغة الالمانية وحدها هي اللغة الصافية .  
ولم يبق سوى خطوة واحدة حتى انتشرت فكرة العرق النقي ، والجنس  
الصافي ، والرؤوس الشقراء . فقويت الروح القومية ، واشتعلت وتأججت ،  
وطالب الاقتصاديون بالوحدة الجرمانية ، وبتحرير الامة الالمانية اقتصادياً . وعمل  
( بسمارك ) على توحيد المانيا بالدم والحديد ، وجعل الزعامة للروح البروسية ،  
والجندي البروسية ، حتى هزمت ( فرنسا ) في حرب السبعين ، وهزمت المانيا  
في الحرب العالمية الاولى ، واتصلت القومية الالمانية بالاشتراكية النازية بين الحربين  
فكان هتلر ، وكان بعده ما كان

### القومية العربية

اما تاريخنا العربي فقد الف الباحثون ان ينظروا اليه كجمل متعاقبة من

حياة افراد يصلح هو ان صلحوا ، ويفسد بفسادهم ، ويضل اذا تقلبوا بين الصلاح والطلاح تقلب الحاكم بامرهم بين عقل و جنون ، وحكمة وهوى . غير ان من الحق في نظر العلم الصحيح ، والواقع الصادق ، ان ندرس تاريخنا من زاوية الجمعية . وننظر اليه من حيث هو حياة شعب ، وتطور أمة ، وواقع وطن ، واسهام واع مقصود في حضارة الانسان .

ونعتقد ان مثل هذه الدراسة المستقيمة تظهر لنا مثلاً ان عصر الجاهلية كان عصر تحفز وتمخض . فقد مالت القبائل الى الائتلاف والاتحاد ايام الفيل وكلاب وذي قار . ورغبت في التضامن القومي الضيق يوم اقرت ميشاق حلف الفضول ، وعملت على تأسيس دولة في ظل الكعبة بزعامة قصي بن كلاب .

ثم انطلقت الوحدات المسلمة واستقرت في الجزيرة بفتح مكة ، واخذت في الامتداد والذوبوع والانتشار في ربوع العالم القديم حاملة دعوة انسانية اخلاقية ، وقومية عربية ، حتى كان الخلاف بين معاوية وعلي . وانتهى الامر بفوز السيادة العربية في العصر الاموي . وتلا ذلك انقسام العرب ، واتحاد افرس ، وظل امر هؤلاء يتراوح بين عسر ويسر ، وفشل وفوز ، حتى نكب البرامكة بعد سؤدد ، وقهروا بعد عز . ولكن النزاع بين القوميات المحلية لم يمت لاسباب كثيرة ، وظل يعمل في خفاء تارة ، وفي جلاء تارة اخرى ، حتى تناهت الاقطار ، وتمزقت الاصقاع والاعمال ، وقامت دويلات اقطاعية كان للقوميات الخاصة اثر كبير في نشأتها ، ووهنت القومية العربية ولكنها لم تتخاذل دفعة واحدة . ولم تمت ، بل كانت تسعى جاهدة كريمة للنهوض من كبوتها بين حين وحين ، بهمة ابطال عظام كبطل حلب وسيفها ، سيف الدولة العربية العظيم .

تقلبت الامة العربية منذ ذلك العهد . من حال الى حال ، وجلا الصيبون

خاسئين خاسرين ، وتنازل المتوكل على الله ، آخر عباسي ، في مصر سنة ( ٩٢٢ هـ - ١٥١٧ م ) عن الخلافة لاسلطان العثماني سليم الاول ، واستحكم النظام الاقطاعي والاستعماري برقاب البلاد العربية . وظلت الامارات متنافرة اجمالاً . حتى قام الوهابيون في نجد بحركة ناهضة غلفوها بغلاف الدين ، وكسوها بثوب العقيدة . فهب محمد علي باشا الكبير ، بناء على طلب الدولة العلية ، لمحاربتهم . وتمكن من عبد الله بن سعود وارسله الى سلاطنة القسطنطينية ققتله . ثم انقلب محمد علي هذا على مولاه السلطان وحاربه وارغمه في عقر داره على الاعتراف باستقلال مصر ، ومنح عرشها له ارثاً متسلسلاً بين اعدائه ، شريطة ان يدفع محمد علي المنتصر جزية لاسلطان المهزوم ، وان يقبل بتحديد عدد الجيش المصري .

ونحب ان نذكر هنا نقطة هامة نعتقد انها جديرة بالذكر . وهي اننا لو نفذنا الى ما وراء الاثر الفردي للشخصيات التاريخية القوية كشخصية محمد علي ، او شخصية عبد الله بن سعود . وجدنا ان حياة الامة العربية ، كاملة ذات واقع جمعي حي ، هي التي ساعدت على تطور الاحداث في النحو الذي اشرنا اليه .

وتفسير ذلك ان الامير الالباني ، محمد علي ، لم يكن لينجح في وثبته وتمرده ضد خليفة المسلمين العثماني لولا يقظة الامة العربية الشعبية في مصر وفي الشام . وجمهير هذه الاقطار ، كما نعلم ، هي التي ايدت ابراهيم باشا ابن محمد علي الكبير بالعون الحاسم ، ومهدت له سبل التقدم والفوز والانتصار . ولولا هذا العون والتأييد لما استطاع محمد علي وابنه ابراهيم ان يبلغا ما بلغا اليه .

وبعبارة اخرى ، كانت القومية العربية تتلف للوثوب خلاف الحكم العثماني كما سنحت لها الفرصة ، فهي لم تمت ولم يقض عليها خدرها الذي كان يستمر زمناً يقصر او يطول ، ويمتد الى اوساط تسع وتضيق . بل ظلت القومية العربية تدفع عن نفسها الضربة تلو الضربة ، وبقيت تتعلق باهداب الحياة والوجود

ولذا اضطرت الى ان تلبس لكل حال لبوسها ، فنجدها تلبس حلة الدعوة الدينية - حيناً ، كما هي حال الوهاية في الجزيرة العربية ، او تلبس حلة سياسية كالتي نادى بها امراء البان في كنانة مصر ، على الرغم من التنافر بين هذين المبدئين في الصبغة والظاهر ولعل اكبر برهان على ما تقدم استجابة الجماهير في البلاد العربية لهاتين الحركتين ولما يشاكلها وهو كثير . فمن الطبيعي ، وبنو عثمان يعيشون في ارض العرب فساداً كما كانوا يعيشون ، ان تتنوع بوادر اليقظة العربية في عهدهم من غير ان تستتر على صورة واحدة تساعد على الظهور بشكل دعوة قومية عربية خالصة صريحة . بل كانت تضطر مرغمة الى التستر والدوران لتتكيف ومختلف ظروف القسوة واساليب القمع والظلم .

### يقظة الشعور القومي

ومن ذلة القول ان نذكر اخيراً ، كدليل على يقظة الشعور القومي في العصر الحديث ، انضمام احرار العرب الى الحركات العثمانية الثورية ، كحركة الاتحاديين الذين كذبوا - بعد قليل - شعار جمعيتهم ، وتسكر والبرقي الذي نادوا به ، وعملوا عملاً رجعيًا ، وحاولوا اتريك العناصر العربية التي آزرتهم . ولذا قويت العاطفة القومية ، وجهرت بدعوتها ، وهي دعوة حق وصدق . ولم يدع العرب وسيلة الا اتخذوها في سبيل تحقيق غاياتهم . فكثرت جمعياتهم ومؤتمراتهم ، وتعددت حركاتهم ومحاولاتهم ، وبرز دعاة النهضة ، واعتنق بعضهم مبدأ الجامعة الاسلامية . واطلق المرحوم الملك حسين رصاصته الاولى فاندلعت نيران الثورة القومية ، واستجاب لها المجتمع العربي في مختلف اقطاره ؛ وانتهت الحرب العالمية الاولى بما رافقها من وعود خلافة معسولة . وقسم الحلفاء الامة العربية الى دويلات ذات شخصيات مرقمة ، وحدود مصطنعة ، ما نزل الله بها من سلطان . وارتفع

عدد الشعوب العربية ، وهبطت قيمتها ازاء هذا الارتفاع ، وشالت كفتها في ميزان الوحدة والقومية . وما زالت الاقطار الممزقة تبذل جهودها للتقارب والائتلاف . وايس في وسعها غير ذلك . لانه وحده الامر الطبيعي ، والامر المرتقب ، والامر المعقول ، على السواء . وقام الميثاق العربي بين جامعة هذه الدولات ، وهذا الميثاق خطوة مباركة ، وان يكن اضعف صدى للايمان القومي الحقيقي الذي مازال ، وسيبقى ، آخذاً في سبل القوة والذبول والرسوخ .

ولست بصدد البحث في الواقع ، واقعنا العربي الحاضر ، وكلسكم به جد عليم . ولا ابتغي رسم خطوط مستقبلنا ، وهو من شأن السياسيين والمسؤولين ، يعملون بمشيئة الله وباخلاص من القلب ، ووحى من العقل والعلم والضمير ، وحي من ايمانهم القومي بالعروبة غابرها وحاضرها ، تليدها وطريفها ، ايمان بتراث العروبة ومجدها ومصيرها . ولا بد للعمل القومي من ان تشاد صروحه فوق دعائم الوعي والعلم . وان النصر الذي نعيش فيه هو عصر العلم . وعصر العلم يعتبر الدين عاطفة نبيلة تغذي قلوب الناس وتربطهم بربهم ، وتدعوهم الى العمل الصالح في الارض . غير ان وقائع الدنيا لا تقتصر على صلة عباد بربهم وحسب ، بل هي صلة عباد بعباد ، وبشر بشر ، ومواطنين بمواطنين ، في مجتمع معين ، وامة معينة ، وقومية معينة . وما الدعوة القومية ، والايمان القومي ، في مستوى الجماعة ، الا كدعوة الحب ، وعلاقة الود ، في مستوى الافراد . وكما يختلف الحب من شخص الى شخص ، ويكتسي حلالاً متفاوتة ، والواناً متنوعة ، بين طهارة وخصب ، وتبذل وعقم ، تبعاً لسجية الاشخص ، فكذلك القومية . انها محصلة كيان الامة ، ولباب شخصيتها الاجتماعية ؛ وللقوميات الراهنة ضروب واصناف كضروب الامم واصنافها . وهذه الاجناس كلها تتفاوت تبعاً لوقائع الامة المادية والتاريخية والروحية معاً .

وقد رأينا من سرد هذه النبذة الوجيزة عن تاريخنا كأمة - لا كأفراد -  
رأينا ان للقومية العربية ماضياً صحيحاً يتميز باستناده الى اسس وحدة راهنة ،  
ارضية وثقافية ، مادية وروحية . وان فيها ذكريات الفرح والترح ، ووقائع الغنم  
والغرم ، والنعم والتضحية . وفيها فرق هذا كله وقبل هذا كله ، ارادة عربية  
جمعية حية منذ اقدم عصور التاريخ . وهذه الارادة الحية متطورة تلبس الحلل  
التي تناسبها في حقول التاريخ العربي من جهة ، وتاريخ التطور الانساني العام  
من جهة اخرى .

ولا تتحيز ولا تبالغ اذا وصفنا القومية العربية رسالتها الاخلاقية الانسانية .  
فتاريخ ايماننا القومي ، ومجدنا القومي ، ونهضتنا القومية ، حافل بالادلة الناصعة ،  
والبراهين القاطعة ، والحجج الدامغة المؤيدة . وليس في وسعنا الا ان نعز بهذه  
القومية اذا قرناها بقوميات الناس ، فهي اقل القوميات كلها بعداً عن مثالية الاخلاق .  
وبين ايدينا جميعاً تاريخ القوميات المختلفة ، كالقومية الانكليزية التي تحلى  
« بمزايا » الاستعمار المؤيد بالجشع التجاري ، والنفعية المادية ؛ والقومية الفرنسية  
التي تحلى باستعمارية مشفوعة باساليب الثقافة والعلم ، والادب والفن ، والجمال  
والازياء . بيد انها اساليب فاتن مظهرها ، وفي مخبرها العصي والقنابل ، والدموع  
والعدوان . . . وكذا القومية الالمانية ، باشتراكيتها ونازيتها وبنظريتها العرقية  
الهزيلة وبفلسفتها حول المدى الحيوي الذي يرثه الالمان من عباد الله ، ولا يرثه  
سائر البشر من غير الآريين الذين لم يخلقهم الله . . .

اقول ان للقومية العربية تاريخاً نفهمه بالاعتبار الجمعي فنجده قد ارتدي  
حلة الثوب الديني حيناً ، وثوب الدفاع عن النفس ضد الشعوبية  
والفوضوية في احيان اخرى . ولكنه - رغم الصعاب والكوارث والنكبات -  
مازال حياً فاعلاً ، والقومية العربية تنفرد بين سائر القوميات بنها نهضة قديمة

مستمرة ، وان العالم العربي جزء من العالم القديم ، وهو في الوقت نفسه جزء حي من اجزاء العالم الحديث . والقومية العربية قومية قبل ظهور القوميات . انها قومية يلخص جوهرها القول الحق المأثور : العرب مادة الاسلام .

هذه القومية الحقيقية ينبغي ان تقابل بايمان حقيقي . انها قديمة حديثة ، اي خالدة انسانياً ، ولذا ينبغي ان يكون الايمان بها مطلقاً . ولا يتم ذلك الا اذا تجاوز الايمان ميدان التصور والفكر الى ميدان التصديق والعمل . وقدينا ان الايمان الكامل عقد وقول وفعل معاً . ونحن لاننكر الصعاب التي تقوم في وجه العمل القومي الصحيح المتسق والايمان القومي الصادق . ولكن العزة الرفيعة ، والمجد العظيم ، لا يدركان بالمنحة والعطاء . بل السبيل الى اقامة محفوفة بالمكاره . وقد انتصر اجدادنا وطردهوا الصليبيين من بلادهم ومن فلسطين . ونحن اجدر بان لانياس ولا تقنط ، وان نستسهل الصعب وخرط القتاد .

واختم حديثي بالاشارة الى جانب واحد من جوانب المهام الكبرى الملقاة على عاتق الشباب العامل المؤمن بقومه وبلاده ، واقتبسه مما تقرأ في الصحف اليومية ذاتها بين الفينة والفينة . ومما ذكر احد الكتاب قوله : « لقد اثبتت تجارب التنقيب ان البترول المستخرج اليوم من الاراضي العربية لا يتجاوز العشرة بالمائة من مجموع النفط الكامن في بطن الارض . ومعنى هذا ان هذه البقعة من العالم تملك اليوم ، وفي السنوات العشر المقبلة ، ثروة تستطيع ان تستثمر بها كل نبع ماء في الاقطار العربية ، وان تقيم عشرات السدود والمصانع الكهربائية ، وان تروي كل شبر من صحارى سبئية والعراق والجزيرة ، دون مبالغة . . . وهذه الثروة ليست ملكا لاحد من الناس ، بل هي ملك الامة ، ملك الشعب ، ملك اصحابها . واصحابها هم هؤلاء العرب القاطنون في سورية ولبنان والعراق والاردن والسعودية والكويت والمحميات . . . هؤلاء الفقراء المرضى



الجهلاء الذين لاحياة لهم ، ولا مستقبل ، اذا لم تتحول صحاريهم تربة خصبة ،  
ولم ترتفع في هضابهم وسهولهم مداخن المصانع ، ولم تنتشر في مدنهم وقراهم  
الجامعات والمدارس . . . .

★ ★ ★

واني اذا ودعكم الليلة ، شاكراً لكم حضوركم واصفاءكم وتبليتيكم دعوة بطلسكم  
في الجهاد القومي والادبي ، استاذنا الكبير سامي الكيالي ، اعتبر نفسي سعيداً اذا  
ألقي حديثي هذا ضوءاً خافتاً على واقعنا الاجتماعي ، وواجبنا القومي . فالى العمل لخدمة  
العروبة ، والى الايمان بالقومية العربية ، أدعو وارجو ، وانتم جميعاً أهل الرجاء ،  
وكعبة الامل .

الدكتور عادل العوا



## العصيات المتصارعة

للدكتورة زاهية فدورة

= القيت بتاريخ ٢١ / ١ / ١٩٥٥ =

الحمد لله

الحمد لله

الحمد لله

الحمد لله

اية احاسيس تثيرها في النفس هذه المدينة العربية الكبرى ذات المجد  
الاثيل في تاريخ العرب في السياسة والادب .

فها هنا في هذه المدرج والسبل وفي تلك المنعطفات والدروب ، كانت  
تجول البطولات في هباتها للذود عن حمى هذا الوطن المهدد .

هاهنا كان الفرسان المذاويد ينفضون غبار المعارك عن اريدتهم آيين من  
النصر الرائع بعد المعركة الطاحنة .

ومن هاهنا كان سيف الدولة بن حمدان يخرج بفرسانه اصدا عاديات الروم  
وحماية ارض العرب .

وهاهنا في حلب عرف الادب العربي عهداً زاهياً زاهراً فشهد البلاط  
الحمداني مواكب الشعر الجياشة ومجالس العلم الفياضة .

ومن هاهنا كان صوت المنبي يجلجل بآيات البيان وروائع القريض ، وكان  
ابو فراس يهتف باناشيده العذبة واغانيه الشجية .

وثناء المهتم في هذا البلد الطيب ان تحتفظ حلب بهذا الطابع المتميز بين بلدان العرب فتظل في المقدمة ادبا ووطنية وكفاحا .

فالى حلب الشهباء تحية الاجلال والتقدير والى المكتبة الوطنية وعميدها الاديب العربي الكبير الاستاذ سامي الكيالي شكر العرب على مامهد لهذه الدعوات الكريمة التي تربط بين القلوب وتثير الازهان وتشد اواصر الاخوة .

واشكره لانه اتاح لي الفرءة لاتحدث اليكم بموضوع محبب الي تربطني به رباطات عديدة ورباطات عاطفية ورباطات عقلية مجردة ، انسمجت حينما تصارعت احيانا كثيرة ، فهي لا تزال تترك في نفسي قلقاً وحيرة ولا سيما ان ازمة من اكبر ازيمات مجتمعا العربي هي نتيجة العصبية المختلفة التي تنجر جسم مجتمعاتنا فتفسد نفوسنا وتضل تفكيرنا وتشوه ايماننا وبالتالي تقض مضاجعنا وتدفعنا القهقري .

ولذا رأيت من واجبي ان اتحدث اليكم اليوم عن عامل اساسي من عوامل هذه الازمة لعلنا نستطيع استخراج بعض العظات والعبر ، او ليس التاريخ عظة وعبرا ؟

وان لنا بهذا التاريخ الذي يصور المجتمع العربي علامة وثيقة ، وصلة شديدة ، فالواقف الرائعة تستثيرنا والحوادث المحزنة تعترض نفوسنا ، والحضارة الرفيعة تبعث زهونا والادب العالي يحرك عواطفنا ، على انه يجب علينا ان ندرس ونبحث واقعه من جميع نواحيه بتفصيل وتدقيق ، سواء اكان مشرقا يشرف اصحابه ام كان مظالم يستثير الاسى والالم ، لان كليهما حدث فانتج خيراً وشرراً . فلنبحث هذا وذاك بالروح العلمية فنقارن النتائج بالاسباب لنصل الى الحقائق المجردة ، وهذا ماتوجه نهضتنا الحديثة التي نريدها عامة شاملة في جميع الميادين .

العصبية صفة من مستلزمات وجود الانسان ، فما دام الانسان انساناً  
يجب ويكره ويأمل ويطمح ومادام كائناً مضطراً الى الكفاح والصراع ايسد  
حاجته ويضمن بقاءه ، فهو مضطر الى ان يتعصب .

فقد كان الانسان الاول يتعصب لنفسه ولذاته وهو فرد مستضعف تحيط  
به عناصر الطبيعة وعواملها القوية الرهيبة ، وكان مدفوعاً بغيرته الى ان يعنى  
بابنائهم ويكفلهم الى ان يشتد بنيانهم ويقوى ساعدهم على الصراع والكفاح . ثم  
رأى ان الابقاء على صلته بهؤلاء الابناء ضمن جدوى لهذا الصراع والكفاح  
واسرع نتيجة واوسع مجالاً؛ فتكاثف افراد الاسرة الواحدة وعملوا معاً في  
سبيل كل ما يؤدي الى ترسيخ كيانهم وامتداد مجال حياتهم ، وقد دافع بعضهم عن  
بعض وشد بعضهم ازر بعض حتى اصبحت العصبية من اهم شروط الحياة  
او البقاء .

وبالطبع كان الغنم يكثر والصعوبات تقل كلما كانت الاسرة اكثر عدداً  
واوفر نسلاً ، فحرصت على مد التضامن والتكاتف الى الاحفاد والاصهار وابناء  
العمومة والخوانثة وهكذا انشأ التعصب لقبيلة ، ثم ظلت هذه العصبية  
تنمو وتوسع الى ان اصبحت تشمل الجنس الواحد والشعب الواحد والامة  
الواحدة .

ولعل خير ما يصور هذه الرابطة المثل العامي المعروف « انا واني على ابن  
عمي وانا وابن عمي على الغريب »

وعلى هذا ، اذا كان لمحاضرنا اليلة من غاية توجيهية غير الغاية العلمية  
الموضوعية فليست في ادعاء القدرة على استئصال العصبية وانما في استخلاص  
العبر ، وتوجيهها توجيهاً مشروعاً ، يستهدف المصلحة العامة قبل الخاصة ، ودفع

العدوان لاجره على الآخرين ، والسي الى تهذيب النفوس وتمقيتها من ادران الفردية المدمرة والاثرة العمياء ، وعسى ان يطل على الانسانية فجر ذلك اليوم الذي لا يتعصب فيه الانسان لغير الحق المطلق والانسانية من حيث هي .

وعلى هذا ايضا لانستطيع ان نخص بالتعصب والعصبية امة دون امة ولا طائفة دون طائفة ، ولا شرقاً دون غرب ، فقد تأثر بها تاريخ كل امة ولعبا دورها في حياة كل الشعوب على قدر واحد وان اختلفت مظاهرها وتفاوتت ما بين شعب وآخر مراحل تطورها ، خفت حدتها هنا ، وظلا على شدتها هناك ، وتحولا في مجرى جديد عند هذا الشعب وظلا على مجراها القديم عند ذلك .

وبكامة اخرى اقول ان تخلص الغرب من العصبية الدينية والطائفية مثلا او كون الشرق مازال يعاني من ويلاتها الشيء الكثير ، لايعنى ان الغرب لم يمر بهذا الدور نفسه وانه اليوم قد تخلص من العصبية اصلاً انما تشهده اليوم في هذا الغرب من التعصب السياسي والعقائدي الحزبي والعنصري لا يقل في شروره وتعسفه عن التعصب الديني والطائفي .

لم يكن للمجتمع الغربي في الجاهلية من القوى والامكانيات الاجتماعية والروحية والسياسية ما يصهر تلك القبائل الجواله المتنازعة في بوتقة تذوب فيها الخصائص القبلية وتبلور مميزات الامة . فتستخرج موحدة الشغور والولاء والمثل القومية .

والعصبية هي نتيجة للحياة التي يحياها الانسان ، ولذا ترى الطابع الذي يطبع المجتمع العربي هو هذه النزعة التي اقتضاها نكد عيشهم ، وشظف احوالهم وتنقلهم من بقعة لاخرى ، خلقت هذه الحياة بينهم الفأ من جهة وتعصبا من



واول ماظهرت هذه العصبية في الفرعين الكبيرين : فرع القحطانيين او عرب الجنوب ، وفرع العدنانيين او عرب الشمال ، وكلاهما من اصل واحد - الاصل السامي - وان تباينا في اللهجة وطرق العيش والحضارة .

عاش الجنوب في ظل لدن من الحضارة قبل انبلاج فجر الاسلام بدهر دهير ، وعاش الشمال في احضان البداوة الى حد بعيد ، فلاعجب ان تمتع القحطانيون بحياة منظمة وان كانت بدائية ، الا انها نهضت على الاسس الضرورية للاستقرار والامن والثبات ، بينما غلبت على عرب الشمال حياة الترحل والانتقال في طلب القوت ، فمعظم قبائلهم الا قليلا - كانت تضرب في اليد باحثه عن الكلاء وترقب مواسم الغيث ابداءً ظاعنين هم ونسائهم واولادهم وعبيدهم وابلهم وماشيتهم وخيامهم حتى يقيموا عند عيين ثرة او مرعى خصيب لا تربطهم بالارض التي يهبطونها وشائج كالتى تربط الناس باوطانهم . ومثل هذه الحياة لا ترفع القبيلة الى مكانة الامة ولا تساعد على سرعة التطور الاجتماعي والسياسي والعقلي .

وهذا الاختلاف بين الفرعين الكبيرين الناتج عن التباين في طرق المعيشة واللهجات والحضارة ادعى من ثم الى اختلاف في الشعور واختلاف في المصالح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، التي وسعت المنافسات آفاقها فيما بعد ، وجعلت هذا التباين الجزئي كانه تباين في العنصر والجنس والوطن .

ورث الفريقان هذا الخلاف - او قل هذا العداء - عن الجاهلية ، وتفاقم شره في الفتوحات العربية ولعب دوراً خطيراً في حياة

على ان هذا الخلاف لم يقتصر امره على العلاقة بين عرب الشمال وعرب الجنوب بل كان يفعل فعله في قلب كل منها ايضاً فالعدناني يتعصب على العدناني والحميري يتعصب على الحميري حسب تكتل القبائل وتفرع الاغخاذ والبطون وان كانت كلها تنتمي الى اصل واحد .

كان لكل قبيلة مصالح تختلف وتتعارض مع مصالح سواها . ومن ثم نشب النزاع وظل مستمرأ . وكانت المصلحة تقضي بعض الاحيان ان تتحالف قبيلتان او اكثر للتغلب على قبيلة اخرى . وهكذا فرقهم المصالح من جهة وجمعهم من جهة اخرى .

وهذا الوضع الذي كان يتقلب بين النزاع والتحالف كان التربة التي نبتت فيها العصبية القبلية وترعرعت وهي ابرز مميزات المجتمع العربي حينذاك شأنه في ذلك شأن كل مجتمعي قبلي .

على ان هذه الصورة التي اعطيناها ، عن المجتمع الجاهلي لم تكن كل شيء وهي تبقى ناقصة اذا لم نذكر من ناحية اخرى حياة هذا المجتمع .

فقد يستقر في بعض الازهان ان ذاك المجتمع كان مجموعة قبائل متجولة خشنة تعيش على العصبية حياة صراع وخصام فقط ، منقطعة في اطرافها الضيق ، صلبة جافة لا تنثني ولا تلين .

لكن الواقع ان المجتمع الجاهلي لم يكن ولا يمكن ان يكون على هذه الصورة من التحجر والثبات فقد كانت هنالك عوامل تقارب وتآلف عديدة انها تلك الهجرات المتعددة بين الشمال والجنوب ، وقد تتج عنها نماذج قبلي

ومصاهرة وتشابك ، صالح ، ادت الى تخفيف حدة هذا النزاع . وقد بلغت هذه الحركة ذروتها اثر انهيار « سد مأرب » في الجنوب وهجرة العديد من قبائله الى الشمال وسائر اطراف الجزيرة كالشام والعراق حيث استقر الغساسنة والمناذرة ولعبت قبيلة الازد بصورة خاصة الدور الاكبر في توسيع حركة التمازج هذه اذ انها انتشرت في طول البلاد وعرضها ولم تقتصر على منطقة واحدة .

ومن اسباب التقارب والتمازج والتساهل العلاقات التجارية والسياسية التي كانت قائمة في داخل الجزيرة نفسها وبين الجزيرة والبلدان الاخرى ، والتي كانت تتطور وتزداد رسوخاً مع الايام .

وليس المجال الآن مجال التفصيل في هذه العلاقات والحركات ، وكل ما يهمنا هو انها كانت من اكبر عوامل التقارب والتمازج ، لابين العرب فقط بل بينهم وبين غيرهم من الامم .

اذن فالهجرات التي تحدثنا عنها ، وهذه الحركة التجارية الواسعة والعلاقات السياسية مع بعض الدول الاجنبية ، يضاف الى هذا المركز الجغرافي - كل ذلك يدل على ان الجزيرة كانت منطلقة الآفاق والمنافذ غير منعزلة ولا مشغولة دائمة بالمنازعات والغزوات وايلم السلب والنهب .

وشواهدنا على ذلك عديدة ، فالدول التي قامت في جنوب الجزيرة كالدولة المعينية والحيرية والسبئية والتي ازدهرت في شمالها كتدمير والانباط اللتين كان لهما اثر كبير في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية ، وكون الجزيرة واقعة منذ ٣٠٠٠ سنة على الاقل بين حضارتين عظيمتين : الحضارة المصرية وحضارة ما بين النهرين - اي الحضارة الآشورية والبابلية ثم الحضارات العبرية والفينيقية . فالآرامية والفارسية واليونانية والمسيحية - كل ذلك دليل على ما قدمنا .

ولعلني لا اكون قد بالغت في الاستطراد وذلك اننا مضطرون الى ان نرى  
العلاقة بين تطور المجتمع وتطور العصبية لانهما مترابطان والعلاقة بينهما هي علاقة  
السبب بالنتيجة .

قلنا ان المجتمع في اواخر العصر الجاهلي لم يكن مستقراً ككل الاستقرار  
على ذلك النحو المتوهم من البداوة والانزالية وانما كانت تدفعه عوامل كثيرة  
نحو التحول والتطور .

وكانت الظاهرة المميزة له قلقاً في التفكير ، واضطراباً في المعتقدات  
والعادات وتوثباً نحو السير والانطلاق تعتريه هزات ورجات نتيجة لتفاعل  
اللغات والديانات والاقوام وتضاربها واختلاطها .

ثم جاء الاسلام مستحثاً هذا التوثب بدعوة الى غاية معينة وفي طريق  
محددة واضحة ، وعلى اسس جديدة مركزة لا قلق فيها ولا تردد ولا تطلع  
الى مجهول .

وكان من ابرز ما جاءت به الدعوة الصريحة الى نبذ العصبية القبلية وجعل  
الرابطة الانسانية هي المثلى بين الناس : « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى  
وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ، ان الله عليم خبير »  
( سورة الحجرات آية ١٢ ) ، وكذلك - « قل يا ايها الناس اني رسول الله اليكم  
جميعاً » - ( سورة الاعراف آية ١٥٨ ) وكذلك « وما ارسلناك الا رحمة  
لله لين » - ( سورة الانبياء آية ١٠٧ ) وغير ذلك من آيات كريمة ، واحاديث  
مأثورة « لافضل لعربي على عجمي الا بالتقوى » « اخلق كلهم عيال الله واحب  
اخلق الى الله انفعهم لعياله . » وكذلك ايضاً « ليس منا من دعا الى  
عصبية . »

وقرن النبي القول بالفعل اذ رفع المخلصين من الموالى والارقاء الى اعز مكان وقربهم منه ، وساوى بينهم وبين اشراف العرب مساواة تامة فهذا بلال الحبشي قلده اشرف منصب بان جعله مؤذنه الخاص وكذلك سلمان الفارسي من خاص خاصته وفي تقديمه واكرامه زيداً بن حارثة على جلة بني هاشم يوم غزوة مؤتة المشهورة ، مثال واضح على محاربه العصبية .

وضمن هذا الشعار الجديد برزت رابطة جديدة في الرابطة الدينية بين المسلمين ، ولم تتضارب هذه الرابطة مع نزعة الاخاء التي بشر بها الاسلام والتي شملت غير المسلمين من اصل الديانات السماوية الاخرى افرأينا نصوصاً دينية وسياسية ترمي الى تنظيم العلاقة بين الطرفين على اساس من الاخاء والتفاهم والتعاون .

ولقد انتفضت الجزيرة بمجىء الاسلام منطلقة وراء حدود العصبية الضيقة والروابط الاجتماعية المنعزلة ، وكان ماجاء به من نظم الاخاء والتعاون والقضاء على الحدود والامتيازات بين الافراد والجماعات والعناصر ثورة اجتماعية كبرى .

على ان هذه الثورة التي اجتاحت الجزيرة لم يكن من اليسور ان تستأصل جذور عصبية هي وليدة اجيال بعيدة وعوامل ظلت كلها او اكثرها قائمة ولم يمكن القضاء عليها دفعة واحدة .

ثم كانت الدولة الجديدة وما اتمتته من مناصب ومراكز جديدة بمنحة النفوذ والسلطان ولا سيما المنصب الاول فيها - منصب الخلافة - موضعاً للتنافس ومن ثم مثاراً للحزبات وتذكرة بما كاد ان يسمى من قديم العتعات .

وهكذا ما لبثت العصبية الاولى ان عادت فاطلت على المجتمع العربي مر نوافذ عديدة الا انها اتخذت في هذه المرة اشكالاً جديدة اقتضتها طبيعة المجتمع الجديد، فهي حيناً قبلية وحيناً مذهبية وحيناً آخر عنصرية ، لكن يلاحظ ان جميع هذه الفروع كانت تنبعث من اصل واحد هو التحزب السياسي .

وقد تركز هذا التحزب ، بعد وفاة النبي ، على المنصب الاول في الدولة اي منصب الخلافة ودخل عنصر جديد من عناصر العصبية هو انقسام المسلمين الى مهاجرين وانصار ثم الى هاشميين وامويين ، ويعتبر هذا النزاع على الخلافة مبدأ الانقسام الى سنة وشيعة ، وعلى هذا يجب الملاحظة بان هذا الانقسام نشأ منذ بدايته سياسياً صرفاً لامذهبياً كما يخيل الى البعض .

على ان حكم الخلافة بعد وفاة النبي كان حريصاً على تحقيق الدعوة الاسلامية القائمة على اساس انساني بعيد عن العصبية الجاهلية ، ولهذا هان كثيراً أمر الشعور بالعصبية . وظلت النزعات الجديدة التي تحدثنا عنها آنفاً غير شديدة التأثير حتي كان عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ظهرت نعمة الاسرة مرة ثانية منذ توليه الخلافة ، فنارت النزعات التي اخمدتها الى حين عدل الخليفين الاول والثاني .

وحررت هذه النزعات فيما بعد الى المنازعات الدامية المعروفة ، كوقعة الجمل ، ومعركة صفين حيث ظهرت مع العصبية القبلية عصبية جديدة ، هي العصبية الاقليمية التي اقتضاها تمر كرز أحد الحزبين المتخاصمين في العراق ، والثاني في الشام ، ونعني بهذين الحزبين اتباع علي ومعاوية ، الهاشميين والامويين .

وهكذا اختلف الوضع في العصر الاموي ، فقامت الدولة الاموية على

اساس من العصبية المختلفة اهمها العصبية القبلية ، وكان اعتمادها على القبائل  
اليمنية ، ثم انها اعتمدت سياسة عنصرية خالصة واخذت العصبية المختلفة من  
مصرية ويمنية من جهة ، وعنصرية فارسية وعربية من جهة اخرى ، تعمل عملها  
في جسم الدولة الاموية الى ان قضت عليها .

وفي معركة مرج راهط التي اشتد وطيسها بين المضرين واليمنيين سنة  
٦٥ هـ وكذلك في موقعة خازر ٦٧ هـ . شاهد على ماقول .

واضيف الى آفة العصبية ظهور عصبية جديدة بظهور طبقة الموالي ، وهي  
العصبية العنصرية ، وكان هؤلاء الموالي يتأفون من فرس وانباط وروم ، ولكن  
الفرس كانوا اشد هؤلاء اثرأ بسبب كثرتهم ، وقد اصطدمت عنصريتهم اصطداما  
عنيفاً بالعنصرية العربية الممثلة تمثيلاً قوياً جامعاً بالدولة الاموية وهي الدولة المسيطرة  
ساحبة الامر والسلطان .

والمعروف ان العناصر المختلفة التي دخلت في الاسلام افراداً وافواجا كان  
الدافع بها ماتحملة مبادئ هذا الدين من عدل ومساواة وطهانية ، غير ان الدولة  
الاموية التي قامت على اساس عنصري محض حادت عن طريق هذه المبادئ ولم  
تعمل على تطبيقها في حياتها الاجتماعية والسياسية ، بل اخذ رجالها ينظرون الى  
الموالي عامة وفيهم الفارسي ذو الماضي المجيد نظرة احتقار وازدراء ، الامر الذي  
اثار حفيظتهم وخبب آمالهم فيما كانوا ينتظرونه من عدل ومساواة بشر بها ،  
فتأصل كره العرب في نفوسهم ، واخذت العنصرية الفارسية تقوى وتشد وتتحين  
الفرص الى ان انفجرت انفجارها الهائل في ثورة بني العباس التي تزعمها الموالي  
انفسهم برئاسة زعيمهم ابي مسلم الخراساني وتعتبر هذه الثورة اوج حركتهم .

شد محاول الموالي في العصر الاموي ان يؤكدوا حقوقهم وان يثبتوا

للعرب انهم ليسوا اقل منهم جدارة بالتمتع بما يتمتعون به من امتيازات ، وان عدم وضعهم على قدم المساواة مع العرب مخالف لتعاليم القرآن ، والرسول نفسه .

بيد انهم لم يستطيعوا الظفر فاشتركووا في كثير من الثورات كثورة المختار ابن ابي عبيد الله الثقفي سنة ٦٦ هـ . وكذلك في ثورة عبدالرحمن بن الاشعث وانكسرهم اخفقوا في كل هذه الثورات .

اذا لقد قامت المعارضة في الدولة على اساس من العصبية القبلية والعصبية العنصرية ، وكان طبيعياً او كان طبيعياً ان تلتقي عناصر محاربة الحكم القائم ، وهكذا توحدت جهود الفرس وجهود المزيين الذين كان يترجمهم البيت العلوي والبيت العباسي والبيت الزيري . وهذه البيوت كانت في الواقع تشكل ايضاً ثلاث عصبيات ضمن المعسكر المعارض ، وانكسر اتحاد موقفاً تجاه العدو المشترك ، وكانت نتيجة ذلك الثورات التي اطاحت بالعرش الاموي واقامت ملك بني العباس .

وكان اشترك الموالي بنصيب وافر بالثورة العباسية وقيادتها واقامة ملكها فيما بعد - نصر ابي نصر لهم وفتح عهد جديد في حياتهم وحدوا فيه صفوفهم ونظموا حركتهم فاصبحوا في هذا العصر اصحاب الخطوة والنفوذ والبأس ، يقربهم الخلفاء ويولونهم اعلى مناصب الدولة ، وبالاختصار اصبح العنصر الفارسي اكثر العناصر امتيازاً ونفوذاً . وفي هذا الجو استطاع الفرس ان يجهروا بمذاهبهم للعرب وان يفخروا عليهم ويقللوا من شأنهم ، وردّ العرب الكيل كيلين ، فبدأ بهذا بين رجال الفكر حركة من المساجلات والمناظرات يدافع فيها كل عن وجهة نظره ويرد على الآخر بحججه وبراهينه .

على ان فئة من العجم وقفت موقفاً آخر اذ ساوت بين العرب والعجم ونشأ من ذلك كله طوائف ثلاث :



١ - طائفة اهل التسوية وهي الطائفة التي تساوي بين العرب وغيرهم .

٢ - طائفة المتعصبين للعجم .

٣ - طائفة المتعصبين للعرب .

وقد عرفت الطائفتان الاوليان في التاريخ باسم الشعوبية .

وقد تطرق الفرس المتعصبون الى اقصى حدود الفخر والمفاضة والفوا

كتب المثالب في الطعن بانساب العرب ، والافتخار بما ضيهم التليد ومجدهم الغابر .

بما لامزيد عليه .

وكذلك فعل العرب في الرد عليهم فالفوا كتب الفضائل في دحض كتب

المثالب وكان من اثر هذا الصراع قيام حركات ادبية فكرية ومذهبية تتطاحن

وتعارض ، وظهرت الفرق الزندقية المتعددة ، كاراوندية والخرمية والبابكية

وكانت كلها تهدف الى محاربة السلطة الحاكمة او الانفصال عنها .

وكذلك ظهرت حركات صرف سياسية كالفتنه التي قامت بين الاميين

والمأمون ، ومحاولة نقل الخلافة الى علي الرضى وغير ذلك .

وهكذا اصبح في الدولة معسكران سياسيان : المعسكر العربي ،

والمعسكر الفارسي ، وتمثل نفوذ كل من المعسكرين في الخلافة والوزارة ،

وكانت الخلافة تمثل المعسكر العربي والوزارة المعسكر الفارسي ، غير انه كان

للفرس اثر شامل من مظاهره انتقال مركز الخلافة من الشام الى العراق .

هذا ولا بد من ابداء بعض الملاحظات في هذه الفترة من التاريخ ، منها

ان العامل الشخصي قد لعب دوراً كبيراً في اثارة الصراع العنصري بين العرب

والفرس ، اذ كان ذوو المطامع يستخدمون الشغبين لتحقيق مصالحهم ومطامعهم الخاصة ، وهكذا كثيراً ما كان الصراع وسيلة للوصول لا أكثر ولا اقل .

وكثيراً ما كان تنظيم الصفوف العنصرية والمذهبية المختلفة يتركز حول الشخصيات المتصادمة طبقاً لسياسة التفرقة والاستغلال التي مازال اصحاب المطامع يتبعونها منذ القدم حتى يومنا هذا .

وملاحظة اخري في ان النزاع العنصري بين العرب والفرس كان يعني تنبيه الفكرة عند الطرفين .

وقد جاء التنبيه مبكراً في تلك العصور اذ ان الفكرة الدينية كانت وحدها هي المسيطرة ، وكانت الرابطة الدينية في العصور الوسطى سواء في الشرق او في الغرب هي التي تربط بين الشعوب والامم ، ولم تظهر الفكرة القومية الا في عصر النهضة وهي الفكرة التي تميزت بها العصور الحديثة .

ومن الطبيعي ، وقد نشأت فكرة القومية مبكرة عند كل من الشغبين المتصارعين ان لا تكون قد نضجت بعد . ومع هذا نرى في الوان التفكير الذي دعت اليه حركة الشعوية ورد الفعل عند العرب بوادر من بذور التفكير القومي الذي ظهر فيما بعد في الغرب وازدهر هناك نتيجة النهضة وسواها من التطورات .

ولا بد من القول ان ذلك النزاع العنصري بين العرب والفرس قد ترك اثرأ سيئاً في البلاد . فاضطربت الامور وقامت الفتن والحركات الثورية في العراق والحجاز واليمن . وظهرت الحركات الانفصالية في المناطق البعيدة ، ونشأت الدويلات المستقلة ، ومن اولها الدولة الطاهرية ، ومن بعدها الدولة الصفارية في

الشرق وغيرها .

وقد خيل للمعتصم انه يمكنه ان يضع حداً لهذا النزاع المستفحل بضرب العيصيين واضعافها بعنصر جديد غير مرتكز على ماض تليد او حضارة مجيدة غير القوة العسكرية ، وذلك العنصر هو العنصر التركي .

على ان دخول العنصر التركي في الميدان وان يكن قد خفف حدة النزاع الى حد بعيد الا انه وقد وضع نواة عصبية عنصرية جديدة ظهرت آثارها فيما بعد .

وهكذا سيطر القواد الاتراك في العصر العباسي الثاني على الخلافة والوزارة بما اظهره من قوة حربية وسيطرة فعالة في الجيش . وفي هذا العصر نستطيع القول ان العصبية اصبحت في معالمها الغالبة وخطوطها الكبرى صرف عنصرية .

اما في العصر العباسي الثالث فقد سيطر البويهيون وهم من اصل ساساني حتى كان العصر الرابع ، وفيه ظهرت محاولات لاسترجاع القوة والسيطرة الى العنصر العربي ، ولكنها لم تكن ناجحة كل النجاح .

وكان ابرز هذه الحركات التنازع بين الخلفاء والسلاجقة .

بقي علينا ان نلم المامة خاطفة بأثر العصبية في الاندلس وشمال افريقيا . لم يكن الوضع هنا يختلف في خطوطه العامة عن الوضع في الشرق ، الا في بعض التفاصيل والملابسات . ففي ثنانيا تلك الحضارة الرائعة التي انشأها العرب هناك كانت العصبية تفعل فعلها . ويرى بعض المؤرخين ان من بعض اسباب عجز

العرب عن مواصلة فتوحاتهم في الغرب هي تلك الانشقاقات الداخلية .

كانت مظاهر العصبية تشجلى في النزاع القبلي والعنصري والاقطاعي والمذهبي والديني . ويجدر بالذكر ان اثر التعصب المذهبي كان في الغرب اوضح وبرز في المجال السياسي . و كذلك يجدر بالذكر ان التطاحن الديني اصبح في بدء عصور الانحطاط من الحدة بحيث ادى الى نتائج لم يظهر مثلها في الشرق .

ظلت الجينية والمضرية على نزاعها العنيف الذي كان ينقلب احيانا الى معارك حامية وايام دامية .

وكان من الطبيعي ان لا يتم التمازج فوراً بين العرب والبربر ، وان يظل كل منها ينظر الى الآخر نظرة حذر ومنافسة وهكذا قامت المنازعات العنصرية بين العرب والبربر حتى انها لعبت دوراً كبيراً في هزيمة الجيوش العربية في معركة « Poitiers » تلك المعركة الحاسمة التي كان من الممكن ان تكون لها نتائج اخرى وشأن آخر في امتداد الامبراطورية العربية ورسوخها لولا تلك المنازعات .

وامتد الصراع الى الاندلس واتخذ هناك شكلاً مذهبياً . ومن ذلك ان حركة مذهبية بدأت يوم حاول فقهاء المالكية نشر مذهبهم في الاندلس .

وكان المذهب السائد فيها هو مذهب الامام الازاعي . وقد استطاع الفقهاء ان يضموا اليهم العامة ، ثم يثيروا حركة تحريض على الامراء ، اذ كان بعض هؤلاء قلما يبالون بمظاهر الدين ، ومن ثم كانت تقوم بين حين واخر فتن ضد الامراء يستجد فيها هؤلاء بحرس الصقالبة ، كما حدث في مذبحه ضاحية قرطبة .

اما اثر العصبية الدينية فيقول بعض مؤرخي الفرنجة : ان حكم المسلمين

العرب كان في الاندلس كما في غيرها ، على غاية التساهل والتسامح مع اهل البلاد الاصيلين الذين ظلوا على دينهم . ولهذا آثر هؤلاء الهدوء والسلام وامتزجوا بالعرب امتزاجا ادى الى حركة فكرية وثقافية واسعة عظيمة الاثر . لكن حدث في اوائل عصر الانحطاط ان قام نفر قليل من صغار رجال الاكليروس بحركة تعصب ديني ، الا ان رؤساءهم من كبار رجال الدين وقفوا ضدها وعارضوها بقوة ، ولكن نفوس العامة كانت اقرب الى التأثر باقوال الصغار دون الكبار .

وبهذا بدأت موجة من التطاحن الديني تجنبها العقلاء ورؤساء الدين من الطرفين وحاربوها . حتى كان زمن محمد الاول ، فاراد وضع حد لحركة اولئك النفر من صغار رجال الاكليروس ، ولكنه بالغ في القمع فاخذ المعتدلين بذنب المتعصبين ، فكان ذلك بداية عهد من العداة العام الشامل ادى الى كثير من الحروب والثورات والفتن .

اما اليهود ، فقد اطمأنوا الى الحكم العربي وتمتعوا فيه بحرية واسعة حتى انهم توصلوا مرة الى منصب الوزارة ، ونبغ منهم بعض الابداء والعلماء لعبودورا كبرياً في الحركة الفكرية . ولم يحدث ان اضطهدوا سوى مرة واحدة لاسباب سياسية .

هذا وقد ادى احتدام العصبية المختلفة الى قيام الثورات الداخلية ، ومحاولة الانفصال بين المدن المختلفة ، كما ادى الى منازعات وحروب بين اهل الاقطاعات في سبيل الاستئثار والاعتصاب ، ومن ثم ادى الى نشوء دول ملوك الطوائف ثم الى الكارثة الالمانية في سقوط الاندلس وخروج الرب منها ، بينما الدويلات المقامة هنا وهناك في اطراف تلك الامبراطورية الواسعة مشغولة عن

نجدها عاجزة عن اغاثتها بالانانيات الخاصة واشكال النزاع المختلفة .

سيداتي سادتي

ان مارميت اليه من وراء هذا العرض التاريخي المطول هو تبيان الاثر الذي تركته العصبية في مجتمعا القديم . وارانني بعد ان استوفيت ما عن لي من شؤون هذه العصبية وشجونها ، من غير حاجة للاستطراد الى استقصاء آثارها في ماتلا تلك الحقب من عصور ، وما تقلب بعدها من الدول ، ذلك ان تلك العصبية استمرت بتنوع المظاهر نفسها في كل تلك الادوار .

لقد كان ان استقل الفاطميون بمصر وبقايا الامويين بالاندلس والعباسيون ببغداد ، واخذت الدويلات المختلفة تنشأ هنا وهناك في اطراف الامبراطورية ، وكان ان اخذ الانراك يقيمون اساس حكمهم حتى انتقل الحكم العربي نهائياً اليهم وظلت البلاد العربية تحت النير التركي الى نهاية الحرب العالمية الاولى ، اذ توزعها الحلفاء على الشكل المعروف .

وكان وقوعنا تحت نير الاستعمار جديراً بان ينبه الغافلين ، ويوقظ الضمائر ، ولكن ، اذا شئت ان انصف الحقيقة والواقع ، اري ان لا بد لي من القول اننا مع هذا بقينا حيث كنا من تلك الفتن وذلك التناحر . وكان ان اتقضى عهد العصبية القبلية والدينية والعشائرية وزال اثره من العالم المتمدن ، ولكنه في مجتمعا مازال حيث تركته الايام الغابرة ، يحول بيننا وبين الانطلاق الى ميادين الحياة الحرة العزيزة المتطورة .

وهل نحن بحاجة الى ضرب الامثلة ؟ وخذوا مثلاً واحداً : الدور الذي لعبته العصبية في اضاءة فلسطين ، اذ كانت الصفات الخاصة في بعض الاحيان

سبباً للمساومة عليها .

وكانت عصبيات بعضنا على بعض في احيان اخرى تستوعب كل احوالنا  
وزعاتنا حتى تنسينا ، وباللعار ، وذلك التعصب البناء المقدس على غاصبيها  
ومنتهكي حرمانها .

سيداتي وسادتي

قد اكون في هذا الحديث قد اثرت بعض الاسئلة في اذهان البعض  
وجوابا على هذه الاسئلة ارى ان لا بد لي من الاستدراك بان طبيعة  
الموضوع الذي نبخشه هي التي تضطرننا الى تقصي النواحي السلبية اكثر  
من تقصينا النواحي الايجابية في هذا التاريخ ، وعلى هذا يعين لي بعض الملاحظات  
حول هذا الاستدراك .

اولاها : ان هذا التاريخ قد حفل ، مع ذلك بتلك الحضارة الزاهرة التي  
تميزت بطابعها الخاص والتي اشرفت بها دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة ، والتي  
كانت وحدها تزدهر في العالم الانساني ثقافة وادبا وفكراً وفناً وعمراً وسط  
ظلمات القرون الوسطى ، والتي كانت الجسر الذي عبرت عليه الانسانية الى  
عصر النهضة الحديثة .

والملاحظة الثانية : هي ان العصبية لم تكن شرّاً كلها بل كان لها بعض  
الحسنات ، فلو لم يتعصب العرب لجنسيتهم ، خصوصاً في العصر الاول ، لما استطاعوا  
ان يبلغوا ما بلغوه من الفتح وبناء الملك ، لكن لاشك في ان العصبية بمظاهرها  
المختلفة كانت اهم عامل في تفكك هذا الملك الزاهر فيما بعد .

والملاحظة الثالثة : هي ان مساوي هذه العصبية هي كما قلنا في مطلع الحديث ، تجربة مريرة مرت بها كل الشعوب والامم ، بل لانستطيع القول ان شروورها كانت في تاريخنا اهون الشرور ، وهل برئت حضارة القرن العشرين نفسها من ظلام العصبيات وقتكها . . ؟ واقرب الامثلة على ذلك التعصب العنصري الكريه ضد الاجناس الملونة ، اذ تعتبر هذه الاجناس منحطة عن الجنس الابيض في ظلال الحرية والديمقراطية حيث يجرد ذو اللون الاسود من حقوقه لمجرد ان جلده مدبوغ بالسواد . هذا عدا الاضطهادات الدموية التي نسمع اخبارها بين حين وآخر بسبب تباين العقائد الحزبية وتطرف العصبية السياسية .

والملاحظة الرابعة : هي ان العصبية الدينية السلبية كانت ضئيلة الاثر في تاريخنا . حقا ان الرابطة الدينية كانت من الروابط الرئيسية ولكنها كانت ايجابية ، ودلينا على ذلك العلاقات الطيبة والتعاون المستمر بين اهل الديانات الكبرى في الميدان الاجتماعي والثقافي والفكري .

ولسنا ننكر انه مرت فترات من الاضطهاد الديني ولكنها فترات اختصت بها عهود التقهقر العام . ولم تقتصر على طائفة دون طائفة بل كانت الاضطهادات والمنازعات تجري في قلب الطائفة الواحدة . هذا مع العلم ان حركات التطاحن الديني كثيراً ما كانت تكون سياسية في اسبابها وبواعثها .

اما ظهور العصبية الدينية في شكلها المدمر فلم يجر الا في عهود الاستعمار وعلى يديه ، اذ اثيرت ونظمت في العهد التركي وبدسائس الدول الاوربية المستعمرة ، وتداول اساليب تنظيمها واثارتها بعد ذلك ورثاؤه حتى اخذت تتحطم شيئاً فشيئاً على صخور النهضة الوطنية الحديثة ، ويتبدد ظلامها مع شروق العهود الاستقلالية الجديدة في الاقطار العربية المختلفة .



واخيراً ان استقصاء النواحي التي لعبت فيها العصبية ادوارها الهامة  
جدير بان يجلو لنا كثيراً من العبر والعظات وان يبعث فينا روحاً اجتماعية  
بناة جديدة .

ان اتاريخ يعلمنا بناحيته السلبية والايجابية ، وارجو ان لا اكون عرضة  
للوم اذا اخترت منه احدى نواحيه السلبية . قد فعلت ذلك سعياً وراء غاية ايجابية ،  
ففي اعتقادي ان العصبية في مظاهرها المقيمة مازالت من اعمق امراضنا واشدها  
خطراً . والمثل الذي يبتغي من كل بحث تاريخي انما هو علاقة هذا التاريخ  
بالحاضر ونتائج المتوقعة حياة الاجيال المقبلة .

وعلى هذا ارى من مستلزمات اعتزازنا بالنواحي الايجابية التي ازدهر بها  
تاريخنا بما قدمه للانسانية من حضارة رفيعة وتراث فكري وعلمي واسع ، وان  
نتلمس في جوانب هذا التاريخ كل ما يمكننا من ان نضع نحن بانفسنا في وقتنا  
الحاضر تاريخاً نبنيه بوعي على مقتضيات مصالحنا الوطنية والتقدمية ويكون حلقة  
مشرفة في تلك السلسلة الطويلة من الاجداد والمفاخر .

وفي رأبي ان اقوى ما يتحدانا به ماضينا ومستقبلنا هو . مقدار استعدادنا  
للتغلب على العصبية التي تتوزعنا من اجل انشاء مجتمع موحد متقدم قادر على  
حماية نفسه من الاخطار . وعلى تأمين العدالة والرفق لجميع افراده .

فعصور الانحطاط والاستعمار التي خضعنا فيها لحكم الاجانب كانت جديرة  
بان توفقنا وان توحد بيننا ، ومن ثم ان تضعف عصبياتنا المقيمة ، الا انها على  
العكس غدتها وجعلتها تنمو وتعدد مظاهرها واشكالها في حياتنا .

وها نحن اليوم نجابه من الاخطار الداهمة مانجابه ، واقربها وادهاها هذا

السرطان الذي ينمو على حدودنا ، والذي اقامه الاستعمار باسم اسرائيل . ومع هذا نرى في قلب مجتمعاتنا عصبية متعددة تكاد ان تضعف مناغتنا وتشل قواها . فمن عصبية عشائرية وعائلية الى عصبية قبلية وطبقية واقليمية وطائفية وغيرها من العصبية الرجعية الذميمة .

ولكن الى جانب هذا لابد من الاستدراك بان ظهور بوادر الحياة الحزبية السياسية يمكن اعتباره ايذاناً بتطور جديد في هذه الناحية ، وانما نترجو ان تكون الحزبية السياسية الصحيحة هي النمط الذي يقوم على انقاص تلك العصبية في المستقبل وان لا تكون تلك العصبية من الرسوخ بحيث نستطيع ان نعكس الآية فنجعل من الاحزاب السياسية ركائز لنوع من العصبية العامة والخاصة .

ولتحقيق هذه الغاية لابد من اقامة الحياة الحزبية وتوجيهها حسب مقتضيات المصلحة العامة ، فتألف هذه الاحزاب وتوحد جهودها مثلاً في مواجهة خطر مشترك كما تألف وتوحد جهودها لتحقيق غاية عامة مشتركة ، ولا سبيل بعد ذلك لاي تناحر وتصادم الا ما كان من قبيل المنافسة المشروعة ، وبغير هذا لا يمكن ان تكون الاحزاب مجدية او ذات رسالة .

ان السؤال الاهم الذي يجابهنا في كل لحظة من لحظات حياتنا الاجتماعية هو : هل نستطيع التغلب على عصبياتنا المختلفة ، والتسامي فوقها لبنني مجتمعاً سليماً ، ودولة موحدة على اساس وطني قومي ملاك العلم والتطور وقوامه الفكر المنطلق الحز . . . ؟

هذا هو السؤال . وهذا ما كان يقضي بان تتركز كل جهودنا الفكري على التحرر من العصبية ومواجهة الحقيقة ، فالشجاعة والصراحة في

في مواجهة الحقائق هما اول مرحلة عملية يقطعها المرء في سبيل حل هذه المشاكل والتخلص من العقبات والعراقيل التي تعترض سيرها .

لست ادعو الى نبذ العصبية بل ادعو الى توجيهها ايجابياً بناء واستخلاص العبر من الماضي . فكما استطاع اسلافنا من بدء عصر نهضتهم ان يلهموا بدافع من العصبية الايجابية ، شعهم ، وان يخلقوا لانفسهم كياناً سياسياً متحضراً ، ويندفعوا في الفتح ونشر الحضارة ، كذلك نحن اليوم مدعوون الى مثل هذه العصبية ، عصبية التآخي والتعاطف ، لابل عصبية المصلحة التي تحقق مجتمعاً موحداً مترفعاً عن العنينات الاقليمية والطائفة والعشائرية ، يحقق عزة المجموع وعزة الفرد .

ان في المجتمع العربي اليوم ، عدا العصبية الذميمة الموروثة ، عصبية جديدة خطيرة . فالانقسام الفكري والثقافي يقيم في هذا المجتمع تكتلات متباينة متباعدة نتيجة التربية والثقافات المتباينة المتباعدة التي عمل الاجني على ترسيخها وبلبله اتجاهاتها بها . فبينما نحن نعيش على صعيد جغرافي واحد ترانا في وقت معاً نعيش على اكثر من صعيد فكري ، يذهب ببعضنا شرقاً وبعضنا الآخر غرباً . ويدور بفريق غيرهم في حلقة مفرغة لاشرقية ولا غربية ولا اي شيء آخر .

اننا نشهد اتقساماً مخيفاً حول النقاط الاله والاكتر حساسية ، اتقساماً يندثر بشر مستطير ، ويؤدي الى تكتلات هنا وهناك لانسجام بينها ولا تقام ، مع ان الحقيقة واحدة والمصلحة واحدة ، وبالتالي يجب ان لا يكون هناك غير جهة واحدة فعلام اذن تعدد الجهات وتناقضها وتنوع الكتل وتباينها . . . ؟

ما الذي يدعو مثلاً الى كل ذلك في علاقاتنا مع الآخرين ، سواء أكانوا في الشرق أم في الغرب ؟ لماذا لا يكون توطيد علاقاتنا بعضنا ببعض هو المقياس الذي تقاس به مواقفنا من الكتلة الغربية والكتلة الشرقية . فلا يكون بالتالي سبباً لتعدد المواقف وتناقضها ؟

فنحن مدعوون اذن الى نبذ كل عصبية انانية مفرقة ، وان نستبدل بها نوعاً آخر من العصبية تجمع العرب على صعيد فكري واجتماعي وسياسي واحد عصبية اللغة المهملة ، عصبية الوطن الذي يتربصون به الدوائر ، عصبية للاخوة التي يعملون على تفريق شملها ، عصبية للفكر الحر . ومن ثم لن يكون لهذه العصبيات من ثمار غير التضحية في سبيل المجموع ، واظهار المصلحة العامة على الخاصة ، وهذا هو التقدم على ارفع مقاييسه وانبل مفاهيمه ، وهذا هو التطور الذي تضطرنا اليه اوضاعنا الحاضرة لكي نصبح قوة فعالة في المجموعة الانسانية ونؤدّي قسطنا في التقدم البشري ، الى اليوم الذي تصبح فيه الرابطة الانسانية والتقاربة الفكرية هما العصبية الوحيدة التي تقوم عليها علاقة الانسان بالانسان .

هذا هو طريقنا الاحب اذا شئنا لانفسنا حياة كريمة لانكون فيها في مؤخرة الركب وعلى هامش الحضارة .

اما اذا ظللنا سادرين فيما يفرق شملنا ، ويمزق وحدتنا فانا لن نصير الا الى المصير التعس الذي صار اليه فريق من قومنا وابصرناه بام عيوننا .

ان الامة التي ترتكز على ماض زاهر بالحيويات طافح بالامجاد كمتنا لا يليق بها الا ان يكون لها حاضر ومستقبل ينبعان من ذلك الماضي التليد ، ويمضيان به قدماً الى الصف الاول في توجيه العالم الى طريق الحق والخير

والجمال .

فلنسر الى الامام لتحقيق تلك الغايات وشعارنا :

لاعصية الا للتححر والتقدم ، ولا تعصب الا على العبودية  
والرجعية .

الدكتورة زاهية قدورة

الإنسان الحديث

الدكتورة زاهية قدورة



## الإنسان الحديث

للدكتور بطل عباد

= القيت بتاريخ ٢٨ / ١ / ١٩٥٥ =

فهرست مطالب

فصل اول

فصل دوم

فصل سوم



## الانسان الحديث

سيداتي ، سادتي :

ماذا يقصد بالانسان الحديث ؟ انه ذلك النوع من البشر الذي ظهر في البلاد الغربية خاصة -والي القرن الخامس عشر اي في عهد الاكتشافات الجغرافية والاختراعات العلمية التي أدت الى تغييرات عميقة في النظام الاقتصادي والاجتماعي للشعوب وانتقل العالم بعدها من جمود القرون الوسطى الى مرحلة جديدة تتصف بالحركة والتطور والتقدم . وبعد حركة الاصلاح الديني التي بدأت في المانيا وعمت بسرعة البلاد الاوروبية الاخرى ثم بعد عهد الاحياء الذي كان الرجوع فيه الى تراث اليونان والرومان انما يستهدف تحرير الفكر من التقاليد الدينية ، استمر الانسان الحديث في التطور والتكامل خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر حتى استطاع ان يبسط سيطرته على العالم في القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين وان يصبح بذلك المثل الاعلى للامم اشرقية ايضاً في طراز المعيشة وقواعد السلوك وطرائق التفكير واساليب العمل .

الانسان الحديث محصول تطور تاريخي طويل . فقد تقلبت عليه حوادث كثيرة واجتاز مراحل عديدة وتعرض الى أزمات متنوعة . وكان من اثر ذلك ان كثرت عناصر شخصيته وتضاربت واصبحت نفسيته ، كما نشاهدها اليوم ، في منتهى التعقيد والاضطراب .

ان أفعال هذا الانسان في الوقت الحاضر تدعو الى الخجل والاشمئزاز وحالته تثير الشفقة والخوف معاً . على ان هذه الازمة ايضاً سوف تنتهي . وهناك أدلة كثيرة على ان الانسان الحديث قد بدأ عنده الوعي الذاتي وأخذ يشعر بضرورة تغيير نظام حياته والاتجاه في طريق جديدة .

ونحن اذا تساءلنا عن الانسان الحديث وقمنا نبحت عنه في التاريخ لنعرف متى ظهر وكيف تطور وماهي الادوار التي مر منها فذلك لاننا نجد في انفسنا مفهوم هذا الانسان ولاننا بدأنا نشعر بالفرق بينه وبين الانواع الاخرى من البشر ونريد ان نحدد صفاته وتقرر موقفه تجاه الكون وتبين طريقه في الحياة .

مثل هذا البحث واجب ضروري لنا ، لاننا نحن ايضاً نعيش في هذا العالم الذي يسيطر عليه الانسان الحديث ولان هناك علاقات كثيرة تربطنا به لانستطيع قطعها مما حاولنا ذلك . وقد أخذنا منذ اواخر القرن الماضي تقدي به ونقله في اكثر مظاهر حياتنا سواء في ذلك زي الثياب او اساليب البناء او طرق التربية والتعليم او تنظيم ادارة الحكومة . بل ان الكثيرين منا قد اصبحوا يتبعونه ، عن شعور منهم أو دون شعور ، في طريقة تفكيره ونظرته الى الكون وفي عواطفه ومثله العليا البدعية والاخلاقية والاجتماعية .

ولا بدع اذا لم تقتصر علاقاتنا بهذا الانسان الحديث على النواحي الصناعية

والاقتصادية والسياسية التي فرض علينا سيطرته فيها فرضاً ، بل تعدت ذلك الى الحياة الفكرية والاخلاقية ايضاً ، لان هناك تقارباً نفسياً بيننا وبينه يرجع الى جذور تاريخية . فان حضارتنا ايضاً قد تأثرت ، في عهود ازدهارها ، بتراث اليونان كما تأثر الانسان الحديث بهذا التراث في مبدأ نشأته وجميع مراحل تطوره حتى الوقت الحاضر .

ويزيد في قوة هذه الصلة ان العالم الغربي إنما تعرف ، بادى الامر ، على الثقافة اليونانية عن طريق احدادنا . فعهد الاحياء في اوروبا إنما كان نتيجة مباشرة للاحتكاك بين الاوربيين والعرب في الاندلس وصقلية ثم في بلاد الشام أثناء الحروب الصليبية .

بحق يقول المؤرخ السويسري الكبير ( بوركهاردت ) ان اول اوروبي حديث كان فريديك الثاني امبراطور المانيا وملك صقلية في القرن الثالث عشر وذلك لانه نشأ في بيئة عربية - اسلامية وتلقى ثقافته على أيدي علماء المسلمين . وكان يتقن اللغة العربية ثم اندفع ، بعد توليه الحكم ، الى اقتباس انظمة الادارة والمالية عن المسلمين واستعان بعلمائهم لتدريس العلوم في الجامعات التي أسسها في ايطاليا على مثال المدارس الاسلامية .

ولعله من المفيد أن اسرد عليكم بعض التفصيلات عن هذا الملك الذي كان له تأثير عميق في تطور التفكير الاوروبي ونشأة الانسان الحديث .

يروى لنا المؤرخون المسلمون والفرننج الشي الكثير عن علاقات فريديك الثاني بالملك الكامل الايوبي . فانه عندما خاف الملك الكامل من انتهاء اخيه المعظم ، صاحب دمشق ، الى السلطان جلال الدين بن خوارزمشاه اراد ان يهدده

بالتحالف مع الفرنج فأرسل الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ لمفاوضة  
الامبراطور . وعلى اثر ذلك جاء وفد من القاهرة واكرمه اكراماً زائداً واهتم  
بتجهيز هدية ثمينة الى الامبراطور وعين للسير بها جمال الدين بن منقذ الشيرزي .

ثم كثر تردد الامير فخر الدين بين الملك الكامل والامبراطور  
فريدريك الثاني الى ان تم الاتفاق على تسليم القدس الى الافرنج على شرط ان  
لا يحدد سورها وان يكون الحرم بما حواه من الصخرة والمسجد الاقصى بأيدي  
المسلمين لا يدخله الافرنج الا للزيارة فقط . .

كان فريدريك الثاني قد نشأ في وصاية البابا ( اينوسان ) الثالث الذي  
طلب اليه القيام بحملة صليبية جديدة لاسترجاع بيت المقدس ، فأقسم فريدريك في  
سنة ١٢١٥ على تنفيذ ذلك ولكنه بعد تولي العرش اخذ يماطل في الامر ويختلف  
المعاذير في عهد البابا ( هونوريوس ) الثالث ثم ( غريغوريوس ) التاسع حتى  
اضطر هذا الاخير الى حرمانه من العفران سنة ( ١٢٢٧ )

على ان فريدريك الثاني قد سافر في العام التالي الى فلسطين رغم معارضة  
البابا وعقد الاتفاق الذي ذكرناه مع الملك الكامل عوضاً ان يحارب المسلمين .

ويذكر المقرئ في كتاب « السلوك لمعرفة دول الملوك » ان الامبراطور  
اعتذر للامير فخر الدين قائلاً بانه « لولا خوفه من انكسار جابه ماكلف  
السلطان شيئاً من شروط الاتفاق » وأنه ، شخصياً ، « ماله غرض في القدس أو  
غيره وإنما قصد حفظ ناموسه عند الفرنج . »

يقول المقرئ : « وكان هذا الملك عالماً متبحراً في علوم الرياضيات . وقد

بعث الى الملك الكامل بعدة مسائل مشككة في الهندسة والحكمة فعرضها الملك على الشيخ علم الدين قيصر الحنفي ، المعروف بتعاسيف فكتب جوابها .

ثم ينقل المقرئ عن ابن الجوزي : ان الامبراطور لما زار القم . دس قال للقوام على الحرم : هذه الشباك التي على ابواب الصخرة من أجل أيش ؟ قالوا : لئلا يدخلها العصافير . فقال الامبراطور : قد أتى الله اليكم بالحنازير . «

قالوا : ولما دخل وقت الظهر واذن المؤذنون قام جميع من كان مع الامبراطور من الفراشين والنلمان ومعلمه ( وكان من صقلية يقرأ عليه المنطق ) فصلوا ، إذ كانوا كلهم مسلمين .

وجاء في كتاب مرآة الزمان لابن الجوزي : « ان الامبراطور كان أشقر ، أمعط ، في عينيه ضعف . لو كان عبداً ما يساوي مائتي درهم . والظاهر من كلامه انه كان دهرياً وإنما يتلاعب بالنصرانية . »

وفي الحقيقة فان المؤرخين الاوروبيين يتفقون على وصف فريديريك الثاني بالاشك والخروج على تعاليم الكنيسة ويقولون أنه كان ، مثل الكثيرين من معاصريه يعتقد ببطلان الاديان كلها . ولكن بينما كان غيره يخفي ذلك زاه لا يخشى من الجهر برأيه هذا في خطب كثيرة انتقلت الينا .

ويكفي دليلاً على تحوره الفكري جوابه على البيان الذي اصدره البابا ( غريغوريوس ) التاسع في سنة ١٢٣٩ واتهمه فيه باتباع سياسة معادية للكنيسة واطعن حرمانه من الغفران للمرة الثانية وكان الخلاف بين البابا والامبراطور يدور هنا حول السلطة العليا في البلاد الايطالية . وقد برهن فريديريك الثاني على انه لم يكن ليكثر بنقمة البابا عليه فهاجمه بمباراة لاذعة واتهمه بأنه بينما يتظاهر بالاخلاص

للقضايا المقدسة وللأخوة المسيحية والسلام يستخدم في الواقع سلطة منصبه واموال الكنيسة لاثارة الفتن واشعال الثورات ضد المدافع الحقيقي عن المسيحية ( أي فريدريك الثاني نفسه ) . وبعد ان نسب الى البابا المكر والخداع والتآمر نراه يحتتم جوابه الذي اذاعه على العالم بقوله : « ان غريغوريوس التاسع لا يمثل الكنيسة ولا يحق له التكلم باسمها وأنه ليس من الواجب احترامه واطاعته لانه اقدم على مخاصمة الامبراطور ، حامي المسيحية ، دون استشارة الكرادلة .

ليس من شك في ان ثورة فريدريك الثاني على البابا قد مهدت السبيل الى حركة الاصلاح الديني وعهد الاحياء . فاذا اعتبرنا هذا الملك ، كما فعل ( بوركهاردت ) ، اول اوروبي حديث تبين لنا تأثير الاحتكاك بالحضارة الاسلامية العربية في نشأة هذا الانسان الحديث وادركنا انه ليس غريباً عنا وانه من واجبننا العناية بدراسته . . .

على انه حتى الذين يريدون التحرر من تأثير الغربيين وبناء حضارة خاصة بنا ، مستقلة عن الحضارة الاوروبية الحديثة لاغنى لهم عن معرفة الانسان الحديث لانه ، من جهة ، يمثل لنا مظهراً هاماً من مظاهر الحضارة البشرية العامة في تطورهما ولأننا ، من جهة ثانية ، نستطيع الاستفادة منه كثيراً اذا قدر لنا ان نسلك طريقة جديدة . واذا كان من المؤكد ان هناك اختلافات ظاهرة بين الحضارات في كثير من النواحي فلا شك ايضاً في ارتباط بعضها ببعض وتأثير احداها في الاخرى .

\* \* \*

في القديم كان المصريون يتصورون الكون كظاهرة منطقية ، اذا جاز هذا

التعبير ، أي كعالم مبسط ، مخطط في قالب هندسي . وكان الهنود لا يرون فيه غير ظاهرة « مرضية » ويعتبرونه وهما محضا . وكان اليونانيون ينظرون اليه كأثر في ظاهرة بديعية ، كعالم يتجلى فيه الجمال والروعة والرشاقة . وكان الاوروبيون في القرون الوسطى يذهبون الى انه ظاهرة « سحرية » ومسرح خاضع لقوى روحانية فوق الطبيعة .

وبظهور الانسان الحديث بدأت تتكون نظرة جديدة الى العالم : نظرة عقلية ، واقعية ، مادية ، نفعية . ان هذه النظرة لم تكتسب شكلاً واضحاً الا تدريجياً مع تعاقب العصور . وكان طبيعياً ان تترج هذه النظرة الجديدة من حين الى آخر بعناصر من النظرات القديمة . هكذا زى الانسان الاوروي الحديث في القرن السابع عشر مثلاً يحاول من جهة ان يخضع الواقع لسيطرة العقل ولكنه لا يرغب من جهة ثانية في قلبه الى حلم لاحقية له . ثم في الوقت نفسه يحتفظ في نظره الى العالم بشيء من التقاليد المتوارثة عن اليونانيين فتصور الوجود كله كظاهرة بديعية ايضاً : كألوبة جميلة ، مزوقة ، كما يتجلى لنا ذلك في الفن المعماري لهذا العهد الذي يكثر من الاقواس والاعمدة والنقوش الزينية وغيرها من الظواهر الخلافة .

ان الانسان الحديث يختلف عن غيره باتجاهه الديني المطلق ويتمركز كل تفكيره وعواطفه وأفعاله حول الحياة الواقعية في هذا العالم كما بدأ يظهر ذلك لأول مرة في عهد النهضة بالبلدان الاوروبية . ونلاحظ أثر هذا الاتجاه ، بصورة محسوسة كذلك ، في حركة الاصلاح الديني التي اثارها ( مارتين لوتر ) . فزى الاوروبيين الذين كانوا حتى القرن السادس عشر لا يزالون تحت سيطرة العقائد والاهواء الدينية وحدها أخذوا أثناء حرب الثلاثين سنة يكتبون هذه العقائد والاهواء التي طغت عليها ذاك الاعتبار والمشاعر الوطنية والقومية والاجتماعية

ولم تكند تنتهي حرب الثلاثين سنة حتى اصبحت البلاد الاوروبية كلها تقريباً تسودها الصبغة السياسية ، الذنوية ، العقلية .

والمفهوم الاساسي الذي اخذ يسيطر على الاتجاه السياسي للانسان الحديث منذ ذلك العهد هو مفهوم « مصلحة الدولة » . وقد وصف اذ ذاك احد الكتاب الالمان هذا المفهوم بقوله : « انه في الاصل شي جميل ، ممتاز ، مقدس . ولكن ماذا يعجز عنه الشيطان ؟ فهو قد تلبس مفهوم « مصلحة الدولة » ايضاً مثل كثير من الامور وقلبه حتى اصبحت مرادفاً لمنتهى الخبت والمكر في العالم وصار الحكام يستطيعون بالاستناد اليه ان يعملوا كل ما يروق لهم . » ويقول كاتب آخر عن هذا المفهوم بانه « غبار يذره الحكام على عيون الرعية كوسيلة لاختضاعها . »

كانت نظرة الانسان الحديث الى الحياة السياسية نظرة عقلية واقعية . انها لم تكن لتقرر آراء مخالفة للعقل مثل مبدأ الحق الالهي للملوك .

والكتاب الذي يمثل لنا التفكير السياسي الجديد في تلك العصور هو ( ماكيا فيللي ) في كتابه المشهور « الامير » . فهو يتفق مع زعماء الاتجاه العقلي الذين ينكرون تأثير القوى فوق الطبيعة في مجرى شؤون البشر . وقد جعل همه ان يدرس سلوك الانسان كما هو في الواقع . وبحق يقول الفيلسوف الانكليزي ( فرانسيس باكون ) في اوائل القرن السابع عشر : « لما كيا فيللي فضل كبير لانه وصف لنا ماذا يعمل الناس عوضاً عن ان يذكر لنا ماذا يجب ان يعملوا . »

ان ( ماكيا فيللي ) في بحثه السياسي يشبه العالم الطبيعي :

فهو يستند الى المشاهدة والى استقرار الحوادث ليجعل من ذلك اساساً للتفكير في الموضوع . يقول ( ماكيا فيللي ) :



« ان البشر يتصفون بنكران الجميل والتقلب والخداع . وهم يحرصون على اجتناب الاخطار ويطعمون في المكاسب . يقفون الى جانبك ماداموا يستفيدون منك . ويقدمون اليك دماءهم واموالهم وارواحهم واولادهم مادام الخطر بعيداً ولكن اذا لاح ادني خطر يتخلون عنك وينقلبون عليك . والامير الذي يثق باقوالهم فقط ولا يهيئ وسائل اخرى للدفاع لا بد ان ينتهي الى الهلاك . » ثم انه ينصح الامير باستخدام جميع الوسائل ، مهما كانت منافية للاخلاق ، مثل الكذب والغش والغدر ، في سبيل المحافظة على سيطرته .

لقد كان الكتاب في القرون الوسطى ايضاً يعرفون بان سلوك البشر ليس افضل مما وصفه ( ما كيا فيللي ) وربما ذكروا ذلك في مؤلفاتهم - الا أنهم كانوا يستهجنون الاعمال المخالفة للاخلاق ويكثرون من المواعظ في الدعوة لاجتنابها ، وقبل كل شيء ، كانوا يعتبرون مثل هذا السلوك أمراً غير طبيعي لا يليق بكائنات بشرية . اما ( ما كيا فيللي ) فقد نظر الى الموضوع نظرة واقعية وحاول دراسة الحياة السياسية بطريقة علمية - تحليلية كما يفعل علماء الطبيعة في موضوعات مجهم . ولا شك في انه لم ينجح في تطبيق الطرائق العلمية على السياسة ولم يتوصل الى نتائج يمكن مقارنتها بما تم في العلوم الطبيعية . فهو قد بالغ في نظره المتشائمة الى طبيعة الانسان كما انه لم يستطع التزام الحياد التام في تدوين مشاهداته واصدار احكامه . ولا تنس ان طرائق البحث العلمي لم يمكن تطبيقها على السياسة حتى يومنا هذا لان موضوع السياسة في منتهى التركيب والتعقيد ولانه متصل اتصالاً وثيقاً بمواطف البشر ومصالحهم فيصعب على الباحثين ان ينظروا اليه بما ينبغي من التجرد والحياد .

\* \* \*

اصبح البشر ، بعد المرحلة التاريخية التي تكون فيها المجتمع الحديث ،

اي بين القرن الخامس عشر والقرن الثامن عشر ، يشعرون بانهم يعيشون في عالم جديد يختلف كل الاختلاف عن عالم القرون الوسطى . وكانت تصوراتهم عن انفسهم ونظراتهم الى الكون وآراؤهم فيما يجب وما يمكن للانسان ان يعمله في هذه الدنيا - كلها لاتشبه تصورات ونظرات وآراء اجدادهم في المراحل السابقة من التاريخ .

نعم ، كان العالم الاوروبي في سنة ١٧٠٠ لا يزال مسيحياً كما كان في سنة ( ١٤٠٠ ) . ولكن ما اعظم التطور الذي طرأ على عقيدة المسيحيين في هذه الحقبة ، فبينما لم يكن هناك قبل القرن الخامس عشر سوى منظمة دينية واحدة في الغرب هي الكنيسة الكاثوليكية الرومانية اذ بنا نسلم في القرن الثامن عشر عن عدة مئات من الطوائف . ولم يقتصر الامر على هذا الانقسام بل اخذت اصوات كثيرة ترتفع للدفاع عن فكرة التسامح الديني قائلة بان العقائد الدينية المختلفة يجب احترامها على السواء كما ينبغي الفصل بين الدولة والكنيسة وترك الحرية للفرد في اتباع العقيدة التي يرغب فيها مع الاعتراف بان كل واحد من الاديان يتضمن شيئاً من الحقيقة .

هذا التسامح يدل على تبدل جوهري في مفهوم الحقيقة . فقد كانت الحقائق الدينية والميتافيزيكية في القرون الوسطى تستند الى الوحي وتعتبر لذلك كاملة ومطلقة . اما في العصور الحديثة فلم يعد المفكرون يعتقدون بان الحقيقة تنكشف للناس تامة ، كاملة وانما عليهم ان يسعوا الى التقرب منها تدريجياً ببذل الجهود الفكرية وبالاستناد الى المشاهدة والتجربة .

ان النزعة الاساسية للانسان الحديث هي التفكير العقلي . ولكن هذه النزعة قد اختلطت في العصور المتعاقبة بنزعات اخرى . وهكذا بدأ يظهر

في نفسية الانسان الحديث التعقيد الزائد الذي يجب ان يعتبر من اهم صفاته  
وابرز خصائصه .

هذا التعقيد وما نتج عنه من عجز في الوصول الى الانسجام بين العناصر  
المختلفة ومن غموض في الاهداف وتباين في الوسائل - تلك هي الاسباب التي  
حالت حتى اليوم دون استقرار الحضارة الاوروبية الحديثة . يفيد عدم الاستقرار  
استمرار التطور واجتناب التوقف والجود . ولكنه يسبب كذلك الفوضى  
والاضطراب . وفي الحقيقة فان الحضارة الاوروبية الحديثة بلغت درجة عالية من  
التطور لم تصل اليها اي حضارة اخرى قبلها . وهي مازالت تتطور ولم يعترها  
الجمود بعد خلافا لجميع الحضارات القديمة . الا انها من جهة اخرى لم تحقق  
للانسان الحديث شيئاً من الهدوء والهناء والسعادة . انها قد تقدمت بالعقل  
البشري اشواطاً بعيدة فارتقت بذلك العلوم والآداب والفنون وكثرت الاكتشافات  
والاختراعات وتوفرت الشروط اللازمة لتحسين الحياة وبلغ الانسان الحديث  
درجة مذهشة في معرفة الكون والسيطرة على الطبيعة ولكن رغم ذلك فانه  
مازال بعيداً عن الاطمئنان ولم يتوصل الى حل المشاكل التي أثارها .

\* \* \*

كان الانسان الاوروبي في القرون الوسطى يؤمن بان كل شيء حقيقي  
إلهي . فمعرفة ماهية الكون كانت بالنسبة اليه مسألة اعتقادية . لقد كان العالم  
في نظره حقيقة وجودية لانه كان يعتقد هكذا .

اما التفكير العقلي الذي اخذ يسيطر على الانسان الحديث فقد زرع  
أولا العقيدة لينتهي اخيراً الى انكار الوجود الحقيقي ايضاً .

يتمثل لنا النزاع بين العقل والعقيدة باجلى مظاهره عند (باسكال) الذي

كان من جهة انساناً حديثاً بكل معنى الكلمة ولكنه متجه من جهة ثانية الى القديم الى القرون الوسطى . لقد اجتمع فيه التفكير العقلي المنطقي في اقصى صورة والعقيدة الدينية الملتببة ، العميقة في اروع شكل . انه وصل الى العقيدة ولكن ليس عن طريق الايمان بالتعاليم الدينية مثلما كان الامر مع الانسان القديم والمتوسط بل عن طريق الشك كما يليق بالانسان الحديث .

ولعله من الافضل ان اتقل اليكم كلام ( باسكال ) نفسه عوضاً عن تلخيص آرائه ، لان هذا الكلام في درجة من الوضوح والجمال والروعة يندر مثلها في الآداب العالمية كافة . قال :

( ماهو الانسان في الطبيعة ؟ انه لاشيء بالقياس الى الالاهية ولكنه عالم في ذاته بالنسبة الى العدم . فهو شيء وسط بين الاشياء والكل . انه بعيد عن هذا وذاك بعداً غير متناه . طبيعته بعيدة عن العدم الذي برز منه الى الوجود كما انها بعيدة عن الالاهية التي قذف به فيها . تلك هي حالتنا الحقيقية . وهذا ما يحصر معرفتنا ضمن نطاق محدود لانستطيع تجاوزه ويجعلنا عاجزين عن ان نعرف كل شيء من جهة وان نجعل كل شيء من جهة ثانية . اننا في حيرة وتردد بين المعرفة والجهل نلتهب رغبة في ادراك كل شيء وتعليله ثم تشييد برج يرتفع الى الالاهية . ولكن لا يلبث بناؤنا كله ان ينهار وتبتله الارض في اعماقها . هنا عاجزنا عن البرهان الذي لاتستطيع اي تعاليم اعتقادية ان تزيله ولكن هناك ايضاً فكرة الحقيقة التي نحملها في انفسنا والتي لاتقدر كل الريبة على تهديمها . اننا نطمح الى الحقيقة ولكننا لانصل الا الى الشك ، نبحث عن السعادة فلا نجد غير الشقاء . على ان شقاءنا نتيجة لعظمتنا وعظمتنا نتيجة لشقائنا . ذلك لان الانسان يعرف بانه شقي وهو بهذه المعرفة عظيم .

فما هو اذن هذا الخلق : الانسان ؟ معجزة وفوضى وتناقض . حاكم على

كل شيء ودودة ارضية لاحول لها ولا قوة . كنز للحقيقة وحجرة مظلمة للشك .  
هالة في جبين الكون وعار يدعو الى الخزي . اريد ان احتقره اذا هو افتخر بنفسه  
واذا هو تواضع اريد ان امدحه واعظمه . وسوف اظل اعارضه حتى يدرك بانه  
لا يمكن ادراكه .

كتب ( فولتير ) في تعليقاته على هامش كتاب ( الافكار ) عند هذا  
المقطع الملاحظة التالية : « ثرة مريض حقاً ! » . وليس غريباً ان لايري  
( فولتير ) الذي يمثل عقلية القرن الثامن عشر ؛ في هذا الكلام غير الثرة  
ولكن من العجيب ان يتهم ( باسكال ) بالمرض رغم انه هو نفسه انما كان مديناً  
بعبقريته الى النقص الظاهر في تكوينه الفيزيولوجي من احدياب في عموده الفقري  
وضعف في بنيته وافراطشاذ في حساسيته .

يمتاز القرن السابع عشر بانتصار التفكير العلمي الذي بسط سيطرته على  
جميع مناحي الحياة فساد في العلوم الطبيعية وفي دراسة اللغات والتاريخ والسياسة  
والاقتصاد والفنون الحربية ، بل في الاخلاق والشعر والدين ايضاً . وقد اتخذ  
جميع المفكرين في ذلك العصر هذا الفكر العلمي مثلاً اعلى لهم واساساً  
لمعالجة مشاكل الحياة كلها ولم يشذ عن ذلك الا ( باسكال ) الذي يفوقهم جميعاً  
في عبقريته . فهو قد سعى الى البحث العلمي مثل غيره واستطاع ان يتوصل الى  
نتائج علمية لا يباريه فيها لا القلائل . ولكنه لم يقف عند هذا الحد ، بل شعر  
بضرورة اجتياز نطاق العلم وحاول بالفعل ان يرتفع فوقه . ويمكننا ان نلاحظ  
هنا ايضاً بان المشكلة التي مازال الانسان الحديث يعالجها ويحاول حلها ان يحدد  
نطاق معرفته ويقدر قيمتها ويتوصل الى الوعي الذاتي فيعرف نفسه ويعين موقفه  
من الكون ويتمين طريقه في الحياة . ولا شك في ان « باسكال » قد ادرك هذه  
المشكلة والمصاعب التي تتصل بها لذلك يحق لنا ان نعتبر « باسكال » من اعظم

المفكرين في العصور الحديثة وان نضعه في المقام الاول بين الفلاسفة  
الفرنسيين .

ولكن اذا كان (باسكال) اعظم الفلاسفة الفرنسيين حقاً فلا ريب في  
انه لم يكن اقواهم تأثيراً في تفكير الانسان الحديث . ان (ديكارت) يفوقه  
كثيراً من هذه الوجهة . ومن المؤكد ان (ديكارت) لم يكن اقل احاطة في  
عده وقوة في تفكيره من (باسكال) ، الا انه لا يبلغ درجته في العمق والوضوح  
والاشراق . .

ان (ديكارت) هو الذي اوجد عصر لويس الرابع عشر الذهبي . وكان  
الاصح ان نعت هذا العصر باسمه لابلسم ذلك الملك الذي لم يكن في الحقيقة سوى  
العوبة مزوقة للزينة .

وهنا يجدر بنا ان نتأمل في الحقيقة النالية وهي ان العوامل المؤثرة في  
مجري التاريخ والتطورات العميقة التي يستمر مفعولها طويل انما يعبر عنها افراد  
قلائل كان معاصروهم ينظرون اليهم كاشخاص تافهين يمكن الاستغناء عنهم ، بل  
كمفسدين يجب التخلص منهم . ولو كان امثال هؤلاء يعيشون بيننا لما نظرنا اليهم  
نحن ايضاً الا هكذا .

انا اذا بحثنا في الافكار والنظريات التي كان لها اعظم تأثير في تطور  
البشرية لرأينا بان اصحابها كانوا يعتبرون عند معاصريهم كاشخاص خياليين ،  
غربي الاطوار ، بعيدين عن المشاكل الاساسية التي تسترعي اهتمام الرأي العام .  
بخلاف ذلك الشخصيات البارزة في عصرها التي كانت تدوي اسمائها ويحيط بها  
كثير من العظمة والطنطنة والجمعمة - انها سرعان ما اندثر ذكرها  
واسدل عليها ستار النسيان ، ان لم تخلد كموضوع للنقمة والسخرية

والاحتقار .

قضى (ديكارت) حياة في هدوء وضمن التقاليد السائدة اي بصورة تتناقض في الظاهر مع الاثر العميق الذي تركه . وهو لم يكن يشعر باي رغبة في ان يشتهر في العالم ، بل انه كان يخاف هذه الشهرة ويتجنبها . وقد كتب الى احد المعجبين به يقول : ( يدعي المتوحشون بان القردة تستطيع النطق لو ارادت ولكنهم لا تفعل ذلك عن قصد لئلا يرغمها البشر على العمل . اما انا فلم اكن حكيما الى درجة امنع معها نفسي عن الكتابة ولذلك لم اعد اتمتع بالمقدار اللازم من الراحة والهدوء الذي كان يمكنني الحصول عليه لو استطعت التزام الصمت . )

توصل (ديكارت) الى كثير من الاكتشافات الهامة في العلوم الرياضية والطبيعية . وهو الذي اسس الهندسة التحليلية . ولهذا العلم الجديد اهمية فلسفية كبيرة ، لان المبدأ الذي يقوم عليه وهو تطبيق الجبر على الهندسة منناه جعل رابطة بين التفكير المحض والوجود الواقعي اي وضع القوانين المتعلقة بكيان الاشياء الواقعة قبل ان توجد هي نفسها او بتعبير آخر حصر الواقع في شبكة ثابتة من الخطوط تعين الاتجاه الذي سوف يتبعه والذي يستطيع العقل في كل وقت معرفته . ان في ذلك انتصاراً عظيماً للتفكير العقلي على المادة ، ولكنه انتصار ظاهري فقط ، كما يثبت انما ذلك تطور الانسان الحديث في العصور التالية .

وقد توصل (ديكارت) من المبدأ الاساسي الذي قامت عليه فلسفته وهو ( انا افكر ، اذن انا موجود ) ، والذي يشير الى ان جوهر النفس الانسانية هو التفكير ، الى هذين الاستنتاجين الغريبيين وهما اولاً : ان الانسان ، اذا اتبع

طريقة (ديكارت) التحليلية بما يجب من الحيلة والروية ولم يصدق الا ما عرفه  
بصورة واضحة وجلية ، فانه لا يمكن ان يخطي ابدأ ؛

وثانياً : ان الجسم الانساني ، مثل جميع الاجسام ذات الامتداد التي  
لاستطيع التفكير ابدأ ، ليس سوى آلة كما هو الامر مع الحيوانات التي لا تفكر  
فانها لا تختلف في شيء عن الآلات المعقدة .

هكذا نرى (ديكارت) يمثل لنا التفكير العقلي المتطرف الذي ظل  
مسيطرأ على الانسان الحديث . فالانسان ، كما تصوره (ديكارت) ، يقف وحده  
في العالم مجهزاً بقوة العقل الذي يفكر وينظم ويوضح ثم يبنى له الكون كله : الآلة  
والانسان والطبيعة والمجتمع والافلاك والذرات والدول والاهواء والفضائل ...  
ولكن ليس معنى ذلك انه لا وجود حقاً الا لهذا العقل (الديكارتى) ، الذي  
يفكر ويفكر ؟

قلنا ان عصر (لويس الرابع عشر) يجب ان يطلق عليه اسم (ديكارت)  
لان جميع مظاهر الحياة في ذلك العصر كانت «ديكارتية» ، مشبعة بفلسفة  
(ديكارت) : سواء الدولة والاقتصاد او الادب والفن المعماري ، او التقاليد  
الاجتماعية او اساليب الحرب او تنظيم الحداثق . . وقد ظلت روح (ديكارت)  
متقمصة في كل افرنسي حتى يومنا هذا . فلا بد من ان نعتبر فلسفته عنصراً اساسياً  
في تكوين الانسان الحديث .

بين (ديكارت) بان ابرز واهم وظيفة للعقل هي قدرته على التحليل .  
والتحليل . مناه الفصل والعزل . ولا تظهر لنا هذه الصفة العقلية عند الانسان  
الحديث في مباحثه في المادة فحسب ، بل كذلك في نظراته الى النفس وفي حياته  
الاجتماعية . وفي الحقيقة فانه بظهور الانسان الحديث بدأت تفكك الروابط



الطبيعية التي كانت تقوم عليها المجتمعات البشرية قديماً وانقلب المجتمع الى (كومة) من الافراد لا توحد بينهم صلات حقيقية . والنظريات الاجتماعية التي وضعها المفكرون في ذلك العصر ، وفي مقدمتهم (هوبس) و (لوك) ، ترجع تأسيس الدولة الى التعاقد الاختياري بين الافراد . وحتى نظرية (نيوتن) في الجاذبية ، وهي اعظم فكرة ظهرت اذ ذاك ، قائمة على هذا المبدأ . فان الاجرام السماوية التي لا يتصل بعضها ببعض ، تسير وحيدة في الفضاء . وكذلك فلسفة (لايبنتز) فانها تتصور العالم مؤلفاً من ذرات مستقلة كل واحدة منها عالم صغير لانفاذة له يمكن ان يدخل اليه شيء منها وهي مرآة للعالم الاكبر . وقد شبه (لايبنتز) العالم بساعة احكم صنع آلاتها وتتحرك بانتظام . وكذلك النفس الانسانية ليست سوى آلة مثل الساعة . هنا نرى النظرة الميكانيكية التي يتصف بها التفكير العقلي المحرد عند الانسان الحديث .

\* \* \*

لا حاجة في ان نتوقف طويلاً عند فلاسفة القرن الثامن عشر امثال : (هيوم) و (بركلي) و (مونتسكيو) و (فولتير) و (ديدرو) . فان هؤلاء جميعاً قد ساروا في الاتجاه العقلي المتطرف الذي سبقهم اليه (ديكارت) . وبذلك كانوا احسن ممثلين للانسان الحديث في تلك المرحلة من تطوره . الا انه لا بد من الاشارة الى الحركة المعارضة التي قام بها «روسو» ونادي فيها بالرجوع الى الطبيعة ودافع عن العاطفة . ورغم الضجة التي اثارها هذا الكاتب المتحمس ، الذي كان يريد ان يخالف ليعرف ، فانه لم يستطع ان يتغلب على النزعة العقلية ، الميكانيكية ، المادية المسيطرة على معاصريه . وقد فهم اهل عصره الرجوع الى الطبيعة بشكل غريب جداً . لقد ظنوا ان الانسان الطبيعي يجب ان يكون دوماً في حالة عاطفية ، انفعالية ، ملتهبة ، وان يظهر ذلك علناً امام الناس . فاذا اجتمعت

صديقتان يجب تتخيرا وذراع احدهما في ذراع الاخرى وان يقبلا بعضهما بعضاً بحرارة .

واذا قرأ كاتب شيئاً من آثاره فمن واجب المستمعين ان يقاطعوه بصيحات الاعجاب وبالعبرات وان تقع بعض المستمعات من حين الى آخر على الارض وقد اغمي عليها . ويروي بان الممثلة المشهورة « قليرون » عندما زارت « فولتير » ركعت على ركبتها لتظهر له اعجابها بمولفاته ، فاحترار « فولتير » في امره ولم يعرف ماذا يعمل سوى ان يركع ايضاً امامها ويظل ساكناً . ثم بعد برهة اضطر الى ان يضع حداً لهذا المنظر التمثيلي الرائع فسأل الممثلة : والان ، ايها الآتسة ، كيف حالك ؟ ،

كذلك لانستطيع ان نتوقف كثيراً عند « قانت » الذي لاشك في انه اعظم فيلسوف في العصور الحديثة . ويكفي ان نشير الى انه يمثل لنا مرحلة حاسمة من مراحل الوعي الذاتي الذي بدأ ينمو عند الانسان الحديث .

فقد انتقد ( قانت ) العقل المحض وكشف عن تقيده بالزمان والمكان والسببية وبين عجزه عن الوصول الى الحقيقة المطلقة ولكنه لم يستطع ، في النتيجة ان يخرج عن الاتجاه العقلي رغم انه قد زرع بذور الشك في قيمة المعرفة العقلية المجردة . ومنذ ذلك العهد مازال الانسان الحديث يتخبط في البحث عن طريقة لادراك حقيقة الكون ومعرفة نفسه .

\* \* \*

مع الثورة الفرنسية الكبرى بدأت مرحلة جديدة من مراحل تطور الانسان الحديث . ولا ترجع اهمية الثورة الى انها قضت على النظام القديم في

فرنسا ، لانها في النتيجة لم تؤد الا الى نقل السلطة من الملك و بطانته الى الطبقة  
البورجوازية الصاعدة كما فعلت قبلها بمدة قرن الثورة الانكليزية . لذلك لا حاجة  
الى البحث في اسباب فشلها في تحقيق اهدافها الصريحة من حرية ومساواة  
وعدالة واخوة .

ولكن لا يمكننا ان نشكر بانها قد قلبت الجو الفكري في اوروبا ، بل  
في العالم كله . فهي قد اثارت القوى الكامنة في الشعوب والتي بدأت تنكشف وتنمو  
وتسير الى ابعد مما كان يتصور المفكرون اذ ذلك . وقد شمرت الطبقات الحاكمة  
بانها لم تعد لتجابه في المستقبل افراداً مشاغبين مثل « فولتير » و « روسو » ، بل  
جماعير من البشر اخذت تدرك حقوقها ويزداد وعيها .

وقد استولى الخوف على هذه الطبقات في كل البلدان فاصبحت في حالة  
تشبه « الهستريا » وتنادي ملوك اوروبا الى عقد « الحلف المقدس » للدفاع عن  
الايوضاع الراهنة . وبذلك بدأ الدور المعروف في التاريخ باسم « العهد الرجعي »  
الذي كان انصاره يصفونه بانه عهد « ارجاع » اي اعادة الامور الى مجراها الطبيعي  
وارجاع الحقوق الى اصحابها الشرعيين وتوطيد النظام والمحافظة على الاخلاق بينما  
كانت الخصوص يعتبرونه رجوعاً الى الوراء وعودة الى عصور الظلمة والفساد  
والجهل .

على انه ليس في التاريخ رجوع حقيقي ، بل تراجع ظاهري . وفي الواقع  
فان العالم الغربي قد تراجع في ذلك العهد عدة خطوات الى الوراء وانما كما يفعل  
الشخص الذي يستعد للقفز الى الامام . فكان العهد الرجعي مقدمة لثورة  
عامة لم تقتصر على الناحية السياسية ، بل شملت كافة مناحي الحياة البشرية  
وكانت اعمق تأثيراً وابعد مدى واكثر استمراراً من الثورة الفرنسية الكبرى .

ومن المعروف ان العهد الرجعي يطلق عليه من الوجهة الادبية اسم العهد « الرومانتيكي » او « الإبداعي » . ويمكن ان تقارن هذا العهد ومكانه في تطور الانسان الحديث بازمة المراهقة في حياة الفرد فهو يشبه هذا الدور في اضطرابه وغموضه وطغيان الخيال والعاطفة عليه .

وكما يجتاز الفرد عهد المراهقة سريعاً كذلك كان الامر مع الانسان الحديث الذي انتقل بعد سنة ١٨٣٠ الى مرحلة جديدة من مراحل تطوره .

يقول ( هيغل ) بان التطور التاريخي خاضع لمبدأ التناقض . فان كل مرحلة تاريخية تؤدي اولاً الى عكسها اي الى مرحلة مناقضة لها ثم ينتهي الامر الى مرحلة ثالثة توحد بين النقيضين وتجمعها في مفهوم اكثر شمولاً واسمى درجة واقرب الى الحقيقة . وهذه المرحلة الجديدة تؤدي بدورها الى عكسها ثم يجمع هذان النقيضان ايضاً في مرحلة تركيبيية اكثر شمولاً من السابقة . وقد عرفت هذه النظرية باسم الطريقة الجدلية « الديالكتيكية » التي لعبت دوراً كبيراً في تفكير « كارل ماركس »

وقد تحققت نظرية « هيغل » هذه بالنسبة الى فلسفته هو نفسه التي تمثل لنا التفكير الرومانتيكي احسن تمثيل . فقد قام الجيل الجديد يهدم هذه الفلسفة ومبادئها الرجعية في الدولة والدين والفن والاخلاق بالاستناد الى هيغل نفسه وباستخدام السلاح الذي اخترعه .

كان شعار العهد الرومانتيكي الابتعاد عن الواقع والحاضر وعن السياسة .  
بمكس ذلك الدور الذي عقبه ، فانه قد نادى بالفكرة الواقعية . ونرى شعور الانسان الحديث وتفكيره في هذا العهد يتساور ان - حول المسائل السياسية والاقتصادية والحياة الواقعية - اليومية .

لقد تقمص الانسان الحديث منذ ذلك العهد في طبقة البورجوازية الكبيرة، طبقة التجار واصحاب الاموال وارباب الصناعة اى في اشخاص واقعيين، عمليين لا يهتمهم غير معرفة تقلبات الاسواق العالمية وتصريف منتوجاتهم وزيادة ارباحهم . ولتطمين هذه الحاجة تعاقت الاختراعات الحديثة وعم انتشارها من سكك حديدية وسفن بخارية واسلاك برقية الى الصحف السيارة .

يقول ( هيغل ) في كتابه « فلسفة الدين » : يمتاز عصرنا بانه اصبح يعرف كل شيء عن جميع الامور - عدا الآله فانه لا يعرف عنه شيئاً . كان الفكر الانساني قديماً يرى بان اسمى هدف له هو ان يعرف الآله ويدرك صفاته وحقيقته . اما في عهدنا فان البشر لا يشعرون بهذا الدافع .

وقد كان « هيغل » على حق في هذه الملاحظة . فان الانسان الحديث منذ عهد الثورة الصناعية لم يكن بحاجة الى البحث في الآله الذي تتكلم عنه الاديان السماوية لانه كان قد وجد لها جديداً هو : المال .



ان اهم مظهر لتفكير الانسان الحديث في عهد البورجوازية الكبيرة بمنتصف القرن التاسع عشر هو المذهب الوضعي الذي دعا اليه ( اوغوست كونت ) . والاساس الذي يقوم عليه المذهب الوضعي هو انه ليس هناك سوى العالم الذي ندركه بحواسنا اى الذي نستطيع ان نراه ونسمعه ونلمسه . فالواقع المحسوس هو الحقيقة ، بل الحقيقة الوحيدة .

هذه النظرة الى الكون هي وحدها التي تتلاءم مع نفسية الانسان الحديث البورجوازي الذي لا يستطيع ان يتصور بان هذا العالم الذي يعيش فيه ليس ثابتاً،

حقيقياً . اما النظرة المثالية التي تعتبر الواقع كافتراض وهمي فانها لا يمكن ان تلاقى قبولاً لدى مجتمع تقوم حياته على التجارة والصناعة .

على ان الاطمئنان الذي شعر به الانسان الحديث البورجوازي بالاستناد الى المذهب الوضعي لم يكن مرتكزا على اساس متين . فان هذا المذهب لم يبرهن على حقيقة الواقع الا في الظاهر . ان براهينه ليست اكثر من حبر على ورق كما ان استدلالاته الوهمية لا تختلف عن الاعيب البورص ومشاريع الاحتيال المالية .

وعلى الرغم من ذلك فان هذا المذهب قد نجح نجاحاً باهراً في تجهيز الانسان الحديث بالوسائل اللازمة للسيطرة على الكون واستثمار خيراته . ولا شك في ان الازدهار الاقتصادي الهائل منذ اوائل القرن التاسع عشر كان نتيجة للتفكير المادي والمباحث الوضعية في العلوم الطبيعية والرياضية وتطبيقاتها العملية - النفعية واستخدام الآلات لهذه الغاية .

بتأثير هذا التقدم المادي والازدهار الاقتصادي اندفع المفكرون الى دراسة الحياة الاقتصادية والبحث في علاقة الانظمة الاقتصادية بالوضع الاجتماعية وتأثير هذه في اساليب الحكم وقواعد السلوك وطرق التفكير .

لا تقصد بذلك ان الانسان الاوروبي الحديث لم يسبق له ان بحث في المسائل الاقتصادية والاجتماعية . وانما نريد الاشارة الى ان اهتمامه بهذه الموضوعات وطريقة بحثه فيها قد تبدلت في هذه المرحلة تبديلاً جوهرياً . فقد كان المفكرون منذ عهد الاحياء حتى منتصف القرن التاسع عشر يسعون قبل كل شيء الى معرفة حوادث الطبيعة وبعثون في الفلك والفيزياء والكيمياء ثم في النبات والحيوان وفي جسم الانسان . وطرائق البحث العلمي التي يمتاز بها التفكير الحديث لم

تكن تستخدم الا في هذه الموضوعات . وكانت مباحث الفلاسفة تدور حول نظام الكون والعقل الانساني . ورغم النزعة العامة الى معرفة الواقع التي يتصف بها التفكير الحديث فان الفلاسفة الذين تقدم ذكرهم جميعاً لم يبحثوا في عقل الانسان وفي كل حياته النفسية كما في الواقع بل بصورة مجردة . وكذلك كان الامر في المباحث الاقتصادية والاجتماعية .

اما في النصف الاخير من القرن التاسع عشر وفي القرن العشرين فقد بدأت الحالة تغير وأخذ العلماء الآن يبحثون في الانسان بطريقة علمية ويحاولون معرفة نفسه وعقله ككائن اجتماعي يعيش في بيئة معينة ويخضع لتأثير اوضاع اقتصادية محددة . .

والفضل الاكبر في توجيه الفكر الاوروي الحديث الى هذه الناحية يرجع الى ( كارل ماركس ) الذي بين بان الاوضاع الاجتماعية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بقوى الانتاج ووسائله . فالنظام الاقتصادي للمجتمع هو الاساس الحقيقي الذي يقوم عليه بناء المؤسسات الحقوقية والسياسية والتصورات الدينية والفلسفية وكلما تبدلت وسائل الانتاج وطريقته تغيرت ايضاً الاوضاع الاجتماعية والسياسية والفكرية . ولذلك فان كل اصلاح في شؤون البشر يتوقف على تنظيم الحياة الاقتصادية . .

\* \* \*

ولما كانت الحياة الاقتصادية مرتبطة في الوقت الحاضر باستخدام الآلات فانه لا يمكن البحث في الانسان الحديث دون التعرض الى علاقته بالآلة .

من ابرز صفات الانسان الحديث اختراعه لعدد متزايد من الآلات

واستخدامه لها على اوسع مقياس . وقد اصبحت الآلة تلعب اعظم دور في الحضارة الحديثة واندجت اندماجاً كلياً في حياة الانسان الحديث .

بدأ الانسان الحديث قبل مائة سنة تقريباً يستبدل العمل اليدوي بالآلة . واعتقد الجميع اذ ذاك بان الآلات ستنقذ البشر من عناء العمل وتؤمن لهم حاجاتهم على احسن وجه ومن اسهل طريق وتحقق لهم الهناء والسعادة . ولكن الانسان الحديث يعترف اليوم بانه كان مخطئاً في هذا الاعتقاد . فهو لم يتوصل الى الرفاه المادي ولم يبلغ السعادة .

وقد احتدم الجدل بين الكتاب الحديثين حول موضوع الآلة وفوائدها واضرارها للانسان . فنرى الكاتبة الاميركية ( ماري شيللي ) تؤلف رواية تصف فيها انساناً اصطناعياً اسمه ( فرانكنشتاين ) يقترف الفظائع وينتهي به الامر الى قتل الساحر الذي خلقه . ونجد الموضوع ذاته في رواية للكاتب التشيكوسلوواكي ( كاريل تشاييك ) الذي يصف كائنات ميكانيكية يسميها ( روبوت ) تكتسب القدرة على التفكير وتثور على البشر .

ويقصد امثال هؤلاء الكتاب بان الآلة التي اخترعها الانسان الحديث لتكون خادمة له قد اتقلت عليه واستعبده . والاضرار التي نشأت عن استخدام الآلات تتلخص ، حسب رأي هؤلاء النقاد ، فيما يلي :

١ - ان الآلات زادت الانتاج عن الحد اللازم وادت الى الاستغناء عن عدد كبير من العمال الذين اصبحوا عاطلين عن العمل . ٢ - ان الآلات ، رغم مساعدتها على انقاص ساعات العمل ، لم تؤمن للعمال والمستخدمين الوقت الكافي للراحة .

٣ - ان الآلات تقطر الانسان الى السرعة في العمل والسياحة ونقل



الاحبار وبذلك تحرمه من الهدوء وتتهك اعصابه وتمنعه من التأمل .

٤ - ان الآلات تقتل في الانسان الحس البدعي وتشوه عاطفته  
بتكوينها المادي ومنظرها البشع ، الغليظ .

على ان هناك كثيرين من الكتاب يعارضون هذه الانتقادات ولا يقرون  
بان الآلات تؤدي بطبيعتها الى هذه الاضرار .

اما زيادة الانتاج والمطالة عن العمل فلا يرجع السبب فيها الى استخدام  
الآلات بل الى فساد النظام الاقتصادي السائد الذي لا يهتم بانتاج الحاجات  
الضرورية بل يسعى الى كثرة الانتاج كغاية في ذاتها وكمجرد وسيلة للربح .  
فاذا تبدل النظام الاقتصادي والاجتماعي وزالت فكرة الاستثمار وصارت الصناعة  
خاضعة لرقابة المجتمع يمكن ان تصبح الآلات وسيلة لتأمين حاجات المجموع وايجاد  
عمل لكافة الافراد . لذلك نرى الاشتراكيين يدافعون عن الصناعة الآلية الحديثة  
ويؤكدون بانها الوسيلة الوحيدة لتحقيق رفاه البشر وسعادتهم .

فالمهم ، إذن ، هو ان نعرف كيف نستفيد من الآلات . حينئذ يمكن  
ايضاً ازالة الاضرار الاخرى الناشئة عنها بكل سهولة . ويجب ان لانسى بان  
الانسان الحديث يستطيع ان يتعلم الشيء الكثير من استخدام الآلات ويكتسب  
بذلك صفات ممتازة . فهي تعلمنا الدقة والمهارة في الحركة . قال الكاتب الالماني  
( اميل لودويغ ) مرة مخاطباً احد رجال السياسة بان كل وزير يجب ان يفرض  
عليه تقديم شهادة في سوق السيارات . وهو يعلل لنا طلبه هذا كما يلي : ليست  
الصفات التي يتوقف عليها نجاح الوزراء في ادارة الشؤون العامة هي نفسها التي  
تطلب من سائق السيارة ؟ واعني بذلك الهدوء والحزم والابتعاد بمهارة عن جميع  
العقبات والملاحظة المسبقة لما يمكن ان يعترض طريقه والسرعة في تبديل الاتجاه

والقدرة على تقدير ما ينتظر ان يفعله الثيران الحقيقيون والمجازيون في الطرق بين القرى وانذار من يصادفه بالزمر لابلدعس . ولو كانت الحكومة عبارة عن سيارة ووزير الخارجية سائقها لاصبح اجتناب الحروب بين الدول سهلاً جداً . فانه اذا علم القادة السائقون بانهم سوف يتحطمون قبل غيرهم عند حدوث اي اصطدام ، اذن ، لرأيانهم يتصفون حالاً بالمقدار اللازم من الذكاء والمهارة لتحصي الاصطدام .

ثم اذا كانت الصناعة الحديثة تخترع كل يوم آلات جديدة للتدمير والقتل فانها تقدم الينا ايضاً وسائل الدفاع اللازمة .

وهكذا نرى بان الانسان الحديث يستطيع ، اذا هو اراد ، ان يتخلص من العبودية للآلة ، وان يستخدمها لزيادة رفاهه وخيره .

وكذلك الامر مع مباحثه العلمية وتفكيره العقلي ومشاهداته عن الكون . فاما جميعاً ليس من الضروري ان تكون سبباً في اضطرابه وشقائه . وانما ينبغي ان يهتم بمعرفة نفسه بقدر ما اعتنى بمعرفة الطبيعة ، ان لم تقل اكثر من ذلك . ثم يجب ان يتحرر من القيود الاجتماعية المتوارثة التي تساعد على استثمار البشر بعضهم بعضاً وتفرض على الاكثرية منهم ان يعيشوا ضمن شروط يستحيل معها ان يفكروا تفكيراً صحيحاً ويشعروا بعواطف انسانية سامية .

\* \* \*

سيداتي ، سادتي !

لقد حاولت ان اعرض عليكم كيف نشأ الانسان الحديث وكيف تطور وما هي ابرز العناصر التي تتكون منها شخصيته وتفكيره . وانا اعترف بان

الصورة التي رسمتها ناقصة ومشوهة . ولا اريد ان ابرر تقصيري بضيق الوقت ، بل اعترف بعجزني عن الاحاطة بالموضوع .

اني لم اقدم على القاء هذه الكلمة الا لاعتقادي بانه لا بد لنا من السير في الطريق التي سلكها الانسان الحديث في الغرب وانه من واجبنا دراسة هذا الانسان ومعرفة صفاته .

ولعل اهم فائدة نجنبها من هذه الدراسة هي ان الحضارة الحديثة تقوم في الدرجة الاولى على العلم وان البحث العلمي كفاح لا ينتهي يخوضه الانسان تجاه الطبيعة ويتوصل بفضلها الى السيطرة عليها . فالعلم الحديث المستند الى المشاهدة والتجربة والتأمل العقلي هو اساس الازدهار الاقتصادي والقوة العسكرية والاصلاح الاجتماعي .

ليست مشاكل العالم ناشئة عن طبيعة الشر في الانسان او عن انانيته . والفساد الذي يشكو منه البشر انما يرجع الى الاوضاع الاجتماعية التي يعيشون فيها والتي كانت قد قامت في عصور سابقة ولكنها لم تعد تتلاءم مع التفكير العلمي الحديث وطرائق الانتاج العصرية . ولا سبيل الى اصلاح هذه الاوضاع الا بتحرير عقول الناس من العقائد الغيبية والاهام المتألية ايمستطيعوا معرفة الواقع ويقدموا على تغييره .

للدكتور كامل عياد



## الوراثة والتربية

الدكتور فاخر عاقل

= القيت بتاريخ ٣/٢/١٩٥٥ =

قسمه بهایه قضاة

قسمه بهایه قضاة

قسمه بهایه قضاة

قسمه بهایه قضاة

## الوراثة والتربية

سادتي

مشكلة الوراثة والتربية ، او قل اذا شئت مشكلة تعيين الدور الذي تلعبه كل منها في تكوين الانسان مشكلة قديمة جداً اهتم بها الانسان منذ ان وعي ذاته وقدر الاهمية البالغة للعملية التربوية . واقد كان القدامى يسمونها مشكلة الطبع والتطبع ويميل معظمهم الى المبالغة في قيمة الطبع والتقليل من قيمة التطبع وفي تراثنا العربي ، العلمي منه والشعبي ، قصص وامثال تتصل بالمشكلة وتعالجها وتحكم فيها . ألم يأت في المثل قول الناس : « طبع الروي غالب ، وذنوب الكلب اعوج ولو وضعته في مائة قالب . » ألم يقل قائلنا :

« جنيت سكرأ من حنظل كل شي بالمذاق يعود لاصله » ألم ترو قصة عن ملك ووزير تحدثا في المشكلة فذهب الملك الى ان الطبع اغلب وذهب الوزير الى ان التطبع هو الاغلب مدلاً على ذلك بفيران علمها ان تقف بالشموع على

مأذته ولما دعا الوزير الملك لمشاهدة الامر بنفسه اطلق اتباعه هراً فالقت الفيران الشموع وكادت تحرق القصر فثبت بذلك ان الطبع اصل واصيل وان التطبع طارىء موقت . والعجيب في الامر ، امر هذه القصة ، ان الحيوانات التي استخدمت في القصة هي الحيوانات نفسها الحبيبة اليوم الى قلوب المجريين في علم النفس وعلم الفيزيولوجيا ( علم وظائف الاعضاء ) واعني بها الفيران وكأني بالانسان قد اكتشف منذ قديم الزمان قيمة هذه المخلوقات في التجريب البسيكولوجي والفيزيولوجي .

والمشكلة اليوم هامة جداً لان موقف المرابي منها يعين فلسفته التربوية وبالتالي طرائقه وخططه التربوية ، فاذا آمن المرابي بان الوراثة امر لاسبيل الى تغييره والتحكم فيه وان المترابي يولد بصفات وراثية خالدة اخذها عن والديه وبورثها لابنائها وان عمل المرابي لا يتعدى اكتشاف صفات المترابي الوراثة وقدراته الكامنة وتوجيهها واستغلالها ، تقول اذا آمن المرابي بذلك كان موقفه مختلفا كل الاختلاف عنه حين يؤمن بان الصفات الوراثة على ثباتها وانتقالها من جيل الى آخر وفق قوانين محتومة معروفة فان في الامكان ، بتوجيه المحيط وتغيير ظروفه ، ان تغير الوراثة ، وتدفعها في الاتجاهات التي نريد ، ان لم يكن عند مخلوق بعينه وخلال وقت قصير فعند النوع على الاقل وخلال زمن اطول . هذا وسنعود الى تفصيل الامر في آخر حديثنا تفصيلاً يوضح اثر موقف المرابي من هذه المشكلة في عمله التربوي .



والمواقع ان في المشكلة نظريتين احدهما النظرية المندالية المورغانية وثانيها النظرية المبتشورية . وسنستعرض النظريتين تباعاً خالصين منها الى الموقف



التربوي الذي تلميه كل منها والى تعيين وجوه الحق والضلال في كل واحدة منها .

### النظرية المندلية المورغانية

هذه النظرية منسوبة الى ( مندل Mendel ) النمساوي (مورغان Morgan) الاميركي . ولمندل قانون مشهور باسمه في الاوساط العالمية سنعرض له بشيء من الاختصار .

( غريغور مندل ) قس نمساوي عاش فيما بين عام ١٨٢٢ و ١٨٨٤ و اجرى معظم تجاربه على نباتات في حديقة الدير الذي كان يعيش فيه وذلك في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . على ان قانون مندل لم يسترع الكثير من الانتباه في حينه ولم يهتم به العلماء الا في مطلع القرن الحاضر وذلك بعد ان فحص ومحص وثبتت فائدته ولا سيما فيما يخص توالد النباتات والحيوانات توالداً انتقائياً . لقد وجد ( مندل ) حين زواج بين انواع مختلفة من البازلاء ذات الازهار الملونة ، مختلفة في الطول مثلاً ، ان الجيل الثاني الذي يعقب التزاوج تظهر فيه انواع ثلاثة مختلفة ويكون ظهورها وفق نسب معينة محددة : النوع الاول من الطويل المحض ، والنوع الثاني من القصير المحض . والنوع الثالث خلاسي اي انه طويل ولكنه قادر على توريث القصر . ولقد وجد ان هذه الانواع الثلاثة تظهر بالنسب التالية : [ ١ - ٢ - ١ ] ولقد وجد ان هذه النسب صحيحة بالنسبة لعدد عديد من الصفات وذلك في المخلوقات الدنيا والعليا جميعاً . هذا وحين يوصف هذا الشكل من الوراثة تسمى الصفة الظاهرة في الخلاسي بالصفة المسيطرة ، وفي حين تسمى الصفة الاخرى بالصفة المتراجعة . على ان سيطرة صفة على صفة ليست قاعدة جامعة مانعة . ويمبر عادة عن النسب السابقة بالمعادلة ( ب + ٢ + ٢ + > + > ) مع اعتبار ان ( ب ) و ( > ) تمثل كل منها صفة من الصفتين . والصفات



هذه لحظة سريعة عن قانون مندل ننتقل بعدها الى التحدث عن آلية الوراثة كما تتصورها نظرية مورغان الاميركي تقول المورغانية ان وجود الفرد البشري يبدأ باتحاد الحيوان المنوي عند الذكر مع بيضية الانثى فتنشأ البيضة الملقحة التي تنقسم ويتتابع انقسامها وبذلك ينمو الجنين ويتكامل . وينفصل بعض الناتج عن اتحاد البرى الملوونة الذكرية بالعرى الملوونة الانثوية ويكمن في الجنين ( على شكل وراثه ) فيحمل الطفل خلايا ابويه بشكل يجعل تيار هذه الخلايا متصلاً متتابعاً من الآباء الى الابناء حتى لقد قيل ان الابن والاب اخوان من امين مختلفتين .

ومن المعلوم ان المنطقة الداكنة الموجودة في وسط الخلية هي مايسمى بنواة الخلية ، وهي في رأي المورغانية اهم اقسام الخلية لان فيها مركبات تحمل العوامل الوراثية وقد سميت بالعرى الملوونة Chromosomes لانها تظهر عندما تصبغ الخلية . ويختلف عدد العري الملوونة واشكالها الفردية اختلافا واضحا وذلك باختلاف الانواع . وفي كل بيضة غير ملقحة اربع وعشرون عروية يختلف بعضها عن بعض من حيث الحجم والشكل والتكوين الداخلي . وعلى الرغم من ان مجموعات العري الملوونة تبدو واحدة او متشابهة في البيضات غير الملقحة فانها تختلف من حيث التفاصيل الكيميائية وغيرها . وتبدو هذه الفروق حين يكون مصدر البيضة اشخاصاً مختلفين اوضح منها حين يكون مصدرها شخص واحد . كما ان هذه الفروق اوضح في الاشخاص الذين لا تربطهم صلة قرابة منها بين الاقرباء .

واختلافات العري الملوونة الموجودة في البيضة هي الاساس الفيزيائي للاختلافات الوراثية القائمة بين الاشخاص .

و حين تلقح البيضة البشرية بنضاف اليها اربع وعشرون عروة ملوونة يأتي

بها الحيوان المنوي ، وهذه المجموعة من العرى تبدو متشابهة في كل حيوان منوي ، ولكنها في الحقيقة ، وشأنها في ذلك شأن عرى البيضة ، تختلف من حيوان الى آخر ويزداد اختلافها وازدياد وتباعد مصدر الحيوانين . وفي هذا مصدر فيزيائي جديد للفروق الوراثية .

ثم ان العرى الملونة الثانية والاربعين ( ٢٤ من البيضة و ٢٤ من الحيوان المنوي ) تمتاز في نواة واحدة . فاذا كان الناتج اثنى انتظمت العرى الواردة من الام والاب في اربع وعشرين زوجا ، اما اذا كان الناتج ذكراً فان العرى الملونة تنظم في ثلاث وعشرين زوجا والعروتان الباقيتان لا تتزاوجان ، وواحدة منها تدعى ( س X ) والاخرى ( ع y ) .

ولكل عروة ملونة مكونات داخلية موزعة على كامل طولها تسمى ( بالصبغيات Genes ) وتكون الصبغيات في الاحوال السوية غير مرئية تحت المجهر وتنظم في خطوط تشبه الخطوط الناتجة عن تحليل الضوء الى طيفه . وكثيراً ما توصف الصبغيات بانها رزم من المواد الكيميائية تؤثر في نمو ما يحيط بها من المواد دون ان تتغير هي . ويكون تأثيرها الكيميائي - اكثر ما يكون - مباشرة على المواد شبه الهلامية التي تحيط بالنواة . وتأثيرها هذا يتغير شكل الخلايا وصفاتها الاخرى . وتأثير هذه الصبغيات ( مضافاً اليه بعض الشروط المحيطة ) هو السبب في ان تصير بعض الخلايا عصبية وبعضها اليافا عضلية وبعضها مركبات عظمية وغير ذلك .

وحينما تشارف البيضة الملقحة على الانقسام تتضاعف عراها الملونة ( وصبغياتها ) وينقل الى كل خلية جديدة مجموعة كاملة من العرى والصبغيات . ولما كانت الخلايا الناتجة عن هذا الانقسام تملك عرى وصبغيات متماثلة فان وراثتها تكون متماثلة ايضاً . وفي بعض الاحيان لاتبقى هذه الخلايا اقساما في

عضوية واحدة بل تنفصل وتشكل عضويتين فيكون الناتج ، اذا استمرت على النمو نمواً سوياً ، توأمين متماثلين . وفي بعض الاحيان لاتنفصل الا جزئياً فيكون الناتج ، توأمين سياهيين اما اذا كان الانقسام الى اربعة اقسام مثلاً فالناتج توأم اربعة .

وفي كل انقسامات الخلايا التالية حتى وقت البلوغ تتضاعف العري على النمو الذي وصفنا فيكون لكل خلية الوراثة نفسها ، اما في وقت البلوغ فتخضع الخلايا الخاصة بلاخصاب لعملية انقسام مختلفة ، فوضاً عن انقسام العري وتضاعفها قبل الانقسام يذهب فرد من كل زوج الى كل خلية جديدة ، وهكذا يكون في كل خلية نصف العري اي ٢٤ بدلا من ٤٨ ، فالبيضة تحصل على نصف عري الام والحيوان المنوي على نصف عري الاب ، وتلقى البيضات المختلفة او الحيوانات المختلفة التي ينتجها الشخص نفسه من درجات مختلفة من العري . ان الاربع والعشرين عروة من اصل الثانية والاربعين التي تذهب الى بيضة او حيوان امر تعينه الصدفة ، ثم يأتي الاقحاح فيكمل عدد العري ثم ان الحيوان المنوي الذي سيلقح البيضة ، او قل اذا شئت ان الاربع والعشرين عروة الموجودة في الحيوان المنوي والتي ستلتقي بالاربع والعشرين عروة الاخرى الموجودة في البيضة والتي ستكون جميعها المخلوق الجديد ، متروك امره للصدفة مرة اخرى .

وهكذا تكون قوانين الوراثة قوانين محكمة اولاً بالصدفة في تجمع العري في كل بيضة او حيوان منوي وثانياً بالصدفة في اجتماع حيوان منوي خاص ببيضة خاصة . ومعنى هذا انه اذا اتحدت صبغيات الطول عند الاب بصبغيات الطول عند الام ورث الجنين صفة الطول ، واذا اتحدت صبغيات الذكاء عند الاب بمثيلاتها عند الام كان الوليد ذكياً . والامر نفسه صحيح بالنسبة لكل

الصفات . ولنضرب على ذلك مثلاً ابا واما يحملان صبغيات لرتين ضعيفتين فاذا تزوجت هذه الصبغيات كان للوليد رتتان ضعيفتان وكان عنده استعداد للسل ، واذا ساعد محيط الطفل على اتصال السل اليه فان من المحتمل ان يصاب الطفل بالسل . وهذا يعني ان السل لا يورث وانما الموروث ضعف الرتتين ولذلك يصح ان يقال بان بعض الناس مستعدون وراثياً لالتقاط هذا المرض في حين ان البعض الآخر ولد قوياً لدرجة يستطيع معها مقاومة هذا المرض .

ولا شك في ان هذا الوصف الملخص تفسير مبسط ، بل قد يكون مبسطاً اكثر من اللازم ، لوراثة الصفات والقدرات كما يحددها اتحاد الصبغيات في الحيوان المنوي والبيضة . وما على الراغب في الاستزادة من هذا الموضوع الا الرجوع الى كتب الاختصاص .

ولعل من واجبتنا هنا ان نشير الى ان آلية الوراثة البشرية ليست معروفة بحسب النظرية المورغانية - على الوجه الدقيق الواضح ، فنحن مثلاً عاجزون عن تحديد كيفية وراثة صفات معينة ولذلك فقد اكتفينا بذكر المبدأ العام .

ولا نفس ان نشير الى ان الافراد يحملون صبغيات متخالفة لصفات عدة ، وهكذا يمكن ان يحمل الانسان الذكي صبغيات للذكاء تتراوح بين منتهى الغباوة وذروة الذكاء ، فاذا اتحدت صبغيات الذكاء عند الابوين كان الوليد ذكياً ، واذا اتحدت صبغيات الغباوة كان الوليد غيباً . وهذا صحيح ويمكن - بحسب هذه النظرية - بالنسبة لكل الدرجات المتروحة بين الحدين ، حد الغباوة وحد الذكاء . وهنا لا بد من ان نذكر بان بعض الراشدين يحملون اكثر ما يحملون صبغيات ذكاء ، في حين يحمل البعض الآخر اكثر ما يحملون صبغيات غباوة ولكن غالبية الناس تحمل صبغيات تمنح مواليد متوسطة الذكاء او قريبة من التوسط فيه .

وانه لمشكوك فيه ان يحمل فرد واحد صبغيات متوافقة لصفة واحدة بله ان يحمل زوجان مثل ذلك ، ان للعرى الملوثة التي يحملها اي فرد ماضياً متنوعاً لدرجة يجعل التوافق التام بين الزوجين عسيراً جداً . وبعد هذا الاحتياط الهام تقول انه اذا توافقت صبغيات الزوجين للذكاء ورث اولادهم الذكاء الوقاد وذلك بسبب غياب صبغيات الغباوة عند الاثنين ، اما اذ توافق الزوجان في صبغيات الغباوة فان اولادهم يكونون اغبياء .

ولنتقل الآن للتحدث عن بعض مبادئ الوراثة :

المبدأ العام في الوراثة هو ان الانسان ميال لولادة امثاله . ومعنى هذا ان الوالدين الذكيين يلدان اطفالاً اذكياً وان الوالدين متوسطي الذكاء يلدان اطفالاً متوسطي الذكاء وان الوالدين قليلي الذكاء يلدان اطفالاً قليلي الذكاء . ومثل هذا صحيح عن القد فالاطفال ميالون لان يكون لهم قد والديههم . وهكذا نستطيع القول بان الاطفال ميالون بصورة عامة لان يكونوا مثل والديههم .

ولكن لهذه القاعدة شواذ يضبطها القانون الثاني من قوانين الوراثة وهو مبدأ الاختلاف ويقول : ليس الاولاد صوراً طبق الاصل عن والديههم ، وهم لا ينمون ليكونوا ما كان آباؤهم في مثل سنهم . والسبب في ذلك راجع الى صفات العرى الملوثة للوالدين وذلك لان هذه العرى تحتوي على عدد من الصبغيات التي تتحد بصور مختلفة فتنتج مواليد يختلف بعضهم عن بعض .

ولنفترض على سبيل المثال ان والدين لها عدد كبير من الاطفال ، فالصفات المتوسطة للاولاد تحددها صفات العرى الملوثة للوالدين وهكذا فالمتوسط عند بعض الأزواج يكون عالياً ، بالنسبة اصفه ما ، وسيكون هذا المتوسط وسطاً بالمعنى الدقيق عند بعض الأزواج الآخرين كما سيكون منحطاً عند البعض الثالث .

ومعظم الاطفال سيكونون قريبين من متوسط والديهم والكثمن سيقربون منه او يبتعدون عنه وفقاً لمنحنى الصدفة .

وبخلاصة القول اننا اذا لاحظنا صفة ما في عدد كبير من الافراد المتجانسين غير المنتخبين وجدنا ان هؤلاء الافراد يتوزعون ، بالنسبة لتلك الصفة وفق منحنى الصدفة او منحنى الاحتمال كما يسمى احياناً . وفيما يلي مثال يوضح المقصود بمنحنى الصدفة : لنأخذ عشر قطع من القطع المعدنية ( الفرنك مثلاً ) ولترمها ١٠٢٤ مرة ، ولنحص عدد العقبان التي تظهر كل مرة ( وذلك في لعبة طرة ام تقش او قل عقاب ام جمهورية ) ، اننا اذا فعلنا ذلك حصلنا على ما يشبه الجدول المنشور في آخر هذه الفقرة . ويرى من هذا الجدول ان خمسة عقبان تظهر عدداً من المرات يفوق غيرها ، ويليهما ( ٤ - ٦ ) ثم ( ٧ - ٣ ) ثم ( ٨ - ٢ ) ثم ( ٩ - ١ ) ثم ( ١٠ - ٠ ) اي ان الكثرة الغالبة تكون في الوسط ، ثم تقل الاعداد بتقدمنا نحو النهايتين . والخط البياني الذي يرسم لهذا التوزيع هو ما يسمى بمنحنى الصدفة .

عدد العقبان	مرات ظهورها
٠	١
١	١٠
٢	٤٥
٣	١٢٠
٤	٢١٠
٥	٢٥٢
٦	٢١٠
٧	١٢٠



٤٥

٨

١٠

٩

١

١٠

---

 ١٠٢٤

وعلى هذا يكون توزع الناس في صفاتهم المختلفة كالتطول والقصر والذكاء والقوة ضمن جماعة ما وفق منحى الصدفة ، اي ان المتوسطين في الطول اكثر عدداً من المفرطين في الطول او القصر وقل الشيء نفسه عن المتوسطين في الذكاء والغباوة وغير ذلك .

ومبدأ الاختلاف يفسر اختلاف اولاد العائلة الواحدة من حيث الذكاء والطول وانطبع وذلك لانهم نتاج اتحادات مختلفة للصبغيات الموجودة في عرى الوالدين ولكنهم رغم اختلافهم اكثر تشابها فيما بينهم من شبههم لاولاد العائلات الاخرى . ان الاخوة يتشابهون - رغم اختلافهم - من حيث القرب من متوسط عائلتهم او البعد عنه .

واما المبدأ الثالث من مبادئ الوراثة فهو مبدأ التراجع ويقول ان ابناء الوالدين اللامعين نزاعون لان يكونوا اقل لمعاناً من والديهم ، كما ان اولاد البلداء جداً ميالون لان يكونوا اقل بلادة من والديهم ، فالاولاد اذن ينزعون دوماً وفيما يتعلق بآية صفة الى التراجع نحو الوسط . وهذا لا يعني طبعاً ان كل الاولاد يتراجعون ، ولكنه يعني انهم بصورة عامة ينزعون الى التقرب من الوسط اكثر مما ينزعون الى العلو او الهبوط عنه . ان من الملاحظ كون اولاد الاب الملامع جداً او الام المفرطة الذكاء اقل ذكاء من والديهم ، كما ان من الملاحظ ان ابناء العلماء العظام لا يكونون بعظمة والديهم وان ابناء الرياضيين المشاهير ليسوا

افذاذا كوالديهم .

واسباب التراجع عديدة ، واول هذه الاسباب كون الوالد - فيما يخص  
الصفة المعينة - نتاج تزاوج محظوظ جداً للصبيات التي يحملها والداه ولذلك فان  
الصبيات التي يحملها هو ليست - عادة - من الجودة بالمقدار الذي كانت عليه  
الصبيات التي انتجته . ثم انه لا ينتظر في الاحوال العادية ان يتزوج الوالد امرأة  
متميزة تميزه هو ولذلك فهي لا تحمل من الصبيات الجيدة ما يحمل هو وما تزاوج  
حين تكون هو . ومن هنا كان اطفاله - رغم نزوعهم الى الكينونة فوق المتوسط -  
اقل عظمة منه وهذا هو مبدأ التراجع .

وما قلناه عن الذكاء صحيح عن الغباوة ، فالصبيات التي يحملها اب غبي  
او ام غبية خير من الصبيات التي كونتها ولذلك فان اولادها يكونون خيراً منها  
اي ان الاولاد يميلون في المعتاد لان يكونوا اقل غباوة من والديهم وان كانوا  
دون غيرهم من الناس من حيث الذكاء .

ان هذه المباديء الثلاثة - ميل الانسان الى ولادة امثاله ومبدأ الاختلاف  
ومبدأ التراجع - مفيدة في افهامنا صفات البشر ومميزاتهم واسبابها واتجاهاتها .  
هذا ولا بد من الملاحظة بان وراثه الطفل لا يحددها الآباء المباشرون فقط وذلك  
لان الطفل يرث جدوده ايضاً ، انه يرث اسلافه ولكنه بالطبع يرث اكثر ما يرث  
من آباءه المباشرين ، وكلما ابتعد الجد تناقص تأثيره وذلك وفق ما رأينا في  
قانون مندل . . . وهذا بعض السبب في ان والدين الذكيين يكون لهما اولاد  
اقل ذكاء منها وان والدين الغميين يكون لهما اطفال اكثر ذكاء منها ، انه تأثير  
الجدود الابعد .

هذه خلاصة عن النظرية المورغانية ، وقد عنيت هذه النظرية بدراسة مشكلة الوراثة والتربية والتأثير النسبي لكل منها ، ولجأت في هذه الدراسة الى ماسمته بطريقة دراسة الصلات العائلية .

من الملحوظ ان بعض العائلات يكون معظم افرادها فوق الوسط من حيث الذكاء وان في هذه العائلة او تلك رجالاً ونساءً متميزين بصورة عامة او متميزين بصفة خاصة وحينئذ يحق لنا ان نستنتج ان القدرات تورث . ومثل هذا صحيح عن الغباء اذ يلاحظ ان ثمة عائلات معظم افرادها دون الوسط وان بعضاً منهم ضعاف العقول او غير اخلاقيين وحينئذ يحق لنا ان نستخلص ان العيوب تورث ايضاً . ولا بأس من ايراد امثلة توضح هذا النوع من الدراسات وتعرف على الطرائق المستعملة والنتائج المستخلصة .

لقد درس العلماء العلاقة بين التفوق وصلات القرابي ، ولعل اشهر الدراسات في هذا الصدد هي دراسات ( السير فرنسيس كولتون Sir Francis Galton ) العالم الانكليزي الذي عاش في القرن التاسع عشر والذي درس التفوق بين اقرباء اشخاص متفوقين . اختار كولتون ( ٩٧٧ ) رجلاً مشهوراً اعتبر كل منهم اشهر من وجد بين ( ٤٠٠٠ ) شخص ، وبالرغم من ان معظمهم لا يتمتعون بقيمة تاريخية فان المجموعة كانت تمثل نجمة عالية من القدرات ، ولقد وجد كولتون لهؤلاء التسعمائة والسبعة والسبعين رجلاً ( ٥٣٥ ) قريباً ( آباء ، اولاد ، اخوة ، جدود ، اعمام ، احفاد ، ابناء اخوة ) كانوا متميزين مثلهم . ومن اجل المقارنة اخذ ( ٩٧٧ ) رجلاً آخر اختارهم بطريق الصدفة وبدون مراعاة تميزهم فوجد ان لهم اربعة اقرباء متفوقين فقط . ومعنى هذا انه اذا كان الاختيار ممثلاً تمثيلاً حسناً فان نسبة التفوق بين اقرباء المتفوقين اليها بين اقرباء غير المتفوقين كنسبة ٥٣٥

وثمة دراسة اخرى تبرهن على ان القدرات تورث وهي دراسة ( عائلة ادواردس Edwards Family ) فقد تزوج ريتشارد ادواردس جد ( جوناثان ادواردس ) الفيلسوف الاميركي المعروف ورئيس جامعة برنستون في زمانه ، نقول تزوج ريتشارد ادواردس عام ١٦٦٧ ( اليزابيث تتل Elizabeth Tnttle ) وهي امرأة جميلة وذكية ثم طلقها لسوكتها الشائن بعد ان اولدها صبياً واربع بنات ثم تزوج امرأة اخرى اسمها ( ماري تالكوت Marn Talcott ) وهي امرأة عادية غير متفوقة ، وان كانت زوجة سالحة وفيه فولدت له خمسة صبيان وابنة واحدة ، وهكذا اصبح لدينا سلسلتان هما سلسلة ( تتل ) وسلسلة ( تالكوت ) وفي كليهما عامل الذكر ثابت على اعتبار ان الاب واحد . ويبدو ان الصبغيات التي كانت تحملها ( تتل ) كانت جيدة فقد تغدق عدد كبير من نسلها ، واعد اغرب مافي الامر ان هذا النسل ضم عدداً من رجال الاكليروس ورؤساء الجامعات واساتذتها كما ضم مؤلفين وقضاة ونواب ومحامين وضباط ومشاهير عدة . والظاهر ان اختلاط صبغياتها بصبغيات ادواردس انتج مزيجاً خلق رجالاً ونساء ذوي صفات عالية عن المحيط والتربية بدفعهم الى منبر الوعظ وكرسي التدريس ومقعد البرلمان وغيرها من اماكن الشهرة بدلا من دفعهم في الطريق التي سارت فيها جدتهم . هذا ولم يتميز احد من احفاد ضرثها الصالحة ( تالكوت ) . وفيما يلي احصاء يفصل مااجملنا :

اقد بلغ نسل ( جوناثان ادواردس ) عام ١٩٠٠ اربعاً وتسعين وثلاثمائة والى شخص كان بينهم ١٣ رئيس جامعة و ٢٩٥ خريج جامعة و ٦٥ استاذ جامعة و ٦٠ طبيباً و ١٠٠ قسيس و ٧٥ ضابطاً و ٦٠ مؤلفاً و ١٠٠ محام و ٣٠ حاكماً ( حاكم ولاية ) و ٨٠ موظفاً كبيراً و ٣ نواب وعضوان في مجلس الشيوخ

ونائب رئيس جمهورية الولايات المتحدة .

وقد دلت الدراسات العلمية على ان آباء المشاهير ينزعون دوما الى ان يكونوا من ارباب المهن العالية كالكهنوت والحمامة والطب اكثر من نزوعهم الى العمل اليدوي او المزارعة ، كما دلت على ان للعلماء الكبار اقارب اهتموا بالعلم مما يحملنا على القول بان الكفاءات تورث وان التفوق تتصف به بعض العائلات اكثر من غيرها .

ومن الجدير بالملاحظة ان ما قلناه حتى الان ليس دليلاً على ان التفوق نتاج الوراثة فقط وان المحيط لا اثر له فيه ولا عمل ، فالطفل المولود من ابوين متفوقين لا يرث كفاءات متفوقة فحسب بل يرث محيطاً متفوقاً ايضاً ، انه سيكون موضع عناية طبية ممتازة قبل ولادته وبعدها . وسيكون طعامه خيراً من طعام غيره وستكون اللغة التي يسمعها جيدة صحيحة نظيفة ، وسيهبأ له كل شيء لكي ينمو واثقاً من نفسه ، وذلك كله بسبب حالة ابويه الاجتماعية والاقتصادية ، وستتوفر له بعد ذلك خير الفرص التربوية والثقافية نظراً لتقدير اهله قيمة التربة والتعليم وفائدتها ، وحين يصبح على استعداد لدخول الحياة العملية فانه سوف يجد نفوذ اهله بانتظاره يفتح له الابواب فينفذ منها الى الشهرة والتفوق . وليس هذا فحسب بل انه سيختار - حين يفكر في اختيار شريك حياته - زوجة من مستوى اجتماعي قريب من مستواه ، وبهذا يكون المحيط قد اثار في الوراثة ولو بصورة غير مباشرة . وسينتج عن ذلك ان يرث اولاد الزوجين الشابين احسن الوراثة البيولوجية والاجتماعية ، وستعمل الوراثة ثانياً يدأ بيد - لانهما متكاملتان - على الارتقاء بالاولاد الجدد الى التفوق والتميز .

وكما درس العلماء الصلة بين التفوق والقراءة اهتموا بالعلاقة بين القصور

وصلات القربى فلاحظوا ان القصور العقلي وعدم الكفاءة ينزعان الى الانتقال بين افراد العائلة الواحدة شأنها في ذلك شأن التميز والذكاء . وقد دلت بعض الدراسات العلمية على ان الضعف العقلي وسوء الخلق وادمان الخمر والفقر تميز الجيل تلو الجيل في العائلة الواحدة .

ولعل اشهر الدراسات في هذا الصدد هي دراسة عائلة ( كالليكاك kallikak وهو اسم مستعار لعائلة فقيرة . تبدأ قصة (مارتن كالليكاك) في عهد الثورة الاميركية حين كان جنديا . وفي حالة كالليكاك كما في حالة ادواردس توجد سلسلتان وراثيتان ، فالسلسلة الاولى نتاج علاقة آثمة مع فتاة ضعيفة العقل كانت خادمة في خان ، اما السلسلة الثانية فهي نتاج زواج مارتن كالليكاك الشرعي بفتاة مدنية ذات ذكاء سوي تزوجها بعد عودته من الحرب . ففي السلسلة الناتجة عن زواجه الشرعي لوحظ ان السواد الاعظم من نسله كان سوياً ولا يوجد الا صدفه من ضعيف عقل او مدمن خمر او شائن سلوك ، اما في السلسلة الثانية التي نشأت عن علاقة كالليكاك بفتاة الخان ضعيفة العقل فقد لوحظ عدد كبير جداً من ضعاف العقول ومدمني الخمر والمومسات والمجرمين و كان هناك بعض الاسوياء ، كما ان مصير بعضهم ظل مجهولاً ؛ وبصورة عامة فان واحدة من السلسلتين كانت سوية وكانت الاخرى تتصف بالقصور العقلي .

ولا بد اننا من الاشارة الى ان بعض النواقص قد اعتورت هذه الدراسة فليس معروفاً مثلاً ماذا كانت فتاة الخان ضعيفة العقل فقط او بلهاء ، اي ان درجة ذكائها المضبوطة مجهولة . ثم انه من الصعب الجزم بان كالليكاك كان اباطفها فعلا لانه ليس امراً يسيراً تعين ابي مولود لفتاة بلهاء تعيش في خان يتردد عليه جنود محاربون ! الى آخر ما قد يكون هناك من نواقص .

وثمة عائلة اخرى مشهورة بقصورها العقلي يسمي جدها ( ماكس

جو كس ( Max Jukes ) الذي كان من احفاده لصوص ومتسولون ومومسات وغيرهم من القاصرين اجتماعياً . ولقد بلغ عدد المدروسين من آل جو كس ٢٨٢٠ شخصاً فيهم ٣٦٦ متسولاً و ١٧١ مجرماً و ٢٨٢ سكيراً و ٢٧٧ مومساً وقد قتل منهم عشرة ونجح في مدرسة ٦٢ وبلغ الدرجة المتوسطة في المدرسة ٢٨٨ منهم ورسب في صفه ٤٥٢ ، وكلف كل هؤلاء خزانة الولايات المتحدة الاميركية ٢٠٠٩٣٠٦٨٥ دولاراً .

ويعتقد الكثيرون من المشتغلين بامور السجون والملاجي العقلية واصلاحيات الجانبين من الاحداث ان القصور العقلي يورث وينتقل في العائلة الواحدة من جيل الى جيل . وواضح من هذه الدراسات على ما فيها من نقص ان القصور العقلي امر موروث وان كانت العوامل المحيطة تلعب دوراً هاماً في الموضوع .

ومن واجبتنا هنا ايضاً ان نشير الى ان سلاتي كالليكان وجوكس لم ترثا القصور العقلي والخلقي فقط بل ورثتا بالاضافة اليه محيطاً يخلد هذا القصور ويساعد عليه وذلك لان الوليد من هاتين الاسرتين وامثالهما يولد في الفقر والمرض والجهل والرذيلة وهو يستقبل شر استقبال يوم يولد ويظلم اسوأ الظعام ويعلم اقبح اللغات ويحلم طوال حياته باعن الظروف وشر الاحوال . وكم يكون مفيداً ان نعرف ماذا يحدث لو ان اطفال ادواردس وتتل رباهم آل كالليكان؟ ولو ان آل ادواردس ربوا اطفال جو كس ؟

\* \* \*

ايها السادة

كان الذي قدمنا بهجلاً للنظرية المانديلية المورغانية التي تصرح بان المادة

الوراثية خالدة لاتتغير والتي تقول ان المواد المحيطة بالصبغيات والعري الملونة ليست الا غلاف يلف المادة الوراثية ويغذيها دون ان تؤثر فيها او تغيرها ، او قل اذا شئت انها تسرع على ان الصفات التي تكتسبها العضوية اثناء حياتها لاتورثها مواليدها فيما بعد ، والتي ترى بعد ذلك ان عمل المحيط انما هو افساح المجال امام القدرات الموروثة الكامنة وتمكينها من الازدهار والظهور ، او على العكس اخفاء هذه القدرات ووضع العراقيل في وجهها ومنعها من الازدهار والتفتح .

وقد قام علماء روس واحتجوا على هذه الاقوال وقدموا للعالم نظرية جديدة هي النظرية الميتشورينية - نسبة الى ميتشورين Mitchourine العالم الروسي الذي قضى معظم حياته في ظل القيصرية والذي استفاد من دراسات سلفه العالم الروسي ويليامز Williams وافاد خلفه وتلميذه ليسنكو Lyssenko الذي عرف العالم على نظريات ميتشورين واسس الميتشورينية والذي طبق نظريات استاذه وتابع اعماله وتجاربه على النباتات والحيوانات .-

وفي آب من عام ١٩٤٨ انعقدت الدورة الصيفية لأكاديمية لينين للعلوم الزراعية فالقى رئيس الاكاديمية ( تروفيم ليسنكو ) تقريره الذي اقام دنيا البيولوجيا واقعدتها فاعتبره بعض العلماء نصراً عظيماً للانسان على الطبيعة وخطوة جبارة يخطوها علم الحياة وقال البعض الآخر انه محض تدجيل لا يستحق ان يقف رجال العلم عنده واكد فريق ثالث ان ماجاء في هذا التقرير ادعاء خطير ان صح قلب وجه الانسانية ولذلك فلا بد من التريث حتى ينهض الدليل على صحته او عدما مع الاعتراف بانه مامن مانع يمنع هذه الصحة .

واياً ما كان فان المشادة مازالت قائمة ويبدو ان الاعوام التي مرت منذئذ



سجلت كثيراً من النصر لنظرية لينسكو ، وابتدأنا الآن التعرف على اقوال  
لينسكو لنعرف اسباب الضجة التي احدثتها نظريته :

يبدأ لينسكو تقريره بتبيان اخطاء المورغانية واطارها ويصفها باللاهوتية  
ثم يقول « النظرية المادية لتعداد الاحياء لا تكون امراً معقولاً الا اذا اعتقدنا  
بضرورة وراثية الخصاص الفردية التي اكتسبها كائن ما في ظروف محدودة من  
وجوده ، كما انها لا تكون امراً معقولاً الا اذا اعتقدنا بوراثة الصفات المكتسبة . »

ثم يقول « . . . يتخيل ويسمان Weissmann <sup>(١)</sup> ، وقد انكروا وراثية  
الصفات المكتسبة ، مادة وراثية خاصة ، ويصرح ان من الواجب ( البحث عن  
المادة الوراثية في النواة ) ، ويقول ان ناقل الوراثة الذي نبحت عنه موجود في  
العرى الملونة المؤلفة من دقائق كل واحدة منها ( تحدد جزءاً محدوداً من اجزاء  
الكائن الحي عند ظهوره واتخاذ شكله النهائي ) . ويؤكد ويسمان ان ثمة فئتين  
كبيرتين من المواد الحية : المادة الوراثية والمادة المغذية ، كما يؤكد ان نقل المادة  
الوراثية تظهر كعالم منفصل مستقل عن الجسم الحي وشرائط وجوده ، ثم يعلن ،  
بعد ان جعل من الجسم الحي مركزاً مغذياً للمادة الوراثية لا اكثر ولا اقل ،  
ان هذه المادة الوراثية خالدة لا تستحدث من جديد ابداً . . . وهكذا وحسب  
رأي ويسمان لا تعرف المادة الوراثية تكوفاً جديداً ولا تمواتاً ، فهو الفرد ولا يمكنها  
ان تتغير ادنى تغير : مادة وراثية خالدة مستقلة عن الخصاص الكيفية لنمو  
جسم حي ماتتحم في الجسم القاني ولكنها عاجزة عن الانبثاق عنه ، ذلك هو  
المفهوم المثالي المكشوف ، لتصوفي الجوهر الذي يقدمه ويسمان . . . ولقد تبنت  
الماندلية - المورغانية - خطة ويسمان الصوفية تبنياً كاملاً بل انها بالغت فيها

---

(١) ويسمان عالم روسي من اتباع المورغانية

وزادت عليها . »

ويقول بعد ذلك : « . . . لقد وضع ميتشورين وويامايز اسس البيولوجيا الزراعية السوفياتية فعمما افضل ما جمع العلم والتطابق وطوراه وقدمت اعمالها الى المعرفة بالنباتات والتربة والى المعرفة الزراعية اموراً كثيرة جديدة من حيث المبدأ . . . يؤكد المندليون المورغانيون انه توجد في العرعى الملونة مادة وراثية تنزل في الجسم الحي نزول السيف في التراب وتنتقل الى الجيل اللاحق مستقلة عن خصائص الجسم الكيفية وظروف حياته ، وينتج عن هذا المفهوم ان الاتجاهات الجديدة والخصائص التي اكتسبها الحي في الشروط المعينة لنموه وحياته لا يمكن ان تكون وراثية كما لا يمكن ان يكون لها معنى تطوري . . . وبحسب هذه النظرية لا تستطيع الصفات التي اكتسبتها الكائنات النباتية والحيوانية ان تنتقل من جيل الى جيل اي انها لا تستطيع ان تنتقل وراثياً . . . امانحن ، ممثلي الاتجاه السوفياتي الميتشوريني ، فنؤكد ان وراثية الصفات التي تكتسبها النباتات والحيوانات خلال نموها ممكنة بل ولازمة . »

ويسط ليسنكو في القسم السادس من تقريره نظرية ميتشورين التي يعتبرها اساساً للبيولوجيا العلمية فيقول :

« بخلاف الماندلية المورغانية التي تؤكد عدم امكان فهم اسباب تحولات طبيعية العضويات والتي تنفي كل امكان لتوجيه تغيرات طبيعية الحيوانات والنباتات يقول ميتشورين باننا لانستطيع انتظار احسان الطبيعة بل ان عملنا هو انتزاع هذا الاحسان . . . »

ولقد استند ميتشورين - على حد تعبير ليسنكو - على اعماله ودراساته وتجاربه الخاصة حين انتهى الى الحقيقة الهامة التالية :

يبدو انه من الممكن - بواسطة تدخل الانسان - اجبار كل صنف من الحيوانات او النباتات على النمو والتغير بصورة اسرع وفي الاتجاه الذي يريده الانسان ، وبذلك تفتتح امام الانسان آفاق واسعة ، آفاق اكثر مناسبة لفاعلياته .

هذا وترفض نظرية ميتشورين رفضاً باتاً كيدالماندلية المورغانية الخاص ببحرية الصفات الوراثية حرية مطلقة ازاء شروط حياة النباتات والحيوانات ، انها تنكر وجود عضوية حرة منفصلة عن الجسد وموجودة ضمنه وهي مايسمى بالمادة الوراثية . وهي تصر على ان تغير وراثه العضوية - شأنها في ذلك شأن اي جزء من اجزاء العضوية - هو دوماً نتاج تغير الجسد نفسه . وتحصل تغيرات الجسم الحي نتيجة انحراف قاعدة تمثّل النوع وتمثيله اي نتيجة تغير قاعدة تبادل المواد في ذلك النوع . ومع ان تغير العضويات او اعضائها او صفاتها الخاصة لاينتقل دوماً او لاينقل بكامله الى نسلها فان مبادئ التغير الذي ينتج عضويات جديدة تصدر دوماً عن تغير العضويات الوالدة فقط وهذا التغير هو نتاج تأثير شرائط الحياة على هذه العضويات وتكون هذه التأثيرات حساسة في الاعضاء التناسلية والابناتية بصورة خاصة . ان تغير الوراثة والحصول على صفات جديدة وتقوية هذه الصفات الجديدة وزيادتها في الاجيال اللاحقة - في رأي هذه النظرية - امر يتأثر دوماً بشروط حياة العضوية .

تغير الوراثة وتعمد نتيجة تراكم صفات وخصائص جديدة حصلت عليها العضويات خلال مجموعة من الاجيال . وتكون العضوية وشروط حياتها الضرورية كلا لايتجزأ ، ولما كانت الاجسام الحية المختلفة تتطلب شروطاً محيطية مختلفة من اجل نموها فاذا درسنا خصائص هذه المطالب فاننا نتعرف - في الوقت نفسه - على خصائص طبيعية العضويات وخصائص وراثتها . وما الوراثة

الا خاصة الجسم الحي في تطلبه شروطاً معينة للحياة والنمو في تصرفه بشكل معين تجاه هذا الشرط او ذلك . وعلى هذا فان معرفة المطالب الطبيعية وصلات العضوية بشروط المحيط تمكننا من توجيه حياة هذه العضوية ونموها . كما ان توجيه شروط حياة الحيوانات والنبات وشروط نموها يمكننا بدوره من تفهم طبيعة هذه الحيوانات والنباتات تفهما متزايد العمق ويمكننا بالتالي من تحديد وسائط تغييرها في الاتجاه المفيد للانسان . وقد عرفنا وسائط توجيه النمو امكننا تغيير اتجاه وراثته العضويات .

كل جسم حي يبني نفسه بنفسه مستخدماً - على طريقته الذاتية - ظروف محيطه بحسب وراثته، وهذا هو السبب في تمكن عضويات مختلفة من العيش والنمو في محيط واحد . والقاعدة العامة هي ان كل جيل من الحيوانات او النباتات ينمو في الغالب على شكل مماثل لشكل نمو الاجيال السابقة ولا سيما الاجيال الاقرب اليه . ان ولادة الاشياء خاصة مميزة لكل جسم حي .

واذا وجدت العضوية في محيطها شروطاً توافق وراثتها فان نموها يضطرد على شكل موافق لشكل نمو اسلافها ، اما اذا لم تجد مثل هذه الشروط واضطرت للتكيف مع الشروط الجديدة التي لا توافق طبيعتها الى حد قليل او كثير فان ما ينتج هو عضويات او اجزاء من عضويات تختلف قليلاً او كثيراً عن اسلافها . واذا كان الجزء المتكيف هو الجزء الذي ينجم عنه الجيل اللاحق فان هذا الجيل الجديد ، بسبب حاجاته وطبيعته ، يختلف الى درجة كبيرة او صغيرة عن الاجيال السابقة .

اما سبب تغير الجسم الحي فهو جود في تغير نوع التمثل وتبادل المواد ، ان انتاش القمح الربيعي لا يتطلب حرارة منخفضة بل يجري - في الحالة السوية - في

درجات من الحرارة مألوفة في فصل الربيع ، اما اذا كان على هذا الانتاش ان تجري في درجات من الحرارة منخفضة فان في امكان القمح الربيعي ان يتطرر خلال بضع اجيال الى قمح شتوي لاينتس الا في درجات من الحرارة منخفضة . وهذا المثل يرينا كيفية ظهور المطالب الجديدة عند نسل نوع ما ، حاجة انخفاض الحرارة من اجل الانتاش .

ثم ان الخلايا الجنسية وكل الخلايا التي من عملها تكاثر العضوية تتج عن نمو العضوية كلها ونتيجة تبادل المواد والتحول في الشكل Metamorphose والطريق الذي تقطعه العضوية في نموها متراكم - على نحو ما - في الخلايا التي تتجم عنها الاجيال اللاحقة . وعلى هذا فاننا نستطيع ان نقول بان خصائص العضوية التي تنمو في الجيل الجديد - بما في ذلك الوراثة - تنمو الى الدرجة نفسها التي ينمو اليها جسم هذه العضوية . وفي العضوية نفسها يتطلب نمو الخلايا المختلفة والاقسام المختلفة من هذه الخلايا والعمليات المختلفة شروطاً خاصة مختلفة من شروط المحيط . ثم ان هذه الشروط تمثل ( برفع الحرف الاول من الكلمة ) بشكل مختلف . هذا ولا مندوحة عن الاشارة هنا الى ان المفهوم في هذا الحال من كلمة ( خارجي ) هو مايمثل ( بالضم ) وان المقصود بكلمة ( داخلي ) مايمثل ( بالفتح ) .

وتتابع حياة العضوية من خلال مقدار كبير من عمليات النمو ، فالغذاء الذي يرد على العضوية من محيطها يمثله الجسد بمد مجموعته من التغيرات وبذلك يمر من ( الخارج ) الى ( الداخل ) ، وعلى اعتبار ان هذا ( الداخل ) حي بينه وبين مواد الخلايا والذرات الاخرى من ذرات الجسد تبادل فانه يغذيها ويصير ( خارجياً ) بالنسبة اليها .

هذا ونحن نلاحظ نوعين من التغيرات الكيفية اثناء نمو العضويات

١ - التغيرات الناتجة عن تحقيق الدورة الفردية للنمو ، ويتم ذلك حين تكتمل الحاجات الطبيعية اي الوراثة بشروط المحيط وحينئذ يكون الناتج جسماً من النوع نفسه والوراثة ذاتها التي كانت للاجيال السابقة .

٢ - تغيرات الطبيعة ، اي تغيرات الوراثة ، وهي ايضاً نتاج النمو الفردي ، ولكن النمو هذه المرة منحرف عن طريقه المعتاد السوي ، ذلك ان تغيرات الوراثة تنتج عادة عن نمو العضوية في شرائط محيطية لا تتفق الى حد بعيد او قريب مع المطالب الطبيعية للشكل العضوي الموجود .

وهكذا فان تغير شروط الحياة يجبر نوع تطور العضويات النباتية على التطور بدوره . والنمو المتكيف على هذه الصورة هو السبب الاول في تطور الوراثة . اما العضويات التي لا تستطيع ان تتطور وفقاً لتطور شروط الحياة فتموت ولا تترك نسلاً .

لا تتكون العضويات وطبيعتها الا عن طريق عملية النمو . صحيح ان الجسم يستطيع ان يتغير بعمليات غير عملية النمو كالاحتراق والتحزب واقلاع الجذور وغير ذلك ولكن هذه التغيرات لا تصبح مميزة وضرورية للعملية الحيوية .

وثمة امثلة كثيرة تدل على ان تغيرات الانسان المختلفة لحسم العضوية النباتية او الحيوانية بواسطة الخلايا الجنسية ليست ثابتة من حيث كثرة الحدوث والدرجة . وتفسير هذا ان عملية نمو كل عضو وكل ذرة من ذرات الجسم الحي تتطلب شروطاً محيطية خاصة نسبياً . . وشرائط النمو هذه مأخوذة مما يحيط بالعضو

او الذرة . وهذا هو السبب في انه حين يحتاج جزء من جسم العضوية النباتية الى التكيف مع شرائط غير معادة نسبياً ، الامر الذي ينتج عنه تغير يميزها عن امثالها من اجزاء عضويات الجيل السابق ، فان المواد التي يوزعها هذا الجزء الى الخلايا المجاورة . قد لا تختارها هذه الخلايا المجاورة . صحيح ان صلة القسم المتكيف من الجسم مع باقي الاجزاء تبقى - والاعتذر بقاء القسم المتكيف - ولكنه ليس من الضروري ان تكون الصلة متبادلة تماما . فالقسم المتكيف يتلقى هذا الغذاء او ذلك من الاجزاء المجاورة دون ان يستطيع اعطاءها مواد المميّزة وذلك لرفضها ان تختار هذه المواد الجديدة المميّزة . وهذا يفسر الحادث الذي كثيراً ما يلاحظ عندما يحدث ان تغير اعضاء عضوية ما او خواصها فلا توجد عند نسلها الخواص الجديدة ومع ذلك فان هذه الاجزاء المتغيرة من جسم العضوية الوالدة تصير لها بعد ذلك وراثية متكيفة . وتعرف زراعة الخضار والفواكه و الزهور هذه الحقائق منذ زمن بعيد . فالتغيرات التي تطرأ على غصن شجرة مثمرة او برعمها ، او تطرأ على درنة من درنات البطاطا لا يمكن - بصورة عامة - ان تؤثر على تغيرات وراثية نسل الشجرة او الدرنة ، تلك الوراثة التي تعود باصلها المباشر الى العضوية الوالدة لالي الاجزاء المتكيفة من العضوية الوالدة . اما اذا فصلنا الجزء المتغير وجعلنا منه نبتة مستقلة فان القاعدة العامة هي ان يملك هذا الجزء المنفصل وراثية متكيفة وهي وراثية الجزء المتكيف من الجسم الوالد .

ان درجة النقل الوراثي للتغيرات تتوقف على درجة اندماج مواد الجزء المتكيف من الجسم في السلسلة الكاملة للعمليات التي تقود الى تكون خلايا تناسلية جنسية او انتاشية . فاذا عرفنا طرائق تكون وراثية عضوية ما امكننا ان نزيها عن طريق خلق شروط خاصة في اوقات خاصة من نمو العضوية . هذا ويستحصل ادوما على الانواع الجيدة من النباتات والحيوانات بواسطة التطبيق ( التكنيك ) الزراعي والحيواني الجيد فقط ، اما حين يكون التكنيك

سيئاً فانتا لانعجز عن تحسين الانواع السيئة فحسب ، بل اننا قد نهبط بالانواع الجيدة . والمبدأ الهام في هذا الصدد هو وجوب العناية التامة بالانواع المخصصة الانتاج ولذلك كان لابد من توفير شروط حسنة توافق وراثية الانواع التي نهتم بها . ان الواجب يقضي باختيار احسن الانواع وتخصيصها للانتاج وبذلك فقط نستطيع تحسين النسل .

لانتعرف النظرية المورغانية الاعلى امكانية واحدة للحصول على المواليد الخلاسين ( المواليد المختلفي الوالدين ويسمون احيانا بالانفال ومفردها نقل وهذه الامكانية هي الطريق الجنسي ، وهي تنكر امكان الحصول على مثال هؤلاء المواليد الخلاسين بطريق التطعيم ( او الانبات ) وذلك لنكرانها التأثير النوعي لشروط الحياة على طبيعة النبات . اما ميتشورين فانه لايقبل امكان وجود مواليد خلاسية انباتية Végétatif فحسب ولكنه تقدم بالطريقة المسماة ( طريقة المربي ) واصر على القول بان تطعيم اغصان كثيرة مشمرة من نوع ما باقلام من نوع آخر يسبب انتقال صفات جديدة الى النوع الجديد فنقل اليه من النوع القديم ولذلك سماها ( بطريقة المربي ) ، وبهذه الوساطة تمكن ميتشورين من الحصول على مجموعة من الانواع الجيدة الجديدة او تحسينها . ولقد وجد ميتشورين واتباعه وسائط للحصول على مقادير كبيرة من المواد النباتية الخلاسية الانباتية وقال باننا نحصل ، من تشابك نبتتين بواسطة التطعيم ، على عضوية خلاسية انباتية مكونة من النبتة المطعمة ( بالكسر ) والنبتة المطعمة ( بالفتح ) واذا جمعنا البذور التي انتجتها النبتة المطعمة ( بالفتح ) او الطعم وبذرناها تمكنا من الحصول على نسل لهاتين العضويتين لايملك خصائص النوع المطعم فقط بل يضيف اليها خصائص الطعم الذي اتحدت معه .

واذا كان من الثابت ان العضوية المطعمة ( بالفتح ) والعضوية المطعمة



(بالكسر) لا يستطيعان تبادل العرى الملونة الموجودة في نوى الخلايا فان من الثابت ايضاً ان الصفات الوراثية تمر من المطعمة (بالفتح) الى المطعمة (بالكسر) والعكس على العكس. وهكذا نستطيع ان نستخلص ان المواد المصورة elastipies التي تنتجها العضويتان المطعمة والمطعمة ومنها العرى الملونة وكل ذرة من ذرات الجسم الحي تملك صفات معينة وتميز بنوع من الوراثة. ان في الامكان نقل اي خاصية من خصائص النوع بواسطة التطعيم، كما ان هذا النقل ممكن طبعاً بالطريق الجنسي.

وقد ادت الامثلة العملية الكثيرة، امثلة النقل النباتي للخصائص المختلفة للبطاطا والبنندورة (الطاطم) وعدد من النباتات الاخرى، الى القول بان المواليد النباتية الخلاسية لا تختلف، مبدئياً، عن مثيلاتها الحيوانية.

ان مثلي الماندلية المورغانية لا يعجزون عن الحصول على تغيرات وراثية موجهة فحسب ولكنهم ينكرون - من حيث الاصل - امكان تغيير الوراثة تغييراً يناسب الشروط المحيطة. اما اتباع النظرية الميتشورنية فقد اثبتوا امكان تغيير الوراثة وفقاً لشروط الحياة المحيطة. ويشار هنا الى تجارب تغيير القمح الربيعي لا الى قمح خريفي فحسب بل الى قمح يثبت في شتاء سيبيريا القاري. ولهذه التجارب كما هو ملحوظ، قيمة نظرية وعملية لاسيما وانها مكنت العلماء الروس من الحصول على نبات يقاوم برد سيبيريا القارس.

هذا وقد دلت التجارب الكثيرة على اننا حين نحور الوراثة القديمة لانحصل على وراثية جديدة ثابتة قوية ولكننا نحصل - في معظم الاحيان - على عضويات ذات طبيعة مترجحة كما يسميها ميتشورين. والمقصود بالعضويات ذات الطبيعة المترجحة العضويات النباتية التي قضي على محافظتها واضاعت قدرتها على الانتخاب بالنسبة للشروط المحيطة، فعوضاً عن الوراثة المحافظة عند النبات تظهر

نزعة لاعطاء بعض الافضلية لشروط محيطه جديدة معينة .

ويمكن رجرجة طبيعة عضوية نباتية ما بالطرق التالية :

١ - عن طريق التطعيم ، اي اتحاد نسج نباتات من انواع مختلفة .

٢ - بواسطة التأثير على شروط المحيط في لحظات معينة من حدوث هذه او تلك من عمليات نمو العضوية .

٣ - بواسطة التشابك وبصورة خاصة بين انواع خاصة واضحة الاختلاف من حيث محل السكن والاصل .

ولقد علق علماء البيولوجيا الميتشورينيون اهمية عملية كبرى على الاستحصال على عضويات نباتية ذات وراثه مترجرجة ، يمكن تربيتها في المستقبل - وعلى عمر اجيال - في شروط جديدة تعيش فيها .

هذا ويمكن تجديد شباب الانواع النباتية وحيويتها بالطرق الانباتية غير الجنسية وذلك عن طريق تمثل الجسم الحي للشروط المحيطية الجديدة غير المألوفة بالنسبة اليه . وقد طبقت هذه الطريقة بالفعل ، فاذا وجهنا الشروط المحيطية وراقبنا ظروف حياة العضويات النباتية امكنا تغيير الانواع النباتية وخلق انواع جديدة لها الوراثة التي نريد . وهكذا تكون الوراثة نتاج تمرکز تأثيرات شروط

المحيط التي تمثلها العضويات خلال اجيال سابقة ويمكننا بواسطة تزويج الانواع المختلفة تزويجاً حسن التوجيه ان نجمع في العضوية ذاتها وفي الحال ما كان يحتاج الى اجيال عديدة ليتمثل ويثبت في الانواع المستعملة في التشابك ، ولكن - وبحسب النظرية الميتشورينية - لا يمكن ان يعطي اي تزويج نتائج ايجابية الا اذا

توفرت الشروط المناسبة لنمو الخصائص التي تزيد ان تصبح وراثية في النوع الجديد او المحسن .

\* \* \*

ايها السادة :

هذه هي الخطوط العامة لنظرية ميتشورين ومريده ليسنكو في معناها وما هي نتائجها الممكنة في التربية والاجتماع والحياة عامة ؟

من المشاكل التي حيرت المرين وما تزال مشكلة اثناثير النسبي لكل من الوراثة والمحيط في المتعلم ، والحق ان موقف المرين من الطفل يختلف باختلاف وجهة نظره في هذا التأثير النسبي الذي يكون لكل منها ، فاذا آمن المرين بان الطفل يأتيه بوراثة محدودة معينة لاسبيل له الى تغييرها والتاثير فيها فان موقفه يكون شيناً ، واذا آمن بان في مقدوره - عن طريق التأثير في محيط الطفل - ان يؤثر في وراثة الطفل وقدراته يكون موقفه شيناً آخر . ولعلنا بهذا بسطنا الامر اكثر مما يجب لانه في الواقع اعقد من ذلك بكثير وابعد آفاقاً بمقدار عظيم . ولنحاول اذن ان نتمق في الامر قليلاً لنلاحظ ان النظرية الميتشورينية لم تفكر مبادئ الوراثة التي قررتها الماندلية المورغانية وانما انصب احتجاجها اكثر ما ما انصب على خلود المادة الوراثة وعدم امكان التأثير فيها وتغييرها وعلى القول بالصدفة في كثير من الامور ذات العلامة بالوراثة . ولنلاحظ بعد ذلك ان دراسات ميتشورين وايسنكو انصبت - حتي الآن - على النباتات والحيوانات ولم ترتق للانسان ولعلها فاعلة في المستقبل ، وقد يكون ثمة فروق بين الانسان من جهة والحيوان والنبات من جهة اخري . ولنلاحظ ايضاً ان الميتشورينية برهنت عملياً على صحة اقوالها فاستنبت انواعاً من النبات جديدة وغيرت وراثة نباتات

قديمة وكل ذلك عن طريق التأثير في محيط هذه النباتات ، كما انها اوجدت  
 انواعاً من الحيوانات تختلف وراثتها عن وراثه الانواع القديمة وكل ذلك عن  
 طريق تزاوج موجه وتغير في شرائط المحيط . ولنلاحظ ايضاً وايضاً ان  
 ان الميتشورينية لا تقول بتغيير عاجل في الوراثة بل تقول بوجود مرور اجيال  
 قبل ان يحصل التغيير الكامل وان كل ما يحصل في البدء هو رجرجة الوراثة  
 القديمة وتوجيهها الوجهة الجديدة المنشودة واذا صحت هذه النظرية فيما يخص  
 البنجر - واغلب الظن انها صحيحة - فان الاجيال التي يجب ان تشهد التغيير قد  
 تكون اكثر عدداً مما نأمل ، ومعنى هذا ان الامور التي يكتسبها الفرد في حياته  
 القصيرة لن تمر الى اجياله القادمة الا بعد زمن قد يطول . ولنلاحظ اخيراً  
 ان المورغانية نفسها لا تنكر قيمة المحيط ولكنها تجعل دوره ثانوياً وتقصره على  
 تفتيح القدرات الكامنة وتمكنها من الازدهار او طمرها وطمسها . . ونخلص  
 من هذا كله الى التنبه بان هذه النظرية الميتشورينية تزيد من اهمية المحيط وبالتالي  
 من اهمية قواه وعلى رأسها المربون - آباء وامهات ومعلمون - وتمكنهم من الخلق  
 والابداع وان كان ذلك على مدى من الزمن طويل نسبياً انها في الواقع تعطي  
 الانسان ممثلاً في الاسرة والمدرسة والمصلح الاجتماعي قدرة الدفع بالمجتمع الانساني  
 نحو تقدم مستمر يحقق آمال الانسانية في المدن الفاضلة والعدالة الكاملة والحق  
 المنصور والخير الامثل والجمال الاكمل . انها تمكن الانسان الحديث من خلق  
 عالمه خلقاً جديداً وابداع مواطنين متساوين في الحقوق والواجبات مؤمنين بالانسانية  
 قادرين على السير الابدي بالانسانية نحو عالم افضل . انها امنية الانسان في التحرر  
 من المحتوم المقسوم والتخليق في اجواء الخلق والابداع ، انها خطوة في بناء  
 مجد الانسان النزاع ابدأ الى عالم المثل عالم الحق والخير والجمال .

دمشق

الدكتور فاخر عاقل

قصة الصحافة العربية  
وأثرها في تطور الشرق العربي

الأستاذ سامي الكبيسي



سيداتي . سادتي

كان موعدكم هذه الليلة مع صحفي كبير ليحدثكم عن قصة الصحافة العربية  
واثرها في تطور الشرق العربي . . ولكن مشاغله الصحفية المرهقة ولا سيما في  
هذه الظروف العصيبة التي تمر بها البلاد العربية ، قد اضطرته ان يعتذر . . ولم  
يكتف بالاعتذار ، بل اراد ان يمكرو بي او يمكرو بكم لاعلم حين فرض علي ان  
اتناول انا هذا الموضوع بالذات . . وقد وصلتني رسالته في بداية هذا الاسبوع . .  
وبالرغم من وفرة مشاغلي فقد اضطررت ان اشغل نفسي به .

و كنت اود ، ايها السادة ، ان تكون محاضرتي عن زيارتي لاشهر المكتبات  
الكبرى في امريكا . . او عن الايام الممتعة التي قضيتها في ربوع الاندلس . .  
ولكن ظروف صديقي الصحفي ومكروه قوا اضطراني ان يكون موضوعي عن  
الصحافة وان كان عملي فيها على الهامش ومن وراء ستار . . واني لارجو ان  
اسرد عليكم ملاحظ واضحة من قصتها الشيقة . . فاذا وفقتم فالفضل له . . واذا  
اخفقت في هذا الامتحان الصعب فتكونون قد تحملتم معي مكر هذا الصحفي  
الخبث الذي احسن الظن بقدرتي على معالجة هذا الموضوع عن غباوة  
غير محمود . .

\* \* \*

## قصة الصحافة العربية وأثرها في الشرق العربي

هذه الجريدة التي تصابحنها وتماسينا وتنقل إلينا أخبار الدنيا وانباء العالم والتي تطرفنا بالمقالات والأخبار ولا تكاد تتركها أيدينا ليل نهار - هذه الظاهرة في حياة المجتمع مآشأنها؟ ما قصتها؟ كيف نشأت في بلاد الشرق العربي؟ من هم أبطالها الميامين؟ كيف تطورت مع الزمن؟ هل حاولها أجدادنا؟ أي هل هي من صنع العرب أم بضاعة جآئتنا من الغرب؟

ان الهوس القومي كثيراً ما يثير البعض فلا يرى غضاضة ان يضم هذه المآثرة الى الأجداد . . فقد استبد بنا الماضي حتى اصبحنا لانرى ظاهرة من ظواهر هذا العصر الاقلنا هذا امر حاوله أجدادنا . . فقد قرأت مرة لصحفي كبير يقول ان الصحافة قد عرفها أجددنا . . ودالم على هذا القول بان الشعراء قديماً كانوا يقومون بتدوين الحوادث والأخبار في قصائدهم كما يفعل الصحفيون اليوم في صحفهم . . فاستنتج من هذا التخريج اللطيف ان أجدادنا مارسوا الصحافة وحتى قبل ان تعرف في مواطنها الاصلية !

ان التفاخر بالماضي حسنة من الحسنات . . ولكن لا ان يطغى هوس التفاخر به على الحقيقة . . او على قوة الإبداع فينا فنقف حيث عمل الأجداد . .

من الكلمات التي رويها الامير شكيب ارسلان عن جمال الدين الافغاني ان احدى الصحف كتبت مقالا طويلا تبرهن فيه على ان أجدادنا قد اكتشفوا امريكا فما كان من حكيم الشرق الا ان قال لمن حوله :

لا يريد ان اسركم بكلمة . . اننا قوم كلما قال لهم الانسان كونوا بني



آدم اجابوه ان اباءنا قد كانوا كذا وكذا .. وعاشوا في خيال ما فعل ابائهم ، غير  
مفكرين ان ما كان عليه ابائهم من الرفعة لا يني ما هم عليه الان من التحول والضعفة !

ولا يضيرنا ابداً ان لاتكون الصحافة من صنع ابائنا .. ولكن يضيرنا  
ان لانحسن ممارستها .. ونحمد الله اننا قد استطعنا بعد قرن من ممارستنا لها ان  
نملك قيادها وان نحسن استعمالها .. .

وسنرى



يرجع تاريخ الصحافة العربية في الشرق الى بداية القرن التاسع عشر  
فقد عرفت اول ماعرفت في نشرات رسمية على يد الحكومات قبل الافراد .. واذا  
اردنا الدقة في التأريخ . فمن الواجب ان نقول ان الصحافة بضاعة اجنبية ، نقلها  
الافرنسيون اليها حين فكر نابليون بونابرت بالسيطرة على الشرق .. فقد جاءت  
معه في حملة الى مصر .. وكأما قد عرف . هذا القائد الكبير ، ماللدعاوة من  
اثر في نجاح حملته .. فنقل مع عتاده الحربي .. ايمع الاسلحة والمدافع والقواد والجنود -  
نقل المطابع والحروف والورق والمرتين والمحجرين والعلماء .. وما كادت تطأ  
رجله ارض مصر ، حتى كان الصحفيون والعلماء قد باشروا مهمتهم التي جاؤا من  
اجلها فانشأوا صحيفتين احداها ذات صبغة محلية تنشر البلاغات الرسمية والاخبار  
المحلية باسم « بريد مصر » والثانية ذات طابع علمي للدراسات المتعلقة بشئون  
مصر بعنوان « العشرية المصرية » وثالثة ذات طابع سياسي باسم « التنبيه » .

يقول الفيكونت طرازي في كتابه « تاريخ الصحافة العربية »

« ان الجيوش الافرنسية ، لما احتلت وادي النيل في اواخر القرن

الثامن عشر لم يلبث قائدها العظيم نابليون بونابرت ان اسس في الاسكندرية مطبعة سميت « المطبعة الاهلية » و جهزها بمجروف عربية استحضرها من رومه ، وصدرت اول جريدة قرأها ابناء الضاد وعنوانها « التنبيه » (١)

هذا اول عهد الشرق بالصحافة . . ونحب قبل ان نتوسع في الحديث عن الصحافة ، ان نلم المامة موجزة عن اداتها ، اي عن المطبعة . .

ولتأسيس المطابع في الشرق قصة ، من الطرافة الاماع اليها ، فهي تتصل بالعقلية التي كان عليها السلطان العثماني في القرن الخامس عشر . .

فقد ذكر غير واحد من المؤرخين . . انه حين وصل خبر الطباعة الى الشرق اصدر السلطان بيزيد مرسوما - وكان ذلك عام ١٤٨٥ م - نهى فيه رعاليه عن اتخاذ المطبوعات !

و حين توفي ، وقف ابنه ، السلطان سليم الاول ، موقفه فقد جدد سنة ١٥١٥ م امر ابيه . . اي بدمم ادخال المطبعة الى الشرق . .

لقد خاف سلاطين آل عثمان - وكانوا يسيطرون على الشرق الادنى بوسع رقماته - خافوا ان ترفع هذه الاداة الشيطانية الغشاء عن العيون ، والغباء عن العقول ، وان توقظ الوسنانين فتمنوا دخولها . . وبذلك « تأخر فهم الشرق لفائدة المطبعة رداً من الزمن كانت اوروبا قد جاوزت فن هذا الدور البدائي في نشر الاخبار المنسوخة والمطبوعة ، اي ان القسطنطينة قد وقفت حائلادون هضم الشرق بهذا الفن خوفاً من الرأي الحر ان ينشر ، او حرصاً على فكرة دينية قد تسيء اليها المطبعة » (١)

(١) اعلام الصحافة العربية الدكتور سميد عبده ص ٧

وحاول بعض المفكرين ان يؤسسوا المطابع في تلك الفترات الا ان رغباتهم  
قد اصطدمت بالنزعات الرجعية ، فقد افتى العلماء ان المطبعة رجس من عمل  
الشیطان ! فلم یجرأ احد على جلب المطابع من اوروبا ، وظلت الفكرة سائدة مدة  
طويلة الى ان استطاع محمد افندي الجلي ، سفير الباب العالي في فرنسا ان یقنع  
الصدر الاعظم بضرورة تأسيس المطابع كاداة من ادوات الفكر في الممالك  
العثمانية . . . واقنع الصدر الاعظم السلطان احمد الثالث ، سلطان تركيا بفكرة  
سفيره في باريس . وبعد ان اختمرت الفكرة في ذهن السلطان ورئيس وزرائه  
استكتب السلطان شیخ الاسلام ومعاونيه فتوى جديدة تؤكد ان المطبعة فضل من  
الله وليست رجساً من عمل الشيطان !

وهنا ، صدر فرمان العالي ، موقفاً عليه بالخط الشريف وذلك سنة  
١٧١٢ م خصاً لسعيد افندي ، ابن السفير محمد افندي الجلي بطبع جميع انواع  
الكتب عدا كتب التفسير والحديث والفقه والكلام .

وان دل هذا الحادث على شيء فعلي ما كان عليه الشرق في تلك الفترة التي  
ساد فيها حكم الاتراك من تأخر وبعد عن الحياة الفكرية . . .

وفي خلال هذه الفترة او قبلها بزمن وجيز قامت محاولات من بعض  
الافراد تحت بواعث دينية صرفه لانشاء المطابع في الشرق . . . فقد جاءه ودي  
اوروبى الى استانبول في القرن الخامس عشر . . . وانشأ مطبعة عبرية لطبع  
الكتب ليهود الشرق - والله يعلم ماذا كانت تحمل من سموم بالرغم من اصطباغها  
بالصبغة الدينية ! -

على ان الطباعة العربية قد ولدت هنا . . . اي بين حلب ولبانان . . . والذين  
عرضوا الى تاريخ الطباعة في الشرق يذكرون . . . ان اول مطبعة ظهرت في

الشرق كانت المطبعة التي اسسها اثناسيوس الرابع بطريرك الروم الانطاكي الحلبي في مستهل القرن الثامن عشر ، وقد حفرت حروفها بايدي الحلبيين . وسكنت في مدينتهم نفسها ، والذي قام بسبك الحروف الشماس الحلبي عبد الله الناصر فكان له فضل السبق في وضع الحرف العربي وسبكه والطبع به . .

ثم جاءت حملة نابليون ، وقد ذكرنا في بدء الكلام انه حمل مع عتاده الحربي عدة مطابع ، وكانت مزودة باحرف افرنسية ويونانية وعربية للدعاوة التي اقتضتها النزعة الاستعمارية ، وهي الخطط التي رسمها للسيطرة على الشرق .



كان خلو الشرق من المطابع ابان نهضة في اوروبا من العوامل التي اخرجت تطوره . . فلما انتقلت المطابع الى مصر ؛ تحمل مع الاستعمار ، بذور حركة فكرية تنبه الشرق الى فائتها والى اثرها في اشاعة الثقافة العامة . . فكانت «الوقائع المصرية» التي اسسها محمد علي ١٨٢٨ ، و «مرآة الاحوال» التي اصدرها في استانبول ١٨٥٥ الشاعر الحلبي رزق الله حسون الذي يعتبره مؤرخو الادب اب الصحافة العربية وهي اول صحيفة عربية انشأها حلبي في عاصمة السلطنة العثمانية . وقد عاشت سنة وبضعة شهور ، ومع ان الجريدة كانت ذات صبغة حكومية في بدء اصدارها الا انها تحولت الى جريدة معارضة توجه النقد اللاذع الى الحكومة فضاقت بمحررها وقررت القاء القبض عليه لمحاكمته . واذا علم بالخطر المحدق به فر الى روسيا وعندئذ صدر عليه الحكم بالاعدام غيباً ثم انتقل من روسيا وعاش في لندن حتى آخر يوم من حياته . كما صدر في تلك الفترة في المدن العربية الكبرى ، عدة جرائد صدرت في بيروت «حديقة الاخبار» و «نضير سورية»

وكانت كلمة سورية تشمل لبنان وفلسطين وشرقي الاردن وسورية . وصدرت في تونس « الرائد التونسي » وفي دمشق « سورية » وفي حلب « غدير الفرات » وفي بغداد « الزوراء » وفي اليمن « صنعاء » وغيرها من النشرات والجرائد التي ظهرت في مختلف عواصم الشرق ومدنها الكبيرة .

وكان ظهور هذه النشرات . ولا سيما الصحف ذات الثوب الحكومي . من العوامل التي حفزت بعض المفكرين ان يؤسسوا الجرائد على غرار زميلاتهن في الغرب . ولم تمض فترة طويلة حتى كانت في مصر والآستانة وبيروت ودمشق وحلب وبغداد والمغرب العربي وغيرها من المدن الكبرى جرائد تـكـسـ على صفحاتها اتجاه الحكومات ورغبات الشعوب في نطاق ضيق من الحيطـة والحذر .

ففي سنة ١٨٧٦ صدرت « الاهرام » الجريدة العربية الكبرى التي مازالت منذ ثمانين سنة تؤدي رسالتها الصحفية اكمل اداء . . . وصدرت « المقطم » و« المؤيد » التي استطاعت في تلك الفترة من الزمن ان تطبع اربعين الف نسخة . . وان لا يقف انتشارها في حدود مصر بل تجاوزته الى العالم الاسلامي كله .

وفي الآستانة عاصمة الخلافة الاسلامية ، صدرت في الفترة الواقعة بين ١٨٥٥ و ١٨٦٦ عدة جرائد عربية لها شأنها وخطرها اظهرها « الجواب » لأحمد فارس الشدياق اللغوي الشهير صاحب كتاب « الساق على الساق فيما هو الفاريق » وغيره من الكتب فأحدثت جريدته دويماً لمكانة صاحبها الادبية . . والشدياق هو اول من استعمل لفظه « جريدة » للدلالة على النشرات الدورية والصحف السيارة . . ومنذ ذاك الوقت . اي منذ ١٨٦١ شاع اسم « الجريدة » لدى جميع الصحفيين والكتاب ببدلوها العصري . . وكانت كلمة « الغازية » و« الجرنال » هي المترددة على الالسنـة ، وما تزال على السنة . . بض المتفرجين الى يومنا هذا !

وفي نفس العام. اصدر جبرائيل الدلال جريدة في الآستانة باسم «السلام»  
والدلال كما تعلمون . شاعر حلي مبدع يستحق دراسة مستقلة ، فحياته سلسلة  
من المغامرات والنضال انتهت به الى السجن لقصيدته الشهيرة « العرش والهيكل »  
التي استوحى روحها من فولتير . . فهاجم فيها ، باسلوب رمزي ، السلطان  
والكهنوت . وقد قضى في سجن حلب اقصى الايام المريرة ومازال ان نقل ميتاً من  
السجن الى المقبرة . . وارجو ان اخص هذا الاديب الشاعر الصحفي محاضرة  
خاصة . . ولا سيما قد مررت ايامه بين حلب و استانبول وفيينا وباريس وتونس  
وشهد اعنف الاحداث التاريخية الكبرى .

الدلال ، والكواكي ، وحسون ثلاثة اعلام حليين عملوا في الصحافة  
وكانت حياتهم نضالا عنيفاً مع الطغيان

واعود الى ماكنت في صده . فقد صدرت في تلك الفترة ، وفي استانبول  
بصورة خاصة ، عدة جرائد عربية . . من اشهرها - عدا ماذكرت - جريدة  
« الانسان » لحسن حسني الطويراني . . ولا اريد ان اعدد اسماء الجرائد التي  
صدرت في تلك الفترة من الزمن في شتى الاقطار فحسي من هذا الاماع الاشارة  
الى هذه الحقبة من تاريخ الصحافة العربية التي اخذت طريقها كاداة حية  
للتعبير عن شعور الرأي العام .

وقد بدأت ، اريد الصحافة ، تستهوي كل من اخذ بنصيب وافر او محدود  
من الثقافة العامة . . فظهرت عشرات الجرائد في نهاية القرن التاسع عشر . . وفي  
مطلع القرن العشرين ولاسيما بعد اعلان الدستور العثماني ١٩٠٨ حيث افسح المجال  
للكتاب والشعراء ان يعبروا عما تحسه الامة من رغبات كانت كمينة في النفوس  
وكان اثرها في بدء اليقظة غير منكور ، ومازالت ، الى ان احتلت مكانتها من قلب

الرأي العام. واصبحت وسيلة من الوسائل الحية للتعبير عن كل ما يحسه المواطنون وما يشعرون به سواء في الشؤون السياسية او الاجتماعية او القومية او كل ما يعبر عن نزعات التقدم ومجاراته الغرب في نهضته . . أي بدأت تبلور ، مع الايام . وتقبس عن صحف الغرب كل ما يسير بها نحو الرقي والتطور



### ايها السادة

ان تاريخ نهضة الشرق يبدأ بتاريخ صحافتها ، ولا عجب ، فالصحافة هي المرآة التي تعكس خليجات الامم ونزعاتها وكل ماتحسه من تقدمية وتطور .

وقد كان الشرق ، في مطلع القرن التاسع عشر ، في بداية يقظة . استيقظ بعد غفوته الطويلة على اصداء الحركات الفكرية والثورية في الغرب . . لقد انفتحت يتلمس حاضره وحاضر غيره من الامم . فاذا بينه وبين واقع الغرب امام طويلة . . والتفت الى ما كان عليه من ماض ذهبي مشرق فرأى نفسه في الهوة بينا كان اجداده في القمة . . واحس من الاعماق ان مئات السنين تفصل بين ماضيه وحاضره - بين ماضيه المشرق وحاضره المظلم فبال المفكرون ماتعانيه امتهم من جهل وفقر وبؤس ، ومن تدهور وذلل وضعف وانحطاط . وما تتمتع به الامم الحية من رغد وهناء ، ومن عزة وقوة واستعلاء - هال المفكرين ذلك . . وقد بدأوا يتساءلون كيف يثيرون الشعب للنهوض؟ كيف يعيدون للشرق مجده الذهبي؟ ماهي الوسائل الواجب اتخاذها لازالة العشاوة عن عيون ابناءه؟ ماهي المناهج القويمة الواجب وضعها للسير في طريق الحياة؟

ولم يطل تفكيرهم . . فقد هياؤا بذور الثورة ورسوموا طريق السير . . وسرعان ماوضعوا الخطط . . وهي نفس الخطط التي حاولتها الامم التي سبقتنا في

في ميدان الحضارة .

وللوصول الى الاهداف المثلى لم يجد قادة الاصلاح طريقة اقرب منالاً للاتصال بالجمهير ، ودفعها نحو حياة حرة كريمة غير « الجريدة » - رأوها اكثر اثرأ في نهضة الشرق من المدرسة ، لانها الوسيلة لفتح المدارس واشاعة الثقافة العامة وتعميم التعليم . . وهكذا ، فقد هدفوا الى اصدار الجرائد . . فما من بلد من بلدان الشرق الا وقد صدرت فيه الجرائد على التوالي بالعشرات . . .

كانت وسيلة للتعبير عن نزعاتهم الاصلاحية الصارخة ، لايقاظ الشعب وانتشاله من الدياميس المظلمة ، لنزع الخرافات التي عاشت بضعة قرون في خلایا الادمغة خلال العهد العثماني الذي سيطر على الشرق سيطرة طويلة عقب انهيار السلطان العربي .

وحتى بعد اليقظة ، مازالت تقوم بدور المعلم في المدرسة والزعيم في الجماهير ومازالت الرثة التي يتنفس بها اعظم الدعاة السياسيين والمدنيين .

وقد استهدفت الصحافة العربية ، في كفاحها التحريري ، منذ نشأتها وما تزال تستهدف ، الاتجاهات الآتية :

- ١ - ايقاظ الشرق من غفوته الطويلة بفتح المدارس وتعميم التعليم
- ٢ - خلق حاضر وثيق الصلة بماضي الشرق الذهبي ، مع مجاراة التطور خلق مستقبل افضل .
- ٣ - مقاومة النزعات الاستبدادية التي كانت كمينة في نفوس الحكام المسيطرين
- ٤ - مكافحة الاستعمار بكافة طرقه واساليبه - الاستعمار السياسي والاقتصادي والثقافي وتحرير البلاد من حكم الاجانب وسيطرتهم



- ٥ - استغلال موارد البلاد وخيراتها بعلم الغرب ووسائله الفنية
- ٦ - اشاعة الحرية في نفوس الافراد والجماعات
- ٧ - تقويض جبروت الديكتاتوريات واقامة حكم ديموقراطي في ربوع الشرق
- بهذه الاتجاهات التي جعلتها الصحافة من اهدافها الرئيسية لعبت اخطر دور في نهضة الشرق العربي

وقد نزل الي ميدانها ، في فجر تكوينها ، اذاذ من الاعلام ورجالات الفكر ، مارسها الحكيم جمال الدين الافغاني ، والامام الشيخ محمد عبده ، واثار على الاستبداد عبد الرحمن الكواكبي . والزعيان الوطنيان مصطفى كامل وسعد زغلول ، وفيلسوف الجيل احمد لطفي السيد وغيرهم وغيرهم ممن لعبوا اكر دور في تاريخنا الحديث عدا اولئك الذين اتخذوها مهنة ووسيلة لخدمة وطنهم المصنف بالقيود . وامتهم المنغمسة بالجهالات . . اما الذين خرجوا عن القطيع . وكانوا - غفر الله لهم - لسان الطغاة وصوت المستعمرين فانهم لا يدخلون في نطاق هذه الزمرة . .

فمنذ نهاية الحرب العالمية الاولى الى نهاية الحرب العالمية الثانية الى يومنا هذا - مرّت باطوار مختلفة حتى وصلت بتكاملها الى ما هي عليه ارقى صحف الغرب من حيث المادة والشكل - من المقال التوجيهي الى الخبر المحلي ، الى التعليق على الاحداث العالمية ، الى المقالات والبحوث في الادب والعلم والفن والاقتصاد وشئون الاطفال وازياء النساء وحاجة المطبخ ، الى عالم الاختراع . . الى كل ما يحقق نهم القارئ الذي لم يعد يرضى في هذا العصر ، بالتافه اليسير ، انه يريد الصحيفة ، جامعة شعبية يتلقى عنها كل العلوم - يريد ان يرى الدنيا ، بكافة الوانها في نظرة عابرة . . .

وتبذل دور الصحف الكبرى اضعف الجهود لتشبع نهم قرائها حتى  
اصبحت بعض الجرائد في مصر لا تقل في مادتها وشكلها وترتيبها ووفرة محرريها  
ومراسليها في مختلف عواصم الدنيا - اقول ان بعض الجرائد العربية الكبرى  
لا تقل عن ارقى صحف الغرب .. ولا عليّ ان اذكر « الاهرام » و « المصري »  
رد الله غريبتها ، واخبار اليوم الاسبوعية و « الاخبار » اليومية في مصر ،  
« والجريدة » و « الحياة » و « الديار » في بيروت ، وقد اخذت تسير على غرار  
جرائد مصر .. وهكذا ، فقد اصبحت الجريدة العربية بحق بعد فترات طويلة  
مرت بالجهاد المضى العنيف - اصبحت بحق ( السلطة الرابعة ) في الدولة

ثمّة ظاهرة جديدة في حياة الجريدة العربية ، بعد ان مستها عصا التطور  
انها ، لم تعد لتقوم على عاتق فرد او اثنين او ثلاثة كما كانت بالامس .. ولم تعد  
هوى ورغبة تجول في خيال كانت .. اصبحت فناً وصناعة .. اصبح لها معاهد  
وكليات .. كان يظن ان من يجيد صياغة العبارة ويحسن فن الكتابة يصلح لان  
يكون صحفياً .. وواقع الامر غير ذلك . اصبحت الصحافة فناً ومهنة ، ولها في  
جامعات اوروبا وامريكا معاهد وكليات كما قلت .

وقد التفتت مصر ، اولى بلاد الشرق العربي ، الى هذه الناحية فأدخلت  
الصحافة في جملة الدراسات الجامعية ، وجعلت شهادتها اعلى من شهادة  
حامل الليسانس

ففي سنة انشأت معهداً باسم الصحافة وجعلت من شروط القبول ان  
يكون الطالب من حملة الليسانس وان يؤدي فحص القبول بنجاح .. ثم يدرس  
ثلاث سنوات كمالات .. ولا بأس ان اشير الى بعض الدروس التي تدرس خلال  
هذه الفترات لتعلموا مدى مايزود به الطالب من علوم مختلفة ليتاح له ان يعد

صحفياً يوجه الجمهور في الطريق السوي . .

فن دروس السنة الاولى: مبادئ الصحافة ، تاريخ الصحافة في الخارج ، معالم تاريخ مصر الحديثة ، المذاهب والمشكلات الاجتماعية ، فن المكتبات والمحفوظات ، اللغة العربية وآدابها ، الترجمة ، تمرينات عملية في التحرير والترجمة والصحافة .

فاذا فاز الطالب بالفحص بنجاح ينتقل الى السنة الثانية ليدرس الفن الصحفي والاعلان . . تاريخ الصحافة في مصر : بما في ذلك الاعلان والاستفتاء ، القانون الدستوري والادارة ، القانون الجنائي ، التاريخ المعاصر ، الترجمة ، اللغة العربية وادابها ، احدي اللغات الاوربية وآدابها . .

ويدرس في السنة الثالثة :

الفن الصحفي ايضاً ، المذاهب السياسية واتجاهاتها ، القانون الجنائي ، قانون العقوبات وخاصة جرائم النشر ، قانون تحقيق الجنائيات ، القانون الدولي العام ، الجغرافيا السياسية ، اللغة العربية وآدابها ، احدي اللغات الاوربية وآدابها ، الترجمة . .

وهكذا ، وبعد ان يقضي هذه المرحلة الطويلة من الدرس ، يجري خلالها تمرينات عملية ، وبعد ان ينجح في اداء الفحوص بعلامات جيدة يمنح دبلوم الصحافة ويتاح له ان يكون جندياً في ركاب « صاحبة الجلالة »

وقد حدثني صديقي الدكتور محمود عزمي ، وكان ، رحمه الله مدير أهدا المعهد ، وهو صحفي عالمي كما تعلمون . . قال : - بعد ان طفت معه منشآت المعهد وحضرت بعض الدروس - قال ، اننا لانمنح دبلوم الصحافة لاي طالب قبل ان نظمئن كل الاطمئنان الى انه قد اصبح صحفياً تتسع ثقافته لجميع الاحداث العالمية ولجميع المشاكل

المحلية . ، ويستطيع ان يقدم لقرائه دائماً اصدق المباحث وادق المعلومات بأسلوب صحفى مشوق . .

اي ان المجتمع المصري سيواجه غداً طاقة من الشباب والشباب - وعدد اللواتي في المعهد اكثر من الذين - سيواجه طاقة من الاوانس والشباب قد اكتملت دراساتهم للفن الصحفى واصبحت في مكنتهم كل الامكانيات لان يقودوا الجمهور ويوجهه بأرائهم الحسيفة التوجيه الصحيح .

وهكذا ، فاننا نرى ان الصحافة تنتقل من الهواية الى الدراسة ، من صياغة العبارة ومعرفة الكتابة الى معرفة شتى العلوم والفنون التي تتصل بالحياة والسياسة والمجتمع ، ولم تعد ضمن نطاق قدرة الفرد بل اصبحت ايضاً بيد الهيئات والمؤسسات . .

والذين اتيح لهم زيارة بعض دور الصحف الكبرى في مصر لمسوا لمس اليد مدى تطور الصحافة العربية . . ولا اريد ان اتوسع في الحديث عن هذه الدور فان مجال الحديث عنها واسع جداً فحسبي ان المع وان اقول ان بعض دور الصحف تضم قرابة الالف موظف بين محرر وعامل . . وقد ارتفع المستوي الصحفى حتى اصبح الكثيرون من الصحفيين يفضلون مراكزهم على مراكز الوزراء . .

وقد تحدث يوماً صحفى مرموق عن قوة الصحافة المصرية فقال بكثير من الزهو :

ان الصحافة المصرية هي اقوى صناعة مصرية ، وتحظى الحكومة اذا تصورت ان مصر نالت زعامتها من المحيط الاطلسي الى الخليج الفارسي لان

جيوشها غزت هذه البلاد ، او ان اعلامها رفعت فوق هذه العواصم ، او ان سياستها ودبلوماسيتها هما التان حملتا لها هذه المآنة . . او ان صوت محطة اذاعتها وصل الى كل هذه الآذان . . لا . . ان شيئاً من هذا لم يحدث . . بل ان الصحافة المصرية هي التي فعلت المعجزه ، وهي التي جعلت مصر هي « كلمة » السياسة في الشرق الاوسط ، تتجه اليها كل الآذان والعيون والقلوب .

وقد شهد احد كبار الصحفيين الاجانب ان صحف مصر ارقى من صحف اسبانيا ويوغوسلافيا وتركيا واليونان وفرنسا نفسها . . بل انهم يضعون صحف مصر في المكان الثالث بعد صحف امريكا وانكلترا .

وهاي ذي بيروت تسير في نفس الطريق الذي سارت عليه مصر . . وزجو ان تبدأ دمشق وان تتبعها بغداد وسائر العواصم والبلدان العربية ، ولا سيما بعد هذا التطور الفكري الذي شمل كل منطقة من مناطق الشرق العربي . . فالواقع . . ان التفاعل مستمر بين الجرائد وقراءها . . فالجرائد تثقف القراء . . والقراء حين يتقفون يرفعون مستوى الجرائد . . وما تاريخ تقدم الصحافة الا تاريخ تقدم الذوق العام . يقول الصحفي الامريكي برزين : اذا نظرت الى المرأة فلم يعجبك ما ترى فلا تلم المرأة . . وكذلك اذا نظرت الى صحيفة فلم تعجبك فلا تلم الصحيفة بل الجمهور الذي يقبل عليها .

وهذا ما يفسر مدى الارتباط بين الجمهور وصحفه



كانت الجريدة فيما مضى تقتصر على موضوعات واخبار محدودة . . اما اليوم فهي كالسوق يجتمع فيها جميع الاصناف والالوان . . ففيها ما يهم الرجل ، وما يهم المرأة ، ما يهم الاولاد والشباب ، وفيها مباحث عمرانية ومالية واقتصادية ، كما فيها صور ورسوم ، وفيها الى جانب ذلك رياضة وعلم وفن وادب وتاريخ . . فكانها ترمي

ان تنعكس على صفحاتها الحياة الاجتماعية في جميع صورها .

اي ان عهد الشر بتلى قد انقضى او كاد من الصحافة العربية .  
وقد يسأل بعضكم وما قصة هذا الرجل ؟  
انه يمثل فترة بين عهدين :

في تلك الفترة البعيدة المدى « عندما اني قانون المطبوعات المصري ،  
اصبح من حق اي مواطن اصدار جريدة دون دفع تأمين ، ولذلك صدرت عدة  
صحف تحمل اسماء غريبة مثل « الخلاعة » و « السبعة وذمتها » .. وغيرها وغيرها ..  
وكانت الصحف تصدر عدداً واحداً فقط بقصد سبب احد الاثرياء او الكبراء ..  
وفي مقابل هذا يحصل صاحب الجريدة على مبلغ من المال من منافس الكبير او  
الثري .. وقد خلقت هذه الحالة عدداً من الكتاب الذين احترفوا الصحافة  
وكانوا يجلسون في قهوة اسمها « العلم المصري » بباب الخلق ، ومن بين هؤلاء  
الكتاب الشيخ مصطفى الشربتلي . . كان يحضر اليه صاحب الصحيفة الأمي  
ليفاوضه في ان يكتب له الجريدة كلها . . فيقول له الشيخ مصطفى : اريدها من  
الاسلوب العادي واجره عشرة قروش للجريدة كلها طبعاً ؟ ام من الاسلوب  
المتوسط واجره اثنا عشر قرشاً ؟

ام من الاسلوب العالي واجره خمسة عشر قرشاً .

ويختار صاحب الجريدة مايشاء .

ثم يأتيه بعد ذلك صاحب جريدة اخرى يطلب سباً واقذاعاً في صاحب  
الجريدة الاولى . . فلا يعارض بل ينطلق ليسب نفسه بوصفه كاتب الجريدة  
الاولى (١) . .

(١) حكايات صحفية لمحمد حسن ص ٤٧

اقول ان عهد تحرير الجريدة بعشرة قروش وجعلها اداة للتهجم ونهش  
الكرامات قد انقضى او كاد ، وبرزت فكرة الجماهير ممثلة على صفحات الجريدة ..  
اصبحت مجهوداً ضخماً تعمل فيه العقول والايدي .. وقد يتكلف اصدار العدد  
الواحد الاف الجنيهات .. نعم ، ان العهد الذي كانت فيه الصحافة بين اميين  
وكتاب مأجورين قد انقضى او كاد واصبح اليوم نتاج جهود فذة يعمل فيها  
المحرر والخبر والمصور والمراسل والسكراتب والمترجم والهواة والمحررون  
الرياضيون والجماعون والمصححون والموضوعون من العمال وعلى رأس الجميع اكثر  
من رئيس تحرير واحد ومجلس ادارة من كبار الشخصيات يعملون كلهم ايل نهار  
ليقدموا الى القارئ هذا الغذاء الفكري الشهي .. ومع ذلك فلا نعدم ان يجيئنا  
قارئاً اذا سألناه عما في الجريدة التي قضى شطراً غير قصير في مطالعتها - لانعدم  
ان يجيئنا بشيء من الامبالاة : « لاشيء » مع انها تكون قد ضمت احداث الدنيا  
واخبار العالم عدا المقالات والمغامرات والاحاديث والقصص والريپورتاجات  
واغرب الطرف والنكات .

والقارئ صارم الحكم فكثيراً ما يريد ان تأتي اخبار الجريدة على هواه  
والا اعتبر كل ما فيها هراء ولغواً وان زودته بالكثير من الفوائد وثقفته من حيث  
لا يشعر . وقد تشبه حتى الهفوة المطبعية وان جاءت افكوهة من الافاكيه ..  
وتعاملون ان تشابه الحروف في اغتنا والدور المهم الذي تلعبه النقطة التي قد تشوه المعنى -  
هي من اسباب كثرة الاغلاط المطبعية .. فما من صحيفة تصل الى ايدينا الا ونجد  
فيها الكثير من التحريفات ، وبعضها يثير النقمة - نقمة الذين يسهم الخبر - وان  
اثارت ضحك القارئ .. فمن الاغلاط المطبعية التي اذكرها انه عندما اخذ  
المرحوم الشيخ محمد الخضري على نفسه اعادة طبع كتاب « الاغاني » المشهور  
قرظت احدي الصحف عمله وارادت ان تثني على ( همة ) الشيخ .. فجاء ثأؤها  
بتلطة مطبعية منصباً على ( عمه ) الشيخ !

وجاء في مقال عن مشروع اصلاح القضاء انه يرجي من ورائه « تجريد شباب القضاء » . . ولكن العامل الذي جمع المقال اراد ان تكون العبارة ( تجريد ثياب القضاة ) . . ولا شك اننا جميعاً مهنا طمعنا في تجريد شباب قضائنا لزيده عن طريق تجريد قضائنا من ثيابهم !

وامل افكك ما يروى من هذا القبيل ماورد في احدى الصحف فقد اوردت خبر قران فوصفت الحفلة وذكرت اسماء الحاضرين من كبار القوم واسم صاحب الفضيلة الذي كتب عقد قران العروسين . . ولشد ما كان دهشة القراء اذ قرأوا بعد ذلك الجملة الآتية : وقد زج الاثنان في السجن ليلقيا جزاء ما جنت ايديهما وكان القارئ يجد في المقطع الثاني خبراً عن لصين ثقبوا جدار حانوت وسرقا ما فيه ، وقد ختم بهذا الدعاء « وندعو لهما بالتوفيق والهناء ورغد العيش »

وقد ادر كتم ان العامل قد اخطأ عند التوضيب ، فنقل سطرين من الخبر الى محل سطرين .

ونشرت احدى الصحف برنامج الاذاعة فما جاء فيه :

منلوجات خفيفة للشيخ محمد رفعت

قرآن كريم لثريا حلمي !

ومن اطرف ما وقع نظري عليه ان صاحب جريدة ارسل الى عمال مطبعته نبي احد اصدقائه ، وكتب بذيل الورقة - اذا كان له محل - اي ان ينشروه اذا وجدوا للخبر محلاً في الجريدة لانها كانت على وشك الصدور ، وحذف المنضد خبراً تافها ونشر النعي مضافاً الجملة المذكورة الى آخر الخبر فجاء كما يلي :



واسكن الفقيد فسيح جناته اذا كان له محل ! . . وهذه المفارقات كثيرة  
تقعون على كثير من امثالها . . فقد قرأت منذ اسابيع نبأ عقد قران تحت عنوان

( انا لله وانا اليه راجعون ) ! ولعل السرعة وصدور الجرائد صباحية  
وسهر العمان الى الفجر هو الذي يخلق هذه الهفوات المطبعية التي لا تخلوا من  
فكاهة ولا تغرب عن افهام القراء !

قلت ان القارئ صارم في الحكم ويريد ان تكون الصحيفة التي يتابع  
قراءتها خالية من كل مأخذ وان تستجيب لكل هواياته . . وكأني به يؤمن بكلمة  
بوليتزر الذي يقول ( الدقة للصحيفة . . كالفضيلة للمرأة )



واعود ، بعد هذه الاستطرادات، الى ما كنت في صدره . . فقد اصبحت  
الجريدة العربية ، بعد ان مرت بفترات طويلة من الجهاد المضني العنيف ، اصبحت  
بحق ( السلطة الرابعة ) في الدولة و ( صاحبة الجلالة ) - شأنها في التوجيه  
شأن الملوك اقدماء في الحكم والسيطرة . . ولكن سيطرتها تختلف عن سيطرتهم ،  
لانها ، الى اداء رسالتها المثالية في التعبير عن رغبات الشعب والدفاع عن سيادة  
الوطن ، تقف من الحكماء الذين يمسون قداسة الحرية موقف المناضل الذي  
يستعذب كل ارهاق والم في سبيل اشاعة الحرية ومقاومة الطغيان وان ادى  
باصحابها ومحريها الى غيابات السجون . .

والصحفيون الذين قضوا ايامهم في السجون والمنافي كثيرون - اريد  
اصحاب العقائد الذين لا يبيعون ضمائرهم ولا يتخذون الصحافة مهنة كهنة الشحاذة  
وقطع الطرق بل يتخذونها اداة للتعبير عن فكرة وخدمة امة والنهوض بمجتمع

## والدفاع عن سيادة وطن

( فحياة الصحفي تبدو فوق السطور براقه كحياة نجوم السينما . . . مادب وحفلات ، ولائم ودعوات ، رحلات الى اوروبا وامريكا ، اتصالات بالمشاهير ، اسماء تسلط عليها الانوار . . . ولكنها وراء السطور حياة اخرى . . . حياة مرهقة متعبة ، اعصاب تمزق ، ودم يحترق ، اعاصير تهب من كل ناحية ، وعواصف تقتلع كل شيء حوله ، قد يجلس على مقعد مريح ، ثم ينظر تحت المقعد فاذا هو فوق بركان ، قد يرتفع رأسه فوق الرؤوس جميعاً لانه يقترب من جبل المشنقة ! قد يبدو للناس ماشياً في الصف الاول . . . ولكنه يكون متقدماً نحو الخطر فاذا انطلقت رصاصات العدو كان هو اول الضحايا كما هو اول الصفوف . انه لا يكتب دائماً بالقلم والمداد ! ان قلمه يغوص في بعض الاحيان في دمه فتبدو الكلمات ينزف منها الدم . . . واحياناً يغوص القلم في دموعه فتجسيء كلماته اشبه بالنحيب . . . واحياناً يكتب بجبر سحري لا يفهم معنى الكلمات الا الذين يقرأون الاحاجي والالغاز . . . وقد يهجر الصحفي بيته في سبيل مهنته . . . وزوجة الصحفي كزوجة الطبيب . . . لا تستطيع ان تضبط مواعيد زوجها في سبيل واجبه الانساني نحو مرضاه .

قال اديب مرة لصديقه ، وهو يستمع الى المتاعب التي يلاقيها الصحفي في زواجه : اذن مجنونة تلك التي تتزوج من صحفي . . . فاجابه . . . ولكنى اعرف صحفيين مجانين كثيرين تزوجوا قال : وهل تزوج هؤلاء الصحفيون من مجنونات!

اجابه : لا . . . ان زوجة الصحفي عادة تبجن بعد الزواج ! (١)

هذه صورة من حياة الصحفي الحر الذي يستهدف فكرة ويدافع عن

(١) يوميات الاخبار لمصطفى امين العدد ٧٣٢

عقيدة . مهمته ، في الواقع ، هي « مهمة القاضي الذي يقضي بين الناس ، والصحفي الذي يستحق احترام الرأي العام هو الذي يحمل بين جنبه ضمير انقاضي ، فلا يميل مع الهوى ، ولا يغالي في انصاف المحسن ولا يشتط في لوم المسيء ، ولا ينسى انه قد يهدم بكلمة ، وقد يرفع بكلمة . . ولهذا فان عليه واجباً هو ان يزن هذه الكلمة بميزان الضمير والحق والعدل ، حتى لا يظلم ولا يجور ولا ينحرف .

وعليه ان يراعي التوازن فيما يكتب فلا ينصب من نفسه هجاء ولا يسمح لنفسه ان يكون مداحاً على طول الخط ذلك لان الرأي العام حساس بطبعه ، وبقدر ما يأنس الى النقد البريء يرتاح الى المديح المعتدل الذي يوجه الى من يستحقه عن عمل قام به او خدمة عامة وفق اليها وليس عن رغبة او رهبة .

ان العدل من مستلزمات النجاح للصحفي تماماً كما هو من اساس القضاء وويل للصحفي الذي يجابي او يجامل او يظلم (١) .

ايها السادة

كنت اود ان اصف صحافة كل قطر من اقطار الشرق بما كانت عليه بالامس وما هي عليه اليوم . . ولكن هذا امر عسير وقد يأخذ مني وقتاً طويلاً فحسبي من الماع الى مراحل تطورها ان اقول انها قد اصبحت ، بعد هذه الوثبات ، قوة من القوى الهائلة في تسيير الرأي العام والتعبير عن رغباته وامنياته واصدق خلجاته . . فاستطاعت باثارتها الجماهير ان تهز المروش وان تنهض بالامة العربية نهضة امكنها ان تبلغ الكثير من عناصر سيادتها وبذلك ادت اخطر دور في

(١) يوميات الاخبار احمد لطفي حسونه العدد

تاريخنا القومي والسياسي والاقتصادي والاجتماعي وماتزال في الميدان تكافح  
وتناضل للوصول بالامة الى اسمى ماترجوه من امنيات ادناها الحياة الحرة الكريمة  
والسيادة المطلقة التي تتمتع بها الامم الحرة



والان ، بعد ان حدثكم عن الجريدة في مراحلها المختلفة احدثكم حديثاً  
موجزأً عن الصحافة الادبية . . اي عن المجلات والدور الذي لعبته في حياتنا  
الفكرية . .

لقد كانت الجريدة في البدء ثم المجلة :

وكما كان الافرنسيون اول من نقل فكرة اصدار الصحف اليومية الى  
الشرق فقد كان الامريكان اول من نقل فكرة المجلات الدورية الى الشرق .

في العام ١٨٥١ انشأ المرسلون الامريكان في بيروت مجلة ادبية بعنوان  
« مجموع فؤاد » على يد زعيمهم القس علي سميث . وهي باكورة المجلات التي  
ظهرت باللسان العربي واقدمها على الاطلاق . .

وقد حفز ظهور هذه المجلة غير واحد من المفكرين الى اصدار مجلات على  
غرار مجلات الغرب . . فصدرت في الفترة الواقعة بين سنتي ١٨٥٠ - ١٩٠٠ عدة  
مجلات اشهرها « يعسوب الطب » لمحمد علي باشا الحكيم ، و« الجنان » لبطرس  
البيستاني و« المقتطف » لصروف ونمر و« الشفاء » للدكتور شبلي شميل و« المشرق »  
للويس شيخو و« والاداب » للشيخ علي يوسف و« الهلال » لجرجي زيدان و  
« الضياء » للشيخ ابراهيم اليازجي وكثيرات غيرها . . وقد كانت ، جميع هذه  
المجلات ، الى تبين نزعاتها ، ذات اهداف ثقافية عامة ، بسطها تنوير الازدهان

وتبصير الافهام . فالصحافة الادبية قد رافقت تطور البعث السياسي في الشرق . .  
ولا اعتمد الى المبالغة حين اقول ان الصحافة الادبية كانت من جملة العوامل التي  
مهدت للكثير من بواعث اليقظة والتحرر . . ولم يكن في الماضي القريب ثمة فرق  
بين الادب والصحافة بل كانت الصحافة بيد الادباء الذين يجسرون المقالات  
السياسية والاجتماعية والدراسات الادبية . وظل الحال هكذا الى سنوات قريبة  
حيث اصبح الصحفي يعني بالشؤون التي تفرضا حوادث الساعة بينما اخذ الاديب  
يعنى بالدراسات الادبية والاجتماعية والتاريخية دون الاهتمام بالمشاكل السياسية  
الا ما كان متعلقاً بالنواحي القومية . . وقد ادت هذه المجال اكبر خدمة لهضة  
الفكر ، وكانت بعضها كالمقتطف والملال اشبه بمدارس للثقافة العامة . . ولم  
يمنع الكثير من اعلام النهضة ان يعترفوا بفضل المقتطف عليهم فيما وصلوا اليه من  
مجد علمي ومركز ادبي .

فمنذ بداية القرن التاسع عشر الى يومنا هذا صدرت في بلدان الشرق  
العربي عشرات المجالات استطاعت ان تصل بين القارى العربي وبين شتى المذاهب الفكرية  
في الغرب ، الى العناية الكبرى بالثقافة العربية والحضارة الاسلامية . تنقل عن المستشرقين  
خلاصة بحوثهم كما نقل عن صحافة الغرب ومجالاتها العلمية احدث ما لديهم من ادب وعلم وفن .

وقد تنوعت فمن مجالات للحقوق والتشريع ، الى مجالات للسياسة والاقتصاد ،  
الى اخرى للادب والتاريخ ، الى مجالات دينية . . الى اخرى نسائية . . وقد ظهرت في هذه  
الفترات عدة مجالات نسائية . وكان لابداً للمرأة المتعلمة من ان تلج هذا الميدان . ويرجع  
تاريخ صدور المجالات النسائية الى نصف قرن تقريباً . . ففي سنة ١٩٠٦ اصدرت السيدة  
لبيه هاشم مجلة باسم « فتاة الشرق » . . ثم صدر بعد ذلك عدة مجالات في مصر وسورية  
ولبنان : اصدرت فاطمة راشد « ترقية الفتاة » وماري عجمي مجلة « العروس »  
وعفيفة صعب « الخدر » ونجلا ابي اللمع « الفجر » ونازك المايد « نور الفيحاء »

وجوليا طعمه الديمقراطية « المرأة الجديدة » وجوبه حداد « الحياة الجديدة »  
وماري بني « منيرفا » ولبية احمد « النهضة النسائية » ومنيرة ثابت « الامل » ونزلت  
الى الميدان زعيمة النهضة النسائية المرحومة هدى شعراوي فاصدرت مجلة « المصرية »  
باللغتين العربية والفرنسية . . وما تزال المرأة تكافح وترفع صوتها مطالبة بحقوقها  
السياسي ومكانتها الاجتماعية وهذه احدى ظواهر التطور الذي ترسي الصحافة  
قواعده .

وتعتمد اليوم كبريات الصحف على الجامعات في تحرير الصفحة النسائية . .  
وقد ترسلهن مندوبات عن الجريدة لخطر الاجتماعات ولمقابلة اعظم الرجال . .  
وتستطيع المرأة بذكائها ولباقها وسحر حديثها ان تنفذ الى الاعماق في استلال  
الاسرار المكنونة . .

ومن القصص الطريفة الواقعية التي ترمز الى ذكاء المرأة ان صحيفة مريكية  
اصدرت سنة ١٨٣١ مجلة لم يكتب لها النجاح . . وكادت تمخى بالفلاس . . ولا شيء  
يؤثر في اعصاب المرأة كالخيبة والفشل . . فماذا تفعل ؟

تفتق ذهن صاحبة المجلة عن حيلة رائعة ادت الى شهرة مجلتها ورواجها . .  
وكانت الحيلة بسيطة للغاية . .

لقد ظلت ، آن رويك وهو اسم صاحبة المجلة ، اكثر من اسبوعين تتبع  
اخبار « جون آدمز » رئيس جمهورية الولايات المتحدة ، وتستقصى حركاته  
وسكناته . . فعلمت ان الرئيس اعتاد الاستحمام في احدى البحيرات المجاورة  
لقصره صباح كل يوم . . فقصدت الى البحيرة وجلست على ملابس الرئيس التي  
تركها على الشاطئ . . ثم نادته وهو يستحم :

سيدي الرئيس : اني اريد حديثاً صحفياً منك لمجتي

فاذهلت المفاجأة الرئيس . . ولكنه استعاد هدوءه . . واعتذر للصحفية  
في اول الامر . . ثم اصر على الرفض عندما الحت عليه . . واخيراً اضطر الى  
الاجابة عن جميع اسئلتها بعد ان هددته باخذ ملبسه وتركه يخرج الى الطريق  
بملابس الاستحمام وكان هذا الامر في النصف الاول من القرن التاسع عشر فضيحة  
كبيرة قد تؤدي الى استقالة الرئيس .

وفي اليوم التالي نشرت الصحيفة الحديث في مجلتها وقصة الحصول عليه . .  
فثار ذلك ضجة كبيرة رفعت ارقام توزيع المجلة ارتفاعاً هائلاً (١) .



ايها السادة

وقبل ان اختم حديثي لابدى من كلمة سريعة عن الصحافة العربية في المهجر  
الامريكي ، وهي جديرة ان تخصها بكلمة توفية للبحث .

فحين هاجر السوريون الى امريكا يلتمسون الحرية والعيش ، كان من  
جملة ما فكر به الكتاب والشعراء اصدار الصحف لتكون لسان حال المهاجرين  
من جهة ، وصلة بين الوطن المجر من جهة ثانية . . فصدرت عشرات  
الصحف بل مئاتها في الامريكيتين الشمالية والجنوبية من الصعب تعدادها . .  
ولكن امانة البحث تقتضينا ان نشير الى اولى الصحف الرئيسية التي دخلت  
هذا الميدان بجرأة محمودة

ففي سنة ١٨٩٢ اصدر كل من الدكتور ابراهيم ونجيب غريبي جريدة

---

(١) حكايات صحفية ص ٥١

باسم «كوكب امريكا» وهي اول جريدة عربية ظهرت في الولايات المتحدة الاميريكية وقد قاسى منشأها مصاعب حمة ومتاعب كثيرة في سبيل مشروعها نخلو تلك الديار البعيدة من مهيمت المطابع العربية ومرتبتي حروفها . . لان الدولة العثمانية منعت بامر سلطاني بيع الحروف العربية وتصديرها الى البلاد الاجنبية ، فاضطر الى اتخاذ وسائل فعالة لبلوغ امنيتها . وكان اقوى مساعد لها سفير الولايات المتحدة الاميركية في عاصمة بني عثمان . . وهكذا تيسر لها بعد عناء شديد وصبر طويل استحضار الحروف العربية من بيروت مع مرتبها باجرة مكفولة . . وكانت جريدة «كوكب امريكا» تنشر في اللغتين العربية والانكليزية مزينة بالرسم الشرقية وصور مشاهير الرجال ، وكانت تكتب المقالات الصافية عن الشعب الاميركي النشيط ، وعن احوال الشرق الادنى واخباره وعادات اهله نفيماً لما كان ينقله السواح الاميريكيون عن الشرقيين من الروايات المخالفة للحقيقة . فان فريقاً من سكان امريكا كانوا الى ذلك الحين يظنون الشرقيين من المتوحشين اكلة لحوم البشر او من الامم التي لا يهنا لها عيش الا بالقتل والسلب والنهب . . لكنهم تبذلت افكارهم بما كانوا يقرأون على صفحات (كوكب امريكا) عن الاراضي المقدسة وعن اهل الشرق من الفصول الممتعة التي توضح جلياً فضل ابناء بلادنا وكرمهم واجتهادهم في سبيل العلم والحضارة . ولهذا الجريدة فضل عظيم في تمهيدها سبل العلاقات التجارية بين سورية والعالم الجديد (١)

وكان لانتشار هذه الجريدة اثره في نفوس غير واحد من المفكرين فولوجوا ميدان الصحافة بعزيمة جبارة - اصدر نعوم مكرزل سنة ١٨٩٤ جريدة (العصر) ثم اصدر مجلة شهرية باسم (الهدى) مالبست ان تحولت الى جريدة وما تزال تصدر الى اليوم ، وهي من اوسع جرائد المهجر ، ثم صدرت (مرأة

(١) تاريخ الصحافة العربية للفيكونت دي طرازي ج ٤ ص ٤٠٦



العرب) لنجيب دياب الذي ابلى بلاءً حسناً في سبيل الفكرة العربية . وظهر عدة جرائد بالتتابع اشهرها ( البيان ) و( السائح ) و( النسر ) وكثيرات غيرها . . ولم يقف صدور الجرائد العربية في نيويورك بل صدرت في بوسطن وديترويت ولورنس ماس وفيلادلفيا وسان لويس وكندا والمكسيك . . ولم يقتصر الجهد الصحفي على الجرائد اليومية بل صدرت عدة مجلات ادبية ذات نزعات حرة حسبنا ان نذكر منها ( الفنون ) لنسيب عريضة و ( والاخلاق ) ليعقوب روفائيل و ( السمر ) لايلى ابو ماضي ، و ( العالم الجديد ) للكتابة الشهيرة عفيفة كرم

وقد كانت هذه المجلات صورة صادقة لادب المهجر الذي رفع لواءه جبران خليل جبران وامين الريحاني وميخائيل نعيمة ونسيب عريضة وايلى ابو الماضي وندره حداد - هؤلاء الاعلام الذين قامت على اكتافهم جمجمة ( الرابطة القلمية ) التي ادت اكبر خدمة للادب العربي ، فقد انتجوا ادباً حياً عرف بالادب المهجري وهو صورة لتجدد الادب وسيره في طريق الحرية والحياة . .

و حين نكتفي بهذه اللوحة الحافظة عن الصحافة العربية في امريكا الشمالية لا بد من كلمة ايضاً عن الصحافة العربية في امريكا الجنوبية ، وقد هاجر اليها مغامرون بنو هناك مجدداً يطاول السحاب . وادت الصحافة رسالتها فكانت هي ايضاً صلة حية بين الوطن والمهجر . ففي العام ١٨٩٦ صدرت اول جريدة عربية في ريود وجينيرو بدم ( الرقيب ) لماشيها اسمد خالدونوم لبكي كما صدرت في سان باولو جريدة ( الاصمعي ) ثم صدرت في هاتين المدينتين الكبيرتين اكثر من ثلاثين جريدة منها ( الصواب ) و ( العدل ) و ( الحرية ) و ( البريد ) و ( الافكار ) و ( القلم الحديدي ) و ( الاتحاد العربي ) و ( الشرق ) التي تحولت الى مجلة ، وهي كمجلة ( العصابة ) لسان حال العصابة الانداسية من اعظم المجالات الفكرية اللتين

تخدمان الادب والعرب في تلك البرع .

وللمرة الثانية أو الثالثة أقول ان المجال لن يتسع الاطلاع الى جميع الصحف التي صدرت في تلك المناطق فحسي الاشارة العابرة .

وهكذا ، فان الصحافة العربية ، كما رأينا لم تترك بقعة من بفاع الارض الا تركزت ظلالاتها من اثرها . . ففي هافانا عاصمة جزيرة كوبا صدرت بنشوب الحرب الوطنية الاولى جريدة ( الارتقاء السوري ) ثم صدرت في عام ١٩٢٧ جريدة ( الاتحاد ) . فاذا انتقلنا الى الجمهورية الفضية رأينا في بوينس ايرس عشرات الصحف ظهرت منذ عام ١٨٩٩ اذكر منها ( السلام ) و ( الزمان ) و ( الحالية ) و ( النسر ) و ( الشمس ) و ( بقظة العرب ) و ( الاستقلال ) و صدرت في جمهورية شيلي عدة جرائد اشهرها الوطن والاصلاح والمنبر . . وفي الجمهورية الدومينيكية ( الجراة الادبية ) . . وفي جمهورية اوراغواي ( العروة الوثقى ) . . وكما صدرت الجرائد السياسية صدرت المجلات الادبية اشهرها ( الدليل ) لوفيق صنعون و ( الجديد ) للشاعر الكبير الياس فرحات و ( المجلة ) للدكتور خليل سعاده و ( الاصلاح ) . للدكتور جورج صوابا و ( التمدن ) لاشهر خطباء العرب حبيب اسطفان .

وهكذا ، فان الصحافة العربية ، لم تترك بقعة من بفاع الارض الا وقد اوقت ، كما قلت ، اثرأ من فيض اشعاعها ، في آسيا وافريقيا واوروبا وامريكا . . وكان اثرها في تطور الحياء الثقافية وتطور الشرق العربي بعيد المدى . وقد لعبت دور في تمازج الثقافتين الغربية والشرقية . . - نقلت الى الشرق جميع انظمة الغرب ومظاهر حياته واسس نهضته فكان لذلك اثره غير المنكور في

هذا التطور

ولا علينا ان نردّ الكثير مما بلغه الشرق العربي في حياته السياسية والاجتماعية الى الصحافة التي كانت المهد الاول لوصول شعوبه الى الكثير من الامنيات الكبرى في الحياة الحرة والسيادة الكاملة والسلام

١٠ / ٢ / ١٩٥٥

سامي الكبالي



المحاضرة الثالثة عشرة

## الضمان الاجتماعي

الدكتور علي عبد ضامبي

= القيت بتاريخ ١٨/٢/١٩٥٥ =

مکتبہ اسلامیہ

پبلشرز اسلام آباد

پبلشرز اسلام آباد

— ۱۹۷۷ء —

## الضمان الاجتماعي

الضمان الاجتماعي هو الموضوع الذي طال تردده على الالسنة لفظاً ولم يخل من ذكره برنامج حزبي او بيان وزاري ، على كثرة الاحزاب وتعدد الحكومات ، انه الموضوع الذي يمس الحاضر ويتصل بالمستقبل والحياة ، مستقبل الطبقة المنتجة من الناس ، وحياة الاكثرية العديدة من السكان ، او ائلك الذين يشكون من قلة الاجور وارتفاع الاسعار وضعف قوة الشراء وعدم كفاية الموارد لتأهين الضروري من الحاجات ، او ائلك الذين يمسون على الفقر وينامون على الجزع ، ويحملون بالخاوف المقبلة والمخاطر المفاجئة ، ويصبحون على البطالة او المرض او العجز او جميع ذلك ، وليس لهم الا قوة الساعد وشدة الصبر على المكروه والقدرة على تحمل الصعاب ، فمنهم من ييأس ويقنط الا من رحمة الله ، ومنهم من يسعى مع ايمانه للدفاع عن الحق والعمل للقضاء على البوم الاسود والعدا الخفيف والمستقبل المحفوف بالاحطار .

★ ★ ★

هل نعلم ، ونحن نتمتع بصحبتنا ونشاطنا الجسمي والفكري ، عدد المرضى الذين قضوا نحبهم بسبب اشتداد المرض عليهم وعدم توفر التداوي والمعالج والسكن الصحي والغذاء الضروري؟ وهل نستطيع عد الزفات والآهات التي تتصاعد حالياً من افواه وافئدة المرضى الفقراء في اقبية العمال والمستخدمين ، واكواخ الزراع والفلاحين حيث تفتقد مقومات العيش والحياة؟ وهل لدينا فكرة عن هؤلاء المنتجين الاشداء الذين اقدم المرض العضال المديد كالسل والسرطان والجنون ، وآذاهم العمى والحرس والطرش فاصبحوا مصيبة على انفسهم وعالة على اهلهم وذويهم وحملات ثقيلة على المجتمع الذي يعيشون فيه؟

هل قدرنا الصعوبات التي تتعرض لها اسر اصحاب الاجور الضئيلة حين تكون ربة المنزل حاملة ومريضة وهي المسؤولة عن تدير شؤون بيتها الصغير الخفير الذي يضم العدد الوفير؟ وكيف بها وقد قارب الوضع على تحمل هذا الحال؟ وكيف بها اذا تعذرت الولادة ولم تتم بشكها الطبيعي؟ وكيف اذا اقتطع حليها ولا يملك زوجها اجرة الموضع او ثمن الحليب؟ وكيف يكون حال الاسرة اذ ذاك من الوجهة النفسية فضلاً عن الناحية الصحية الموصوفة ، كيف لا يصبح زوجها عصبياً؟ وكيف لا يقصر الاولاد وتسوء تربتهم؟ وكيف لا يقع في الاسرة عنف وخصام؟

كيف حال من يضطر الى مغادرة البيت لكسب الرزق وفي البيت اب مقعد او ام عاجزة مفلوجة دون معين او مورد؟ وكيف لا يكون باله مشغولاً وذهنه متعباً في عمل مرهق يحتاج الى الحيلة لاسيما في المعامل التي ما تزال في حاجة الى الوقاية الصحية والفنية؟ وكيف ينجو وهو في هذا الاضطراب من طارئٍ يفاجؤه فيؤدي الى بتر الاصبع او فقد اليد او الساق وهي رأسماله الوحيد على الانتاج في هذه الحياة؟



الم يبلغ مسامعنا بين حين وآخر ان بعض البؤساء قد فارق الحياة دون ان يبقى لاسرته التي كان يعيلها النفقة التي توصله الى مرقد الاخير ؟ او لم نسمع ، مع التأثر ، ان بعض التعساء والمساكين قد استدانوا لتأمين نفقات دفن الشخص الوحيد الذي كان مسؤولاً عنهم في الحياة ؟

كم وكم من العمال قد تعرض لحوادث العمل واصابته وللامراض المهنية المتعددة كالآفات الرئوية والعينية والانفية والجلدية الناتجة عن غبار المواد الصناعية في المعادن والنسيج ؟ وكم قد تسمم منهم في صناعة المواد السامة كالرصاص والفحم والكبريت في المناجم والمخابر ؟ وكم قد تعرض منهم للفتق في صناعة الزجاج ، والحروق في صهر المعادن ، وللسل في صناعات الغزل والكوي والتنظيف ، وكم وكم قد تعرض منهم لفقد الحواس ؟

ما فجع هذه الامراض والآفات ، وما اكثر هذه المخاطر والمخاوف ، ما اكثرها تعدداً وتنوعاً وما ابلغها شدة واثراً .

\* \* \*

الضمان الاجتماعي هو النظام الحديث المبني على تضامن الهيئة الاجتماعية وتكافلها عن طريق الدولة او المؤسسات العامة او المؤسسات الخاصة ذات النفع العام ، الوقاية من تلك الآفات الاجتماعية والمخاطر الصحية والصعوبات الاقتصادية وللحيلولة دون وقوعها او للتخفيف من حدة وطأتها والتأمين ضدها بالتعويض عليها بمساعدات عينية او تعويضات نقدية بتأثير الدافع الانساني والاجتماعي في سبيل الاستقرار والاطمئنان . وفي سبيل زيادة الانتاج وتقدير المنتجين ، فهو عمل اجتماعي واقتصادي وخلق في آن واحد ، يراى به اعادة توزيع الدخل القومي بطريقة غير مباشرة بتقديم المساعدات العينية مجاناً والاعانات المادية تعويضاً لقاء

التعرض لهذه المخاطر في حياة الانتاج ، من قبل الطبقة التي تنتج ولا تستكفي  
والاشخاص الذين ينفعون فيتضررون .

الضمان الاجتماعي هو النظام الحديث الذي يقوم على التعاون على الخير  
وتكفل بمقتضاه الجماعة الفرد في حالات الحاجة بسبب المرض والشيخوخة  
والمعجز والاصابات والمخاطر والوفاة ، وقد قال تعالى « وتعاونوا على البر  
والتقوي »

انه حماية المجتمع للفرد ضد المخاطر التي يتعرض لها في عمله وانتاجه  
وحياته .

انه القضاء المبرم على اليوم الاسود والغد الخيف والمستقبل المجهول المحفوف  
بالمخاطر والمفعم باسوأ المفاجئات .

انه انتصار الاطمئنان على الجذع والخوف من سوء المسير .

انه حق الفرد على الجماعة وواجب الجماعة نحو الفرد .



فما هو الضمان الاجتماعي ؟ وما هو اصله وتاريخه ؟ وكيف تطورت مفاهيمه  
حتى تحقق ؟ وما هي اهدافه وغاياته ؟ وما هي مبادئه واساليب تطبيقه ؟ وما هي  
منظماته ومؤسساته ؟ وما هي موارده واشتراكاته وتعويضاته ؟ وما هي نتائج  
تطبيقه ؟ وكيف يطبق في بلاد العالم المتمدن ؟ وما هي الفروق بين انظمتها المختلفة  
في تلك البلاد ؟ وكيف يمكن تحقيقه عندنا ؟ ومن الذي نرجوه لتحقيقه ؟

تلك هي المواضيع التي يجب ان تعالج وليكن في ايجاز غير مغل  
واختصار غير مبهم .

عرف التضامن الاجتماعي منذ الازل ، عرف منذ احتاج الانسان الى  
اخيه الانسان للتغلب على قوى الطبيعة ، وللتأزر على تأمين الحاجات ، فبعد ان  
كان يستعين للاطمئنان على حياته ضد كوارث الطبيعة واطارها ومخاوفها  
بالعزلة والاختفاء ، اعتمد على الاسرة لرد العدوان وتأمين الحياة والتغلب على  
صعوباتها والسهر على المريض والعناية بالماجز ، ثم اتسعت دائرة التضامن فاصبح  
تضامن العشيرة والقبيلة ، وبأبي الانسان الا ان يكون ظالوما ، فينقلب التضامن  
على السير الى تعاون على الاثم والعدوان ، في سبيل الغزو والنهب ، فتحتاج  
البشرية الى ارشاد الدين في سبيل المحبة والأخاء والسلم وتدعو الاديان الى التعاون  
والتضامن في سبيل الخير والصالح ، انما المؤمنون اخوة ، والمؤمن المؤمن  
كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، ولكنه الانسان يجب الشر فيجد من  
اختلاف الاديان والمذاهب وتعدد الاوطان والامصار وتباين اللغات والعروق  
اسبابا جديدة للحروب والقتال وكأن الانسان في نضال مستمر بحجة الاستقرار  
وفي حرب مستمرة بحجة السلم حتى كانت الثورة الصناعية الكبرى وكان من  
نتائجها الاستثمار والاستعمار ، فكافح المستعمرون في سبيل التحرر السياسي وناضل  
المستثمرون في سبيل التحرر الاقتصادي ، فنجحت بعض الشعوب في تحقيق الاستقلال  
والسيادة وتقرير المصير ومازالت شعوب اخرى تزرح تحت كابوس الاستعمار ، ونجح النضال  
الاقتصادي والاجتماعي ضد الاستثمار فاقرت العدالة الاجتماعية في بعض الاقطار وحقق  
الضمان الاجتماعي في كثير من الامصار ، ومازال القسم الاعظم يرسف في قيود الاستثمار .

اجل ، لم يعد الانسان المعاصر قادراً على مقاومة الاخطار الاقتصادية  
والاجتماعية بمفرده او بالاستعانة بالاسرة والاهل والجوار ، لان صعوبات العيش  
وهبوط مستواه المادي لدى الكثيرين من السكان وتضخم النقد وضعف قوة  
الشراء ، جعل الاقتصاد الفردي غير كاف لضمان الغد الخفيف والمستقبل المجهول  
المحفوف بالآفات والمخاطر ، ولم يعد بالاستطاعة توفير القرش الابيض لليوم الاسود ،  
لان القرش الابيض قد تضاعف قيمته ولم يعد يفي بالحاجات اليومية الضرورية

حتى يوفر لليوم الاسود ، بل الالام السود عدا وكيفا ، غير ان خلود الحياة كفيفل بايجاد الحل لكل معضلة والعلاج لكل داء والاستقرار لكل اضطراب ، وهكذا بدأ التضامن الاجتماعي في البشرية بشعور الشفقة والرحمة من الفرد نحو الفرد ، ولما يقن الناس بعدم كفاية هذه العواطف على نبلها في القضاء على العوز والبؤس ، لاقتصارها على افراد دون آخرين ، ولاانحصارها في الاهل والجوار والاصدقاء دون باقي المحرومين والمعوزين ، عمدوا الى تأسيس الجمعيات الخيرية فكانت اول مظهر من مظاهر العمل المشترك في سبيل تعميم البر والاحسان وتأسست المستشفيات والمستوصفات ودور العجزة وملاجئ ذوي العلل والعاهاات ولكنها لم تقض على الفقر والبؤس والمرض والشيخوخة والعجز على الرغم من فائدة ونفع تلك المؤسسات ، وكان لابد من رد لجميع هذه المخاطر الاجتماعية والصحية والاقتصادية الى سبب ، وكان لابد من ايجاد حل يقضي على السبب من اساسه ، فوجدت البشرية بعد اجتياز مراحل البؤس علة هذه المخاطر واوجدوا لها حلا وعلاجا ، اما العلة فهي « عدم الاطمئنان الى الغد الخيف والمستقبل المجهول » واما العلاج فليس في عمل البر والخير والتنادي الى الاسعاف والاحسان في عمل فردي وطوعي وانما « في حق الفرد بالاطمئنان وواجب الجماعة لضمانه » وهكذا تشخص الداء ووجد الدواء .



ليس من حقنا الآن ان نفتخر بان هذا الذي اوجده الغربيون الآن وهم في اوج حضارتهم ، قد فكر فيه شرعنا منذ اربعة عشر قرنا في نظام الزكاة ، هذا النظام الذي لايقوم على طوعية الفرد في عمل الخير والتضامن الاجتماعي ، بل على واجبه الازامي في دفع نصاب محدود لتغذية بيت مال خاص ينفق منه عيناً ونقدا على اهمل الحاجة من المرضى والماجزين والشيخوخ والايتام والارامل ،

هذا النظام الذي بني على حق الفرد « وفي اموالكم حق معلوم للسائل والمحروم، وعلى واجب المجتمع باعتبار الزكاة فرض عين على القادر؟ او ليست غاية الزكاة كغاية التضامن الاجتماعي اعادة توزيع الدخل العام بطريق غير مباشر بغية ضمان الحد الأدنى لعيش انساني كريم؟ ولئن قيل ان نسبة ما يدفع الى صناديق الضمان الاجتماعي اكثر من نصاب الزكاة، قلنا ما نظن ان زيادة النصاب ممنوع، لان الفرض يكون للاقل، ولا يمنع معه الاكثر، مادام الرائد خير الناس وتأمين حياتهم في الحاضر ومنع المخاطر عنهم في المستقبل، ولئن قارنت بين فكرة التضامن الاجتماعي وفكرة الزكاة فليس من قبيل التعصب المألوف في الشرق يرد كل شيء اليه اختراعاً او اكتشافاً او مؤسسة او نظاماً، فنظام الشوري ايس بالنظام البرلماني ونظام الزكاة ليس بالتضامن الاجتماعي، ولكن غايته مشتركة واساسه واحد كلاهما مبني على « حق الفرد في الاطمئنان وواجب المجتمع في حماية الفرد ».



اما تاريخ تشريع التضامن الاجتماعي ( Solidarité Sociale ) فهو ان الثورة الفرنسية قد حررت الفرد من « المنظمات المهنية التسفوية المعروفة باسم ( Corporation ) ومنحت الفرد الى جانب الحريات السياسية المساواة امام القانون ولكن الثورة ابقت الافراد احراراً بلا ضمانات ومتساوين نظرياً لافي الامكانيات في نظام الحرية الفردية والمزاحمة وقانون العرض والطلب العمل والاجور، فادركوا بعد مدة انهم تحرروا سياسياً ولكنهم لم يتحرروا اجتماعياً واقتصادياً، فتضامنوا على اثر الثورة الصناعية وبعد بؤس وارهاق مرير فكونوا النقابات واشعروا الحكومات بضرورة التدخل في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية تدخلاً يحمي الفرد من جشع الفرد، وفي سبيل السلامة العامة،

فشرعت القوانين لحماية النساء والاحداث من الاعمال المرهقة في جميع البلاد الصناعية وانتقلت منها الى سواها ، وتأسست الشركات الخاصة للتأمين على المخاطر ، فأمن عليها من استطاع ، واقرت الدولة مسؤولية رب العمل في حوادث العمل وامراض المهنة ، الامر الذي جعل ارباب الاعمال يؤمنون لدى شركات التأمين الخاصة على عملهم ضد تلك المخاطر وينجون بذلك من مسؤولية التعويض ، وكان التأمين طوعياً واختيارياً حتي اذا شعرت الدولة بالمزيد من الحوادث ، واستمعت الى المزيد من مطالب العمال المتضامنة في سبيل التأمين عليهم فرضت التأمين الاجباري وقبلت هذه النظرية حتى من اشد انصار الحرية الفردية في النظام الاقتصادي ، وكان اول تشريع للتأمين الاجباري انما هو القانون الذي اصدرته حكومة بسمارك في المانيا عام ١٨٨٣ ، ثم عمت قوانين التأمينات الاجتماعية Assurance sociale جميع الدول الصناعية وتأسست من اجلها مؤسسات خاصة اعتبرت ذات نفع عام .

وكان اول قانون صدر في هذا الصدد هو القانون الذي اصدرته حكومة لويد جورج في انكلترا عام ١٩١١ وقضى بمنح تعويضات نقدية للعمال المأجورين اثناء المرض وحين الاصابات الناشئة عن العمل ومن اجل الامومة ، مع مجانية التداوي والعلاج للعمال المؤمنين فحسب ، كما سمح باعطاء التعويضات اليومية لقاء البطالة في بعض الصناعات الكبرى ، وكان الطابع الرئيسي لهذا القانون انه لا يستفيد منه الا العمال الذين آمنوا على انفسهم بدفع بدلات شهرية مقطوعة ، وكانت موارد هذه المؤسسة « التأمين الاجتماعي » تجي من بدلات اشتراكات العمال المؤمنين وارباب الاعمال مع مساعدة الدولة . وما كادت الحرب العالمية الاولى تنهي حتى استؤنف النشاط في سبيل انتشريع الاجتماعي بمساعدة مكتب العمل الدولي ، ففي بريطانيا توسع قانون البطالة في شموله عام ١٩٢٠ ، وفي عام ١٩٢٥ سن تشريع يقضي بدفع تعويضات لايتام وارامل الاشخاص

المؤمنين ، وتشريع آخر يقضي بدفع تعويضات للشيوخ ، وفي عام ١٩٣١ صدر تشريع بمنح تعويض للبطالة باسم « تعويض الانتظار » وفي فرنسا « صدر اول قانون للتأمينات الاجتماعية الاجبارية عام ١٩٣٨ ثم صدر اول قانون للعلاوات والتعويضات العائلية في عام ١٩٣٢ ، وهو القانون الذى فرض على ارباب الاعمال دفع اضافات على الاجور بالنسبة للعامل المتزوجين ذوي الاولاد .

وفي امريكا ، موطن حرية المساعي الفردية ، كان على كل امريكى ان يضمن نفسه بتأمين شخصي ، ثم كانت الازمة الاقتصادية لعام ١٩٣٣ وكانت البطالة الكبرى التي لم يعرف التاريخ مثيلاها ، فصدر قانون في عام ١٩٣٥ قضى بالناأمينات الاجبارية وقضى بالتعويض على البطالة والتعويض على الشيخوخة وكانت نظرتهم الى تلك القوانين نظرة اقتصادية لاجتماعية شأنهم في ذلك حتى في السياسة ، على ان يساهم المال بمقدار مساهمة ارباب الاعمال في الاشتراك بتلك التأمينات

تلك هي تطورات تشريع التأمينات الاجتماعية حتى نشوب الحرب العالمية الثانية ، وما كادت تعان الحرب حتى وجد ساسة المتحاربين وزعمائهم وحكامهم ان افضل وسيلة لازكاء حماس المتحاربين ، وهم اجمالا من الطبقات المنتجة ، ان يصار الى وعدم برغد العيش والاطهئنان والازدهار في فترة السلم لما بعد الانتصار هكذا وعد هتلر وموسوليني وهككذا وعد روزفلت وتشرشل ، ولا اقول ستالين لان العدالة الاجتماعية كانت محققة في الاتحاد السوفيتي منذ اعلان الثورة في عام ١٩١٧ ، وقد صرح الرئيس روزفلت حقا بانه لاعمى للحرية الانسانية دون التحرر من الفاقة والعوز والتحرر من الخوف ، فقرر مؤتمر فيلادلفيا التوصية باتخاذ جميع التدابير الآيلة التي تحقق الضمان الاجتماعي وتوحيده لتحقيق دخل اساسي ثابت لكل من كان في حاجة للحماية من مخاطر المستقبل ، ووضع في امريكا عام ١٩٤٣ مشروع الضمان الاجتماعي ضد البطالة والشيخوخة للعامل وضد

المرض لجميع المواطنين . اما في انكلترا فقد وضع التقرير المشهور بتقرير بيفريدج عام ١٩٤٢ عن الضمان الاجتماعي ، ولم ينل تقرير من الشهرة بقدر ماناله هذا التقرير لانه اول مشروع للضمان الاجتماعي في العالم باستثنا الاتحاد السوفيتي ، وقد ذكر في تقريره « اذا عرف المواطنون الديموقراطيون مصيرهم في اوطانهم بعد الحرب عرفوا لماذا يحاربون الديكتاتوريات ، وعلى الانسان ان يحارب في سبيل السلم والاستقرار لا ان يحارب ليعود بمدن الى حياة النضال وعدم الاطمئنان الى المستقبل والمصير » وقد قال في تقريره « ان الشعب لا يريد مساعدة واسعافوا لكنه يريد حقا وتعويضاً لقاء الاشتراك الذي يدفعه في سبيل التأمين وهو حق الموظفين في التقاعد » واقترح في تقريره ان يكون للضمان الاجتماعي صفة الشمول في سبيل تغطية الحاجات الرئيسية لجميع السكان ، كما اقترح ان تؤلف وزارة خاصة باسم « وزارة التأمين الوطني » هذا وقد اقر البرلمان الانكليزي تقرير بيفريدج في عام ١٩٤٣ . وصدق القانون على يد حكومة العمال في عام ١٩٤٦ ودخل في طور التنفيذ في ٥ تموز ١٩٤٨ .

اما في فرنسا فقد كانت قوانين التشريع الاجتماعي لديها متعددة ومتباعدة في الزمن ، وكان لديها عدة مؤسسات قائمة للتأمينات الاجتماعية ، فارادت حكومة التحرير ، عندهم ، ان تتبنى جميع اهداف المؤسسات القائمة ودمجها في تشريع موحد ، فاصدرت تشريعاً في عام ١٩٤٥ يشمل التأمينات الاجتماعية والتأمينات ضد طوارئ العمل وامراض المهنة والتعويضات العائلية في مؤسسة واحدة باسم « الضمان الاجتماعي » وهي المؤسسة التي ضمت لجميع السكان دون استثناء مخاطر المستقبل « حيث كفل المجتمع كل فرد ضد المصائب الاجتماعية وسمح له بالزيد من التشمبات الشخصية الفردية .

وهكذا يمكن تلخيص مراحل تطور التضامن الاجتماعي كما يلي ،



- ١ - شعور الشفقة والرحمة من الفرد نحو الفرد .
- ٢ - الجمعيات الخيرية ومؤسسات البر والاحسان للأفراد .
- ٣ - التأمين الشخصي الطوعي لدى شركات التأمين الخاصة .
- ٤ - التأمين الطوعي لأرباب الاعمال على عمالهم لدى شركات التأمين الخاصة .
- ٥ - التأمين الاجباري .
- ٦ - شعور الفرد بمحقة في الاطمئنان والمجتمع بواجبه في الحماية ، وتحقق الضمان الاجتماعي .

ويلاحظ ان العالم قد خطى في التشريع الاجتماعي ثلاث مراحل كبرى في ثلاث مناسبات تاريخية .

- ١ - ظهور التشريع الاجتماعي بعد الثورة الصناعية .
- ٢ - تصميم مبدأ التأمينات الاجتماعية بعد الحرب العالمية الاولى .
- ٣ - تحقيق « الضمان الاجتماعي » بعد الحرب العالمية الثانية .



قلت ان الضمان الاجتماعي هو مؤسسة حديثة انشئت بعد الحرب العالمية الثانية وعممت في مختلف دول العالم المتمدن ، مع اختلاف في طبيعة مؤسسات الضمان الاجتماعي وفي طرح الاشتراكات ومقدارها ، وفي مقادير التعميمات والمساعدات التي تقدمها لاهل الحاجة عند تعرضهم للمخاطر الاجتماعية والصحية والاقتصادية على الرغم من وحدة الغاية والهدف في ضمان المجتمع للأفراد حين المصاعب والشدائد ، فما هي هذه المصاعب وما هي مواضع التأمين والضمان ؟

يتناول الضمان الاجتماعي التأمين على الافراد لقاء المرض العادي والمرض  
المديد الاجل والامومة والوفاة والعجز الموقت والدائم والشيخوخة وحوادث العمل  
وامراض المهن مع التعويضات لقاء اعباء العائلة .

فبعض الدول تقوم فيها مؤسسات الضمان الاجتماعي بتعاون مفروض بين  
العمال وارباب الاعمال تحت اشراف الدولة ووصايتها الادارية دون اية مساعدة  
مالية الا في حالات تسديد العجز كما هو الحال في فرنسا وبلجيكا ومعظم  
الدول اللاتينية .

وبعض الدول يساهم في الضمان الاجتماعي فيها ارباب العمال والعمل  
والدولة معا كما هو الحال في انكلترا وفي البلاد السكندنافية وهناك دولة  
واحدة تفرض فيها الدولة على ارباب الاعمال فحسب امر حماية العمال كما هو الحال  
في يوغسلافيا .

وهناك الاتحاد السوفيتي حيث تهتم الدولة بالضمان الاجتماعي لجميع السكان  
دون استثناء لانها تملك وحدها جميع وسائل الانتاج .

ولما كان من الصعب بل من المستحيل ان يصار الى تفصيل جميع هذه  
الانظمة المختلفة في مقال واحد لذلك اراني مضطرا لبحث كيفية سير الضمان  
الاجتماعي في احدى الدول ، ولتكن فرنسا ، على ان اذكر في الختام ما يمتاز به  
كل نظام من الانظمة المختلفة وما ينفرد فيه من الشؤون والاحكام .

تضم مؤسسة الضمان الاجتماعي في فرنسا ثلاث منظمات هي «

اولا — منظمة التأمينات الاجتماعية وتتولى شؤون التأمين ضد المرض

العادي والمرض المديد والامومة والعجز الموقت والشيخوخة  
والوفاة .

ثانياً — منظمة التأمينات الاجتماعية ضد طوارئ العمل واصابته  
والامراض المهنية وتناول العجز الدائم والشيخوخة الدائمة .

ثالثاً — منظمة التأمينات المتصلة بالتعويضات والعلاوات العائلية .

ولكل من هذه المنظمات الثلاث صناديقها ومجلس ادارتها ونظامها الخاص  
الاشتراقات ، واسلوبها الخاص في تقديم المساعدات والتعويضات ، وتجتمع  
جميعها في ادارة عامة واحدة باسم الضمان الاجتماعي وهي مؤسسة عامة ذات نفع  
عام واستقلال ذاتي ومالي بإشراف الدولة .

### « التأمين ضد المرض العادي »

يستفيد من هذا التأمين الاشخاص المؤمنون جبراً او طوعاً هم وافراد  
اسرهم وهم « الزوجة ان لم تكن ذات مهنة او تجارة » والاولاد الذين هم دون  
السادسة عشرة من العمر ولو كانوا اصحاب اجر ولغاية العشرين اذا كانوا يتابعون  
الدراسات او كانوا عاجزين عن العمل ، ويشمل هذا التأمين كل من كان يعيش  
في كتف الشخص المؤمن اذا كان لا يستفيد هو نفسه مباشرة من التأمين .  
ويشترط في المستفيد من هذا التأمين ان يكون قد عمل بمقدار ٦٠ ساعة على  
الاقل خلال الاشهر الثلاثة السابقة لتاريخ المرض وتشمل الاستفادة ايضاً من  
كان في حال البطالة غير المقصودة خلال تلك المدة المذكورة .

« ويتناول التأمين ضمانين اثنين »

١ — المساعدات العينية معالجة وتداوي اخلال مدة المرض ووفقا لمستزماته.

٢ — التعويضات النقدية وتدفع للمرضى تعويضاً عن الدخل المنقطع بسبب المرض .

وتشمل المساعدات العينية الطب العام والطب الخاص وطب الاسنان والاستشفاء والدواء والعلاج وكل ما يلزم من الادوات كالنظارات ولوازم الاسنان وادوات التجبير وكذلك الاستجمام في مراكز الحمامات المعدنية والاصطياف ، مع الملاحظات الآتية .

١ — ان نسبة مساعدة صناديق الضمان الاجتماعي للمرضى هي ٨٠٪ من جميع نفقات المعالجة والادوية المذكورة وتبلغ في كثير من الاحوال ١٠٠٪ .

٢ — اما ان يدفع المريض نفسه نفقات المرض ومن ثم يقدم الوصولات الى صندوق الضمان الاجتماعي فيرد اليه النسبة المقررة آنفاً او ان يخصم له الطبيب او الصيدلي او المستشفى تلك النسبة من المساعدات ويدفع المريض ٣٠٪ و ثم يطالب هؤلاء صندوق الضمان الاجتماعي بالمبلغ المحصوم وقدره ٨٠٪ كما ذكرنا

٣ — ان المريض حر في انتقاء الطبيب والصيدلي والمستشفى ، وهناك تعرفة محدودة اقرت باتفاق مسبق متبادل بين ادارة الضمان الاجتماعي وتقابات الاطباء والكثير من المستشفيات والعيادات .

٤ — لا تقدم المساعدات لاكثر من ٦ اشهر من اجل نفس المرض وتجدد اذا اقلب الى مرض آخر ثم تنقل الى نوع آخر من

المساعدات هي مساعدات المرض المديد اذا لم يتم الشفاء في تلك  
المدة او مساعدات العجز اذا استطال ايضاً .

ويدخل في تقديم المساعدات نفقات البقاء في المستشفى قبل العملية وزمن  
النقاهة وجميع مصاريف التحاليل والتصوير والفحوص والتجبير وثمان الادوية  
والادوات اللازمة للشفاء ومصاريف الاستحمام في الحمامات المعدنية والاصطيف  
وتبديل الهواء مع نفقات السفر في الذهاب والاياب .

وبالإضافة الى تلك المساعدات الطبية والصحية يدفع للمريض تعويضات  
نقدية للاستعانة بها لقاء قطع الاجرة وفقدان الدخل بسبب المرض ، ولا تشمل  
هذه التعويضات الا اصحاب الاجور ، اما العمال المستقلون الذين يعملون لحسابهم  
فلا يستفيدون الا من المساعدات الطبية والصحية ، ان التعويضات النقدية تحسب  
على اساس الاجرة مع اعتبار الوضع العائلي للمريض ، وهي تعادل نصف الاجرة  
تقريباً على ان لا تتجاوز حداً مقررأ ، وتزداد الى الثلثين في حال وجود ثلاثة اولاد  
فاكثر ، كل ذلك اذا تم المرض في البيت ، اما اذا دخل المريض المستشفى فتخفض  
التعويضات النقدية بمقدار  $\frac{3}{5}$  اذا كان اعز بالاعيل احداً ، وبمقدار الخمسين اذا  
كان مسؤولاً عن زوجته تحسب وبمقدار الخمس اذا كان يعمل شخصين ، ولا يخفض  
له شيء ولو في المستشفى اذا كان المريض يعمل اكثر من شخصين اثنين .

وتدفع هذه التعويضات اعتباراً من اليوم الرابع للانقطاع عن العمل  
بسبب المرض ، وتستمر لغاية ستة اشهر من اجل مرض واحد ، وتدفع عن  
جميع الايام بما في ذلك ايام الاعياد والعطل .

اما اذا ابقى رب العمل كل الاجرة للعامل المريض او بعضها  
خلال مدة المرض او جزءها فان صناديق الضمان الاجتماعي تخفض التعويضات

بمقدار تلك النسبة .

اما في انكلترا فقد تأمم الطب والعلاج واصبح مجانا لجميع السكان بلا استثناء ويشمل الاجانب سواء كانوا مقيمين ام عابرين .

### «التأمين ضد الامراض المديدة»

المرض المديد هو المرض الذي لا يمكن الشفاء منه مبدئياً قبل ستة شهور مع احتمال الشفاء التام او التحسن بسبب العناية الصحية والمداواة في مدة لا تتجاوز ثلاثة اعوام ، ويستفيد من التأمين في حالات المرض المديد ، كاسل والسرطان ، كل شخص مؤمن هو وافراد اسرته المذكورين قبلا على ان يكون قد تسجل في مؤسسة الضمان منذ عام على الاقل ودفع الاشتراك بانتظام ، وعمل مالا يقل عن ٢٤٠ ساعة في العام المنصرم لوقوع المرض المديد ، ويثبت المرض المديد بتقرير مشترك يقدمه الطبيب المداوي مع طبيب مؤسسة الضمان ، ويلاحظ في هذا التأمين ما يلي .

١ - ليس من الضروري ان يقطع المريض وقتاً مديداً عن العمل ليستفيد من المساعدات والتعويضات .

٢ - ليس من الضروري ان يمرض الشخص المؤمن مالا يقل عن ستة شهور ليستحق المساعدة والتعويض بل يستفيد حتى الابلال .

٣ - لا تقوم المساعدات الطبية والصحية والتعويضات النقدية اكثر من ثلاثة اعوام مبدئياً ويجوز تمديدها في بعض الاحوال فاذا استمرت يتقلب التأمين الى نوع آخر هو التأمين ضد العجز الموقت او الدائم .

٤ - يجوز ان يسمح للمريض خلال تلك المدة بالتأهيل والتكوين المهني والعمل الخفيف ، وقد يكون ذلك مفروضاً في سبيل الشفاء .

٥ - تقطع المساعدات وتوقف التعويضات كلا او جزءا اذا لم يقيم المريض مريضاً مديداً بالالتزامات المفروضة عليه :

نكسوعه للتداوي المقرر والزيارات الطبية المطلوبة والمراقبة المفروضة وكضرورة امتناعه عن كل نشاط غير مسموح به وتقديم المساعدات الطبية والصحية في البيت او في المستشفى او في المصح ولكنها في هذه الحالة تقدم كاملة غير منقوصة ، ولا يساهم الشخص المؤمن في قليل او كثير من نفقات العناية اللازمة التي تقتضيها طبيعة المرض المديد المقرر دون سواء ، واما التعويضات النقدية فتدفع شهرياً وخلال مدة انقطاع المريض عن العمل وتعادل مبدئياً نصف الاجرة الاساسية على ان لا تتجاوز حدا اعظماً مقررأ ، وتزداد نسبتها بتزايد الابعاء العائلية ، وتخف في بعض الحالات كالدخول الى المستشفى والمصح وكبقاء الكسب في بعض الاعمال ، وهناك حالات تزيد فيها التعويضات النقدية للمريض على اجرة الاساسية التي كان يتقاضاها قبل المرض ، وذلك بالنسبة لشدة المرض ومدة العمل السابق وكثرة عدد الاشخاص الذين يعيشون في كنف المريض ومن كسبه .

#### « التامين في حال الامومة »

يستفيد من تأمينات الامومة الاشخاص الذين يستفيدون من التامينات ضد المرض ، والشروط المطلوب توفرها لامكان الانتفاع من المساعدات الطبية والصحية ، وتقاضي التعويضات النقدية هي كالشروط المطلوب توفرها في حالة التامين ضد

المرض مع اختلاف بسيط في مدة التسجيل السابق ، ومدة العمل السابق وبعض الشروط الاضافية كضرورة اعلام صندوق الضمان بالحمل قبل اربعة اشهر من الولادة ، والانتقاع عن كل عمل مأجور خلال مدة التعويض او خلال ستة اسابيع على اقل تقدير . وهي تشمل ايضاً المساعدات الصحية والطبية والتعويضات النقدية .

وتتناول المساعدات الصحية والطبية مايلي :

- ١ - كامل النفقات المقررة للولادة طبياً وعلاجاً اذا تمت الولادة في البيت .
- ٢ - كامل نفقات المستشفى اذا تمت الولادة في مستشفى من المستشفيات العامة او دور التوليد الخاصة بمؤسسة الضمان الاجتماعي .

- ٣ - اما اذا تمت الولادة في عيادة او دار توليد خاصة فتدفع الاجور المقررة بالتمعرفة كما لو تمت الولادة في البيت وتضاف اليها اجور المنامة حسب التمرفة مع جميع نفقات التداوي والعلاج .

وبالاضافة الى هذه المساعدات ، تدفع التعويضات النقدية خلال مدة الانتقاع عن العمل على ان لا تتجاوز المدة ستة اسابيع قبل الولادة وثمانية اسابيع بعدها ، وتحسب على نفس الاساس المقدر في تعويضات المرض ، على ان يمكن الغاؤها في الحالات الآتية :

- ١ - اذا لم يصرح بالحمل لمؤسسة الضمان في المدة التي يستطاع فيها مراقبة الحمل والتأكد منه .
- ٢ - طيلة المدة التي تمتنع فيها الحامل عن اجراء الفحوص والزيارات الطبية المفروضة عليها .



٣ - اذا هي اهلتم الحضور الى عيادة الاستشارات الطبية بشأن الرضع خلال ثمانية اسابيع بعد الولادة .

وتجري جميع الفحوص والاستشارات مجاناً في المراكز الصحية الخاصة بمؤسسات الضمان ، او تؤدي نفقاته المقررة بالترقية كاملة اذا تمت من قبل اي طبيب او قابلة تختارها الحامل بمحض حريتها .

هذا ولا تقتصر التأمينات في الامومة على المساعدات الصحية المجانية والتعويضات النقدية المدفوعة وانما يضاف الى ذلك « جمالة الارضاع و بطاقات الحليب ، اما جمالة الارضاع فهو تعويض شهري يدفع اضافة الى التعويضات النقدية للامومة ، لقاء الرضاع ، اما اذا لم تستطع الام الارضاع بسبب مرض او هزال ثابت بتقرير طبي فتمنح بطاقات حليب عادي او معقم او صناعي حسب الوصف الطبي بسعر زهيد جداً او بالمجان حسب الحال ، وتقطع جمالة الرضاع و بطاقات الحليب عن الام التي لا تستجيب للشروط الصحية المفروضة ، واجمل ما في الامر ، ان التعويضات النقدية وجمالة الرضاع و بطاقات الحليب تؤدي للتوأم ضعفا وتكون ثلاث وربع بتعدد الاطفال في الولادة .

### «التأمينات ضد العجز»

العجز اصعب واسوأ حالات الام التي تتحملها الاسرة لانه يجرمها من المورد والدخل ويحيجها الى نفقات اضافية طائلة ، واشهر حالات العجز السل المزمن ومرض القلب والروماتيزم الشديد وهو يحتاج الى العناية اكثر من حاجته الى العلاج . ولا يستفيد من التأمينات ضد العجز الا الشخص المؤمن نفسه وذلك حينما يبرهن على عجز يخفض قدرته على العمل والانتاج بمقدار الثلثين او حين يخفض دخله واجره مقدار الثلثين . ونقدر حالة العجز باعتبار القدرة الباقية على

العمل والحالة الصحية العامة والتكوين المهني وذلك :

اما بعد انقضاء ستة اشهر على العناية والتداوي في حالة المرض العادي ،  
او بعد انقضاء ثلاثة اعوام في حالة المرض المديد،  
او ثبوت العجز طبيياً نتيجة لاضمحلال القوى ،

على ان يتوفر في المستفيد من التأمين ضد العجز بعض الشروط في العمل  
السابق والتسجيل من اجل التأمين ، وتتم الاستفادة بتقديم طلب الى صندوق  
الضمان مرفق بتقرير طبي واوراق ثبوتية ، فيقوم بدوره في تقدير نسبة العجز  
وفئته خلال شهرين اثنين . وتقدم المساعدات الصحية والطبية مادام العجز  
موجوداً حتى يتم الشفاء ، اما التعويضات النقدية فتحسب على اساس معدل الاجور  
الوسطية السابقة للعجز ويعاد النظر فيها -ين ترفع الاجور عامة وحين تتغير فئة  
العجز شدة وانخفاضاً .

اما التعويضات النقدية فهي بنسبة ٣٠٪ من متوسط الاجور السابقة  
اذا كان العاجز قادراً على ممارسة عمل مأجور اخف و ٤٠٪ من متوسط  
الاجور السابقة اذا لم يكن العاجز قادراً على ممارسة اي نوع من الاعمال .

ويضاف الى ذلك ٢٠٪ اذا كان العاجز في حالة العجز المقعد وكان بحاجة  
لعون شخص آخر في سبيل تأمين حاجاته الاساسية على ان هذه التعويضات تنخفض  
للعاجز اذا هو دخل المستشفى او دار العجزة بنسبة مختلفة باختلاف وضعه العائلي  
كما اسلفنا في حالي المرض ، وفي جميع الاحوال لايجب ان تقل التعويضات عن  
حد ادنى مقرر .

اما مدة تخصيص هذه التعويضات فتبقى ما بقي العجز ، وحتى يبلغ العاجز

سن الشيخوخة المقرر ، وعندئذ تنقلب تعويضات العجز الى مخصصات الشيخوخة وهي اكثر على كل حال .

### التأمينات على الشيخوخة

كانت الشيخوخة في الماضي عبئا ثقيلا على الاسرة الفقيرة ثم هانت بفعل الاحسان وتأمين دور العجزة واكنها بقيت غير كافية لاسيما بعد ازدهار الصناعة وامتداد الاجال بسبب تحسين الاوضاع الصحية فشرعت التأمينات من اجل شيخوخة العمال فحسب ولكنها ما تزال غير شاملة لجميع السكان ، وما يزال التشريع في ذلك ذا طابع اقتصادي ومالي لاطابع اجتماعي انساني ، ولما كان تشريع حماية الشيخوخة يشترط في تقاضي مخصصاته قضاء عدد كبير من السنين في العمل المؤمن وكانت هذه المدة لم تمر على العمال بسبب حداثة التشريع اصبح من غير الممكن تقاضي مخصصات الشيخوخة كاملة في الوقت الحاضر لذلك وضع حد ادنى لتقاضي تلك المخصصات عند بلوغ سن معينة تتراوح بين ٥٥ في يوغسلافيا و ٦٥ في فرنسا و ٧٠ في انكلترا و ٨٠ في الدانمارك . ان مخصصات الشيخوخة تتناسب مع اجرة الشخص المؤمن ومع عدد سني التأمين وعمر الشخص حين التخصيص ، وهو في الوقت الحاضر يتراوح بين ٣٠ / و ٤٠ / من متوسط الاجور السابقة ، وتزداد ٢٠ / حين يكون الشيخ في حاجة الى شخص آخر يعينه على قضاء الحاجات الاساسية للحياة ، ويضاف الى تلك المخصصات نصفها اذا كانت الزوجة لا تستطيع بنفسها من حالات الضمان او كانت عاجزة عن العمل ، كما تضاف اليه نسب معينة في حال مسؤولية الشيخ نفسه عند اعالة بعض الافراد ، وتزداد هذه النسب الاضافية كلما ازداد عدد الاشخاص الذين يعيشون في كنف الشيخ صاحب المخصصات ، وبعاد النظر في تقديرها كلما ازدادت الاجور وارتفعت الاسعار وتؤدي مرة في كل ثلاثة شهور . على ان مزية هذه المخصصات كونها قابلة الانتقال الى الزوجة حين وفاة الزوج في حالين

إذا بلغت ٦٥ سنة من العمر أو تجاوزت ٦٠ سنة وكانت غير قادرة على العمل المأجور .

### التأمينات في حالة الوفاة

إذا توفي الشخص المؤمن حق لورثته تقاضي مخصصات الدفن حتى ولو كانت الوفاة قد حصلت في جبهة الحرب ، وهي تعادل اجرة ٩٠ يوماً من اجرة المتوفى ، وترجع الزوجة في تقاضي مخصصات الدفن ثم الاولاد ثم الاحفاد ويشترط في دفع مخصصات الدفن ان يكون الشخص المتوفى قد اشغل عملاً ما جوراً مدة محدودة من الزمن او كان في حالة البطالة الانزامية خلال تلك المدة .

ويحق لارملة الشخص المؤمن ، اذا كان يستفيد وهو في حياته من مخصصات العجز او الشيخوخة ، ان تنال مخصصات باسم مخصصات الترميل ، اذا اصيبت بعجز دائم ولم تكن بمن يستفيد من الضمان ، وتبلغ مخصصات الترميل هذه نصف مخصصات العجز والشيخوخة ويضاف اليها ١٠٪ / اذا كانت الارملة تعيل ما يزيد عن ولدين .

وهناك ايضاً مخصصات اخرى معروفة باسم « العون مدى الحياة » تدفع لارامل العمال المأجورين .

ان المرض العادي والمرض الشديد والامومة والعجز والشيخوخة والوفاة هي الاخطار التي تشملها منظمة التأمينات الاجتماعية وتؤديها صناديق الضمان الاجتماعي ، اما الموارد اللازمة لتأدية المساعدات العينية والتعويضات النقدية فتؤمن من بدلات الاشتراكات المفروضة جبراً على العمال وارباب العمل معاً ، وبنسب مختلفة لكل من هاتين الفئتين باختلاف الدول ، وفي انكثرا يدفع العامل كرب العمل

تماما بل بزيادة طفيفة ، وحبثهم في ذلك ان الدولة تساهم بقسط كبير في تمويل هذه المؤسسة ، وما دامت الضريبة موضوعة عندهم على اساس الضريبة التصاعدية على الدخل وبنسبة عالية جدا مع ارباب الدخل الكبير ، لذلك فان القسم الاعظم من مساعدة الدولة ومؤازرتها المادية انما يؤمن في الواقع من ارباب الاعمال ، واما في فرنسا فان بدلات الاشتراك التي تدفع من اجل التأمينات الاجتماعية المذكورة تدفع بشكل متناسب مع الاجور وهي محدودة بمقدار ١٦٪ من اجور العامل يدفع منها ارباب الاعمال ١٠٪ ويدفع العمال ٦٪ من اجورهم وذلك بان يقتطع رب العمل حين يدفع الاجر سواء اكان يوميا او اسبوعيا او مشاهرة او اكثر حصة العامل من بدل اشتراكه في التأمينات الاجتماعية ويضيف اليها مايتوجب عليه دفعه من بدل الاشتراك في تلك التأمينات ويؤديه مباشرة الى صناديق الضمان الاجتماعي ، واما هذه الصناديق فموضوعة على اساس الوحدة الادارية لا على اساس الصناعات في سبيل تسهيل قبض الاشتراك في المحلات والاماكن التي يقطن فيها المستفيدون وحيث يعملون ، وفي سبيل سهولة تقديم المساعدات الطبية والصحية وتأدية التعويضات النقدية ، وتتكون هذه الصناديق من صناديق محلية اولية ومن صناديق اقليمية وصندوق وطني هو الصندوق المركزي .

فالصناديق الاولية المحلية هي الصناديق التي توجد في مراكز النواحي والاقضية والتي يتوجب على كل من يعمل او يقطن في منطقتها ان يتسجل ويؤمن لديها ولها مجلس اداري يزيد عدد اعضائه او يتقص بنسبة كثرة او قلة عدد المؤمنين لدى الصندوق .

وينتخب اعضاؤه الاداريون لمدة خمسة اعوام ويتألفون في ثلاثة ارباعهم من ممثلي العمال واصحاب الاجور ، والربع من ممثلي ارباب الاعمال كما يضم مجلس الادارة ممثلين عن موظفي الصندوق وطبيين يتخبان من اطباء المنطقة وخبيرين

بشؤون الضمان الاجتماعي يعينها وزير العمل والضمان الاجتماعي ويتم انتقاء ممثلي العمال وارباب الاعمال بطريق الانتخاب السري المباشر على طريق القائمة ووفقاً للاصول النسيي ، ويبلغ عدد موظفي هذه الصناديق الاولية المحلية في فرنسا نيفاً وخمسة وعشرين الف موظف ويبلغ عدد الصناديق الاولية ١٢٥ صندوقاً .

اما المبادئ الاساسية التي تعتمد عليها التأمينات الاجتماعية فهي :

١ - كان التشريع السابق يقتصر على اصحاب الاجور الاساسية التي يتقاضاها اصحاب الاجور دون ان تتجاوز حداً اعظماً مقررأ ، اما الذين يتقاضون اجوراً تزيد عن الحد الاعظم المقرر فلهم شأنهم من الجهد الفردي الاضافي والطوعي .

٢ - كان التشريع السابق يقتصر على اصحاب الاجور من غير الفلاحين فاصبح التشريع الحديث شاملاً لجميع العمال المأجورين .

٣ - تتناسب بدلات الاشتراكات المدفوعة والتعويضات النقدية المنبوضة مع الاجور الاساسية التي يتقاضاها اصحاب الاجور دون ان تتجاوز حداً اعظماً مقررأ ، اما الذين يتقاضون اجوراً تزيد عن الحد الاعظم المقرر فلهم شأنهم من الجهد الفردي الاضافي والطوعي .

٤ - ان هذه التأمينات الاجتماعية هي اجبارية ومفروضة على كل من يعمل باجرة مهما كان العمل او العمر ومهما تكن الجنسية .

٥ - يستفيد من هذه التأمينات اختياراً بالنسبة لخطر واحد من هذه الاخطار او عدة مخاطر ، اسرة رب العمل التي تعمل معه دون

اجر والتأمين اختياري في مثل هذه الحال .

وهناك بالإضافة الى هذه المنظمة العامة للتأمينات الاجتماعية منظمات خاصة تستفيد من الضمان بما لا يقل عن هؤلاء وهم موظفو البلديات ومستخدموها . وموظفو المواصلات العامة ومستخدموها وموظفو الكهرباء والماء ومستخدموها . وهناك موظفو الدولة الذين يستفيدون من نظام التقاعد ونظام التأمينات الاجتماعية ايضاً .



انتقل بعد هذا الى المنظمة الثانية من منظمات الضمان الاجتماعي ، الا وهي منظمة اصابات العمل والامراض المهنية .

ان موضوع التعويض على العمال لقاء اصابات العمل والامراض المهنية هو من اهم المواضيع التي اهتم لها التشريع الاجتماعي ولقد ادت الدراسات المقارنة في هذا الصدد الى سرعة التحسن والتطور والاصلاح ، بدأ هذا التشريع بمسؤولية رب العمل وحده باعتباره يستغل جهود العامل وينتفع من عمله فيجب عليه تحمل تكاليف الاخطار التي تصيب العامل الذي يشتغل عنده ، غير ان فكرة التعويض كانت جزئية وبمبلغ مقطوع ، ولم يكن التأمين ضدها اجبارياً بل كان طوعياً يقوم به رب العمل لدى شركات التأمين الخاصة هرباً من المسؤولية ودفع التعويض مكتفياً بقسط التأمين الذي كان يضمه الى الاجور المدفوعة ويعتبرها على كل حال من كلفة الانتاج ، لاجزاء امن الربح والاستثمار . وقد اقتصر في الاصل على المؤسسات الصناعية ثم شمل المؤسسات التجارية فعمل الاستثمار الزراعي والحراجي فالمستخدمين في البيوت ثم اصبح اجبارياً يتناول كل اصحاب الاجور والعاملين بالعقود .

اما التشريع الحديث للتأمين ضد طوارئ العمل واصاباته والامراض المهنية

## فيرتكز على مبدئين اثنين :

١ - وجوب شمول هذه المخاطر بالضمان الاجتماعي والتأمين الاجباري  
ضدها مادامت الغاية استئصال اسباب عدم الاطمئنان بالنسبة  
لكافة المخاطر لا القضاء على بعضها والابقاء على سواها، والاستعاضة  
عن مسؤولية رب العمل بتضامن المجتمع نفسه ، لذلك كان لا بد  
لهذه التأمينات من ان تكون اجبارية ، وكان لا بد لها ان تخرج  
من نطاق المؤسسات الخاصة التي لا تستهدف الالربح الى مؤسسات عامة  
يدير شؤونها المعروضون للاخطار بغية عمل ما يمكن للحيلولة دونها  
والحماية من اخطارها .

٢ - ان العناية بالوقاية من وقوع هذه الاخطار هو افضل من الاهتمام  
بالتعويض عليها حين وقوعها وقدما قيل بحق « درهم وقاية خير  
من قنطار علاج » وتبدل مفهوم هذه التأمينات فاصبح التشريع  
المتعلق بها تشريعاً اجتماعياً اكثر منه تشريعاً قضائياً محل التبعات  
وفرض التعويضات .

هذا ويستفيد من هذه التأمينات ، بالإضافة الى اصحاب الاجور ،  
طلاب المدارس المهنية والعمال المتدربون غير المأجورين والاطفال في الحضانات  
والسجناء المعاقبون بالاشغال والصنائع ، اما العمال الزراعيون ومستخدمو الدولة  
والبلديات فانهم مضمونون ايضاً ولكن طبق انظمتهم الخاصة

تمنح فوائد هذا الضمان ، لكل حادث يقع بالعمل او من جراء العمل  
ولكل حادث يقع اثناء الذهاب والاياب بين محل الاقامة



ومحل العمل .

ولكل مرض مهني ، وتعدد الامراض المهنية وتخصص  
بمرسوم تنظيمي .

على ان يعلم بالحادث خلال فترة قليلة من اجل الاصابة وخلال مدة ١٥  
يوماً من اجل المرض ، تبدأ من تاريخ الانقطاع عن العمل ، اما الضمان فيكون  
بتقديم المساعدات العينية وباعطاء تعويضات نقدية ، اما المساعدة العينية فتكون  
بتقديم العناية مجاناً للمصاب مع ملء حقه في اختيار الطبيب او المستوصف او  
المستشفى ، ومع تقديم الادوية والادوات واللوازم الضرورية دون مقابل ، اما  
التعويضات النقدية فتدفع اعتباراً من تاريخ الانقطاع عن العمل وطيلة مدة التغيب  
والمعجز بما في ذلك ايام الاعياد والعطل ويستمر على تأديتها في حال الاشارة بالعمل  
الخفيف ولو كان مأجوراً .

اما مبلغ هذه التعويضات فتعادل نصف الاجرة التي كان يتقاضاها المصاب  
في الشهر السابق لوقوع الحادث ، وتصبح بمقدار الثلثين اذا استمر الانقطاع  
عن العمل اكثر من شهر ، وتزداد بعد مضي ثلاثة اشهر ، وكلما زادت الاجور ،  
اما اذا ادى الحادث او المرض المهني الى المعجز الدائم فيستفيد الشخص من دخل  
سنوي يحدد تناسباً مع الاجرة ونسبة المعجز ، ولا يجوز ان يتخطى حداً اعظماً  
مقررأ او يقل عن حد ادنى معين اما نسبة المعجز فتحدد باعتبار طبيعة الحادث  
او المرض مع الاخذ بعين الاعتبار الحالة الصحية العامة والعمر والاستعداد للعمل ،  
والوضع العائلي ، وقد يصل التعويض المقرر الى ١٠٠ ٪ من الاجرة السابقة  
في حال المعجز الكامل ثم يضاف الى ذلك ٤٠ ٪ اذا كان المعجز في حاجة  
الى من يقوم بعونه في سبيل قضاء حاجاته الاساسية ، على انه يجوز لصاحب

التعويض المقرر ان يبيع التعويض كلا او جزءا اذا احب ان يحصل على رأس مال يستثمره لخيره في عمل مريح . واذا ادى الحادث او المرض المهني الى وفاة الشخص المؤمن فلزوجته واولاده واحفاده وابويه تقاضي نققات الدفن وتعويض ثابت مستمر يتراوح بين ٢٥٪ و ٧٥٪ بحسب اختلاف الوضع العائلي .

هذا ويحق للشخص المصاب بالطوارئ او المرض المهني ان يستفيع من امكانيات التكوين المهني الجديد ويعمل على تأهيل نفسه بجميع الوسائل لاستعادة نشاطه او ممارسة عمل جديد من نوع آخر وذلك لدى مؤسسات الضمان الاجتماعي ومدارسها او في غير ذلك من المؤسسات والمعاهد كتعلم الصناعات الخاصة بالعميان فيما لو لو اصاب بعينه مثلا ، ويتم ذلك مجانا ، ومتى اتم صنعة او خبر مهنة يحصل على شهادة او اجازة تخوله حق الرجحان على سواه في الاعمال .

اما مقدار الاشتراك في التأمين ضد طوارئ العمل وامراض المهنة فيحدد لاشكل مقطوع او بنسبة معينة كما هو الحال في منظمة التأمينات الاجتماعية السالفة الذكر وانما يحدد من قبل صندوق خاص هو الصندوق الاقليمي للضمان الاجتماعي وذلك بالنسبة لكل مؤسسة صناعية او تجارية وبصورة متناسبة مع نوع المهنة وطبيعة المخاطر وحوادث العمل التي تحصل عادة في كل مؤسسة والامراض التي يتعرض لها العمال ، فهي تزيد مع الحوادث والامراض والطوارئ وتقص كلما زادت العناية واتخذت تدابير الحيطه والتبصر والوقاية ، وهي تقع حصرا على عاتق رباب الاعمال لانهم كما قلنا المسؤولون عن الطوارئ التي تحدث عن الامراض المهنية التي يتعرض لها العمال عادة ، مع ذلك فقد اثبتت الاحصاءات انها لا تتجاوز في الواقع بصورة اجمالية ٣٪ من الاجور المدفوعة ، وطبيعي ان رب العمل لا يقتطع هذا القدر من التأمين من ربحه وانما يضيفها الى الاجور المدفوعة ويحسنها في كلفة الانتاج وتقع بالتالي على المستهلكين من المنتجين .

اما الصندوق الذي يهتم بهذا النوع من التأمينات فهو الصندوق الاقليمي للضمان الاجتماعي ، وهو الصندوق الذي يتولى تنسيق اعمال الوقاية والحماية والتبصر ويهتم بتأمين التعادل بين جميع الصناديق الاولية المحلية التابعة له لتأمين قدرتها على تأدية التعويضات وتقديم المساعدات وتناول صلاحياته تنظيم وادارة شؤون المراقبة الطبية في مجمل الاقليم والقيام بالعمل الصحي والاجتماعي ، ويدار الصندوق من قبل مجلس ادارة ينتخب اعضاؤه ايضاً لمدة خمسة اعوم ويتألف اعضاؤه كما يتألف اعضاء الصناديق الاولية ويتم الانتخاب بنفس الاسلوب ويتمثل فيه العمال بنسبة ٣ اضعاف ممثلي ارباب العمل ويحضره ممثلو موظفي الصندوق والاطباء والخبراء ويعاون مجلس الادارة لجنة فنية بمحة في شؤون المخاطر والطوارئ والامراض المهنية .

اما المنظمة الثالثة والاخيرة من منظمات الضمان الاجتماعي فهي «منظمة التعويضات العائلية»

مامن احد ينكر الصعوبات المالية التي تتعرض لها الاسر الفقيرة واسر الطبقات المنتجة في حال الحمل والولادة والرضاعة وكثرة الاولاد تلك الاسر التي لامورد لها سوى اجرة رب البيت وقلما تكون وافية كافية ، الامر الذي حدا بالسلطات العامة الى تذليل هذه الصعوبات بدافع قومي في سبيل التكاثر والعمل على الاقلال من عدد الوفيات ، ومر التشريع المتعلق بذلك على ثلاث مراحل :

#### المرحلة الاولى : مرحلة نظام الحرية

فكان اول تشريع هو تأمين التعويضات العائلية للبحارة في عام ١٨٦٣ ، ثم طبقت المؤسسات الخاصة الكبرى ، ثم عممت الدولة تطبيقه في جميع الادارات والمؤسسات العامة ، وكان ذلك في عام ١٨٩٧ ، وانتشر بعدئذ في المؤسسات

الخاصة وتأسست لاجله صناديق مشتركة لبعض الصناعات في مختلف الاقاليم او لجميع الصناعات في اقليم واحد ، ويفذي اشتراكاتها ارباب الاعمال انفسهم منعا لنضارهم وتزاحمهم في تفضيل العازين على المتزوجين من العمال الفنيين .

### المرحلة الثانية : مرحلة الاجبار القانوني :

حيث تدخل الشارع فاصدر قانونا في عام ١٩٣٢ يقضي بالزام ارباب الاعمال على دفع التعويضات العائلية ، لاصحاب الاجور، مستهدفا :

- ١ — تحسين شروط الحياة العائلية للمال
- ٢ — حماية ارباب العمل الذين يدفعون التعويضات من مزاحمة ارباب العمل الذين لا يدفعونها ، وذلك باجبار هؤلاء على الدفع .
- ٣ — تشجيع الولادة .

وقد استند هذا التشريع على المبادئ الآتية :

- ١ — الاقتصاد في الاجبار على ارباب العمل في المهن الصناعية والتجارية والمهن الحرة والزراعية .
- ٢ — الاقتصاد في الاجبار على دفع التعويضات للعائلات التي لها اكثر من ولد واحد .
- ٣ — تنظيم جباية الاشتراكات ودفع التعويضات من قبل منظمة حرة ذات استقلال ذاتي ومالي تعمل باشراف وزارة العمل .

### المرحلة الثالثة : مرحلة قانون العائلة :

وهو القانون الذي صدر في عام ١٩٣٩ وقضى بشمول دفع التعويضات

العائلية لجميع الطبقات المنتجة العاملة والعمال المستقلين ولارباب العمل انفسهم مع تصنيف المستفيدين الى فئتين ، سكان المدن وسكان الارياف لاختلاف القسوى الشراية في الفئتين .

المرحلة الاخيرة : هي مرحلة الضمان الاجتماعي الذي طبق في عام ١٩٤٦ حيث شمل دفع التعويضات العائلية كل من اقام وعمل سواء اكان مواطناً او اجنبياً ، مع استمرار دفعها لمن كان في البلاد الاجنبية بسبب الدراسة او الاستشفاء او قضاء العطلة والسياحة .

وتحسب التعويضات العائلية على اساس متوسط الاجرة الشهرية وتدفعها صناديق خاصة هي صناديق التعويضات العائلية باستثناء الزراع والفلاحين حيث تدفعها لهم مؤسساتهم الخاصة الماثلة باستثناء موظفي الدولة والبلديات حيث تدفعها لهم ادارتهم ومؤسساتهم العامة .

اما التعويضات العائلية فتشمل ، تعويضات الامومة ، وتعويضات الاولاد ، وتعويضات الاجرة الوحيدة ، وتعويضات الحمل وتعويضات السكن »

فتعويضات الامومة : هي المخصصات المقطوعة التي تدفع لمناسبة كل ولادة ، على ان تتوفر بعض الشروط ، واما مقدارها فهي اجرة ثلاثة اشهر من اجل الولد الاول ، و نصف الاجرة من اجل كل ولد لاحق ، وتضاعف في التوأم ، وتدفع التعويضات على مرتين متساويتين : الاولى حال الولادة ، والثانية بعد ستة اشهر ان بقي الولد حياً .

وتعويضات الاولاد هي المخصصات الاضافية الثابتة التي تدفع مع الاجور والرواتب اعتباراً من الولد الثاني ومقدارها :

٢٠ ٪ من اجل الولد الثاني  
٥٠ ٪ من اجل الولد الثالث  
٨٠ ٪ من اجل الولد الرابع  
١١٠ ٪ من اجل الولد الخامس وتصل الى ثلاثة اضعاف  
من اجل الولد الحادي عشر وتدفع هذه  
المخصصات شهريا .

اما تعويضات الاجرة الوحيدة : فهي مخصصات اضافية تدفع علاوة على  
الاجرة حين تقصر الاسرة على اجرة واحدة ( كالاسرة التي لا يشتغل فيها غير  
الوالد مثلا ) ومقدار هذه المخصصات الاضافية :

١٠ ٪ اذا كان للاسرة ولد واحد دون خمس سنوات  
٢٠ ٪ اذا كان للاسرة ولد واحد فوق خمس سنوات  
٤٠ ٪ اذا كان للاسرة ولدان  
٥٠ ٪ اذا كان للاسرة ثلاث اولاد فاكثر

واما تعويضات الحمل : وهي مخصصات اضافية على الاجور تدفع بنفس  
الشروط السابقة ، ولكنها لا تدفع الا لام ام التي تبرهن على انها تعيش عيشة زوجية  
وتعلمن عن حملها وتخضع للشروط الصحية والفحوص الطبية المفروضة عليها بمقتضى  
تشريع حماية الامومة والطفولة .

واخيراً تعويضات السكن : وهو التشريع الذي قضى بمنح هذه التعويضات  
لكل من استحق التعويضات العائلية لاسميا للاسرة الحديثة الزواج والاسر الوفيرة  
الاولاد ويؤخذ بنظر الاعتبار في تقدير هذه المنح عدد الاولاد ، والنسبة المخصصة  
فعليا لاجرة البيت وهي تتراوح بين ٤٠ ٪ و ٧٥ ٪ من اجرة البيت الفعلية .

وتوقف تعويضات السكن او تلنى في حال اهمال شؤون المسكن وعدم اتخاذ التدابير الآيلة للنظافة وحفظ الصحة .

وبالاضافة الى هذه التعويضات تدفع تعويضات متممة هي تعويضات التأثيث والانتقال وتقدر بـ ٥٠ ٪ من النفقات الفعلية على ان لا تتجاوز حداً اعظماً مقررأ .

ان جميع هذه التأمينات « الامومة والاولاد والاجرة الوحيدة والمحلل والسكن » تديرها منظمات خاصة هي « صندوق التعويضات العائلية » تهتم بجيابة الاشتراكات ودفع المخصصات وتدار من قبل مجلس ادارة ينتخب اعضاؤه لمدة خمسة اعوام ويتألف كما يلي :

النصف من ممثلي العمال اصحاب الاجور .  
الربع من ممثلي العمال المستقلين .

الربع من ممثلي ارباب الاعمال ويضاف اليهم ممثلو الجمعيات العائلية والخبراء بشؤون الاسرة والاجتماع .

واما بدل الاشتراكات التي تفذي هذه الصناديق فتقع على ارباب العمل فحسب وقدرها ١٦,٧٥ ٪ من الاجور التي يدفعونها للعمال واصحاب الاجور اما ارباب العمل انفسهم والعمال المستقلون فيمكنهم الاستفادة من التعويضات العائلية اذا اشتركوا بتأدية نصيب معين من دخلهم يتناسب مع مقدار الدخل بين حد ادنى وحد اعظمي .

هذه هي المنظمات الثلاث لمؤسسة الضمان الاجتماعي وهي الادارة المستقلة مالياً التابعة لوزارة العمل والتي يدير شؤونها مديرية عامة تتألف من ١٨ مكتباً

يتولى كل مكتب منها بعض الشؤون في التشريع او التنظيم او الادارة او المحاسبة او الدراسة او الدعاية او الوقاية او الاحصاءات او القضاء الخاص .

وهناك بالاضافة الى المديرية العامة ، هيئة الرقابة والتفتيش ، ومهمتها مراقبة حسن التنفيذ ، ورفع التقارير ببيان شذوذ التطبيق مع القيام بالارشاد الفني للموظفين المختصين .

وهناك مجلس اعلى للضمان الاجتماعي يمثل الصناديق والادارات العامة ذات العلاقة كوزارات العمل والصحة والاقتصاد والمال وهناك معهد خاص للدراسات وتمهئة الموظفين المختصين وأتلاف وطني للضمان الاجتماعي واتحاد وطني للتعويضات العائلية .

#### الضمان الاجتماعي للطلاب :

هو تشريع حديث ، طبق لأول مرة في عام ١٩٤٨ ، وهو نظام خاص يضمن بموجبه تأمين الطلاب ضد المرض والمزيد ويسد تكاليف الامومة ، ويخضع له بصورة اجبارية جميع طلاب التعليم العالي الذين هم دون السادسة والعشرين من العمر ، ويمدد هذا السن المحدد احيانا بمقدار المدة المعينة لخدمة العلم ، ويستفيد من هذا الضمان الطلاب انفسهم كما يشمل زوجات واولاد المتزوجين منهم ايضاً لقاء اشتراك سنوي بسيط يدفع مع تأدية الرسوم الدراسية ويعادل عشر ليرات سورية . يعنى منها الطلاب المستفيدون من المنح المدرسية المجانية .

تؤمن المساعدات الصحية من قبل الاطباء او العيادات او المستشفيات التي يختارها الطلاب المرضى ، اما التعويضات النقدية فتؤدى في حالة الامومة فحسب بالنسبة للطالبات ولزوجات الطلاب .



هذا ويشترك الطلاب في ادارة ومراقبة صناديق الضمان الاجتماعي بانتخاب ممثلين عنهم يحضرون في مجلس الادارة ويراقبون الحساب الخاص بالضمان الاجتماعي للطلاب وكيفية انفاق الموارد على سد حاجات الطلاب، ويحضرون المناقشات والمذاكرات ويتشاورون فيما يتصل بشؤون الطلاب من الضمان ، ويقدمون الاقتراحات في سبيل حسن سير العمل لاسيما فيما يتصل باعمال الوقاية الصحية والعمل الصحي .

ان هذا التشريع ليس غاية في حد ذاته ، وانما هو وسيلة ، انه وسيلة للقضاء على المرض ومداوته مجانا ، ويجب ان يعتبر كمرحلة لا بد لها من مراحل لاحقة في سبيل القضاء على البؤس وسوء السكن وفسح الامكانيات المتساوية لاستغلال المواهب .

ان الطلاب عمال غير مأجورين ، يعملون لبناء مجد الوطن وخيره ومستقبله ، فلا اقل من ان يتيسر لهم ابواب المستقبل في طمأنينة وفي يسر .

وقبل الختام ، قد يكون من تمام الفائدة ، ذكر طرف من خصائص الضمان الاجتماعي في بعض الدول ، ذكراً موجزاً :

في الدانمارك : يعتبر الطابع الرئيسي للتأمينات الاجتماعية الطابع الحر الفردي والخاص . فالتشريع الاجتماعي عندهم مبني على الاتفاقات المعقودة بين منظمات العمال والفلاحين من جهة وبين منظمات ارباب العمل من جهة ثانية ومن اشهر تشريعاتهم الاجتماعي ، قانون التبصر الاجتماعي وهو القانون الذي يقضي باسعاف الاشخاص الذين لا تشملهم التأمينات الاجتماعية ، كمرعاية المجتمع للاطفال حين لا يكون في مصلحتهم ومصلحة المجتمع بقاؤهم لدى اهلهم وذويهم بسبب المرض او الجنون او سوء التربية وحين يموت احد الابوين ويتزوج الثاني مع

عدم وجود الاقارب .

واغرب امر في موضوع التبصر الاجتماعي هو الاهتمام بالارذال واعتبارهم كالصم والبكم والعميان والمجانين من وجهة حاجتهم للعناية والاصلاح .

وتتحمل الدولة عنهم نفقات الشيخوخة والتقاعد للعمل كما تتحملها للموظفين .

وتتحمل شركات التأمين الخاصة بالتضامن فيما بينها التعويضات المستحقة للعمال في حال الاصابات والامراض المهنية وذلك في حال عجز رب العمل عن تأديتها .

اما موارد صناديق الضمان الاجتماعي فيشارك فيها كل من الدولة والبلديات وارباب العمل والعمال .

وفي فنلندا : لجأت الدولة في سبيل حل مشكلة المسكن الى اقراض الافراد بقيادة جد قليلة شرط التعمير

وتدفع تكاليف التأمينات الاجتماعية عندهم وفقاً للنسب الآتية :

٤٣ ٪ من الدولة

١٨ ٪ من البلديات

٣٢ ٪ من ارباب العمل

٧ ٪ من العمال اصحاب الاجور

ويدفع المواطنون عندهم ١٠ ٪ من نفقات التدوي في المستشفيات والمستوصفات .

اما مشوهو الحرب عندهم فيتقاضون تعويضات مماثلة دون تمييز في الرتب

العسكرية ، وإنما تختلف باختلاف السكن في المدن أو في الارياف واطرف  
التعويضات عندهم واطرفهاهي تعويضات « التشجيع على الزواج » التي بوشر  
فيها في عام ١٩٤٤ لتسهيل الزواج لدى المحاربين القدماء ، ثم عممت في عام ١٩٤٦  
على جميع الاشخاص الذين لايتجاوز عمرهم ٣٠ عاماً من اصحاب المواردالضعيفة ،  
وذلك باقراضهم واسلافهم من قبل الدولة ، على ان تؤدي هذه السلفة في برهة  
خمس سنوات وتمدد عاماً عند ولادة كل طفل وتعتبر السلفة مسددة وكنجحة  
اذا انجحت الاسرة خمسة اولاد .

كذلك تأسس لديهم منذ عام ٩٥٠ مؤسسة خاصة باسم « مساعدة  
الزواج » غايتها تسهيل الزواج بتأمين المساكن والاثاث الضروري اللازم .

وفي انكلترا : يدفع اصحاب الاجور من العمال اشتراكاً يعادل مايدفعه  
ارباب العمل ، وتدفع الدولة مساعدات كبرى لصناديق الضمان الاجتماعي وافضل  
ماعندهم هو تأمين الطب والعلاج ومجانية التداوي والاستشفاء لكل مواطن  
ولكل اجني ايضاً سواء أكان مقيماً في انكلترا أو كان عابراً و زائراً .

وفيما يلي قصة مثالية لكيفية سير الضمان الاجتماعي في انكلترا :

لنفرض عاملاً له من العمر ٢٥ عاماً ، فيقدم له المكتب المحلي للتأمين  
الوطني بطاقة يعطيها بدوره المؤسسة التي يعمل فيها ، فتقطع هذه من اجرة بمقدار  
مايتوجب عليه من الاشتراك للتأمين وتضيف اليها مايتوجب عليها وتدفع المبلغين  
الى صندوق التأمين ، فاذا ما مرض يوماً من الايام ، واقطع عن العمل بعينه  
مجاناً طيب المركز الصحي ، فاذا تبين انه بحاجة الى عملية يرسله فوراً الى احد  
المستشفيات القريبة بسيارة الاسعاف الوطني ، وهناك تجري له العملية الجراحية  
مجاناً من قبل جراح اختصاصي دون ان يدفع شيئاً للمستشفى ، وحين يعود الى

بيته لقضاء دور النقاهة يعود فيه طبيب المركز الصحي بصورة مجانية ،  
وبالإضافة الى ذلك يدفع له المكتب المحلي للتأمين الوطني تعويضاً لقاء المرض والنقاهة  
وذلك بالبريد المضمون بعد ان يقدم هو التقارير الطبية الاصلية ، وعندما يشفى  
العامل من مرضه ويجد نفسه بلا عمل يذهب الى مكتب العمل ويسجل نفسه  
عاطلاً ، فان وجد عملاً مناسباً باشره وان لم يجد دفع له تعويض البطالة ، فاذا مل  
حياة البطالة حق له طلب تغيير المهنة بتعلم مهنة اكثر انتشاراً وطلباً ويدرب عليها  
بصورة فنية ومجانية لدى مؤسسات خاصة للتكوين المهني ومتى استحصل على  
الشهادة الاختصاصية استخدم بمقتضاها في عمل ذي اجر كبير لانه عمل فني ،  
فاذا ما تزوج وحملت زوجته يعاينها طبيب العائلة المخصص مجاناً ، ويقدم لها التراوي  
دون مقابل ، وتتقطع عن العمل قبل الوضع بستة اسابيع ، وتتقاضى عندئذ  
تعويض الامومة ، ثم تتقاضى تعويضاً مقطوعاً حين الولادة ، وتكون نفقات  
العناية قبل الوضع وخلالها وبعده مجاناً مع تقديم الحليب واللوازم ، سواء اتم  
الوضع في البيت أم في المستشفى ، وحين يتم دور النقاهة ، تستحصل هي وزوجها  
على عطلة مع دوام دفع الاجرة ويسافران . ومن ثم كلما رزقا ولداً زادت اجورهما  
بالتعويضات العائلية ، وحين يزداد عدد افراد الاسرة يحق لهم طلب تعويض  
السكن في سبيل تبديله وتحسينه ، ومن ثم تمر السنين ويكبر الاولاد ويستفيدون  
من المنح المدرسية للدراسات العالية ثم يتزوجون ، وبينما يعمل الرجل يصاب  
بمحدث يقعه عن مواصلة العمل فيتقاضى حينئذ تعويض العجز ، ثم تصاب المرأة  
بمرض مهني فتتقاضى تعويض المرض المهني ، حتى اذا ما بلغا سن الشيخوخة طلبا  
التقاعد وعاشا عليه ، فاذا مات الزوج بعدئذ تقاضت الارملة نفقات الدفن ، ثم  
تسأم حياة الوحدة فتنتقل الى شقة خاصة في دور العجزة وتعيش فيها مع العناية  
واستمرار تقاضي تعويض العجز والشيخوخة والترمل حتى تموت ، وهكذا  
يفارقان الحياة دون بؤس ودون مصير مجهول ومخيف .

وفي يوغسلافيا : فقد مرت على ثلاث مراحل في موضوع الضمان

الاجتماعي الا وهي :

١ - مرحلة التحرير ، حيث وحدت التأمينات الاجتماعية ببذل اشتراك

موحد وقرر الحد الادنى للدخل والحد الاصغري للتعويضات .

٢ - مرحلة الاقتصاد الموجه « حيث سددت نفقات التأمينات الاجتماعية

من خزينة الدولة لقاء جباية ٢٠,٧ بالمائة من ارباب العمل و ٧,٣

بالمائة من اصحاب الاجور ، واصبح ليوغوسلافيا نظامين ، نظام

الموظفين ، ونظام العمال المأجورين .

٣ - المرحلة الجديدة : وهي المرحلة التي اعني فيها العمال من دفع

الاشتراكات في سبيل التأمينات الاجتماعية ، والتي شمل فيها

الضمان الاجتماعي العمال والمستخدمين واعضاء السلطات التشريعية

والتنفيذية والقضائية والطلاب والتلامذة واصحاب المهن الحرة

والعمال الفكريين كالكتاب والادباء والعلماء والفنيين وبالاجمال كل

منتج نافع في الوطن ، حيث دجت مؤسسات الضمان الاجتماعي

في ادارات الدولة ، فاختصت وزارة العمل بالشؤون الاجتماعية

ووزارة الصحة بالتأمين الصحي وقامت صناديق الدولة بدفع

النفقات والتعويضات .

ومن مزايا الضمان الاجتماعي عندهم دفع تعويض الحجز لكل من يصاب

بمحدث في طريقه ذهاباً واياباً الى تأدية الواجب سواء أكان ذلك للعمل أو للممارسة

الحقوق المدنية كتسجيله وقائع الاحوال المدنية أو لممارسة الحقوق السياسية

كالانتخابات وحضور مجالس الاحزاب والنقابات أو لممارسة عمل اجتماعي انساني

كعمل الخير في انقاذ المستجير غرقاً أو حريقاً أو استغاثة للمهوف .

أما معدل سن الشيخوخة عندهم فهو اقل من جميع دول العالم بلا استثناء .

وفي عام ١٩٥٢ ، صدر قانون يقضي بدفع تعويض البطالة باسم « الضمان المادي » لكل عامل أو مستخدم لم يستطع ان يجد عملاً مدة موقنة لسبب لم يصدر عنه وهو يعادل ٥٠ بالمائة من الاجرة المقررة لعمله ، مع الاستمرار على تقاضي باقي تعويضات التأمينات الاجتماعية كما كان الشخص في حال العمل . ولا يعطى هذا التعويض لمن كفت يده عن العمل لسوء سلوكه ولمن يرفض عملاً معروضاً عليه بما يتناسب مع كفاءته ، ولا يعطى تعويض البطالة للشخص الذي يوجد في أسرته من يعمل ويتقاضى اجراً .

هذه هي مجمل انواع التأمينات الاجتماعية والاقتصادية والصحية التي تكفلها وتؤديها مؤسسات الضمان الاجتماعي ، وهي تدابير لتحقيق السعادة للعالم ولكنها تمنع عنهم الشقاء ، ولا تؤمن لهم الرفاه ولكنها تحول دون البؤس ، ولا توجد لهم ثروة ولكنها تضمنهم من الاخطار ، وهي تدابير لا تقدر ارباب العمل ولكنها تستر العمال . وقد اثبت الاحصاء ان من نتائج تطبيق الضمان الاجتماعي ، نقص نسبة الوفيات ، وارتفاع معدل العمر ، وزيادة الانتاج ، ورفع مستوى العيش والحياة .

واختم مؤكداً انه لا معنى للحرية السياسية دون ضمان اجتماعي واقتصادي ، ولا مساعدة للناس مادام الخوف من المصير المجهول يهدد كل فرد من افراد الطبقة المنتجة يداً وفكراً ، وهم الاكثرية العديدة النافعة من السكان .

وتحقيق الضمان الاجتماعي واجب الحكومة وواجب النواب وواجب

الاحزاب وواجب اتحاد النقابات وهو كما بدأت حق الفرد وواجب الجماعة .

حلب في ١٨ شباط ١٩٥٥

الدكتور علي احمد الخانجي

دكتور دولة في الحقوق من باريس

عضو المجمع العالمي الدبلوماسي الدولي

عضو المعهد الدولي للعلوم الادارية





## المحاضرة الرابعة عشرة

### مراثنا الحضاري

الدكتورة زاهدة البوب

القيت بتاريخ ٢٥ / ٢ / ١٩٥٥ =



أيها الحفل المكرم :

لا يسعني ، وأنا اعتلي هذا المنبر الراقي ، إلا أن احيي بأعجاب وحب  
عاصمة الادب الحمداني ، شاكرة للصديق الاديب ، الاستاذ كيايالي فضله ، ان  
اتاح لي فرصة القول ، في جو عبق بفلسفة المعري ، وقوافي ابي الطيب ، وانفاس  
ابي فراس ، فهل علي بكثير ، اذا ماهتفت ، وانا في نشوة تخيلي وتمهيمي بيت  
صفي الدين الحلي ، اذ داست قدماء ، لأول مرة ، ارض المدينة المنورة :

ارفعوا الحمل كي الثم خفي جملي

★ ★ ★

سيداتي سادتي :

حديث الحضارة ، بالنسبة اليها ، حديث ذوشجون ، فالحضارة رأس مال  
اضعناه ، فافقرنا ضياعه واذلنا ، فهل تأتي فريا ، اذا ماهيبنا الى ارجاع رأس مالنا  
بكل ما نملك من قوى خلاقة ؟

قيمة الشعوب في التاريخ ، تقاس بكثافة ما وضعت من مداميك في بنيان

الحضارة ، والحضارة ملك عالمي ، يدين ضمير العالم لمن يتعهد له هذا الملك . فمانا ،  
ليدين لنا ضمير العالم الا ان نستعيد دورنا في خدمة الحضارة . واذا قلت نستعيد  
دورنا ، فلانه كان لنا دور ، بل ادوار ، خدمنا فيها هذا الملك با-سن ما يمكن ان  
يخدم .

خدمنا الحضارة في فجر التاريخ ، اذ قدمنا لها الحرف الذي تنعم ببركة  
نتاجه ، وشققنا الارض ، ففجرت خيراتها تحت اثلام السكة التي اخترعنا ،  
وتحدينا البحار والمسافات ، معلمين البشر ، كيف ينتقلون على متن الامواج .

ومشى التاريخ قدما ، فاذا شاعرنا يردد :

دارنا الدار لا تضام      اهتضاماً ودارنا خير دار  
هذه آثارنا تدل علينا      فانظروا بعدنا الى الآثار

ونظرنا الى الآثار ، فاكبرنا من تركوها ، وتطلعنا الى اضوائنا كيف  
انارت العصور المظلمة وخلصتها خلاصاً سعيداً من ظلماتها .

ولست لاقنع من القائلين ، ان التغي بالاجداد القديمة عبث هو ، لاني اعتقد  
ان اجداد الشعب القديمة هي تراث له عزيز ، تجعل هذا الشعب يؤمن بانه اصيل  
التفكير ، ذو قوى يبدع يوم يفسح لها في طريق الابداع وتأتي بالجلائل  
من الاعمال ، يوم تتاح لها الاجواء الملائمة ، اذاً فعلينا ان نؤمن باننا عطاء لنا  
بالعظيم ، وكيف نؤمن بمظمتنا ان لم نتعرف مالنا من تراث عظيم ، ونتعرف ، وان  
بالم ، كيف تخلينا عن تعهد هذا التراث ، حتى انقطع ما بيننا وبينه ، وتخلف عنا  
وتخلفنا عنه ، ولم نكتف بذلك ، بل تنكرنا له معتدين بانه لاشيء ، اذا ما قيس  
بحضارة تهرنا حديثة ، هي بالحقيقة حفيذة حضارتنا التي غذيها بادمقنا وسقيها

بدماء قلوبنا . فاذا مانهضنا لنستعيد دورنا ، علينا ان نعرف النقص الذي حمل بنا ، فاساس النجاح في سد الخلل ، هو معرفة ذلك الخلل وسببه ومكانه كما علينا ان نعرف ، ونؤمن ، ونجعل ابناءنا يعرفون ويؤمنون ، ان العقل العربي جدير بالابداع .

على اني اذا كنت حريصة على تمجيد تراثنا ، فاننا من جهة اخرى ، اعرف ان تمجيد القديم لايجدى كبير نفع اذا لم نطمنعه اداة اللوثوب في نهضة فكرية جديدة ، تشق الطريق لنا الى حيث يتربع ابناء الزمن الحديث ، اصحاب مخترعات مختلفة تؤلف مدينة الآلة والذرة .

وهكذا اراني مستعرضة في محاضرتي اليلية تراثنا الحضاري ، الذي لا بد من معرفته ليكون لنا حافظاً لمجد جديد ، وواجباتنا العملية ، التي علينا ان نقوم بها ، انكون جديرين باوثك الجدود ، اصحاب التراث العريض والمجد الأثيل .



اذا بحثنا في اقدم العصور التاريخية ، استعصت علينا معرفة تاريخ الشعب العربي ، معرفة واضحة ، كما استعصت علينا معرفة الشعوب الاخرى ، على ان البحث والاستقراء اللذين اجمع عليهما اكثر المؤرخين ، من المان وانكليزوفرنسيين وغيرهم كما ورد في مؤلف جرجي زيدان ، « العرب قبل الاسلام »

ان جزيرة العرب هي موطن الشعب في الاصل واحد ، وان هذا الشعب كان يتكلم لغة واحدة ، ربما كانت هي اللغة العربية ، أو ان هذه احدى بناتها الاقرب اليها ، ويقول زيدان : ان هؤلاء المؤرخين لهم على ذلك ادلة وجيهة بعضها لغوي ، وبعضها الآخر اجتماعي وخلق ، والدليل الاكثر اهمية ، هو ان اللغة العربية الحاضرة هي اقرب اخواتها الى اللغة الام ، ويستأنف زيدان قائلاً :

« ومها يكن من امر فان الامم التي تفرقت من الجزيرة العربية كانت تتكلم عند تفرقها لغة واحدة ، ثم تغيرت حسب الاقاليم على مقتضى ناهوس الارتقاء . »

واذا نظرنا الى تاريخ الشعوب المتفرقة عن هذا الموطن العربي ، كالفيثيين مثلاً ، وجدنا المؤرخين يجمعون على انهم جاءوا من شط العرب ، أو من الخليج الفارسي في الجزيرة العربية ، فلماذا نستبعد ان يكونوا في الاصل شعباً واحداً ، طلبوا التوسع ، كما قال زيدان ، فاستقروا على الارض الاكثر ملاءمة لهم ، وعليها اثمر عقلمهم ، وتبلور نشاطهم ، فمهروا الحضارة باسس ارتكزت عليها دعاءها حتى اليوم .

واذا اخذنا بما يجمع عليه اكثر المؤرخين من ان الدولة الحورابية عربية ، كان من العرب اول مشرع عالمي عرفه التاريخ ، هو حمورابي ، وهناك من يؤكد ان ايوب ، ارق شاعر عالمي ، هو ايضاً عربي ، افلا يكون العرب والامر كذلك ، من اقدم الشعوب التي وضعت للحضارة اسساً ثابتة .

واذا مشينا في التاريخ قدماً ، ظهرت لنا بشكل واضح ، مدينة عربية في جنوبي الجزيرة العربية في اليمن ، لا يزال المكتشفون ، يجدون فيها كل يوم آثاراً تضي على المعلومات التاريخية جديداً . ومدينة البتراء ، ومدينة تدمر اللتان لا تزالان تقاضها تشيد بعظمة من خلفوها . نعم اذا استعرضنا ذلك كله في التاريخ ، اقررنا ولا بد ، وافر الناس معنا باننا لسنا حديثي نعمة في الفنى الحضاري ، واننا مريقون في اعمال الفكر ، وان لنا قابلية واسعة في خدمة العقل .

واذا انكر الجاحدون علينا هذا بحجة عدم الوضوح التاريخي تلقينام بحضارتنا الاخيرة التي لنا منها اقوى تراث ، نستند اليه ، أما حجة بعض الجاحدين بان هذه الحضارة ليست نتيجة الفكر العربي وحده ، بل نتيجة عقول شعوب

استعربت وتكلمت اللغة العربية وجعلت نتاج قرأتها في لغة الضاد ، فهذا لا يضيرنا بشيء ، ألم تكن الدولة العربية هي الوجهة لهؤلاء الاقوام ، والمساعدة اليهم على اعمال الفكر والمشجعة على بذل الجهود ، بما كانت تقدم لهم من مغريات ؟ ألم يكن من الخلفاء من كان يقدم اسكل ناقل كتاب علمي ثقله ذهباً ، واذا انتبهنا الى ما كانت الكتب تزن في ذلك العهد ، عرفنا قيمة التشجيع هذا ، ورأينا كم يقصر تشجيع الدول الكبرى اليوم عنه . نعم ان الادعاء بان الحضارة العربية الاخيرة لم تقم على العقل العربي فقط لا يقلل من اهمية الفضل ، مادام العقل العربي هو القائد والوجه والمغري على العمل .



قام العرب بعملين جبارين ، الأول نقل الحضارات القديمة ، والثاني التشييد على اساس ما نقل .

أما النقل ، فاذا وجد فيه بعضهم عملاً سهلاً ، فهؤلاء تقول ماقاله احد المخلصين منهم ، وقد فضل الاقرار بالحقيقة على الانانية هو البارون دي فو : « ان الرومان ورثوا ايضاً عهد اليونان ، ولكنهم لم يحسنوا تعهد الميراث ، بينما العرب على خلاف ذلك فقد حفظوا واتقنوا ، وجددوا . » وماقاله العالم الاميركي الدكتور سارطون : « ان بعض الغربيين يصرحون ان لافضل للعرب بما نقلوا من علوم قديمة ، فهذا الرأي خطأ ، فلو لم ينقل لنا العرب كنوز الحكمة اليونانية ، لتوقف سير المدنية بضعة قرون . لذلك فان العرب هم اعظم معلمي العالم في القرون الثلاثة ، الثامن والحادي عشر والثاني عشر »

أما التشييد على اساس ما نقل ، فلنستمع الى العالم الفرنسي سيديو يقول : « ان نتاج افكار العرب الغزيرة ، ومخترعاتهم النفيسة ، تشهد انهم اساتذة اوروبا

في شتى الاعمال . » ويقول فلوريان : « كان للعرب عصر مجيد عرفوا فيه بانكباهم على الدرس وسمعيهم في ترقية العلم والفن ، ولانباغ اذا قلنا ، ان اوروباتين لهم بخدمتهم العلمية . » وقال ويلز : « كانت طريقة العالم العربي ، ان يئشد الحقيقة بكل استقامة وبساطة وان يجلوها بكل وضوح وتدقيق غير تارك منها شيئاً في ظل الابهام . »

أما ماذا خلف العقل العربي ليستحق من يناصره هذه المناصرة ، فهذا مأساً بسطه بالمامة سريعة مستندة بذلك الى ماقرأته في بطون المؤلفات المختلفة :



يدين علم الجبر للخوارزمي بجمله علماً مستقلاً عن علم الحساب ، فقد بونه هذا الرياضي العالمي ، ورتبه وزاد عليه ، ولا يخفى مالعلم الجبر من فضل في كثير من المعضلات ، وقد ظل كتابه « حساب الجبر والمقابلة » كتاباً رئيسياً يدرس في جامعات اوروبا حتى الجيل السادس عشر .

والى الخوارزمي يعود فضل تهذيب الارقام الهندية . وظل علم الحساب يدعي « الغورتمى » logarithme نسبة الى الخوارزمي . ولسنا نعلم كيف كان يكون هذا العلم لولم يسهل له علماء العرب هذه الارقام التي سماها الاوروبيون ، ولا يزالون يسمونها الارقام العربية لانها جاءتهم عن طريق العرب ، والتي حدا الاخلاص العلمي بهؤلاء ان يعئوها على اسم الشعب الذي منه اقتبسوها ، فلا نزال نحن اليوم نسميها الارقام الهندية .

وقد اخترع العرب ايضاً استعمال الصفر لما يستعمل له في الحساب اليوم ، كما قاموا باستعمال الكسر العشري الذي يقدر الرياضيون قيمته في تقدم الرياضيات والعلوم ، وكانوا باعئي نهضة علم المثلثات ، اذ جعلوه مستقلاً عن الفلك ، ويقول



طوقان في كتابه : تراث العرب العلمي : « ان دائرة المعارف الانكليزية قد اقرت بان كتابات ابن الهيثم في الضوء هي التي اوحى اختراع النظارات واخترع الرقاص » ، وفي مكان آخر : « ان العرب قالوا بدوران الارض قبل كاليب باجيال ، وعد لالاند البتاني من العشرين فلصياً عالمياً ، كما اضطر سارطون الى القول امام عقل بن سينا والكندي وثابت بن قرة وغيرهم كثيرين : « ان هؤلاء العلماء ادهشوا الاوروبيين واضطروهم الى الايمان بقوة الخلق في العقل العربي » . ولثابت بن قرة كتاب في الجبر بين فيه علاقة الجبر بالهندسة وكيفية الجمع بينها .

ثم ألم يعمل اجدادنا في ترقية الكيمياء والابتكار فيها حتى ان اسم هذا العلم لا يزال عربياً في لغات اوروبا جميعها . والى العلماء العرب يعود فضل الالتجاء الى التجارب الموضوعة ليتحققوا من صحة بعض النظريات الكيمائية . وقد استنبطوا ، كما ورد في كتاب « العرب » للدكتور حتى ، مركبات وحوامض تقوم عليها اليوم الصناعة الحديثة ، من صابون وورق واصبغة وسماد اصطناعي . وليس ادعى الى الهزء من بعض اقوال تنقص من اهتمام العرب بالكيمياء ، انهم لم يهتموا بها خدمة للعالم نفسه ، بل سعياً وراء الحصول على مادة تحول المعادن ذهباً . ولو سلمنا ان بعض الكيمائيين هدفوا بابحاثهم الى ذلك ، فما ضر مادام المعدن البراق ، كان ، ولا يزال حتى في عصرنا ، اساس التوصل الى التوفيق ، اليس الذهب الواج هو هدف الدول في نشاطها ، اليس النهضة الحديثة قائمة على ما يمكن ان توفره من هذا المستعبد الرنان ، فلم الانتقاص من عقل اراد ان يجعل هذا الاله خاضعاً للعلم الكيماي ؟ اني اعتقد ، انه لو قدر لاحد من البشر ان يصل الى هذه النتيجة ، حلت مشا كل عالمية كثيرة عن طريقها . على ان الكندي احد علمائنا ، الف في هذا الموضوع ناهياً عن الاشتغال بالكيمياء للحصول على الذهب ، لانه قال عنه « هو شغل بالعبث والباطل ، كما انه مضيع للوقت » .

ولجابر بن حيان يعود الفضل في الاهتداء في تحويل المعدن الى مسحوق  
أو رماد بواسطة الاحتراق ، وهو مخترع تحضير الحامض الكبريتي وحامض  
النتريك ، واليه يعود فضل تعديل نظرية ارسطو في بسائط تركيب المعدن على  
اساس بقي متبعاً حتى عصر الكيمياء الحديث في القرن الثامن عشر .

أما في الطبيعيات وعلم النبات ، فقد كان لابن العوام فضل كبير في  
رسائله الزراعية ، وقد شرح فيها تربية اكثر من خمسين شجرة مثمرة ، واورد  
ملاحظات جديدة في موضوع التطعيم ، وفي خصائص التربة والاسمدة ، وبحث  
اغراضاً اخرى في امراض الاشجار والكرمة ، ووصف طرق معالجتها .

وقد اهتم العرب جداً بعلم الجغرافياً والفلك لما لهذين العلمين من علاقة  
مباشرة بحياتهم الدينية ، ورسم الخوارزمي خريطة دعاها صورة الارض ، اشترك  
في وضعها تسعة وتسعون عالماً ، كما استعملوا المرصد ، فابنتي المأمون مرصد أعلى جبل  
قيسون في دمشق وفي الشماسية في بغداد ، وانشئت مرصد اخرى في اماكن  
مختلفة ، وانشأ الفاطميون مرصداً دعي المرصد الحاكمي ، على جبل المقطم .

أما الناحية التي اولاهها العرب اهتماماً كبيراً فهي الفلسفة ، ولهذه الرغبة  
في الفلسفة بواعث دينية شجذت من همهم ، فلقد آمنوا بوقت واحد بها ،  
وبالتعاليم الدينية وقالوا ان كليهما صحيح ، ومادام الصحيح لا يتجزأ ، فدراسة  
الفلسفة واجبة ، ليوفقوا بينها ، وهي وليدة العقل ، وبين الدين وهو وليد الايمان ،  
فالف ابن الطفيل مؤلفه الشائق المبسك ، « حى بن يقظان » برهن فيه على ان  
العقل كفيل بان يهدي الانسان الى الخالق ، دون اية واسطة .

ومن يذكر الفلسفة العربية ، يذكر ابن رشد الذي بقيت كتبه تدرس في  
جامعات اوروبا ومدارسها العالمية حتى العصر الحديث ، وهو يمثل العقيدة التحررية

المنبئة على العقل ، فقال بعدم خلود النفس ، وبازالية المادة ، وكان هذا القول كافياً ليرمي بالزندقة ، والزندقة طريق الى الموت . فالتجأ الي ازدواجية الحقيقة : النظر الديني الى جانب ، والنظر العلمي الى جانب وكلاهما حق ، وبسبب صدور هذه النظرية عن ابن رشد فقد درستها اوربا مدة طويلة حتى ابطالها البابا يوحنا الحادي والعشرون .

والف ابن رشد كتاب « تهافت التهافت » رد فيه على الغزالي في كتابه « تهافت الفلاسفة » واراد بذلك ان يرفع من قيمة الفلسفة التي ازدهاراها الغزالي . ونحن اذ نذكر الغزالي نأسف لهذا العقل الفذ ، يعمل على هدم الفلسفة وتجميدها في الشرق ، فتنقل منه الى الغرب حيث تصل الى اوج مجدها مع ابن رشد والفارابي وغيرها .

على ان انقسام الناس مع الفلسفة وعليها لا يمنع من ان العرب انتجوا عباقرة طبعوا الفلسفة اليونانية بطابعهم الخاص .

وهناك الطب ، فان العرب عملوا فيه كثيراً ولا يزال اسما الرازي وابن سينا يزنان القاعة الكبرى في مدرسة الطب في باريس ، والرازي هو صاحب كتاب « الاسرار في الكيمياء » ، الذي ظل مرجعاً لعلم الكيمياء حتى القرن الرابع عشر ، وهو مخترع الفتيلة الجراحية ، وصاحب رسالة الجدي والحصبة وهي اقدم ما كتب في هذا الموضوع ، وصاحب كتاب يدعى « الحاوي » لانه حوى خلاصة ما كان في حوزة العرب من المعارف ، مستقاة كانت او مبتكرة ، وظلت مؤلفات الرازي تسيطر على العقل اللاتيني قروناً طويلة .

ومن قصته المشهورة في انتقاء الناحية الملائمة في بغداد ، لبناء المستشفى ، بانه علق في كل جهة من جانبي المدينة شقة لحم ، واعتبر الجهة التي لم يتن فيها

اللحم بسرعة ، هي الصالحة لبناء المستشفى ، مع ماورد على لسان ابن الخطيب في العدوى وقد جزم بصحتها ، اذ يقول ، « وغير خفي عمن نظر في العدوى هلاك من يباشر المريض ، بالمرض نفسه ، وسلامة من لا يباشره » . الى ماورد عند الجاحظ عن اهل الاهواز وحمام قوله : « انهم ليسوا يؤتون من قبل النهم ، ومن قبل الخلط والاكثر وانما يؤتون من عين البلدة » وفي مكان آخر ، « وقد تحدث السباخ والانهار بخاراً فاسداً يفسد الهواء ، وفساد الهواء يفسد كل شيء يشتمل عليه ذلك الهواء » .

نعم اذا تدبرنا قصة الرازي ، وكلام ابن الخطيب وقول الجاحظ ، لاحظنا ان العرب لم يكونوا بعيدين عن امكانية العثور على ماعثر عليه « باستير » بمداجيل ، من وجود الجراثيم في الهواء والماء ، واستنباط المعلوم والذي ينبي بعلمهم بنظريته بيت ابي نواس .

« وداوني بائي كانت هي الداء »

ولعل الشيء الذي كان ينقصهم ليصلوا الى ما يصل اليه العلماء المعاصرون ، هو هذا الاختصاص الذي لم يعرفوا له وجوداً ، ففعلهم كما نرى في مؤلفاتهم ، كثيراً ما كان يتسع في وقت واحد للفلسفة والرياضيات والموسيقى ، والطب والشعر والفلك الى ما هنالك من اعمال العقل والثقافة ، مما عاقهم عن بحث فكرة واحدة بحثاً تحليلياً عميقاً ، يخرجون منه الى نتيجة عملية نهائية .

ولا يسعني ان انهي كلامي على بعض تراثنا الذي اغنى الحضارة ، الا بكلمة عن الفن .

تأثر الفن العربي بالفن الساساني من جهة ، وبالخط الكوفي القديم من

جهة اخرى فالصبح فناً يختلف عما كان يعرفه العالم من الفن اليوناني القديم ذي الوتيرة الواحدة ، والفن العربي الجديد هذا سحر الناس بزخارفه البديعة والوانه الصارخة المتعددة وجمال اتساقها ونماذجها ، فقد جاء صورة حية لما يتوق اليه الذوق العربي المستمد من هذه الزرقة الصافية تظلل ارضاً ذات انجاد وبطاح آنا ، وذات جبال شاهقة واوداء خصبة آنا آخر ، فامناز الفن بهذا التمازج بين الاشكال والالوان ، فنجي به سحرأ يأسر النفس . وجمالاً يبهج الخاطر ، وزف الى العالم المتحضر ، المتطلع الى الجديد هدية انيقة مستحبة . حتى ان اوروباطلت مدة طويلة تنظر الى الفن العربي نظرها الى اعجوبة لما يحوي من جمال وذوق واثقان . والخط العربي لا يزال حتى اليوم يستهوي الفرنجة ، ولعل خطوط الرسم الحديث يستمد اصوله الاولية . بطريقة غير مباشرة من الخط العربي . واحف التطويل اذا عرضت الى فن « العمارة » ولكني سأكتفي بقول المؤلف الانكليزي كريستي رداً على من يزعمون ان فن العمارة العربية في العصور الوسطى يرجع الى اصول رومانية فيقول « علينا ان نذكر ان العرب كانوا يشيدون ابنتهم على طراز غريب عن الطراز الروماني » .

واتقد كانت الاندلس طريق الاتصال بين الغرب والشرق في الفنون شأنها في ذلك شأنها في العلوم والآداب .

أما وقد عرضت بهذه المعجالة الى بعض التراث الذي تركه اجدادنا في بناء الحضارة المالمية ، فلي ان اعرض الى بعض ما يجب نحن حفداءهم ان نقوم به لنستحق ان نكون لهم حفدة من جهة ، وليكون لنا في الحضارة الحديثة مكان من جهة اخرى .

وان امامنا لسفراً شاقاً ومنهاجاً طويلاً ذا حلقات ثلاث نصل في آخرها الى مانتوق اليه ومانتوق اليه حبيب الى كل من تذبض في صدره دماء العزة والطموح .

الحلقة الاولى : هي في رفع مستوى المعيشة في المجتمع العربي ، على اختلاف اقاليمه ، فنسبة الرقي في مجتمع ما هي بنسبة رقي مستوى الحياة أو عدم رقيه ، فقصة النبوغ في الفقر والحرمات والمرض ، اسطورة قديمة لم يبق احد من الناس يؤمن بها ، فاني للقائم على الطوى ان يفكر بالامور المثلى ، واني للمريض السقيم الجسم ان يعي رسالة فكر وقد قيل العقل السليم في الجسم السليم .

ورفع مستوى الحياة يتأتى بتوفير الاقانيم الثلاثة الغذاء والتطبيب والتثقيف ، وحق الفرد على مجتمعه بهذه الامور ، اصبح حقاً طبيعياً يساوي حقه في تنشق الهواء وشرب الماء . وان الفرد ليبقى هزيباً ما لم تتوفر له هذه الامور الاولية ، وما بقي الفرد هزيباً بقي المجتمع هزيباً .

والغذاء يتوفر بتوفير العمل لسكل من افراد المجتمع ، وان في الارض العربية لمجالاً رحباً لهذا التأمين ، فالزراعة لاتزال على بداوتها ، والصناعة معدومة الوجود تقريباً ، مع ان موارد الاثنتين الاولية متوفرة في الوطن العربي بشكل تحسده عليه اغنى الاوطان : فللايين الكيلو مترات في اراضنا لاتزال بوراً ، ومياه انهارنا تمر فيها سراعاً دون ان يستفاد منها فائدة تذكر . فلو شمرنا عن ساعد الجد ، واستغللنا امكانياتنا الطبيعية في وطننا ، اتمياً حتماً لسكل فرد من افراد المجتمع عمل يكفل به حياته في مستوى راق . ومواردنا الطبيعية ، ان في جوف الارض أو على سطحها أو في فضاءها ، كافية لتنهض بنا نهضة صناعية ذات اهمية ، بدلا من ان نكتفي منها بجزء مئوي ، ويذهب الباقي الى الصناعات العالمية . اليس هذا احتقاراً لنا ولعقلنا ان نسلب ثروة ارضنا ليمتدح غيرنا بها ، ونحن لاهون بما يرمى لنا منها من فتات ، انه بامكاننا اذا عباؤنا جهودنا وامكانياتنا المعنوية والمادية ، واستغللنا مواردنا الطبيعية ، ان نصل بمدة نصف جيل الى مستوى من الرقي الزراعي والصناعي ، يكفل لافراد مجتمعنا حياة عزيزة راقية ، ولا سيما

اذا عرفنا ان في كل ناحية من نواحي الوطن العربي قابلية خاصة ، فهنا المياه  
والجبال ، وهناك الزيوت والمعادن ، وهناك الاراضي الشاسعة والايدي العاملة .  
حتى لترانا واجدين في الصحراء ، فضلا عما حواه جوفها من ذهب اسود خصباً  
يجب ان يستثمر ، فلا اقل من ان ننشر في سماها الغيوم الاصطناعية نحدبها من  
حرارة الشمس ونزل عليها الامطار ، فنجعل من ارضها واحة دائمة الخضرة  
تعم ملايين الافدنة ، وتهيب الغذاء لملايين البشر . ولم لا مادام باستطاعتنا ان  
نستفيد من اختبارات غيرنا ممن سبقونا في المدنية الآلية . ولاضير علينا مادامنا  
ندفع ثمن هذه الآلات ، ومادام لنا من وصايا اجدادنا خير مشجع ، فلنستفد من  
وصية ابن سعيد المغربي لابنه اذ يقول : « استمع يا بني الى ما خلد الماضون بعد  
جهدهم وتعبهم من الاقوال والاعمال ، فانها خلاصة عمرهم ، وزبدة تجاربهم ، ولا  
تشكل على عقلك ، فان النظر في ماتعب فيه الناس طول اعمارهم وابتاعوه غالياً  
بتجاربهم ، يرحمك ويقع عليك رخيصاً » .

وأما التثقيف فما من شعب اسهل عليه العمل التثقيفي من الشعب العربي .  
ومما يلفت ، بصورة خاصة ، نظر الاجانب الذين نزلوا بيننا ، هو هذا الاندفاع  
المتحمس في تطلب العلم والثقافة ، فالوالدون ، وفي كثير من الاحيان ، لا يملكون  
ضروريات الحياة ، يضحون بهذه الضروريات وبيذلون فوقها الجهود الجبارة في  
سبيل تعليم اولادهم ، فنرى الأب ، يشتغل الليل والنهار وفوق ما يستطيع ، والأم تدور  
من عمل الى آخر ، يحصلان معاً على ما يمكنها من دفع اقساط المدرسة وتكاليفها  
الجملة الاخرى . والقرش في هذا السبيل مقدس عندهما ، ومقدم صرفه على اي  
شيء آخر . بينما الناس في اوروبا ، وغيرها من البلدان المتقدمة يجدون العلم دون  
ماثمن أو مقابل ، ومع ذلك فكثيرا ما كانوا يفضلون حجب صغارهم عن المدارس  
ليستفيدوا من اعمالهم الاخرى ، حتى ان بعض الحكومات اضطرت الى  
الاتجاء الى الاجبار والحد من سوء تصرف الوالدين . أما عندنا ، فلن نكون

بحاجة الى نعت التعليم بالاجباري ، فالودون يتسابقون اليه ، ونفقاته فوق- تتحمل  
جيوبهم ، فكيف بهم يوم يرفع عن كاهلهم هذا الحمل الثقيل ، ويؤمم التثقيف  
ويصبح في متناول يد الجميع ، وعندئذ ان يبعد اليوم ، الذي نحتفل به بزوال آخر  
امي في الوطن العربي .

وإذا ما امم العلم ، وانتشرت الثقافة سهات محاربة الامراض الفتاكة ،  
لان العلم ينير امام الناس طرقاً مظلمة كانوا بها يتسكعون ايام كانوا جاهلين ،  
فما ان يتعلم الفرد حتى يعرف الوسائل التي تستعمل في الحفاظ على الصحة ، خاصة  
وعامة ، فضلاً عن ان الدولة بإمكانها ان تخصص في كل قرية ، مهات ، مدرسة ،  
على الاقل ابتدائية ، تجعل فيها فرعاً « للتدريب العملي » يحث الناس على الخلاص  
من الاوبئة ، وتجنب انتشارها بين ابناء القرى . كما يسهل عليها خلق جيش من  
المتعلمين تمبئته وتشره في لاوساط النائية محارب به الجهل الذي يورث الامراض  
ويوجه الناس الى الاخذبالقواعد الصحية . انه هذا الجيش ليكون وايم الحق . اغر  
جيوش الدولة عملاً ، واقوى منعة من أي كتائب تصد هجمات العدو على الحدود .

وعليتنا بعد ذلك ، ان نتجنب الخطأ الذي وقع فيه جدودنا ، وقبل ان  
ادخل في تفاصيله اود ان احدثكم عما جرى لي مع ليلى . هو كالذي قيل ان شابا  
كانت له حبيبة تدعى ليلى . وكان يتغنى باسمها ابدًا ، فتغامر عليه اخوانه وقرروا  
ان يداعبوه ، فقالوا له يوماً : ان لم تلتفظ باسم ليلى النهار بطوله ، فلك علمناصرة  
من الذهب ، وكان شاعرنا ، كماكثر الشعراء في أي زمان ومكان ، مملقاً ، لقبيل  
على مضض ، ويعلم الله وحده ماقلبي من الم الحمرمان في ذلك اليوم الطويل ، على  
انه كان يتمل بصرة الذهب ، يربحها ويزيل عن نفسه ، ولو موقتاً ، بؤس الفقر .  
ومالبث ان تطلع ، فاذا بذات الاشعة الذهبية تتأرجح عند الاق . وودعة العالم ،  
فأن حزينا وقال : « اوف ، غابت الشمس وماقلنا بليلى قصيداً » واران متشبهة بهذا



الشاعر ، واما اليوم الطويل فهو محاضرتي وأما ليلى فهي موضوعي الذي سأدخل فيه وهو موضوع المرأة التي قلت ان اجدادنا اخطأوا بحققها فكلفهم خطاهم ملكا عريضا فقدوه بسرعة .

لقد كنت عاهدت نفسي ان ابتعد عن موضوع طالما طرقته اقلام النساء ، والرجال معاً ، ووعدتني نفسي الجائزة ان فعلت ، ولكن ما ان وجدتني في صميم مايجب علينا اتمامه ليكون لنا دور في بناء الحضارة حتى ذكرت ان عدم مساهمة المرأة العربية في مدنيتنا السابقة ، كان عاملا اساسياً في زوال تلك المدنية ، والتي الكريم ، وقد جاء هادياً قومه الى ما فيه خير قومه ، عرف ان هذا الخير لن يكون كاملا الا اذا انصف المرأة ، فرفع من شأنها ونص على ان « لمن مثل الذي عليهن بالمعروف » حتى قال احد المستشرقين : « ان المدنية العربية مدينة للحرية التي اعطاها محمد للمرأة » . على ان هذا الانصاف ، تلاقيه المرأة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مالمثل ان زال او كاد قبل ان يتمكن من النفوس والعادات ، فضربت الامة العربية من جراء ذلك بجاهلية ثانية اقوى من الاولى ، واذ جمعوا بين يتلاقيان في هدمها ، معول في يد المرأة الحرة القابعة في خدرها جاهلة محرومة منطوية على نفسها يحز الأم في صدرها حزاً ، فما ترى من سلاح غير الرياء والتأمر والكذب ، فتسربلت بهذه الصفات ، واصبحت تعرف من اجلها بالشيطان ، ومعول بيد الجارية الموتورة تقود بدلالها رجال الدولة في طرق متعرجة ، حيث كان يروق لها ان تنضي على انفتهم وكبرياتهم وذكائهم ، وتعيش بعدم منتصرة في ما اخذت به نفسها من اضعاف الامة العربية .

نعم ما ان ذكرت ذلك كله حتى قلت ، يجب ان تكون هذه الحقيقة المرة عبرة لنا في نهضتنا الحديثة ، ان غلطة اجدادنا تجاه الأم والزوجة والاخت والبت والمواطنة كلفتهم حياة دولة كان ينبغي ، وقد وصلت من المجد الى ما وصلت

اليه ، الاثمتوت .

فعلينا نحن اذاً ان نعيد للمرأة ثقها بنفسها ونجلبها عن دور « الملهاة » ونقدر دورها الهام في تربية النشء جسدياً وعقلياً وخلقياً ، تربية مثالية تصلح اساساً لبناء امة قوية ، دورها في العمل القومي من ثقيف اولادها ثقافة قومية وانسانية ، ودورها كمواطنه تعلم كيف يجب ان يضحى المواطن بمصالحه الخاصة في سبيل المصلحة العامة ، ومتى اصبح لنا امهات يفهمن دورهن المقدس حق الفهم ، ومتى ما طردنا الفقر والجهل والمرض ، اصبحت الوحدة الانسانية في مجتمعتنا قسوية خلاقة ، واهتدينا عفواً الى الطريق الموصلة الى ما نريد . وليست هذه الحلقة لما يستعصى الوصول اليه ، فهي اعمرى اسهل مما قد يظن ، فعشرون سنة على الاكثر كافية للقضاء على الامية ، واقل من ضعفها كانت لتصبح الصحة العامة خالصة من شوائب الامراض ، ولا سيما اذا استعملت الوسائل الطبية الحديثة . فما ينقصنا الا ان نريد ، ويخلص بيننا القادرون على التنفيذ ، فتنقاد لهم اشق المصاعب ، أما المال ، اذا ما جوبهت بمشاكلته ، فما اسرع ، وما اسهل ما يتوفر ، ففي كل مكان مال متجمد لا ينتفع به ، وفي كل ناحية مال يهدر هدرأ ، يجب ان يستعمل هـذا المال وذلك للعمل الجليل ، كل باب يجب ان يطرق لجمع المال للهدف الاسمي ، فالهم ان نريد وحيثما وجدت الارادة وجدت الطريقة .

أما الحلقة الثانية من المنهاج العملي : فهي العناية بلغتنا من جهة ، والاهتمام بكتابة تاريخنا واساطيرنا من جهة اخرى .

والعناية بلغتنا ، امر لامناص منه ، فاللغة للشعب كالدلم للجسم ، واي جسم يعيش دون دم . واول ما يجب ان نعمل هو ان نقرض لغتنا على العلم بما نبتدع فيها من اساليب تجعلها تعايشها ونعايشها ، وبذلك نسد الباب على القائلين بتركها لسبب تخلفها عنا ، وانا على مثل اليقين من ان مسألة تخلف اللغة عن

حياتنا ليست كائنة في صعوبتها أو ازدواجها كما يدعي بعضهم ، بقدر ما هي كائنة في ضعفنا السياسي ، فاللغات باصحابها ، ان هم عاشوا عاشت لغتهم . ليت شعري لم يقم احد من الناس في زمن كان هرون الرشيد يخاطب الغيمة بقوله : « اذهبني وامطري اني شئت فسيأتي خراجك الي » ، يدعي ان اللغة العربية صعبة بل بالعكس فان الغرباء عنها كانوا يفخرون بتعلمها ويمجبون بقواعدها ويتسابقون الي دراستها لتكون لهم اناقته التمييزية .

هذا في الشرق أما في الغرب فمن اطرف ماروي في هذا الباب ان اسقف قرطبة كتب مرة الي صديق له شاكياً من اقبال رعيته على اللغة العربية وآدابها قال : « اواه ، ان تيار العربية قد جرف الكبير مع الصغير ، حتى نبذ الجميع لغة دينهم واندفعوا نحو العربية معجبين بها مفتونين باناقته ، وكأي منهم من يحسنها نظماً ونثراً ، في حين انه لا يستطيع انشاء رسالة بسيطة في اللاتينية » اجل مع اني موقنة ان تدمر البعض من اللغة العربية ليس متأثراً عن الصعوبة ، فاني ارى انه من الاتقع لنا ، بسبب انقطاعنا عنها الف عام ، ان نميل على اختصار ما لايس في جوهرها ، ونعمد الي تبسيط مظهرها بما يجعلها ارحب باباً على النشء الطالع ، ولنا باسلافنا في هذا السبيل خير قدوة ، فهل كانت اللغة قديماً كما هي عليه اليوم ، لم تكن متجاوبة الحرف والقرآن الكريم نفسه لم يكن في اول جمعه مجرداً من التنقيط والشكل ، فهل منع ذلك اجدادنا من ان يخطوا خطوة واسعة لتسهيل قراءته وكتابته ، فلم لا نغير نحن على مالا يوافقنا من التعقيدات في اللغة ، ان في مظهرها أو في قواعدها ، فزيده ونزيد عليها مايسرها ويجعلها اكثر ملاءمة لاجواء اولادنا وعقليتهم وزمنهم ، واكثر قابلية لمعيشتنا ومن ثم نفرضها في مدارسنا لغة العلم والتنقيف الي جانب الادب والتأليف ، ونحلها رويدا رويداً محل اللغات العامية بدلا من ان يقوم منا من ينادون باحلال تلك محلها ، واذا رمينا بنظرة الي ربع قرن مضى ، لاحظنا اي شوط بعيد ، قطعت اللغة ودراستها في مضمار التقدم ،

هذام العلم ان ثلثي هذه الممدة ، كانت العربية فيها ثانوية تراحمها لغات اجنبية .  
وهذا التقدم دليل ساطع على ان الشعب ، اذا ما عزز ، عزت لغته ، ودليل آخر  
على ان لغتنا ليست ظاهراً كما يريد ان يدعي اصحاب المآرب فينادوا بعدم صلاحيتها  
للحياة ، مع انها ، يعلم الله ، تزخر بالحياة .

قيل ان نابليون الثالث ، سأل سفير تركيا يوماً ، وكان صديقاً له حمياً :  
« اية دولة في العالم هي الاعظم » فاجابه السفير فوراً ، « دولة جلالة مولاي  
السلطان » فانتهض نابليون قائلاً ، وكيف ؟ اتكون اعظم من فرنسا ؟ ، برهن  
فاجابه السفير : « لو كانت الرشوة متفشية في الجيش الفرنسي ، والشعب متعددة  
اهواؤه وميوله والحياة تعم الخاصة والعامة و... و... واخذ يعدد له حالات  
الدولة في ايام الرجل المريض فماذا كان يحدث » فابتدره الامبراطور صارخاً « في  
مدة اربع وعشرين ساعة لن تبقى فرنسا على وجه الارض » . فضحك السفير  
التركي وقال ارأيتم يا مولاي ان دولة جلالة مولاي السلطان هي الاعظم . انها  
تعيش على هذا النمط منذ ستمائة سنة .

واراني اقابل بين اللغة العربية وغيرها من اللغات الحية ، واقول ، اي  
تقصير نحن فيه من جهة لغتنا الأم ، التي لو اصبغ غيرها بما اصيبت هي به ،  
لاصبحت منذ اجيال في العدم . أما هي فبالرغم من وأدنا اياها اجيالاً ، وتمهينا  
منها ازماناً ، لاتزال رافعة الرأس تربد الحياة ، اية حيوية هي هذه التي تنبض في  
كيانها ، فلو ساعدناها بتقليل مما يقدمه ابناء اللغات الاجنبية للغاتهم من التشويق  
ومظاهر الاعراء ، واعزناها من الاهمية مكانها اللائق بها . كأنه ام . لرأيناها ،  
لاقول اجمل ، فهي اجمل ولاقول اغنى ، فهي اغنى ، بل اقول لرأيناها اقوى لغات  
الارض وامرنا ، واطوعها . هي عندناك غير متخلفة عنا بل حرية ان تراقنا  
صبية جميلة في ارق بلدان العالم حيث تكون اداة طيبة لاسمي المعاني ولادق ماوضع

من مسميات العلم الحديث .

أما كتابة تاريخنا ، فهو فرض علينا واجب اذ هو فرض على كل أمة تريد الحياة ، فالامة دون تاريخ ، ليست بأمة ، ويتبع كتابة التاريخ تدوين الاساطير المحببة الينا ، وفي اساطيرنا مادة خصبة مغرية ، وحوادث فتاة ، اذا ما حولتها عقول ناضجة واقلام يانعة الى قراءات نشرها في النشء ، كانت وحدها كفيلا بان تخلق شعباً من العدم ، فكيف لو زيدت الى مالنا من اعمال مجيدة واخلاق صامدة لم ينكرها علينا الاجانب ، على كثرة ما انكروا من حسناتنا ، وما انكروا الا لاننا تركنا لهم مهمة تدوين تاريخنا بدلاً من ان تقوم نحن بهذه المهمة ، ولم يكونون أعنى منا بشؤوننا ، ومن ذا الذي يكون ملكياً اكثر من الملك ؟ .

والتاريخ عند الامم اداة بناء الامة وله شأن وأي شأن في نهضتنا ، ولطريقة كتابته تأثير على العقول ، فالقول الواحد يختلف معناه ومؤداه اختلافاً بعيداً باختلاف الطريقة التي يؤدي فيها ، ومن هنا صرخ احد المؤرخين الالمان قائلاً : « ويل لنا من الشرق يوم يقوم الشرق ويخط تاريخه بنفسه » .

نعم لندون اساطيرنا البديعة والحوادث التاريخية النبيلة بانفسنا ، ولتقدمها الى نشئنا تخلق فيه عزة وتباهياً ، بمجوده ، فمن لاجدود له لا عز له . اولا نرى الناس كيف يشترون من سوق الدلالة الاشياء القديمة يضعونها في زوايا بيوتهم يدلون بها على عرفهم القديم ومحتدم الشريف ، وما نحن بحاجة الى الشراء من تلك السوق ففي بيتنا من دلائل المجد الاثيل مايكفيينا ويزيد ، وفي كل لفتة من لفتات تاريخنا صفحة باهرة ، فما على عباقرة الفن عندنا الا ان يعبوا منها ، وما على اقلامهم الانيقة الا ان تصطفي فيكون لنا ما تقدمه للنشء ، فيربي النشء على تعود الكبر من خلال سطور التاريخ وجمال الاساطير .

وإذا ما أخذنا بالحلقتين الأولىين من هذا المنهاج أصبحنا أكفاء للاخذ بالحلقة الثالثة ، وهي استثمار القوى الخلاقة فينا لمسيرة الشعوب الراقية ، الدافعة بعربة الحضارة قدماً ، وهذه الحلقة هي المهر الذي ترضه علينا العروس ، لتقبلنا من عداد مرديها وخطي ودها . هذه الحلقة الثالثة هي العمل على إيجاد اختراعات تقيد البشر ، وتخلصهم مما لايزال يعمق تقدمهم نحو الكمال ، فهناك امراض لا تزال مستعصية ، تذهب كل يوم بالالوف من الناس قبل اوانهم ، وهي اشد فتكاً بمن تحتاج الحضارة الى ادمغتهم منها بنيرهم ، فلم ، لا تسجل ادوية هذه الامراض باسماء عربية ، بل لم لا يكون مخترع الحركة الدائمة عربياً ، ثم اليس العالم بحاجة الى آلة تسخر له القوة الهائلة الكامنة في مد البحر وجزره ، بل لم لا يكون اول مسافر الى القمر أو المريخ عربياً مادام الوطن العربي يقدم لنا السماء الصافية ، والجبال العالية ، وامكانية للرصد لايباريه بها أي بلد . كل ذلك وغيره لا تزال الحضارة ترقب من يزفه اليها ، لماذا لانكون نحن المرتقبين . هم اخترعوا القنبلة الذرية للتدمير ، فلم لا يكون منا من يخترع طرق استعمالها للتعمير ، هم اخترعوا لاقطات الاصوات الآتية ، فلم لا يكون منا من يخترع آلة تلتقط الاصوات المخترنة في الاثير من ملايين السنين ؟ . افلا يقرب هذا الاختراع وجه التاريخ .

★ ★ ★

بهذه الكبار من الاعمال ، نتمكن من الدخول الى قدس اقداس الحضارة ، ونصبح معدودين من شعوبها المختارة ، والابقينا على هامش الدولة القوية نعيش على فتاة موأنداها ، لانجرأ ان نرفع بانظارنا الى الصدر من هذه المائدة ، حيث يتصدر الكبار العارفون .

★ ★ ★

وإذا جوبهت بطول الامد الضروري لهذا البرنامج الشاق ، اجيب ان

مصيبة بلادي الحقيقية بفريقين من العاملين فيها ، فريق لا يزال تفكيرهم طفلاً ، فهم على اخلاصهم الشديد ومحبتهم لبلادهم ، فانهم من اللجاجة بحيث لا صبر لهم على تطورات الزمن البطيئة ، فاذا ارادوا معالجة امر فيه خير لامتهم عالجوه على طريقة كمن فيكون ، وان لم تطعمهم الحقيقة ، وتلبهم كخاتم سحري ، يتسوا ! ونقضوا ايديهم من البلاد وامكانية الاصلاح . وفريق آخر اناني ، لا يتعاطى اصحابه من الاعمال الا اقصرها مدى ، واقربها هدفاً ، بالنسبة اليهم ، لان انانيتهم تخشى الا يصيبهم هم جني الثمر . فمالهم ولا جبال المقبلة فليتمتعوا بما حضر من اللذات ، ومن بعدم الطوفان .

امتي بحاجة الى نوع ثالث من البشر بحاجة الى من يعرف ، ان يعمل بنفس طويل ، لا يتسرب اليه الملل ، ولا يبالي الا بشيء واحد هو الاطمئنان الى انه يسير في طريق الحقيقة .

امتي بحاجة الى من يعرفون ان بناء الامم ، كسكل بناء يحتاج الى الاسس المثبتة ، والتضحيات الكثيرة ، والقوى المتكافئة المتضامنة ، البعيدة عن اللجاجة والانانية ، رائدها الصبر الجميل ، والثبات النزيه ، والمراس الطويل .

وطنى العربي ، بحاجة الى قادة خلص يعرفون ان حياة الاوطان لاتقاس بحياة الافراد ، وان هؤلاء يزولون ، ويحل مكانهم ، غيرهم ، وغيرهم ، وغيرهم ، الى ان تصل السفينة الى المرفأ الامين .

نحن بحاجة الى من يقدررون اهمية ما تنتظر الحضارة منا كشعب ، عملها في الماضي ، وتطلب ان يعمل لها في المستقبل .

٢٥ شباط سنة ١٩٥٥

الدكتورة زاهدة ابوب





السياسة والاقتصاد في سورية

الدكتور سليم عادل عبد الحق

فہرستہ نمبر ۱۱۱۱

تیسری دفعہ لکھی گئی ہے

مخالفہ نام لکھی گئی ہے

— ۱۱۱۱ —

سيدي وسادتي :

لابد لي قبل ان ابدأ حديثي ، الا ان اوجهه خالص شكري الى استاذنا  
الكبير سامي بك الكيالي مدير المكتبة الوطنية الذي اتاح لي هذه الفرصة السعيدة  
للتحدث الى حضراتكم . كما لا يسعني الا ان انوه بمجهود هذا السوري العربي  
الكبير الذي كان بذكائه وجهوده خلال سنوات طويلة ، امامنا من ائمة نهضتنا  
الحديثة ودعامة متينة استند عليها صرح ماحققه جيلنا الحاضر من تقدم . واعترف  
خدمة للحقيقة اننا نحن المختصين بالآثار مدينون كثيراً لدراساته الواسعة القيمة في  
التاريخ والادب . لان هذه الدراسات بسطت امامنا مجال العمل فسيحاً ووسعت  
الاجواء التي كتب علينا ان نعيش فيها . فله منا كل تقدير واجلال .

## السياحة والآثار في سورية

لا يمكن لحديث عن السياحة والآثار في سورية ، الا ان يكون عاماً ،  
وخالياً من التواريخ والارقام ، وغير مثقل بالاحصاءات ، والدراسات العميقة ،  
والاوصاف الدقيقة . وما ذلك الا لأن هذا الموضوع واسع جداً ، ومجال القول  
فيه متيسر للمؤرخين والمختصين بالآثار ورجال المال والاقتصاد ، والمفكرين  
والادباء ، والكتاب والمثقفين والمترفين ومحبي الاسفار ، ومصطادي اللذات ،  
وعشاق الجديد . ولن يتمكن خلال الوقت الذي ستسمحون لي فيه ان اتحدث  
الى حضراتكم ، الا ان اسوق اليكم بعض الافكار العامة عن السياحة والآثار  
اطلعت عليها في مناسبات شتى ، متوخياً ان اوفق بينها ، حتى تلقى معاً حزمة من  
النور على السبيل الواجب سلوكه لتتخذ بلادنا سياسة سياحية فعالة نحن بأشد  
الحاجة اليها .

والسياحة ليست امراً مستحدثاً ابتكرته مدينة العصر الحاضر ، بل انها  
عادة استقرت في نفوس البشر منذ اقدم الازمنة ، كما ان البواعث التي تدفع  
السائحين الى السياحة اليوم هي نفسها التي حدثت بالاقدمين الى الخروج من زمان  
بلادهم ومكانها ، والى التجدد ، والترفيه عن النفس ، والضرب في طول الارض  
وعرضها مدفوعين بفرينة تشوقهم الى دنيا غير دنياهم وبنزعة خفية سرها في نفوسهم  
تجملهم على سبر المجهول والتشوف الى جنة فردوس ارضي ترسم خطوطه العامة  
في اخيالهم قبل ان تتحقق أو لا تتحقق صورته في مكان ما .

وايس اسهل من الاتيان بامثلة عن سياحات مشهورة قامت في كل العصور .  
فاقدم النصوص التي وجدت في بلاد الرافدين تتحدث عن رحلة قام بها (جيلغامش)  
ابن الآلهة شماس في عصر ما قبل التاريخ . ولا يخفى ان هذا البطل كان محارباً وصياداً

وجذاباً ، يجذب الاولاد من آبائهم والمذارى من بيوتهن والنساء من ازواجهن .  
وقد جذبت اليه ربة الحب عشتار ، فاحبته ثم كرهته وارسلت اليه البطل  
( انكيدو ) ليخلصها منه ، فتصادق البطلان وسافرا الى الغرب ، وبلغا جبال  
الامانوس أو لبنان ، وحلا في غابة جميلة واعجبا باشجارها الباسقة ، واسرا  
حارسها الشيطان ( خومبابا ) ثم عادا الى بلاد الرافدين .

وفي ورقة من اوراق البردي المصرية ان اميراً فرعونيا اسمه ( سينوهيت )  
فارق بلاط منفيس في عهد الامبراطورية الوسطى أي في فاتحة الالف الثاني قبل  
الميلاد ، واجتاز سينا ، ووصل الى كنعان ، ثم تنقل في البادية حتى بلغ ( رزينا )  
احدى عواصم سورية القديمة في الجزيرة . وقد اطلق سينوهيت على هذه البلاد  
اسم بلاد اللبن والعسل واعجب بدساتينها وحقول قمحها وكرومها ومراعيها  
وسهولها . وبعد ان تزوج ب ابنة كبير مدينة ( رزينا ) عاد الى بلاده مصر مع بعض  
سكان وطنه الجديد .

وسياحات الفينيقيين معروفة ، وتطويفهم في كل اقطار الدنيا مشهور . فقد  
كانوا وسطاء بين الشرق الصناعي والغرب الزراعي . ومنهم الاميرال ( هيميلكون )  
الذي وصل الى جزر الكاستريد في بريطانيا التي لم تكن عظمى في ذلك الحين ،  
والاميرال ( هانون ) الذي دار حول افريقيا ، ووصل الى خليج ( غينيه ) ،  
ووصف عادات سكانه ، وتحدث عن الحيوانات العجيبة التي رآها هناك . وقد اقام  
الفينيقيون الخطوط البحرية في المحيط الاطلسي ، ويظهر انهم اكتشفوا امريكا  
قبل ( كريستوف كولومب ) وحملوا اليها مبتكرات مدنيتهم الفينيقية الرائعة .

ومن السياحات العالمية المشهورة سياحة الاسكندر الكبير بين الهند  
ومصب الفرات . فبعد ان ربح هذا الفاتح العظيم المعارك وشيد الممالك ، وصل

الى المحيط الهندي وبنى اسطولا ضخما وسائر شاطئىء البلوجستان ، وحاول ان  
يقيم الاتصال بين نهري الهندوس والفرات ، وقد دامت رحلته ستة اشهر ، وكان  
ينحدر احيانا خلالها الى البر ، ويسير ساغبا لاغبا بين جنوده . وحفظت لنا  
مذكرات اميراله ( نيارك ) ذكريات هذه الرحلة ، ومعلومات مختلفة عن جغرافية  
البلاد التي اجتازها ، وعن اطباع اهلها ، وصفات حيواناتها . وتحدث الناس كثيراً  
عن رحلات الحوارين الى اطراف الدنيا المعروفة لنشر مبادئ المسيحية  
وتعميمها ، واشهر هذه الرحلات رحلات القديس بولس الذي التصقت ذكراه  
بسور دمشق الشرقي . فقد اتى الى هذه المدينة ، فتنصر فيها وتعمد على يدي  
القديس حنانيا ثم سافر الى جزيرة العرب ، وعاد منها الى انطاكيه . ثم قصد  
قبرص وآسيا الصغرى وبلاد اليونان ، ثم عاد الى فلسطين ومنها سافر الى جزيرة  
كريت فأسيا الصغرى فماكدونيا واسبانيا ، واخيراً وصل الى روما حيث امر  
الامبراطور نيرون بقتله .

ويعد الامبراطور هادريان الذي تولى عرش روما سنة ( ١١٧ ميلادية )  
من اكبر السائحين . فقد امضى اكثر من عشر سنوات من حكمه الذي دام احد  
وعشرين عاماً وهو يتنقل بين اقطار امبراطوريته الاسيوية والاوربية والافريقية .  
ويدفعه الى ذلك فكره التواق الى حب الاستطلاع ورغبته في توفير رؤى جديدة  
لنفسه وتأثره بحال الطبيعة والفن . ويؤثر عنه انه تسلق بركان ( إتنا ) واصطاد  
الحيوانات الكاسرة في مجاهل ليبيا ، وزار مراراً سورية وحل في انطاكيه ،  
وصعد الى قمة جبل الاقرع ليتفرج على شروق الشمس ثم سافر الى تدمر ،  
فسميت موقتاً هذه المدينة باسم ( هادريانا ) نسبة اليه .

ولما عاد هادريان الى عاصمته أمر ببناء دارة فريدة في ( تيبور ) التي تبعد  
عشرين كيلو متراً عن روما . وجعل هذه الدارة متحفاً سياحياً غريباً جمع فيه

آثاراً من كل البلاد التي زارها ، ومثل في هذا المتحف الذي تبلغ مساحته سبعة آلاف متر مربع نماذج عن الابنية المشهورة التي رآها كابنية الاكاديمية واليسية في اثنا و ( الكنوي ) في الاسكندرية وابولون في دفنه .

ويضيق سيداتي وسادتي هذا البحث عن ذكر كل ما قام به الشعراء والكتاب والمؤرخون والجغرافيون القدماء من سياحات في عهود مختلفة كاسفار ( هوميروس ) و ( هيكاثة ) و ( هيرودوت ) و ( بيتياس ) و ( سترابون ) و ( هوراس ) و ( فيرجيل ) و ( بلين ) . كما يضيق التنويه برحلات المؤرخين والكتاب البرنظيين امثال ( بروكوب ) و ( كوساس ) و ( نونوز ) . وقد كان السفر مألوفاً في القرون القديمة حيث كان الناس يحجون الى مراكز المعابد الوثنية الكبرى كعبلبك ، ومنبج ، ودلف . كما كان مألوفاً في القرون المتوسطة حيث اعتاد المسيحيون ان يحجوا الى القدس ، والى كنيسة القديس يعقوب كومبوستل في اسبانيا . ولدينا من آخر القرن الثالث عشر الميلادي قصة رحلة الايتالي ( مار كوبولو ) التي تتحدث عن بلوغه صحراء غوبي وزيارته لجزيرة ( صومطرا ) ، وقطعه فارس وارمينيا ووصوله الى القسطنطينية ثم رجوعه الى وطنه ( البندقية ) .

وكذلك فان العرب كانوا كثيري الاسفار ، وقد ساعدتهم على ذلك رقعة امبراطوريتهم التي اتسعت فشملت اجزاء مهمة من قارات العالم القديم ، ورغبتهم بأداء فريضة الحج وزيارة مكة والمدينة ، وكتب الجغرافياً والتاريخ والادب التي تركها الاديسي وابن الاعرابي ، وابن جبير ، ونصر الدين الطوسي ، وابن السيد الغرناطي ، ومحمد بن محمود القزويني ، وابو العباس الدمشقي العمري . وابن بطوطة ، وعشرات غيرهم طافحة باوصاف طريفة وممتعة عن البلاد الاسلامية والنصرانية والوثنية التي قصدوها ، وبمعلومات قيمة عن آثارها وتاريخها وطباع اهله ، ومؤسساتها الاجتماعية والدينية .

وتتصف السياحة في يومنا هذا أنها لم تعد قاصرة فقط على تنقل افراد طبقة المنعمين والمترفين ، بل انها تحولت الى سياحة كتل وجمهير تتألف من جميع الطبقات الاجتماعية . وذلك لأن الثقافة اوجدت في أكثر المجتمعات حاجات حب الاستطلاع ، واسقطت من الاذهان اعتبارات الخرافات العرقية والدينية واللغوية والاجتماعية والمثلية والفنية . وصار من حق الافراد ان يتمتعوا جميعاً بالعطل السنوية التي يدفع اجورها ارباب العمل وجمالوا بضخمون التيارات السياحية الداخلية الى الشواطئ والجبال وينابيع المياه الصحية ، والسيارات السياحية الخارجية الى البلاد ذات الاقاليم اللطيفة ، والمناظر الطبيعية الفاتنة ، والواابد النادرة ، والآثار الثمينة والمتاحف العظيمة التي يتمتع اهلها بمستوى عال من العيش ، وبجو خالص من الحرية ، ويعرفون باحترامهم للشخصية الانسانية ، وبحب الكمال ، والاتاج الصحيح ، والمعرفة الحقة ، واتقان العمل الذي يجعل من كل شيء آية فنية . ويشمل هذا الاتقان اشياء كثيرة منها غرفة الفندق الراقية التي يجلس فيها السائح ، وصحفة الطعام التي يتغذى بها ، والتميلية والحفلة الفنية والسهرة الراقصة التي يرفه بها عن نفسه ، والكتاب الممتع الذي يقرأه ، والهدية النفيسة التي يبتاعها ، والجلسة الشائقة مع كاتب أو فنان مشهور التي يحظى بها ، والنادرة الطريفة التي يلتقطها وحتى الرابطة العاطفية الغرامية التي تتخى احياناً ان يعقدها .

وليس من المتيسر دوماً ارضاء السائحين ، لان اذواقهم مختلفة ، واهواهم متباينة ، ولا تكون احكامهم على البلاد التي يزورونها متشابهة . فبعضهم يحبها ، وبعضهم يبغضها . وليس يوجد بين الحب والبغض في هذا المضمار حد متوسط . وقد شبه بعض الادباء الافرنسيين البلاد السياحية بأكلية (البوايس) وصور الرسام (بيكاسو) ولعبة الجبال الروسية . فيجب عليك ان ترى هذه البلاد



السياحية وان تعيش فيها حتى تقول انك تحبها أولا تحبها ، شأنك في ذلك لما تذوق هذا الطعام المارسيي ، وتنظر الى رسوم ذلك الفنان الاسباني الافرنسي العجيب المعاصر ، أو تجرب تلك الألفية في مدينة الملاهي .

ومها يكن فقد تواضع الناس على اعتبار بعض المناطق والبلاد اماكن سياحية ممتازة لخصائصها الطبيعية والفنية والثقافية التي تقدم ذكرها ، امثال الشاطي-اللازوردي ، وباريس ، ودوفيل ، والسافري ، وبيارتين ، ومونتي كارلو ، وبادن-بادن ، وكارلسباد ، وامستردام ، والتيرول ، واشبيلية ، وغرناطة ، وبحيرة كومو ، وروما ونابولي ، وجزيرة كبري ، واكروبول اثينا ، والاهرام ، واستانبول وغيرها. وقد اهتمت حكومات هذه البلاد والمناطق اهتماماً كبيراً بالسياحة ، ونظمتها تنظيمًا صناعياً وتجارياً ، وهيئات الامكانيات لاستقبال الجماهير الفقيرة التي تدفعها التيارات السياحية يوميا الى مرافئها ومطاراتها وحدودها مع عشرات البواخر ، ومئات الطائرات والقطارات ، وآلاف السيارات والافوتوكارات . ويتراوح عدد السائحين الذين يزورون فرنسا سنويا بين ثلاثة ملايين وأربعة ملايين سائح ، وقد بلغ هذا العدد في ايطاليا السنة الماضية ثمانية ملايين . ويتوجب على البلاد التي تستقبلهم ان تعمل على ايوائهم واطعامهم وتسهيل تنقلاتهم واطلاعهم على ما يرغبون الاطلاع عليه ، وتفادي ازعاجهم واستثارة اهتمامهم واشباع رغباتهم ، واقامة المعارض وتنظيم الحفلات والاعياد والمناسبات لاجهاج نفوسهم والتأثير في اخيلتهم ، وتحميلهم ذكريات عذبة حتى يعودوا ثانية وثالثة أو يدفعوا اصدقائهم ومعارفهم الى زيارة البلاد التي تركوا فيها طائمين ملايين الجنينيات ومليارات الدولارات .

والأحظ ان اهتمامنا بقضايا السياحة في سورية ضعيف جداً وفي الواقع اننا متخلفون في ذلك لاعن فرنسا واثاليا والنمسا وسويسرا واسبانيا ، بل عن

جيراننا اليونانيين والأتراك والمصريين والبنانيين والقبرصيين الذين استطاعوا ان يحولوا بعض مجاري السياحة الدولية الى بلادهم وان يؤمنوا لانفسهم واردات مهمة . ولاعذر لنا في العزلة المضروبة حولنا لاننا اذا كرهنا على حق ان تأتينا مرة اخرى الجيوش الغازية المزودة بوسائل التخريب والتدمير لنتقاتل في اراضيها ، فاننا نرحب على السواء بالاجانب الغربيين والشرقيين المسلمين الذين يمكن ان يأتونا حتي يعيشوا بيننا بعض الوقت مزودين فقط بالآلات التصوير الفوتوغرافي لالتقاط صور تقيم بيننا وبينهم شيئاً من المودة وبعض الذكريات .

وتدعي اكثر الاحصاءات تقاؤلاً عندنا ان عدد السائحين الذين زاروا سوريا خلال العام الماضي بلغوا ستين الفاً . وهو رقم ضئيل يعادل عدد السائحين الذين يؤمنون باريس أو روما يومياً . فما العمل اتوسيع حركة السياحة في بلادنا ؟ وكيف السبيل الى ان تظفر سورية الى مستوى البلاد السياحية المهمة ؟

وأرى قبل الاجابة على هذين السؤالين ان يبحث فيما اذا كان لدينا امكانيات تساعدنا على تصور وتنفيذ سياسة سياحية على مقياس واسع ، وان تبين الوسائل والاسباب التي تكفل ان تغري السائحين بالقدوم الى بلادنا . وفي الواقع يجدر بنا ان نحلل العناصر التي تتألف منها ثرواتنا السياحية حتى نطمئن الى كفايتها .

وأول هذه العناصر موقع البلاد الجغرافي ووضعها العام الحالي فقد جعلت الطبيعة سورية في منطقة مرور واحتكاك بين قارات العالم ، تجتازها وتتقاطع فيها الطرق الطبيعية التي تصل الشرق الاوسط والشرق الاقصى بعالم البحر الابيض المتوسط عبر وادي الفرات والعاصي ، بالطرق التي قادت الشعوب الشمالية المجذوبة الى الجنوب . وازدادت اهميتها خلال العصور القديمة والمتوسطة . ولم تتوقف هذه الاهمية بعض الشيء إلا في فاتحة عصر النهضة لما تحولت التيارات التجارية العالمية

عن الشرق الادني . إلا ان العصر الحاضر اعاد الي هذه البقعة اهميتها الماضية تدريجياً على اثر شق ترعة السويس ، ونشوء المرافئ الكبرى في حوض المتوسط الشرقي ، وانتشار المطارات الدولية في ارجائه واستقلال دوله ، ز ظهور جامعة الدول العربية واحتلال سورية مكانة مرموقة بين الشعوب العربية والاسلامية ، واستثمار البترول ، وتمديد شرايينه هنا وهناك ، وتقدم اقتصاديات الدول العربية ، وانتاجها لكثير من الحاصلات التي يحتاجها الغرب ، واتصالها مع اوربا وامريكا وافريقيا . وتصادم مصالح الدول العظمى في هذه المنطقة ونشوء الموقف السياسي العالمي الحاضر وتغير استراتيجية الحروب ، كل هذه الاسباب أحلت في الاذهان عن هذه البلاد مفهوماً جديداً للاستفادة من امكانياتها في مضامير الاقتصاد والسياسة والحرب .

وثاني عناصر ثرواتنا السياحية جمال الطبيعة السورية الأخاذ . ويتصف هذا الجمال بنسبه الانسانية واختلاف مشاهد ومفاته البارزة التي تتجلى باروع الصور هنا وهناك ، وفي كل الارجاء ، فراضي حوران وجبل الدروز بازلتيمه سهلية وجبلية ولاشكالها روعة خاصة ، ولاودية العاصي والقرات وبردي والوادي الكبير اللحمية والغضارية والحوارية مغان ساحرة ، وسواحل محافظة اللاذقية الصخرية التي تتطاحن أو تقفز بوثة جبارة الى خط الافق ، طرف طبيعي قبل ان يوجد ما يماثله في شواطئ البحر المتوسط الاخرى . وعلى جبالنا الكلسية تنثأ اشجار الصنوبر والارز وتعلو هاماتها الثلوج وفي باديتنا الواسعة المترامية الاطراف سحر الانهائية وروعها . أما مناظر غابات كسب والفرات وصلنفه ومشاهد نواعير العاصي ضمن الحقول الخضراء ورؤى غوطة دمشق وسهل الزبداني ومواقع بلودان وقلاع صهيون والمرقب والحصن ، وخليج ميننة البيضاء الصخور الحوارية المهيمنة على موجات البحر الزرقاء فجديرة ان تقدم اطارات مثلية لمئات الالوف من عشاق الطبيعة ، وان ترسم في الوف وملايين اللوحات

الزيتية والصور الفوتوغرافية حتى تعرف في العالم .

وتؤلف الصناعات الشامية القديمة عنصراً ثالثاً من عناصر ثروتنا السياحية وما يزل لدينا فنانون ماهرون ينصرفون الى انتاج المصنوعات النسجية الممتازة كالبروكار المعروف ، والمصنوعات الجلدية كالأحذية والحقائب والادوات المختلفة ، والى تطبيق المعادن كالحديد والنحاس ، وحفر هذه المعادن وتنزيلها وتفضيئها وتذهيبها ، وعمل السيوف والخناجر والاباريق والقمناديل والصحاف وغيرها ، والى صنع الخشب ونقشه وتطعيمه بالصدف والعظم وشرائط القصب ، وعمل الاثاث وآلات الطرب ، ومختلف الادوات ونحت السقوف العجمية وطلبيها بالاصبغة البراقة ، والى صنع الزجاج وابتكار القوارير والاكواب والثرثيات الجميلة ، والى عمل الفخار والقاشاني وغير ذلك . وعلى الرغم من زهد كثير منا بهذه المصنوعات النفيسة ، فانها لا يمكن ان تزول لانها من اجمل المبتكرات الصناعية التي عرفها العالم ، وهي تتمتع بشهرة كبيرة في كل مكان ويقبل السائحون على شرائها ، ويتهاداها العطاء . ولا عيب فيها الا بعض الجمود الذي طرأ على انتاجها خلال الازمنة الاخيرة ومن الضروري تنشيط اصحابها ليتابعوا تطويرها وابتكار مواضع جديدة لها ودراسة امكانيات تحسينها وتحويلها حتى تصبح متفكرة مع مقتضيات العصر الحاضر ، ومنسجمة مع كل الادوات .

ويضاف الى هذه العناصر السياحية المختلفة الشهرة العظيمة التي تتمتع بها بلادنا في العالم فهي بالنسبة الى البلاد الغربية اقرب بلاد الشرق الذي أبدع اللغات والديانات والعلوم والفنون والآداب ، والذي يدعو اخوه الغرب لمساعدته كلما شعر هذا بنصب في عبقريته وتقصير في الهامه ، ويؤلف معه كما يقول ( رومان رولان ) شكلين متنوعين من العقل والايان ، وردائين مختلفين للنفس الانسانية التي منزلها العالم ، وكان الغربيون الى القرن الماضي يرسمون في خيالهم عن بلادنا

صورة مثلية لبلاد سماؤها زرقاء دوماً ، وتكثر فيها الاثمار والفواكه خلال كل فصول السنة ، وترتفع في ارجائها قصور ارضها من الاجار الكريمة وجدرانها من الزمرد وسقوفها من الذهب . كما كانوا يحسبون ان حياتنا مترعة باللذات ويتخيّلون اننا نعيش كما كان يعيش ابطال قصص الف ليلة وليلة ، في ( حرمك ) دائماً على طنافس مزر كشة بين النراجيل ، وفي عشرة القيان الملاح . وقد اطلقوا على هذه القيان اسم ( Odalioque ) واسترسل كتابهم وفناوهم في تشيلهن حتى حببوهن الى معاصريهم . ولا يعرف الوجوديون الذين اخبروا من حي سان جرمن في باريس حالياً مركزاً لاجتماعاتهم ولهوهم . ان اجدادهم في القرن الثامن عشر كانوا قد حولوا هذا المكان الى حي من احياء دمشق وحلب . فقد كانت تخضر فيه الباريسيات آنذاك ، وهن متزينات في حلل واثواب حريرية واطلسية شرقية حملها مسافروهم اثناء زيارتهم للشرق اذ ان هؤلاء كانوا يأتون الى بلادنا للتمتع بنمط العيش الذي ينسبونه الينا وانتزاع احساسات ورؤى عنه . ورحلات شاتوبريان ، ولامارتين ، وجيرار دونيرفال ، وارنست رونان الذين قدموا الى فلسطين ولبنان وسورية مشهورة لان حوادثها مسجلة في صفحات رائمة من الادب العالمي الخالد . وكذلك في ذكريات اسفار الرسامين (ديكامب) و (ماريللا) و (ليون بيلي) و (فريير تيودور) مرسومة في لوحات من اجمل ما بدعه فن القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، وهي تمثل مشاهد بلادنا الطبيعية وشوارعنا القديمة واسواق دمشق وحمماننا ومدارسنا وقوافلنا والحجيج الى مكة واوابد بعلبك واطلال تدمر .

وفي البلاد السورية حالياً تقاليد وعادات واعياد ومناسبات واوضاع اجتماعية تتفرد بها عن بقية الاقطار لان قدمنا لم نزل بنا بعد في بؤرة المدينة العالمية ، ومازلنا متحفطين بأصالة تفرقتنا عن بقية الشعوب . والغريون يعجبون بالالوان المحلية ، والتقاليد الشعبية الاصيلة وصفة الطرافة في البلاد التي ما تزال محافظة

على طاوعها . ومن الممكن تهذيب الاشياء الطريفة ( Pittoresques ) التي لدينا  
وتسخير اقلام ذكية لشرحها وايضا حيا وتحسينها والدعاية اليها .

واخيراً فان الآثار السورية هي اهم عناصر ثروتنا السياحية . لانها تنوعها  
واختلافها وكثرتها في بلادنا تؤلف ميزاناً صالحاً لوزن كل الحضارات العالمية  
الكبرى التي مرت على البشرية . وقد شعر الغربيون بأهميتها منذ القرن الماضي .  
وجعلوا يرسلون علماءهم لاستقصاء اخبارها . وتعد الاعمال الاثرية التي تقوم بها  
بعثات التنقيب في مناطقنا من الاحداث الكبرى التي تمر على القرن العشرين ،  
لانها تظهر معلومات ثمينة جداً عن المدنيات الغابرة ، وتوضح جهودنا وجهود  
غيرنا في المادة الخالدة التي حفظت لنا مخلفات الاجداد وخوارج نفوسهم  
ونزعات عواطفهم .

لقد ذكر احد المؤرخين القدماء وهو ( فيلون البيزنطي ) ان عجائب  
العالم سبع وهي ( هرم جيئوبس ، ومدفن موزول في هاليكارناس ، ومنارة  
الاسكندرية ، وتمثال رودوس العظيم ، وجنائن بابل المعلقة ، وتمثال زوث في  
اولبميا ، ومعبد ارميز في ايفيز ) . ولم يبق من هذه العجائب وبالاسف الا الاثر  
الاول وقد خطر لي انه لو حاول مؤرخ معاصر ان يعدد سبع عجائب ابتكرها  
الانسان في كل العصور ، فهل يمكنه الا يتقي اثنتين أو ثلاثاً منها بين الآثار  
الآتية : « تمثال ربة الينبوع في متحف حلب ، وابعدية رأس شمرة في متحف  
دمشق ، واطلال تدمر ، واللوحات الجدارية في لنيس الصالحية ، وخرائب  
قلعة سمان ، وزخارف قصر الحير الغربي ، وواجهة قلعة حلب واسوارها ، وقلعة  
الحصن ، وقصر العظم » . أما انا فانه لو طلب إلي أن اختار بلاداً اثرية يجب ان  
تنقذ اذا هدم عالمنا في كارثة ذرية لتكون دليلاً على الفنون البشرية منذ فاتحة  
التاريخ حتى عصرنا الحاضر لما ترددت في تسمية البلاد التي تملك الآثار المتقدمة ،

وذلك لان المشاهد الاثرية التي تحويها سورية لا توجد في قطر آخر . وهي في توزعها في حواضر البلاد وفي شمالها وجنوبها ومنطقتها الساحلية وباديتها تختصر جميع اعمار الانسانية وتجمل كل مبتكراتها . وعلينا ان نستعرضها مسرعين لنتراخ إلى انه بالامكان تنظيم جولات سياحية تمنح لذات فكرية وفنية خلال عدة ايام كل من اراد زيارتها .

وتترفر الآثار خاصة في المدن الداخلية كدمشق التي يمكن عدها في مصاف المدن السياحية المهمة كفلورنسا ، والمندقية وأثنا والقاهرة . وفي الواقع ان دمشق تقدم في هذا المضمار أهمية منقطعة النظير . فهي احدى مدن الشرق الكبرى وقاعدة هامة من قواعد العالم الاسلامي ، ومثوى السلاطين العظام . وفيها العمراني نسيج وحده ، ويقدم صورة تامة عن تطور الفن العربي العمراني بما له من صفات ثلاث : غزارة المياه وتخصيص الاسواق وجمال الحدائق . وقد تجمد التاريخ في ابيتها الاثرية ، وصار ينعكس منها بمجاذبية روما نطقية رائعة تعبر عن كثير من العواطف والحياة . وأجمل ما في هذه الابنية قدرتها على التحدث عن العصور الزاهرة التي مرت على المدينة . فساوارها وبابها الشرقي وشارعها المستقيم والقوس الاثرى في حي الامين من العصر الروماني والجامع الاموي تحفة البناء الاسلامي من العهد العربي الاول ، ومخلفات عصر نور الدين وصلاح الدين كالبهارستان النوري ومدرسة العادلية ، والقلمة والمدرسة الشامية ، والمدافن المغطاة بقباب مضلعة ومزدوجة وقائمة على رقبة أو رقتين في الصالحية ثم ابنية عصر المماليك والعثمانيين كالمدارس والجوامع المتسدة على طريق الحج بدماميكها السوداء والبيضاء والصفراء كالمدرسة الصابونية والمدرسة السباهية وجامع درويش باشا وجامع سنان باشا والمدرستين الامبراطوريتين السلطانية والسليمية والرباطات المتنوعة والبيوت الفنية التي تدخر آيات الصناعات الشامية . كتنزيل المرمر في الحجر وتزيين الجدران بلواح القاشاني ، والسقوف بالحلقات

المعجمية أمثال قصر العظم وبيت جبري والسباعي ، ونظام ، وعنبر ، والقوتلي ،  
وكثير غيرها ، من المجموعات التاريخية الفنية التي يندر وجود ما يماثلها في  
أية مدينة أخرى .

ولا يكتم الا جانب اعجابهم الفائق بهذه الابنية ، لانهم يستريحون في  
اجوائها الخالصة التي تنطبق مشاهدتها على ما كانوا يتخيلونه عن الشرق في احلامهم .  
ويضيق بي المقام لو حدثتكم عن الانطباعات التي تركتها زيارات خاطفة لها في  
نفوس بعض مشهوري الا جانب كنت كلفت بمرافقتهم ، كالذوق فيليب زوج  
الملكة اليزابيت والدوق ارتاخو وزير خارجية اسبانيا ، والمسيو فينيزيلوس وزير  
خارجية اليونان ، والمستر تريفلي الامين العام السابق للامم المتحدة ، والمستر  
هيكسلي مدير الاونيسكو العام السابق والمستر لوتريافانس مديرها العام الحالي  
وعدد كبير من السفراء والوزراء المفوضين الا جانب . لقد نظروا اليها جميعاً  
كشواهد نادرة عن مدينة عظيمة مثلية جمعت كل وسائلها وسخرتها لخدمة الافراد  
وفي سبيل تأمين اطارات رائعة تسمو بمواهبهم وتجب الي نفوسهم الجمال والفضيلة .  
والدور الاثرية المتأخرة التي ذكرتها مهددة بالزوال . ولاضير على الدولة من ان  
تستملكها ، وان ترعاها بعنايتها ، وان تحول ما يمكن تحويله منها الى متاحف  
فولكلورية كما فعلنا بقصر العظم . أو ان تخصصها لعرض نفائس الصناعات الشامية  
التي تقدم ذكرها ، أو ان تجعل منها فنادق خاصة وملاهي واندية وأنا اعجب  
العجب كله ان يتنادى كبار القوم عندنا واغنياؤنا الى قضاء سهراتهم الصيفية في  
مطار المزة أو في مراقص دمر ولبنان أو في اكواخ الغوطة ، ولدينا باحات بيت  
المرادي الذي بدأت معاول التهديم والتخريب بتقويض جدرانه ، وبيت كيوان  
الذي هو في طريق الزوال ، وبيت البارودي الذي هجره صاحبه . وليس من  
الصعب ان تصلح هذه الدور . وان تحول بعض التحويل ، وان تفرش فرشاً  
شامياً لايقاً ، وان نثار انارة فنية ، حتى تخلق فيها اجواء فريدة يمكن



المرء فيها ان يستمتع ببحر المياء وبعمير الفل والياسمين في الاحواض ، وبحمال  
الفن القديم وسحر الشرق والموسيقى العربية والافرنجية ورقص السباح وغيره  
من الرقصات . وكما اتنى ان يقوم بيننا من يحتذى مثل المسز ( تايلور ) الاميركية  
اتي فطنت الى ما في هذه الدور من اغراء ، فاستثمرت داراً عربية اسمها ( السعدية )  
في جنوبي مرا كس ، وجعلت منها جنة من جنات الاحلام وواحة من واحات  
السلام والهدوء خلال الحرب العالمية الثانية . فلم يبق عظيم من عطاء العالم ، وبينهم  
تشرشل ، وايزنهاور ، ودوغول ، ومارشال ، ومونتغمري . الا زارها وتمتع  
بسحرها .

ولاتفق مدينة حلب عن مدينة دمشق في غناها الاثري . وقد كانت قاعدة  
مهمة لاقتصاديات منطقة شمالية واسعة تبدأ بالبحر المتوسط وتنتهي بالخليج الفارسي .  
لهذا فقد طبع فيها العمراني بالتأثيرات التي تلقتها من الشرق والغرب ، وقد انسجم  
هذا الفن مع اذواق أهلها ، وصار يوضح افكارهم الاجتماعية والدينية والعسكرية  
وماضيهم وحاضرهم . واكثر صفاته ظهوراً الوحدة القوية والمنطق العقلي والاقتصاد  
في الزخارف . وتساهم طبيعة الاحجار الكاسية البيضاء المتجلية فيها اشكاله الرائعة  
بتكامل اللغة التي يستخدمها في التعبير . واذا اضفينا على فن دمشق المعماري صفة  
الرومانطيقية فنزام علينا ان نقول ان اوابد حلب تمثل النزعة الكلاسيكية في هذا  
الفن وتظهر مواطن القوة فيه فقلعتها الجبارة ابدة نادرة المثال وتعد اعظم مآثره  
فن التحصين العسكري الاسلامي من مخلفات في كل العصور . وقبل ان توجد  
آبدة في العالم تمنح الزائر لذات سياحية مثلما تمنحه زيارة اسوارها وابراجها  
وعنبرها ومحابسها ومخابئها . ومدخل سور المدينة كابواب انطاكية والنصر والحديد ،  
تمثل جهود اهلها العظيمة خلال صراعهم مع صليبي انطاكية واورفه للدفاع عن  
سورية الداخلية والعراق .

كما ان بناء الشيخ محسن والبيمارستان النوري والمدرسة الظاهرية ،

وبهارسنان آرغون ، ومقبرة الصالحين تدل على اهمية المدينة التي زادت عن حوضها هذه المدينة المجاهدة . واخيراً فان اسواقها العجيبة التي ليس لها مثيل في أية مدينة اخرى ، ورباطاتها العظيمة كخان الوزير وخان الصابون ، وخان خيري بك وخان قرطبة ، ودورها الخاصة الجميلة ( اشقباش ، وغزالة ، والدلال ، ورجب باشا ) التي ازدهرت بين القرنين السادس عشر والثامن عشر تؤلف مجموعة غنية جداً يمتنى اشهر الفنون العمرانية ان يترك آثاراً تماثلها . وما احرانا ان نغني بها كل العناية وان نستفيد منها ، وان نحول بعضها الى اندية وفنادق من نوع خاص ، لتقدم الى السائحين مضافات لا تفتقر في حدود فن عمراني لا يجارى . ولزام علي ان اردد فيها مقاله الخبير العالمي المسيو ( اندره غيتون ) الذي دعي لتنظيم مخطط المدينة الجديد .

ان الشعب القوي يجب ان يتأمل الاعمال العظيمة التي قام بها اجداده ، ( لقد حافظت حلب على صفات ماضيها كله ) ، ( ومن الواجب ان تنقذوا هذا الماضي اللذة اعينكم فقط بل للفوائد الكثيرة التي يمكنكم ان تجنوها منها ) . اذ انه توجد بين ايديكم صناعة لم تستثمروها بعد اسمها ( السياحة ) وهي التي ستحمل اليكم كثيراً من المال .

( ان بإمكان حلب ان تجذب الاجانب بتراثها الاثري ذي القيمة العالمية الذي لا يعرف تراثاً اكثر روعة منه ) . ( استفيدوا من المائتي مسجد التي لديكم ومن الاثنى عشر كيلو متراً من اسواقكم وحافظوا على الشواهد المتعاقبة عن عظمتكم ) .

وانتقل بكم مباشرة الى منطقة سورية سياحية متميزة اخرى ، وهي المنطقة الغربية وما وراءها من بلاد . ويمكن للسائحين الوصول اليها من البحر

والشمال والجنوب ، ومن الشرق عن طريق وادي العاصي الذي يؤلف حدودها الشرقية) وحيث تدرج القلاع التي اعتصم بها العرب في زمن الحروب الصليبية ، كبعلبك . وحمص ، وحما وشيزر والمضيق . والمواقع السياحية في هذه المنطقة لاكثر من ان تحصى ومنها موقع مدينة ( أفاميا ) السلوقية حيث قامت بعثة باجيكية باعمال اثرية مهمة قبل الحرب ، ومدينة حماه ذات النواخير المشهورة والتي يمكن ان تجعل مركزاً لجولة سياحية تمر على القلاع العربية المذكورة . ومنها غابات الفراق وكسب وصلنفة الرائثة وميدان حفريات رأس شجرة ذو الشهرة العالمية وهناك كما تملون ظهرت اطلال مدينة ( اوغاريت الكنعانية ) على ايدي بعثة الدكتور كلود شيفر . ثم مدينة طرطوس التي فيها ابنية اثرية متعددة منها الكاندرائية المشهورة ومنطقة عمريت الاثرية التي تضم اطلال مدينة ( ماراوس ) حيث جرى الاحتكاك بين المدينت الشريفة وبين العالم اليوناني وحيث بدأت مديرية الآثار العامة بحفريات هامة . وتقوم امام هذه المدينة جزيرة ارواد التي يمكن ان تحول الى مايشبه ( جزيرة كبري ) بالنسبة الى الساحل السوري ، اذا بذلت في ذلك الجهود اللازمة . وهناك ايضاً في هذه المنطقة القلاع العربية الصليبية المشهورة كقلعة الحصن ، وقلعة المرقب ، وقلعة صهيون ، وهي منشآت اثرية رائعة تدهشنا باجهزتها الدفاعية العظيمة والاساليب الفنية التي اتخذت في تشييدها ، والذكريات التاريخية العائقة بها . فمام هذا الحصن واقع نور الدين جيوش الافرنج ، وحذاء ذلك السور وصل جيش صلاح الدين بعد موقعة حطين وهذه الواجهة من احداث الملك الظاهر بيبرس ، ووراءها برج من تشييد السلطان المنصور قلاوون ، وحول المائدة الحجرية المستديرة التي تراها في الباحة الفسيحة كان يتحلق فرسان جمعية المستشفى ، وفي تلك القاعة الكبرى كانوا يعقدون اجتماعاتهم ، وفي الخبايا التي تتصل بها كان يعيش الامراء البروفانساليون والنورمانديون . ومن تحت هذه القنطرة التي تنكسر عليها امواج البحر فر آخر ملوكهم غي دولوزينان هارباً الى قبرص الى غير رجعة .

وهكذا ترون ان السياحة في محافظة الازقية امر شائق . ولايهم الاجانب  
فحسب بل يهمننا نحن السوريين جميعاً . ومن الخير لنا ان نقصد تلك الربوع للذة  
فكرية نالها ، ولعلظة متمعة نعيم بها . ويمننا من ذلك حالياً فقدان الطرق السالكة  
التي توصل الي الاماكن الاثرية والجميلة ، وحرمانها من الفنادق الالفة التي يمكن  
الحلول فيها ، ومن محطات الاستراحة والمطاعم والمشارب حيث يتاح للمرء ان  
يستريح اذا تعب ويأكل اذا جاع ويشرب اذا عطش .

واذا تركنا الساحل ونفذنا الي الداخل ووصلنا الي بادية الشام لخللنا  
في منطقة سياحية لها طابع خاص . ويمجب الاجانب بها لاطارها الواسع غير  
المحدود ، ولسأها البعيدة المدى ، ولشمسها البرتقالية في الفجر والبنفسجية عند  
الاصيل ، لرياحها الرطبة التي تلقي على الوجوه ، مئات الاوشحة غير المرئية ،  
وتمس العيون وتداعب الوجنات ، ليلائها ذات النجوم الساطعة التي تلفك بدثار  
سميك ، لسراها الخادع ، لاشجار نخيلها ، لقطعان غزلانها ، لقوافل جمالها ،  
لخيامها السوداء ، ولوجبة الطعام البسيط الذي يقدمه لك الاعراب الكرماء  
الاذكياء تحت هذه الخيام .

ولم تكن البادية قفراء موحشة في العصور القديمة والوسطى . فقد كانت  
تقطعها طرق التجارة التي حملت الحرير والطور والتوابل من الشرق الي مرافئنا  
الساحلية ، مارة على مدن اشبه بمرافيء داخلية نشأت حول اطراف الهلال  
الخصيب في الواحات والنقاط الاستراتيجية والمضايق الجبلية وممرات نهر الفرات .  
واليوم تعود الحياة الاقتصادية الي البادية فتمد فيها انابيب البترول ، وتنشأ في  
اطرافها المدن البترولية ، وتشق الصهاريج والآبار ، ويرافق ذلك انبعاث مدنها  
القديمة . اذ ان البعثات الاثرية تنشط لاطهار ماضي هذه المدن . فمديرية الآبار  
العامة تنقب في تدمر بحثاً عن مخلفات عصر اذينة وزنوبيا وفي الرقة تقصياً لحضارة

عصر الرشيد ، وبعثة الاستاذ ( اندره بارو ) الافرنسية تعمل على اظهار مدينة ( ماري ) احدى عواصم سورية في الالفين الثالث والثاني قبل الميلاد ، وبعثة الدكتور ( يوهانس كولويتز ) الالمانية تجهد لظهار الرصافة البيزنطية والاموية ، وبعثة الدكتور ( بول كولار ) السويسرية تقاسمنا العمل في منطقة ( بلشامين ) التدمرية ، وبعثة الاستاذ ( بربود ) وبعثة الدكتور ستيفنسن كون الامير كية تدرس ان ماضي الانسان لما تطور ، فبدل حياة الصياد بحياة المزارع في مناطق الفرات . ولاشك ان حطام كل هذه المدن تستثير في نفوس المثقفين وفي نفوس كل من يبحث عن لذات غير مألوفة ، حب استطلاع شديد لمعرفة الربوع التي درجت فيها طفولة البشرية وشبابها ، يشبه حين المرء المغاني التي انقضت فيها حياته . وسمعت مرة سائحا امير كيا يقول وكان يطوف باطلال تدمر ، ان بعضهم حدثه عن روعتها ، وحذره من مشقة السفر اليها ، الا انه لاحظ بنفسه ان عظمتها تفوق ماسمعه من وصف ، وان عشاء طريقها اقل مما كان يتصور . وفي الواقع تصدر شهرة تدمر الخالدة عن جمال طبيعي نادر ، وعالم فريد من التاريخ ينبعث من ارجاء هذه المدينة التي كانت حاضرة من حواضر التجارة العالمية ، مع اشباح مدافنها ذات النماذج المتعددة القائمة على لحوف مضيقتها الجبلي ، وشارعها الكبير ذي الاروقة المحمولة على عمد والممتدة الى ( ١٣٠٠ متر ) ومعبدها الكبير ومسرحها الجميل ، وساحتها العامة ، وسورها وحصنها العربي الذي يكلل هامة جبلها . ان المرء لا يمكن ان ينسى مشاهدتها اذا زارها مرة واحدة . وتمدل فرحة الغربيين بالاطلاع عليها فرحتهم فيما اذا قدر لهم ان يعثروا على قارة الاطالتيك التي تتحدث الاساطير انها ثابوية في قعر المحيط . لهذا يجب اعدادها للسياحة ، وتوجيه تياراتها اليها . ففي ذلك واجب وطني ، وخدمة دولية تقدم الى السائحين في كل انحاء العالم . ومن اللازم توسيع فندقها ، وتجهيزها بفندق آخر متنقل مؤلف من خيام وصواوين بسيطة حتى يتمتع السائحون الذين يمكن ان يأتوا خصيصاً من لندن وباريس واستكهولم وامستردام بيوم أو يومين من حياة سكان الصحراء ، ويتقمصوا

باشخاصهم ويزيوا بازياهم ، ويتخلقوا باخلاقهم . ولا بأس ان يسهل لهم التنقل على ظهور الابل الى زيارة قصر الحير الشرقي ، وان ينظم بقرب الاطلال متحف صغير ، يجدون فيه نماذج جصية وشمعية عن سكان البادية ، وعن البستهم وصناعاتهم ، وان تقام في فناء هذا المتحف الاعياد والمهرجانات البدوية . كما يستحسن ايضاً ان تطلق سيارات بالسائحين من دير الزور والرقعة لتزورهم قصور الامويين والعباسيين التي يكشف المختصون أنماطاً متنوعة منها كل سنة وتوصلهم الى دورا اوروبوس وتل حريري ، وحلابة ، وزلايا ، وان تنظم لهم مسابقات السيارات والدراجات التي تقطع البادية وتدور حول سورية وان توجد لتسليتهم اعياد موضوعها تمجيد نهر الفرات والاحتفاء بمواسم القمح والقطن ، بعد الاعتماد في ذلك على بعض النصوص التاريخية التي انتهت اليها وعلى تقاليد السكان ، وبعد العمل على احياء هذه التقاليد واغنائها بمناصر جديدة .

واخشى من الاطالة فيما اذا مضيت بتعداد المواقع الاثرية السياحية السورية الاخرى . ولزام علي ان انهي الكلام عنها بذكر منطقتين اخيرتين الاولى منها تعرف باسم منطقة البلاد الميثة في شمال حلب ، ويرقي عهدا الى ما قبل العهد العربي عندما كانت بلاد الشام تحمل لواء الدين المسيحي وتنتشر منشآته وتبتكر اجمل الاشكال لاقامة طقوسه وشعائره ، وكان من هذه الاشكال اديرة وكنائس ( البراد ) و ( الباره ) و ( قلب لوزه ) و ( قلعة سمعان ) . وقد شيّد المركز الاخير حول العمود الذي عاش عليه الناسك القديس سمعان سبعة وثلاثين عاماً وتعد اطلاله اعظم واضخم اطلال مسيحية في الشرق لجمال تخطيطها وتركيبها ونسبها . ولزام علينا ان نعرف العالم بهذه الكنوز وان نمد بين مجموعاتها اثرطة الطرق السوداء حتي تجد فيها امريكا واوروبا اغذية روحية من النوع الممتاز تقابله بارسال عشرات ومئات الالوف من السائحين سنوياً . أما المنطقة الثانية فهي منطقة حوران وجبل الدرود ذات الصخور والواود والزخارف البازلتية السوداء ،

والتي كانت جزءاً من الولاية العربية الرومانية وفيها مدينة (شهباء) فيلبوبوليس القديمة حيث بإمكان السائح ان يمشي اليوم على طريقها المتعامدين اللذين مشت عليها مواكب ابنا الامبراطور فيليب العربي ، وبتاع سيجارات اللاكي سترايك وزجاجات الكولا من حوانيتها القديمة . كما فيها مدينة بصري التي تملك مجموعة نادرة من الاوابد منها قايا الدير الذي كان فيه الراهب (بحيرا) ومدرج روماني يعد من اعظم مسارح العالم ويمكن ان يعاد فيه تمثيل مسرحيات (صوفركل) و (اوربيد) و (بنار) كما يمكن اقامة حفلات موسيقية تعزف فيها قطع موسيقية يونانية ورومانية وعربية قديمة في مواسم السياحة لما تنظم هذه المواسم .

ولاشك ان هذه الثروات الاثرية يمكنها ان تكون عوامل اساسية لتحويل سورية الى بلاد سياحية ممتازة . والخطوة الاولى الواجب عملها لتحقيق هذه الغاية اصلاح الاوابد المتهمة وترميمها والعناية بها ، وعزلها عن الابنية الهزلية التي تحيط بها ، وازهار اجزائها المطمورة في الارض والتنقيب عن الآثار في المناطق القديمة ، وانشاء المتاحف المختلفة في المدن السورية ، وتزيد عدد هذه المنشآت والاكثر من النشرات العلمية والادبية التي تزود السائحين بلحقات عن تاريخ المناطق والابنية الاثرية وعن الاقاصيص والاساطير الطريفة المتصلة بها ويكون ذلك عن طريق تزيد اعتمادات المديرية العامة للآثار والسماح لها بتحقيق برامجها . أما الخطوة الثانية فتكون باستثمار هذه الاعمال . وذلك عن طريق قيام كيان اداري واسع مستقل كل الاستقلال وجعل نواته الدوائر التي تعني حالياً بالسياحة ، واعطائه صلاحيات واسعة في اعماله ، وتزويده بالاعتمادات الكافية ، وتفويضه بحماية المواقع الطبيعية الجميلة وتجميلها واقتراح تحريجها ، والعناية بالصناعات الشامية التقليدية ومساعدة اربابها ، وافساح المجال لانهاضها من عثرتها ، وتسخير اقلام الكتاب المشهورين السوريين والاجانب لبعث شهرة سورية القديمة والتعريف بمخائصها . ومزايا مناطقها ، وفتح مكاتب سياحية في البلاد الغنية وفي العواصم

الكبرى التي تمر منها التيارات السياحية ، والاتفات الى تأمين الفنادق والمطاعم  
والمشارب في مختلف انحاء الوطن السوري ، والعمل على حث المراجع المسؤولة  
على اكمال شبكات الطرق ، وتشجيع اقامة الاعياد والمناسبات الشعبية ، والمعارض ،  
والمسابقات والمباريات الفنية والرياضية الاقليمية والدولية في مختلف المدن السورية  
خلال المواسم السياحية ، ووضع المخططات ، والافلام والصور والرسوم الشائقة  
ثم تنظيم دورات سياحية في المدن والمناطق التي عدتها ، واتخاذ افضل الشروط  
الصحية التي تؤمن راحة السائحين ، وايجاد طبقة من المواطنين يتقنون اللغات  
الاجنبية الحية لهداية زائرينا وخدمتهم في حاجهم وترحالهم ، ثم الاتصال بالدوائر  
السياحية في مصر ولبنان واليونان والمؤسسات السياحية الدولية اتصالاً مستمراً  
غايته تنظيم رحلات اجماعية ثم على كل مناطق الشرق الادنى.

ان العمل على تنشيط السياحة في سورية مشروع اقتصادي استثماري  
بالدرجة الاولى . وكل استثمار يحتاج الى توظيف رأسمال وبذل الجهود اللازمة  
لانجاحه . فهل نحن مستعدون لتغذية هذا المشروع والعمل بكل قوا  
على انجاحه ؟ .



# نحو دستور نسائي لتنظيم نشاط المرأة الاجتماعي

الأستاذة زينب لبيب

= القيت بتاريخ ٨ / ٤ / ١٩٥٥ =

الكرم التي ترمزها الشارات السياحية، ولا تقتصر على أمين القاموس والمقام  
 والمشارف من مختلف أنحاء الوطن السوري، وإنما هي منسوبة إلى  
 قبة نبينا قتيلا  
 على أشكال شتى، الطرق، وتجميع اللغة الأبية والتشبيات التي تتفرق  
 والشجرات والمشارف العذبة والفرحة الألفية والشوابة في مختلف أنحاء سوريا  
 خلال التراجع السياحية، وتوسع النشاطات والاعلام والصور والرسوم الشابة  
 أو تتفرق من السياحة في المدن والتامل التي عليها، والحداد كمثل الشروط  
 السياحية التي تأسس زينة الترفيه، والهدايا التي من التواضع تتكون الفنون  
 الأخرى التي لها علاقة والزينة، وسيتبع في تزيينها ورخاها، ثم الأفعال والوسائل  
 السياحية في مصر، لبنان، واليونان، والإحصائيات السياحية التي إن شاء الله تعالى  
 فالتعلم وحالات السياحة التي هي كما نلاحظ في الواقع

## ربح السياحة أمانة الشايقتنا في السان، وسيرة

الترميز الذي، وكان السان يحتاج إلى تخطيط، أحياناً وبعد الحدود القومية  
 لا يمكنه، بل من يستطيعون تلبية هذا الترويج والتمويل بشكل جيد  
 على العكس من

بيبياتنا قتيلا

= 1000000 / 1000000 =

## مخردسور نسائي لتنظيم نشاط المرأة الاجتماعية

سادتي وسيداتي :

اسعدتني حقاً هذه الدعوة الكريمة ، التي جاءتني من الاديب الكبير  
الاستاذ سامي الكيالي لاحضر هنا في ( دار الكتب الوطنية بجلب ) . اسعدتني  
هذه الدعوة بقدر ما اسعدتني في المرات الماضية ، ولكن سعادتي هذه المرة سعادة  
كاملة ، اذ هيأت لي ظروف ان استجيب لها ، وأن احضر اليكم لاجد نفسي بين  
ظهرانكم وفي بلدكم هذا الحبيب الى نفوسنا في مصر ، بعد ان حرمتني الظروف  
في المرات الماضية من هذه المتعة الروحية ، وحالت بيني وبين أن اشهد جمعكم  
هذا الكريم ، وأن اتحدث واياكم في بعض ما يتصل بشؤون المرأة في البلاد  
العربية وشرقية .

وأبادر فأسجل شكري الصادق لهذه الدعوة ولصاحبها ، وهيئة دار  
الكتب الوطنية ، التي نعرف قدرها في مصر وفي سائر الاقطار العربية ، بما تقوم  
به من النشاط الادبي والثقافي . وبما تتيحه للعالم العربي خلال هذا النشاط من  
مطالعة ثمرات الفكر والقلم لنخبة ممتازة من ابناء العروبة ، وبما تتكلفه في هذا

السبيل الكريم ، من جهود وتضحيات وافرة مشكورة .

واراني عاجزة عن التعبير عن عميق الشكر لكم جميعاً ، على تفضلكم بالحضور لسماح هذه المحاضرة ، وهو فضل منكم حقاً ، ان دل على شيء ، فعلى مبلغ تقديركم لقضية المرأة ، وكريم استصداركم للاستماع الى صوت من اصواتها ، يجهنكم من مصر ، ليتحدث معكم في هذا المنتدى الادبي الرفيع .



مما لاشك فيه ان تقدم المجتمع ورقبه ، يقاس بمقدار مايتاح لافراده من فرص التعليم والصحة والهناء ، وتهيئة الحياة الانسانية الاثقة ، السليمة من الشرور والآلام .. ولذا اتجهت الخدمات العامة نحو رفع مستوى الحياة الانسانية الى اعلى مراتب الرقي والسعادة .

والخدمة العامة ، هي المساعدات التي يقدمها القادرون المستنديرون ، الى المحتاجين نفسياً ومادياً وصحياً .. وليس المقصود هو الاحتفال باطعام مجموعة من المساكين والجانئين ، أو مجرد اسعاف المنكوبين والمحتاجين .. بل ان الخدمة الاجتماعية لهدف علاوة على ذلك ، الى وقاية المجتمع من عوامل التدهور والانحلال ، والى رفع المستوى الاقتصادي والصحي والثقافي بين الناس ، وتحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة في الحقوق والواجبات .

ومن غير المعقول ان تتكفل الحكومات في أي بلد من بلاد العالم بجميع الاعباء والالتزامات نحو الافراد ، بينما يقف الشعب متفرجاً وينتظر ان يجني الثمار ، لأن العقل والمنطق والعدالة تقضي جميعاً ، بأن من يطالب بالحقوق لا بد ان يؤدي الواجبات . فالشعوب التي تنضج وتطالب بحقوقها الاجتماعية من حكوماتها لا بد أن تؤدي واجباتها القومية في ميدان الخدمة العامة ، فيكون لها بذلك نصيب

المشاركة والمؤازرة في النهوض بالامة ، والعمل على اسعادها .

فلو أن كل متعطل طالب الحكومة بعمل ، وكل جائع بالفناء ، وكل مريض بالعلاج ، وكل جاهل بالتعليم .. لكان في ذلك مسئولية كبرى ، تعجز عنها اقوى الحكومات واغناها .. فالحكومات لا تستطيع ان تحتمل وحدها هذه الابعاء الجسام ، بل لابد من قيام الهيئات والجماعات لتساعدوا في هذه الواجبات .

والمرأة منذ قديم الزمان ، هي المنار الذي يضيء ظلام المجتمع ، الذي يضمه جراح البؤساء ، ويواسي أنات المنكوبين ، فقد ولد الانسان وبجانبه البؤس والشقاء والحرمان ... ولم يخل منها عصر من عصور التاريخ ، وتستوي في ذلك شعوب العالم كافة ، وان اختلف الزمان والمكان .

#### الخدمة الاجتماعية في مصر القديمة

ففي مصر القديمة ، عرف المصريون مبادئ الخدمة الاجتماعية فحشوا على بذل المعونة للفقراء ، والنظر اليهم نظرة ملؤها العطف والحنان .. فعرف ملوكهم حفلات البر ، وكانوا يشرفون بانفسهم على توزيع الصدقات .. كما كانت الحكومات تخصص جزءاً من ميزانياتها للاخذ بيد الفقراء ، فعالجوا التشرد والبطالة وما اليها من الازمة الاجتماعية . وشاركت المرأة المصرية القديمة في هذه الميادين بنصيب موفور . وكانت المعابد تستقبل المصلين ، والمرضى فتعالجهم .. أما العاجزون عن العمل فكان يعهد بهم الى اسرات تتولى رعايتهم .



وجاءت الاديان السماوية فحشت الافراد على الخدمة الاجتماعية ، وامرت بالحب والعطف ، وتبادل المودة والرحمة بين الناس . . ونادت بكل انواع الخدمات

فانشئت الملاجيء والمستشفيات لمساعدة اليتامى والارامل والفقراء .

### الخدمة الاجتماعية في الاسلام

وما ان اشرق نور الاسلام ، حتى اضاء باحكامه المثالية جوانب الحياة ،  
فحدد علاقة الفرد بالمجتمع ، ورفع من قيمة الانسان ، وامر بالبر والرحمة والأخاء  
والعدل والمساواة .

وقد حفل القرآن الكريم بآيات الرحمة ، وواجب العون والمساعدة  
لكل محتاج .

واحديث الرسول تفيض بهذه المعاني السامية ، ويحضرني حديث شريف  
جاء به « الساعي على الارملة والمساكين ، كالمجاهد في سبيل الله ، أو كالذي يصوم  
النهار ويقوم الليل . ومن يضع يده على رأس يتيم ترحماً ، كانت له بكل شعرة تمر  
عليها يده حسنة ... » .

فلمساعدة الاجتماعية اذن بلغت غايتها في الاسلام ، اذ فرضت الزكاة على  
الاغنياء لتمنق لصالح الفقراء ، وانتشرت الملاجيء والمؤسسات والتكايوا والمستشفيات  
والمطاعم ، والمغاسل وسبل المياه .. وعرف الناس ان في اموالهم حقاً معلوماً  
للسائل والمحروم ، فوقفوا اموالهم على الخيرات ... وكانت المرأة سباقة في هذا  
المجال ، فان الكثير من الاوقاف الخيرية ، تبرعت بها سيدات محسنات .



رأينا اذن ان الواجب الانساني والوطني يحتم علينا جميعاً ، ان  
نعمل شيئاً في سبيل اسعاد المجتمع الذي نعيش فيه .. وفي رأيي ان المرأة تستطيع

ان تؤدي خدمات اجتماعية جلييلة ، وان تقدم عوناً كبيراً للحكومات في سبيل  
رفع مستوى الشعوب .

وتقرر أ للواقع ، فانه لايفوتني القول ، بان هذه المبادئ التي رسخت في  
ضمير الاجيال المتعاقبة ، قد اصبحت جزءاً من عقيدة الشعوب ، في ميدان الحياة  
الاجتماعية والانسانية ، ولم يعد يستطيع انسان ، ان ينكر دور المرأة الهام وما تضطلع  
به من جهد مشكور ، عميق المدى في هذا الميدان .. بل وفي غيره من سائر  
الميادين .

واذا صح هذا القول بالنسبة للمرأة عامة ، فانه من الحق ان لاتغبط المرأة  
العربية حقها ، فيما ادر كنهه من يقظة فكرية ، وفيما اصبحت تشارك به من جهودها  
وما لها ، لرفع مستوى الحياة الاجتماعية في البلاد العربية والشرقية .

#### الخدمة الاجتماعية في مصر

في مصر مايربو على الثلاثة آلاف جمعية تقوم بخدمات اجتماعية ، تشارك  
المرأة في معظمها ، و ٤٠٪ من هذا العدد جمعيات نسائية تقوم على جهود  
السيدات وحدهن .

ومن حق المصرية علينا ان نسجل لها ما قامت به من جهود كريمة في  
ميدان البر والخدمة الاجتماعية ، لرفع مستوى الاسرة اجتماعياً وصحياً وثقافياً .

وفي مقدمة مظاهر نهضتنا ، تلك الروح الاجتماعية التي نمت بين سيداتنا  
في الخمس عشرة سنة الاخيرة ، و احدثت انقلاباً ظاهراً في حياتنا الاجتماعية ، اذ  
اندفعت سيداتنا الى تأليف الجمعيات الخيرية والاجتماعية العديدة ، تعنى كل منها

بناحية من نواحي الاصلاح والخدمة العامة .

وبذلت المصرية في ذلك اكرم الجهود ، وأبليت فاحسنت البلاء في الجهاد ضد الأوبئة والامراض ، خصوصاً في عامي ١٩٤٤-١٩٤٧ حين اجتاح البلاد وباء الملاريا والكوليرا ... وتفانت في تخفيف النكبات واغاثة اللاجئين .

واستطاعت المصرية بحق ان تثبت جدارتها وكفاءتها فيما تقوم به من خدمات اجتماعية جليلة ، تتطلب دراية وفناً وروحاً لا تكل .. فأنشأت الجمعيات الخيرية والمدارس ودور الحضانه ورعاية الامومة والطفولة ، والمطاعم الشعبية والعيادات الخارجية ، وما الى ذلك ... وادارت هذه المستشفيات بكفاءة ودراية بالغتين لدرجة حدت بالحكومة ان تسلم لعدة هيئات نسائية ، بعض المؤسسات الحكومية الاجتماعية ، لادارتها والوصول بها الى الكمال المنشود .

#### الخدمة الاجتماعية في البلاد العربية والشرقية

وهذا الذي تفعله المرأة في مصر ، تفعله شقيقته في سوريا ، بلدكم الكريم المضيف ، فقد راحت المرأة السورية الناهضة تساهم في التعمير الانساني والاجتماعي بمجهود تذكر لها بالحمد والفخر .

وراحت تؤسس الجماعات المشغلة بهذا النشاط الاجتماعي ، الواحدة تلو الاخرى ، ووصل هذا النشاط الى مصر ، التي تبعت في اعجاب جهود الاتحاد النسائي العربي ، والهلل الاحمر السوري ، وجمعية نقطة الحليب ، ورابطة دوحه الأدب ، وجمعية تثقيف الفتاة السورية ، وما اليها من الهيئات الاجتماعية النسائية النافعة ، التي تدل على مبلغ ماتستطيع المرأة ان تقدمه في ميادين الخير والانسانية . ونحن في مصر نرقب هذه النهضة الكريمة بقلوب يغمرها التقدير



والأمل في اضطراد ازدهارها وتقدمها على الدوام .

وإذا كان هذا هو حال المرأة في سوريا ومصر ، فإنه نفس الحال لدي المرأة في لبنان والعراق وشرق الأردن . بل هو نفس الحال لدي المرأة في معظم البلاد الشرقية التي ترتبط واياها بأواصر قديمة من المصالح والآلام والآمال ... فاجتمعت هذه البلاد تزخر باسماء لامعة من السيدات العاملات ، وبآلاف الجمعيات والاتحادات والهيئات النسائية ، التي لا تتوانى عن تقديم كافة انواع المساعدات ، والخدمات في سبيل اسعاد المواطنين .

وليس من قصدي ان اقدم لحضراتكم احصائية كاملة عن الجمعيات النسائية في البلاد العربية والشرقية ، بقدر ما اردت بهذه المجاملة ان اشيد بالنهضة النسائية في هذه البلاد ، بصفة عامة ، ولكي ادلل على ان السيدات العربيات والشرقيات ، انما تنبض قلوبهن بمشاعر واحاسيس واحدة ، ويتطلعن جميعاً الى اهداف انسانية واجتماعية واحدة ، وانهن جميعاً يسرن في الطريق الصحيح الذي يهيئه لهن الدين والعلم والمدنية .

### فكرة المحاضرة

هذه (الوحدة) في المشاعر الانسانية والاجتماعية ، ووسائل العمل في ميادينها ، لدى المرأة في مصر وسوريا ولبنان وغيرها من البلاد العربية والشرقية هي التي أوحى الي بفكرة هذه المحاضرة وكانت السبب المباشر لعنوانها .

نظرت الى الهيئات النسائية في الشرق ، وكيف تعمل ، وماذا تنتج ، وماذا خلفت من آثار ؟ وماهي نتيجة هذا المجهود الضخم في محيطنا ، وفي رؤوسنا

وفي رسالتنا؟ وتأملت هذا الجهد النسائي ، وفحصت كل اتجاهاته ، واخذت  
اسائل نفسي .. هذا الجهد في الشرق من ينسقه؟ من ينظمه؟ من يوجهه؟

ألا يحتاج الأمر الى تجميع تلك الجهود ، وتنظيمها تنظيمًا شاملاً يدفعها دائماً  
في قوة الى الامام ..؟

### رسالة موحدة

لابد لنا سادتي وسيداتي من رسالة موحدة في الميدان الاجتماعي ، في هذا  
الشرق الذي يحتاج الى كل ذخيرة فينا نحن النساء .

وهنا يحلوني ان اقول ، ان دور المرأة في الميدان الاجتماعي ، يختلف  
تماماً عن دور الرجل .. لان الطبيعة هيأتها لهذا الدور وسلحتها له ، اكثراً مما  
هيأت للرجل . فالمطف والحنان والشفقة والاحساس العميق بالام الغير ، تدفع  
المرأة الى مكان الصدارة في كل نشاط يبذل للقضاء على الآفات الاجتماعية .

### تشابه امراض المجتمعات العربية والشرقية

وفي رأي ان المجتمع العربي والشرقي كله يئن ويشكو من علل وامراض  
تكاد تكون متشابهة ، وهي كلها انما تكمن وراء الاوضاع السياسية والاقتصادية  
في هذه البلاد . وما من شك ، ان الاستعمار الذي نكبت به بلادنا زمناً طويلاً هو  
المسئول الاول عن تفشي هذه الامراض واستفحالها حتى اخذت بالرقاب ...

أما وقد اتاح الله لنا ان نتخلص من وطأة هذا الاستعمار ، ونتحرر من  
كابوسه الثقيل ، فقد انفتحت أمامنا ابواب الاصلاح التي اغلقت في وجوهنا زمناً  
طويلاً . فليس يكفي ، ان نتخلص من مظاهر الاستعمار العسكري أو السياسي

حتى يقال ان امورنا قد ردت اليها ، واننا نعم بالحرية والاستقلال .. بل لابد من ان يقترن هذا الاستقلال السياسي بنهضة اجتماعية عامة ، تستهدف رفع المستوى الاجتماعي للناس كافة .. لابد من دفعات قوية جبارة ، تتزع الشعوب العربية من وهدة القم والحمرمان والاخذ بيدها الى المستوى الفكري والاقتصادي الذي يعد حجر الزاوية في كل نهضة استقلالية صحيحة .

وان اخشى ما اخشاه ان يصرفنا اهتمامنا ببعض مشاكلنا عن الاهتمام ببعض الآخر ، فمثلا بالنسبة لما يتردد دائماً على السنة المهتمين بالاصلاح الاجتماعي عن عبارة الفقر والجهل والمرض ... قديقول البعض ان الثالوث يضم اهم المشاكل ويجب البدء بالاهم ثم المهم . هنا تقع في خطأ علمي ، فمن المنفق عليه ان ترتيب الامراض الاجتماعية وفق اهميتها يستحيل استحالة مادية .

فالقول بأن بعض المشاكل يمتاز عن البعض الآخر قول مردود ، تماماً كالقول بأن علة العلل مشكلة بذاتها ، أو البحث القيم عن مصدر العلة بين الاعراض المدودة من النتائج لامن الاسباب .

وهذا يفسر لنا لماذا يتخبط الساسة والمصلحون في بيداء الاصلاح اذ انهم يتشبثون بناحية أو اخرى ، ويتوهمون انها مفتاح الخلاص ، وعند التجربة يتضح ان هذا المفتاح سراب في سراب .

فلنكف عن التورط في تصنيف مشاكلنا والمفاضلة بينها ، انها كل لا يتجزأ والجدل القيم حول ايها أولى بالتقديم يجب ان نطرحه وراءنا . فالمجتمع المستقيم يجب معالجة امراضه كلها في وقت واحد . فرب عملة نستعين بها تمرقل مجهوداً جباراً وتعطل حملة الاصلاح عن السير في الطريق القويم فمثلا نحن نعالج التشرد والتسول ، ونبذل في سبيل ذلك اكبر الجهود .. ولكن الداء مستعصي ، لاننا

نسبنا علته .. نسينا ان قوانين الاحوال الشخصية عندنا في اشد الحاجة الى التعديل .. فما اثبتته البحوث والتحقيقات ان حوادث الطلاق وتعدد الزوجات ، وتهاون الابوين واهلهما في القيام بالواجبات الزوجية ، من اهم اسباب التشرذم ، ان لم تكن هي اصل الداء ... والبلاء ... فهي المنبع الذي يغذي ميادين التشرذم بالضحايا في كل يوم .

ولاعجب في ذلك فقد تفشى الطلاق في بلادنا بصورة بغیضة ، ولعل السبب في ذلك هو استهتار كثيرين من الأزواج بقضية الزواج ، واقدامهم على تحطيم صرح الاسرة بمنتهى السهولة في طرفة عين ... ولاتفه الاسباب ؟ فيلقون بأولادهم وفذات اكبادهم الى رحمة القدر ، أما تحت رعاية الخادمت والمربيات ، أو بين زوايا الازقة والطرقات !!

فالطريقة المجدية أذن لحماية تلك الطفولة المشردة هي القضاء على مسبباتها ، ووضع حد للاهواء الفاسدة والعمل على حماية الاثر من المؤثرات الخادعة التي تسربت الى نفوس البعض ، عن طريق فهم المدينة الغربية فيما خطئاً ، والنزوع الى المتعة النفسية الفردية ، والانانية ، مما يترتب عليه ترك الاولاد تحت رحمة الاقدار .

وهكذا نرى سادتي وسيداتي .. ان المرأة في الشرق على العموم رغم ماوصلت اليه من نهضة ووقى ، مازالت تئن من بعض اوضاع اجتماعية تمس كيائها ومصالحها وتعصف بحياتها ومستقبلها ، وتهدد ابناءها في طفولتهم وكرامتهم ومستقبلهم ! ولذلك نجدتها تتطلع الى حياة افضل واكرم وخاصة في هذا الوقت الذي تتجه فيه شعوبنا الى الاصلاح والكمال .

فاحواننا نحن نساء الشرق عامة ، في مسيس الحاجة الى التنظيم والتوجيه ..

وأقولها كلمة صريحة ، أننا رغم ما وصلنا اليه من نهضة ثقافية واجتماعية ، فأننا  
مازلنا مهددات في صميم حياتنا ، مهددات في مستقبلنا .. مهددات في اعز ممتلك ،  
في فلذات اكبادنا . ! انا مازلنا اسيرات .. فاذا نطق الزوج بكلمة ، استطاع  
ان يعصف بكيان الاسرة ومن فيها .. ولو كان لها من العمر عشرات السنين ..!  
فتشرد الزوجة والابناء .. ويتفرق الصغار الابرياء عن الآباء والامهات ..!

وقد يقال ان الطلاق حق مطلق للزوج .. ولكن الاترون معي انه  
تعسف في استعمال الحق ؟ الم يقل نبينا الكريم ( ابغض الحلال الى الله الطلاق )؟.

وتعدد الزوجات وما ينجم عنه من مآسي مريرة ، وبيت الطاعة ، واستحقاق  
الاب لحضانة الابناء من المآسي التي نلمسها كل يوم في حياتنا الخاصة والعامة ..  
انها كلها اوضاع جامدة ، لاتلائم روح العصر الذي نعيش فيه . وان الاستمرار  
في اقرارها يوم الكثيرين بانها احكام الدين ، مع ان الدين منها براء .. فديننا  
اسمح الاديان ، وشريعتنا ارقى من ان ينسب اليها هذا الوضع المبهين للمرأة  
وكرامتها ..

انه لا يوجد دين أنصف المرأة كما انصفها الاسلام ، فلم نشوه احكامه  
ونخرجها عن مقاصدها ومرامها ؟ .

ولقد اعجبني حقاً ماجاء في ( الربانيات ) لعمر الخيام من ان ( الاسلام  
بنفسه منزه عن كل نقص ، وانما النقص في اسلاميتنا ) .

فعلينا اذن نحن نساء الشرق ان نتكفل ، ونرسم خطة معلومة  
للعمل في سبيل ، تأمين حياتنا واستقرارها ، أو بالاحرى تأمين الاسرة والمجتمع .

علينا ان نطالب ونعمل في سبيل تعديل هذه الاوضاع الراهنة باستصدار

التشريعات الاجتماعية النافعة لحماية المرأة ولأولادها وبالتالي للأسرة والمجتمع الجديد... فان اصدار مثل هذه التشريعات ضرورة اجتماعية لانها تشريعات مستمدة من البيئة و حياة الافراد .

ولكننا يعلم ، ان المرأة هي عماد الاسرة.. وان الاسرة هي اللبنة الاولى في بناء المجتمع ، والخلية الاساسية في جسمه بل انها مجتمع صغير كامل... يمتد أثره الى نشاطنا الاقتصادي والاجتماعي والروحي والعلمي والسياسي .

ولذا تبدو ضرورة علاج كل مائت من الاسرة - حتى نضمن سلامتها واستقرارها ، لتمتكن من القيام بواجباتها الكاملة نحو المجتمع الكبير .

واذا كان دور المرأة هو الاساس في بناء الاسرة ، فانه لا يقل عن ذلك اهمية في حياة المجتمع... لان المرأة المستنيرة تشعر بواجبها نحو المجتمع الذي يأويها فتندفع في ميادين الاصلاح تبذل لها من جهدها وفكرها ومالها وهي في هذا كله انما تستهدف رفع مستوى المعيشة لبني وطنها.. وتوفير اسباب الحماية الصحية والاجتماعية لهم .

ورفع مستوى المعيشة انما يكون بأحدى طرق ثلاث أوها مجتمعة فيكون عن طريق :

- ١ - خدمات علاجية : أي علاج بؤسي واقع ... أو
- ٢ - خدمات وقائية : وهي الاستعداد الوقائي لمنع حدوث الكوارث ... والمعروف طبعاً ان الوقاية خير من العلاج أو
- ٣ - خدمات انشائية : أي رسم السياسة اللازمة للمستقبل .

ومما يؤسف له ، ان معظم جهودنا معشر الشرقيين ، موجهة الى الخدمات العلاجية ، فنحن نتقدم بعد حدوث الكوارث فنسعف الاجئين ونأوي المشردين ، ونطعم الجائعين ونداوي المصابين الى غير ذلك من الخدمات العلاجية .

فهل لنا ان نبادر بالقيام بالخدمات التي تخفف من الكوارث وتحول دونها؟ هل لنا ان نكون ايجابيات فترسم سياسة انشائية لحياة افضل ، نعمل على تنفيذها جيلا بعد جيل .

### تفظيم الجهود النسائية في الشرق

اقد اطلمت على توصيات الاجتماع الثاني لمؤتمر خبراء الشؤون الاجتماعية الذي عقد اخيراً بمصر ، واعجبني ما جاء به . ( من انه لا بد من احكام الصلة والتعاون بين مختلف الدول والحكومات العربية ، في كل ما يتصل بتحقيق النهوض الاجتماعي ) .

ومن مستلزمات هذا النهوض الاجتماعي واسبابه ومقوماته الاولى جمع البيانات الدقيقة ، والقيام بالبحوث والدراسات التي يمكن الاستناد اليها في وضع خطط النهوض والاصلاح .

ولاشك انكم اطلعتم على ما جاء بهذه التوصيات من ( انه من الضرورات التي يقتضيها التعاون بين الدول العربية ، ان تعرف كل منها ما يجري في شقيقتها العربية من نهضته ، وما يحقق فيها من مشروعات اجماعية فأن الامام بهذه الناحية أمر ضروري ومفيد للغاية ، بل هو خطوة اساسية في التعاون والتعارف وينبغي ان يشمل تبادل المعلومات في هذا المجال القوانين والتمشيعات التي تصدر ، وكذلك مظاهر التنفيذ العملي والصعوبات التي تكثفه ) .

فما بالنسبة للنساء لا توحد سياستنا وجهودنا الاجتماعية نحو تدعيم الاسرة  
واسعاد المواطنين ؟ .

ليس حربياً بنا ان نتعاون ونرسم سياسة انشائية موحدة تهدف لتمهئة  
الحياة الكريمة لنا ولواطنينا - مع اننا نحن المشتغلات بالخدمة العامة في الشرق -  
نلمس مشاكلنا وعللنا التي تكاد تكون متشابهة ، لا أحسب ان هناك اختلافاً على  
هذا التشابه من حيث الجوهر ، وان قيل كلام كثير حول بعض الجزئيات  
والتفاصيل - وثمة ناحية اخرى لها ارتباط وثيق بهذا الحديث ، فأن تأخرنا  
الاجتماعي كما أرى ، مرتبط اوثق الارتباط بعجزنا عن استغلال مواردنا الطبيعية  
استغلالاً كاملاً ، وتوجيه هذا الاستغلال على ضوء النتائج والتطبيقات العلمية ،  
نحو تحقيق اقصى المنفعة للسكان ، وسد المطالب والاحتياجات الاقتصادية لهم جميعاً  
ومن الخير لنا بدلا من ان نضيع الوقت في جدل عقيم ، حول اسلوب معالجة  
المساويء والشروخ الاجتماعية التي تفتش في بلادنا ان نبادر اولاً الى معالجة هذا  
العجز الظاهر الذي يتمثل في طريقة استغلال مواردنا وثروتنا الطبيعية ، والى  
العمل بكافة الوسائل لتسخيرها في خدمة اغراض الاصلاح الاجتماعي .

فواجبنا هو أن نوجه جهادنا الاجتماعي لاسعاد شعوبنا نحو مواردنا  
الطبيعية الوفيرة التي مازالت بكرأ ... وان ندفع بالسياسة والمصلحين لكي يبدأوا  
من نقطة الارتكاز الاساسية . وان ماتشكو منه مجتمعاتنا الآن ليس غامضاً ولا  
معتاداً ، وانما هي اعراض الجمود والتردد .

فلنجدد قوانا المعنوية وثروتنا البشرية بكافة الطبيعة ، واستغلال  
كنوزها لخير مواطنينا ، فما نجحت الشعوب التي سبقتنا في مضمار المدنية والامجاد  
القومية الا بعد أن جابهوا الطبيعة وجها لوجه ، وقهروها في عقور دارها في  
المناجم ، والصحاري ، في اعماق الجبال ، ووطنها ، في البر والبحر وماتركوا



شبراً في بلادهم الا و قدموا من الشواهد والآثار ما ينطق باستغلالهم له ، وتسخيره  
لارادتهم واتخاذهم رمزاً لجهادهم الازلي ضد الطبيعة وبأنهم في هذا السبيل قد  
شهبوا عليها سلاح العلم القاطع ، فانصاعت لهم واستسلمت لقوة عزيمتهم .

### « روابط طبيعية بين الدول الشرقية »

ان الشرق الذي توحدته الامة المشتركة يمتاز عن الغرب بما بين شعوبه من  
روابط طبيعية قوية تحسدنا عليها الشعوب الغربية وهذه الروابط الطبيعية تتمثل  
في ثلاث جامعات لها جلالها وخطرها ونفوذها لو تنبه لها الشرقيون واستفادوا  
منها ، لقضوا على بقايا الاستعمار الغربي للشرق قضاء مبرماً .

هذه الجامعات الثلاث هي : الجامعة العربية ، والجامعة الاسلامية  
والجامعة الشرقية .

الا ان الشرق ليسود حتماً في القريب العاجل ، لو آمنت شعوبه بوحدته  
العامه ، وبما تضمه من جامعات ثلاث ذات جلال وخطر ، لا تحتاج الى دعوة  
لايجادها ، ولا مؤثرات لمناقشتها وبحثها ولا موثيق وعهود لاظهارها وتكوينها ...  
لانها موجودة بالفعل .

فهي جامعات خلقتها العوامل الطبيعية والظروف المتشابهة والعوطف  
المتبادلة ، والعناصر المتجانسة .. فعلى الشرقيين ان يفتنوا لها ، ويستغلوها  
لمصلحتهم الى اقصى حد ، ويدعموها بتعاونهم ويؤيدوها باتحادهم ، فهذا سيلينا  
العملي للنهوض بالشرق ، والاخذ بيد شعوبه المحيدة الى ما تصبو اليه من حياة  
وطنية كريمة اننا نستطيع ان نجعل تقدمنا وارتقاء شعوبنا سريعاً واكيداً ، اذا  
نظمنا جهادنا الاجتماعي واقناه على دعائم ثابتة من الحقائق العملية المقررة مؤمنين

بأنفسنا وبأيماننا قوياً ، داعين شعوبنا الى الإنتاج والعمل الجدي المتواصل  
معتمدين على وحدتنا العربية والشرقية ، وقوانا المعنوية .. فما اروع الجهاد اذا  
كانت عدته العلم وسلاحه التضامن والاتحاد ! .

\* \* \*

### «الدعوة لوضع ميثاق اجتماعي»

سادتي وسيداتي :

بعد هذا الذي ذكرته حول نشاط المرأة الاجتماعي في البلاد العربية  
والشرقية - وما برزته لكم من الظواهر المتماثلة - ان لم تكن الموحدة التي تحكم  
هذا النشاط وتدفعه نحو اهداف متماثلة ان لم تكن موحدة ايضاً انتقل بكم الى  
الايضاح السليمة التي يجب ان يصاغ فيها هذا النشاط والى التنسيق والتنظيم  
الواجبين له - لتجيء النتائج فعالة وحاسمة ومنتجة للاثار التي نتطلع اليها ونرتجىها  
من وراءه .

ومرة اخرى اكرر القول - بأن هذا التنسيق والتنظيم امر لازم لانه هو  
الذي يضفي القوة والحيوية على كل عمل ويفتح امامه سبل التطور ويهيء له فرصة  
النجاح المضمون .

وليس هذا الذي سأدعوكم اليه ، صعب التحقيق ، أو عسير المنال لان  
الشأن فيه لا يعدوا أن يكون تفاهماً على قواعد عامة شاملة - يجب ان يخضع لها  
هذا النشاط ، وان تكون هي التي ترسم مجاله وحدوده وفي تقديره ان هذا  
التفاهم امر ميسور طالما انه من صميم المصلحة العامة المشتركة وأنه صدى لما يعتدل  
في نفوسنا جميعاً من الدعوة الى التضامن والتساند في ميدان هام من ميادين الخدمة

القومية ، في كل بلد عربي وشرقي .

انني ادعو الى وضع دستور أو ميثاق - ترتبط به المرأة في البلاد العربية والشرقية ، وتستمد من احكامه النظام الذي يحكم نشاطها في الميادين الاجتماعية وماتبدله من جهود لدفع مستوى ابناء وطنها في هذا الميدان ويهيء لها المجال الحيوي لسير هذا النشاط وتصوره ، فلا يتعرض يوماً لطوارئ أو احداث ترده الى الوراء ، وتجبره الى التخلف والانتكاس .

وفي ظني اننا يمكن ان نقيم هذا الدستور أو الميثاق على الاسس العامة الآتية :

١ - سن التشريعات اللازمة ، التي تنظم مسائل الاحوال الشخصية للمرأة من زواج وطلاق وخلافه ، على وجه يلائم روح الشريعة وسنن التطور وظروف الحياة الجديدة ، وتعديل ما هو قائم منها ويحتاج الى تعديل أو استحداث مايسد منها اي ثغرة أو فراغ .. اذ لايسوغ عقلاً ومنطقاً ان تشارك المرأة بنصيب موفور في نهضة بلادها ، في الوقت الذي تحس فيه ، أنها مهضومة الحق ، ومهبطة الجناح لاتقوى على حماية مركزها العائلي والاجتماعي من هذه الناحية .

٢ - كفالة حق المرأة في فرض التعليم بمختلف انواعه ودرجاته بحيث لاتصد عن ابواب العلم ابداً اسباب يتعلق بمركزها في الحياة كامرأة وما يستتبعه ذلك من حقها في الاشتغال بالهن الحرة ، أو تولي المناصب العامة ، وما يتصل بذلك أو يترتب عليه ، من كفالة حقوقها السياسية .

٣ - استحداث التشريعات اللازمة التي تفرد للمرأة حق شغل بعض الوظائف الكبرى التي تشرف على توجيه وادارة النشاط الاجتماعي في الدولة والتي تضمن للدولة ان تستفيد الفائدة الكاملة المرجوة، من استعداد المرأة وموهبتها الطبيعية في هذا الميدان ، الذي تبذل فيه جهوداً مقدرة ومعترفاً بها من الدولة والرأي العام .

٤ - تنظيم تبادل المعلومات بين الهيئات النسوية في البلاد الشرقية .

٥ - اعداد مؤتمرات نسوية تعقد مرة في كل عام في احدى عواصم البلاد العربية والشرقية يحضرها ممثلات للهيئات النسائية المختلفة المشتغلة بالنشاط الاجتماعي في هذه البلاد ويكون لها الى جانب هذه الصفة الشعبية ، صفة حكومية ، بأن تشارك فيها الحكومات عمن يمثلها ، للمشاورة وتبادل الرأي في تنسيق الجهود التي تبذل في هذا الميدان ، والوصول الى احسن الحلول والقرارات ..  
والتي يكون في مثل هذه المؤتمرات مظهر التعاون الاجتماعي النسوي بين الدول العربية والشرقية .



هذه هي الاركان العامة التي أرى ان يقوم عليها الدستور أو الميثاق الذي ادعو اليه . وظاهر بجلاء ان هذه الاركان العامة يعوزها تفصيل كثير عندما توضع في مكان التنفيذ العملي ... على انه يمكن استيفائها عند اخراجها الى حيز التنفيذ ...

سأدتي وسيداتي :

ارجو ان اكون بهذه الدعوة التي أنادي بها ، قد ترجمت في صدق وامانة

عما يجيش في نفس كل سيدة عربية أو شرقية تساهم بنصيب أقل أو أكثر في  
مشاكل بلادها الاجتماعية .

فإذا لقيت هذه الدعوة قلوباً واعية وأذاناً صاغية وتهيأت لها أسباب  
النجاح والتوفيق ، فأصبحت حقيقة واقعة نافذة ، كان ذلك نصراً من عند الله ،  
وخطوة كبرى في سبيل تحقيق التضامن الاجتماعي بين الدول العربية  
والشرقية ، وضرورة هذا التضامن عملاً أكيداً ، مجدداً عميق الأثر في  
حياتنا .

والا فحسبي من هذا كله اني ناديت وبلغت .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...



## الإنسانية بين المتفائلين والمتشائمين

الاستاذ خليل هنراوي

= القيت بتاريخ ١١ / ٣ / ١٩٥٥ =

(١) تأخر نشر هذه المحاضرة عن موضعها لاسباب تتعلق بترتيبها وتنسيق اوراقها

(1) فِي سَبْعِينَ نَسْأَةً

وَبَدَأَ لَشَقَاءَ وَيَوْمَ الْفِتْنَةِ وَيَوْمَ الْحَسْرَةِ

بِأَنَّهَا رُبَّمَا تَسْتَوِي

= وَرَبَّمَا تَسْتَوِي =

لَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا كَذُوبٌ فَهُمْ عَلَى مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (1)



## الإنسانية بين المتفائلين والمتشائمين

سيداتي سادتي !

كنت أؤثر ان اتحدث ، في هذا الموقف ، في موضوع ادبي خالص ، ثم فررت منه فجأة الى موضوع آخر ، هو الإنسانية بين المتفائلين والمتشائمين ، لا لأني اسأت الظن في الموضوع الادبي ، أو في تقدير ميولكم اليه ... بل لأني اعتقدت بأن هذا الموضوع نفسه لا يخرج عن دائرة الادب ، باعتبار ان الادب الحقيقي ماهو - في الواقع - الا قصة الانسان ! والإنسانية من الانسان ! وكيف لانتحدث في موضوع هو اليوم مدار بحث في كل مكان ...

لأنهم يتحدثون عن هذا الانسان ، عن هذا الاله الصغير الذي كان اعجوبة الاعاجيب يوم انشق عنه الكون فرحاً ، متهللاً ، وما يدري الكون انه قدف به اخطر منافس للخلق والانشاء ، وباللاسف ؟ والتدمير ايضاً والافناء ، حتى سبق الطبيعة في احوالها وحوادثها على نحو قول المتنبي :

وكانا لم يرض فينا برب الدهر

حتى اعانه من أعانا

كلما انبت الزمان قناة

ركب المرء في القناة سنانا

هذا الانسان الذي تجسس على الآلهة ، حتى تغفلها ، وسرق منها سر النار ،  
فاتقلب بها وجوده الانساني الى وجود إلهي ... ومادري أن الذي يحرق بالنار  
يحترق بالنار .

هذا الانسان ... الذي قال فيه المعري :

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

ومن الحق ان هذا الحيوان الذي حارت البرية فيه هو اليوم حار في نفسه ،  
لا يثق بأن هذه الكتلة الحقيرة « من اللحم والدم » وصلت الى هذا الحد في امتلاك  
الطبيعة ، والسيطرة عليها .

هذا الانسان ... الذي ميزه علماء الاجتماع بأنه حيوان تميز بعقله ...  
وتبعوا تاريخ تطوره ، منذ كان في الغاب ، ومنذ أقلق سكان الغاب ، الى ان  
نزع عنه ، وتألف اسراً ، ومجتمعاً وشعباً ودولاً ...

هذا الانسان ... هو الذي يؤلف اليوم هذه الانسانية ... وفيه لا يتحدث  
الليلة عن الانسانية ، وفي كل مكان يتحدثون عنها ، بل لم يتحدث العالم عنها كما  
يتحدث اليوم ، لانها بلغت الاوج ، والنهاية الخطيرة في التقدم الحضري الذي  
لا يعرفون مداه .

كانت الانسانية الاولى انسانية الاسرة ، والقبيلة ، ثم جاءت القومية ، ثم  
صغرت القومية بعد ان لم تتسع للأرب هذا القزم الكبير . ثم صارت العلة علة الشرق  
وعلة الغرب ، والآن صارت علة انسانية ، يجتمع لها في الشرق والغرب ، وفي كل  
مكان مفكرون وسياسيون وعلماء ، يجتمعون لاتقاذ الانسانية والانسان .

والآن لتساءل : ماذا عسى يريد هؤلاء أن يتقنوا من الانسانية ؟ هل يتقنون « التقدم الانساني ؟ » ولكن هل كان المفكرون يؤمنون ايماناً واحداً بهذا التقدم الانساني ؟ لان مسألة التقدم الانساني ترتبط بمقدار ايماننا بصلاح الانسان ، وحرية الانسان . والايان بالتقدم الانساني هو الايمان بأن تاريخ الانسان لا يمشي بحسب المصادفات ، وان الناس يستطيعون بواسطة ارادتهم ان يسلكوا الطريق الذي اختاروه لهم — ضالين كانوا أو راشدين — على ان لهم من ايمانهم بالصالح ما يجعلهم لا يختارون الا ما يذهب بالانسانية نحو محجة الكمال .

وفي وسعنا التأكيد بالافيلسوف يؤمن « بالحتمية والجبرية » يعقدهم بالتقدم الانساني ، لانه لا يؤمن بقوة الارادة الانسانية على الحوادث . وفي وسعنا التأكيد بالافيلسوف متشائماً يؤمن به — كالمعري مثلاً وشوبنهاور — لانه يرى سلفاً ان الانسان عبد اهو انه السيئة .

هذه المسألة .. مسألة التقدم الانساني تشغل اليوم كل تفكير اجتماعي وسياسي ، والناس انما يختلفون ، ويتفقون بحسب نوازع ايمانهم ، أو شكهم في هذا التقدم الانساني . فالذي لا يؤمن بتقدم الانسانية يجد عبثاً كل جهود المفكرين والثائرين لتنظيم المذاهب الاقتصادية والسياسة في العالم . ويرى أن الاجدى ترك الاشياء تجري في مجاريها كما هي . بل لعله يرى أن الماضي خير من الحاضر ، ولذلك يعكس مثله الاعلى نحو الماضي ، ومحاولة بمثله من جديد ، بينما المفكرون المصلحون المجددون والثائرون يعتبرون هذا المفكر الرجعي « شكاكاً » أو « مريضاً قلقاً » . أما الذي يؤمن بالتقدم الانساني فيواصل الجهود لتحقيقه والاسراع في ابداع مستقبل أزهى ، يراه صالحاً للتقدم الانساني ، فهو دائماً على قلق ، وقلة صبر ، وعدم قنوع بالحاضر ، واخيراً يتحول الى مصلح متمهل ، أو ثائر مستعجل ،

وهكذا نجد فكرة التقدم الانساني تتلاقى عند خط التقسيم بين هذين الاتجاهين  
الضروريين .

انا نجد التساؤل : أهناك تقدم انساني ؟ أم لا ؟

قد يختلف الجواب بحسب نظرة المتفائل بالانسانية ، والمتشائم منها . ولكن  
لعل هذا السؤال يعد لغواً مادام هناك ، اناس يؤمنون كل الايمان بالتقدم الانساني ،  
على ان هذا الايمان نفسه ليس له عهد طويل ، لانه ايمان مستحدث جداً .

فمذ زمان ، كان يؤمن الناس — على العكس — بأن الانسانية سائرة  
نحو الحفار والانهيار . وليست تسير بحسب قانون الاصلاح . بل هنالك ، من  
يرى أن الانسانية عاشت ، من قبل ، عيشة مادية اسعد ، وعيشة خلقية أهدأ  
من حياتنا الصعبة القلقة . فاليونان الاقدمون ، مثلاً ، كانوا يزعمون ان الكثير  
من الناس عرفوا « عصرأ ذهبياً » عاشوا فيه بدون عمل ولا جهد . تخدمهم الجن  
والمردة ، ويجولون المصائب والمتاعب ، والاديان نفسها تذهب الى أن آدم وحواء  
— قبل الخطيئة — كانا يعيشان بهناء ، بدون عمل ولا ألم . ولم ينزل الغضب  
والعذاب على الانسان وفريته الا حين ارتكب تلك الخطيئة ، ولم تهبط العداوة  
والبغضاء في الناس الا بسببها .

والمثني نفسه من اصحاب هذا الايمان حين يقول :

اتي الزمان بنوه في شببيته فسرهم ، وأتيناه على الهرم

ومن الفلاسفة ، امثال جان جاك روسو ، وديدرو يعتقدون بأن الانسان  
عاش في حياة طبيعية أهدأ ، واطهر من هذه الحياة التي توصف بأنها « حضرية »

ولاعجب اذاً في ان يكون بين مفكري اليوم من يمجّد تقدم الانسانية ، ويؤمن  
بإستحالة كإلها .

لنعرض الآن حجة هؤلاء المتفائلين وهؤلاء المتشائمين ! ولنبداً بالمتشائمين !  
يسألونك : ماذا حقق التقدم الانساني في عالم المادة ؟

ان من العسير جداً ان ننكر ان الانسانية قد حققت ، ولا تزال تحقق ،  
بجهود جبارة متواصلة ، « التقدم الآلي والصناعي » ولكن الكثير من اصحاب  
المذاهب العقلية والروحية لا يعلقون اهمية على هذا التقدم . اذ لا يتجلى التقدم  
عندهم بمجرد توفير القوت للانسان واللباس ، والسكن والتدفئة ، والانارة وغيرها  
على نحو ارقى . لان هذه الاشياء تتعلق بالجسم وحده . وهم لا يخرجون عن مدى  
روح الانسان .. وعلى العكس يرون هذه الاشياء قد شغلت الانسان ، وصدته  
عن البحث عن سلامه الروحي ، وكإله الخلق ، حتى وقع فريسة سائفة بين اشدق  
هذه « المادية » التي تسيء الى الانسانية .

وقد يجد هؤلاء المعارضون : فنسمع الدكتور « كاريل » في كتابه : « ذلك  
الانسان المجهول » يقول : « ان هذا التقدم لم يكسب الانسان شيئاً ضد الموت ،  
عدو الانسان ، وضد المرض نفسه اننا لم ننجح في اطالة عمر حياتنا ، فصاحب  
السنة الخامسة والاربعين من عمره ليس له حظ في ان يبلغ الثمانين اليوم كعبد  
في القرن الماضي ، وكل هذه الجهود التي تحققت في التدفئة ، والانارة ، وصحة  
التغذية ، والتوسع في انشاء الحمامات البيئية ، والتمارين الرياضية ، والفحوص  
الطبية الحديثة ، ووفرة المتخصصين في عالم الطب . هذا كله لم يستطع ان يزيد  
يوماً واحداً الى اجل الانسان على اننا لاننكر ان الطب ، مع ذلك ، قام باشياء  
ناجحة ، ولكن هذا لا يجعلنا ان نقول : ان الصحة الانسانية صارت الى أحسن ! »

وعلى العكس ، نستطيع القول : « ان الجهود العقلية ، عند الكثير من الناس ، باستخدامهم الآلة ، ووسائل النقل في البر والبحر والجو ، وان الجهود التي تبذل في هذا الوجود المحموم جعلت الجسم اضعف احتمالاً للخدمات المرضية ، حيث عدت لاترى الناس الاراكضين ، جاهدين . . من أين المجهول ... الى أين المجهول ... والصحة الانسانية بما اكتشفته واعدته في الخابر من فيتامينات ، وبنسلين ، واشياء اخر ، مما يحسن الاطباء وعيه في هذا الباب ... لم نستطع ان تقدم الا « الصحة الصناعية » وهيات ان تقارن هذه « بالصحة الطبيعية » التي فقدناها ، والتي لا يمكن استبدالها بشيء . »

أما ما اعطته الآلة ، والصناعة الحديثة الانسان فلا اسهل عند هؤلاء المتشائمين ، من الشك في قيمتها ، ولكن مما لاشك فيه عندهم ان الآلة جعلت عمل الانسان آيماً ، مظالم ، وقليل من النصيب العقلي عند العمال بدلاً من ان يمدده ويزيده ، واذا خرجنا عن دائرة العمل وجدنا ان حظوظ الحياة نفسها اصبحت اقل ملاءمة ، من ذي قبل ، للناس .

ونستشهد ايضاً بكلمة للدكتور « كاريل » : « لقد وصلوا الى بناء البيوت النواطح التي تضم في مساحة ضيقة كتلا ضخمة من الناس . هؤلاء يسكنونها بغبطة ونعيم لانهم مأخوذون بما فيها من وسائل الترف ، وهم لا يشعرون انهم اكتسبوا المترفات ، واضاعوا ما هو ضروري لهم في الحياة ... انها المدينة الحديثة تتألف من هذه المساكن الممسوخة ، والشوارع المظلمة ، الطافحة بالهواء المسمم بالدخان والتراب . المعزقة بصخب السيارات والكميونات ، المزدهمة بالكتل البشرية ، المتلاصقة مناكبها بالمناكب ، وان من الحق القول : « انها لم تبين لخير الناس ونفعهم . »

أما نظرة المتشائمين الى الناس من الناحية العقلية ، فمن الممكن القول :

ان الانسان لم يزد ذكاؤه خلال دوران العصور . وما قيل عن الجسم يقال عن العقل ، فالجسم الانساني هو نفسه اليوم كما كان امس — على الرغم من اسطورة تزعم ان احدهم كان يشوي لطوله السمكة في عين الشمس — . فهو واحد بنسب هيكله ، وحاجاته ، ووظيفته ، وقوته . وكذلك الذكاء الانساني لا يزال نفسه . فالصغير ، في القرن العشرين يبذل ذات الجهود التي كان يبذلها الصغير في العصر الروماني ليتعلم القراءة والكتابة والحساب . والوسائل هي نفسها . وايس هنالك فرق بين عبقرية « ارخميدس » اليوناني ، وعبقرية « نيوتن » . ولاشك في ان الاخير كان — في البدء — اغنى معارف من الاول ، ولكن كلاهما — منذ نقطة الانطلاق — استقصى ، وافترض ، واستنتج ، واثبت ، وأخيراً قاد افكاره ، كما يفعل كل بحاث في الوجود — متبعاً قواعد ، ودرسات ، ومتوقفاً مخاضير ، هي من صفات العقل الانساني عامة حين يعلق بالحقيقة . وربما كان هذا الفارق ابرز في حياة الفنانين ، اذ ليس فيها تقدم انساني ، فسؤالك : « هل ميشيل انج الايطالي يفوق النحات اليوناني القديم » قد ياس ، ؟ سؤال ليس له معنى . لأن عشرين قرناً تدحرجت بين هذين الرجلين لم تكن شيئاً مذكوراً ، فكلاهما — ازاء القطعة الرخامية التي نحما منها — كان كأنه خارج عن حدود المسكان . والجمال الذي ولد بازميل كليهما هو جمال الزمان كله ، بل يشيب الزمان حوله ولا يشيب .

واذا لم يكن ، هنالك ، الذكاء والعبقرية بمواضيع قابلة للتغير . خيل اليانا ان المعارف الانسانية بالرغم من ذلك قد زادت ، ونمت خلال العصور ، وان العلم ، بين جيل وجيل ، يتقدم ، ويدنو من غايته شيئاً فشيئاً . فعلم الفلك يزداد براعة في سبر اجواء السماء ، والفيزياء تسلط ابحاثها على كل مادة ، حتى بلغت حركات الذرات . وعلم التشريح كأنه بلغ الكمال بامساكه « نظام تركيب الاجسام » هذا التقدم كله لاشك فيه . . ولكن علماء الاخلاق والاديان لا يزالون يحكمون على التقدم العلمي من نافذتهم العالية : اذ يلاحظون ان ما بقنا نعرفه ،

ونسلك معارفنا عليه لا يتخطى اشياء عالم المادة ، أو كيان اللحم والعظم ، أو العالم من ناحية كيانه المادي ، من حيث ان معرفتنا له لاتعني شيئاً في تقويمنا الخلفي . أو كما يقال : « الاسرار التي قبضنا عليها بواسطة العلم لانفع لها ولاغناء الامن الناحية المادية المبتذلة . اذ بإمكانها ان تضاعف قوتنا المادية ، وتؤمن حاجتنا المادية ، وتصون صحتنا الجسدية . ولكننا لن نستفيد منها شيئاً في كياننا الخلفي الذي هو اجدر بالاهتمام عند من نسميه الانسان . وليس ، هنالك ، أي تقدم في العلم فتح لنا آفاق الروح ، والمصير الانساني ، وما وراء الوجود ، أو اشرف بنا على وجود الآله وكنهه . فالانسان الحديث ، ازاء هذه الضفة المجهولة ، لا يزال قلقاً ، حائراً كالانسان القديم . وكنثله ينبغي لنا ، لسكي نسوق شكوكنا في مثل هذه المواضيع الغامضة ان نجهد بالعلم ، ونزهد فيه ، ونركز الى الايمان .

أما نظرة المتشائمين الى الناحية الخلفية الاجتماعية ، فهي نظرة من لا يجد عناء في ان يرى ما وجدته في الناحية العقلية . فمن العسير ان تؤمن بأن العصور السابقة التي انطوت استطاعت ان تجعل من السهل واليسير على غريزة الانسان صنع الخير ، واجتناب الشر ، فالانسان الحديث له جسد اجداده ، وغرائزه ، ورغباته ، وأهوائه مع تحرك الحيوانية الطبيعية فيه . والجهود المبذولة لتنظيم حياته حين يكون طفلاً ، وصيانتته من الأذى والرذائل حين يضحى بالغاً ، ولقاومته الموت حين يمسي كهلاً : هذه الجهود تتجدد دائماً ، وهي قاسية على كل انسان ، سواء أعاش في عصر الكهوف ، أو في عصر ناطحات السحاب . فلا أي تقدم آلي ، ولا علمي استطاع ان يبدل شيئاً في الواجب الخلفي ؛ أو أن يخفف شيئاً من ظل العزلة والانكماش والمسكنة التي يكون عليها الانسان المواجه لهذا الواجب . انه يجب عليه ان يخرج منه وحده بقوة ارادته ؛ اذ لاشيء يقدر على مساعدته . أو النيابة عنه حين يعمل واجبه . وكل الاوائل والمخترعات والعلوم تصبح بلاطائل ؛ والارادة تغدو مستسلمة أمام ثورة جسد ، لا يزال ، برغم الشفوف التي تكسوه ،



حيوانياً؛ كانه عار يوم كان عارياً ، ووحشا يوم كان وحشاً ضارياً . ومقاله  
« سقراط » منذ عشرين قرناً عن طبيعة الانسان لا يزال حقا ، ويبـدو انه  
سببى حقا .

ومها كان من شيء فان المتشائم يستخرج منها بان علامات التقدم الانساني  
في مجال الاخلاق ان هي الا مظاهر . انهم يزعمون ان الشعوب المتحضرة ، منذ  
القرن الثامن عشر استطاعت ان تقلب نظام الحكم المطلق المستبد ، ووضعت مكانه  
نظاماً ديمقراطياً ، يأخذ بعين الاعتبار احترام شخصية الانسان ، وكرامة  
الانسان ، ولكن التاريخ الذي نحياه ، ألا يثبت لنا ان هذا النظام لا يزال يحارب  
ويرد عن الغاية بين الناس ، بمقامع من حديد الطغيان ، ودوافع من الكبرياء  
الشخصية ، لم يسبق لها ان ضعفت ، أو خفت ، أو تهذبت على الاقل . لاننا  
شاهدنا ، بأعيننا ، هياكل من الديمقراطيات تندرج على الارض ، ورأينا  
في العصر الذي تثبت فيه حقوق الانسان ، كيف ينشأ الحكم الديكتاتوري مع  
كل ما يحيط به من نوازع البغض والقسوة . ومن قبل رأينا بعض الشعوب ،  
كاليونان ولرومان ، قد جربت ان تعلم وتبشر بالحياة الديمقراطية وسعت لها  
سعي مؤمن بها ، حريص عليها ، وهم انفسهم رأوا بأعينهم ، ازاء جبن البعض ،  
وطمع البعض الآخر ، انهيار ديمقراطياتهم تحت مطارق الطغيان والانانية . . .  
فأذاً ، هو التاريخ ، لا يفتأ يبدأ من حيث ينتهي ، دون ان يسجل أي تقدم في هذا  
المجال . « بل كل ما مضى ، بدلاً من ان يحقق تقدماً مستمراً للمذاهب السياسية ،  
نجد على العكس ، ماهو الاتناوب مستمر بين العبودية والحرية ، والطغيان  
والديموقراطية ، بحسب ما يستيقظ ، في روح الشعب . من نزعة خيرة أو سيئة ،  
وينبغي ان نشق بأن هذا التناوب سوف يستمر ؛ لان الانسان ، خلقياً ، هو هو ،  
دائماً موزع بحسب طبيعته بين نزعتين : نزعة احترامه لغيره من الناس ، ونزعة  
رغبته في استعباد الناس .

واخيراً ، فيما يتعلق باخلاق الانسانية الحديثة بصورة عامة ، لا يصعب على أي متشائم أن يحكم عليها بدون شفقة ولا تسامح . ومما لا ريب فيه ان الناس ، في بعض الاوساط المهدبة ، المتساهلة قد يكونون على حال خير من اناس العصور السابقة . ومما يعترف به ان الافراد اليوم هم اكثر اشفاقاً ورفقاً على مصائب الآخرين حين يصابون ، وكل دولة مشغولة بتوزيع الخير العام في شعبها . ولكن هذه النظرة الخيرة نفسها ، لا يرى فيها المتشائم — روشفوكولد — الا مظهرأ تنكر فيه انانية انسانية عنيدة . ولكن ، بدون ان نذهب بعيداً ، ألا يمكننا ان نقرر بأننا لو فرضنا ان هذه « الغيرة » صادقة ، أليست دائماً مهتدة بأن تغلب عليها رواسب عنيدة من الغرائز الانانية الموروثة ؟ ومثلاً ، ألا يصرح علماء الاجتماع انفسهم ، ازاء حضارتنا القريبة من العطب ، بأن هنالك معركة ضروسا تخوضها الطبقات الاجتماعية على اختلافها ، بنفس الشدة والحدة ، وبشيء اكثر من الخبث والمراوغة كما كان في العصور الماضية من اجل الحياة ؟

ومن جهة اخرى ، من ذا ينكر ، حتى في الامم التي تنصرف حكومتها لتهيئة خير المواطنين ، بأن كل امة خليفة ، في علاقتها مع الامم الاخرى ، بان تذهب ضحية حرب وحشية لم تزدها الحضارة الا قساوة وضراوة ، حين تفننت في ابتكار وسائل التقتيل والتنكيل بالجملة ؟ واذا كان الحال هكذا في بقاء الطبيعة الانسانية على طبيعتها ، فلن يكون اذاً ، هنالك « تقدم خلقي اجتماعي » !



ازاء هذه الصفحة القاتمة التي تجعل جهاد الانسانية — خلال العصور — عبثاً ، والايان باعمالها سدىً ، نجد مذهباً آخر ، يقابل هذا المذهب التشاؤمي نهض واشتد منذ القرن الثامن عشر . هو مذهب الفلاسفة والعلماء والساسة الذين يرون ان تقدم الانسانية هو قانون طبيعي لا شك فيه . وليس من العبث ان نلاحظ

ان هذا الايمان بالتقدم الانساني هو اميل الى الاشياء المادية منه الى الاشياء الخلقية ، فلم التشريح — مثلاً — كان حتى القرن الثامن عشر خاضعاً لسلطان مذاهب لا تتغير ، تزعم ان انواع الحيوان ثابتة لا تتغير ولا تتطور . رغبة منها في الانسجام مع ماجاء في تعاليم التوراة « بان الله خلق ، في اليوم الخامس ، الحيوانات كلها على الارض ، والطيور في السماء كما هي اليوم ، وكما ستبقى ، ولكن منذ القرن الثامن عشر وجدنا مذاهب « لامارك » و « داروين » وسواها من علماء التشريح يعلنون مذهبهم العالمي بأن الانواع قد تحولت وتطورت ، خلال العصور ، تبعاً لتطور يخضع الاعضاء للبيئة ، ويعمل على تسكاملها بدون انتهاء . وكذلك في القرن التاسع عشر نجد ان تقدم الآلة والصناعة اصلح حياة الانسان بنصيب غير محدود . ورجال التنظيم والثورات كلهم حملوا الى اتباعهم هذا الرجاء ، وجعلوهم يثقون به . واخيراً جاءت مكتشفات العلم الحديثة في هذا العصر تعطي الناس ثقة لاحد لها بقدرتها المادية ، وهكذا نشأ فيض من الايمان في نوع من نظام التقدم الذي يتفاعل في الكائنات ، ولا سيما في المجتمعات البشرية .

والآن ، ماهو وجه الايمان عند المتفائلين في الناحية المادية ؟

ان المدافعين عن « تقدم الانسانية » يبدؤون ، ولاشك ، من الاكتمال الصناعي الحديث . ولكن ، برغم الاكتمال ، لم يستطع الانسان قهر الموت والامراض كما رأينا . ولكن اذا عدنا الى الحياة الاولى ، وقارنا بين حياة الانسان الاول ، وحياة الانسان الحديث لانستطيع ان نجد بان الشروط المادية للحياة الانسانية قد تقدمت . فبينما كان الانسان الابتدائي يحيا في خوف دائم من نفسه ومن غيره نجد الانسان الحديث ، في غير اوقات الحروب يحيا في امن متين ، فوق عالم انمحى منه الوعي الوحشي ، في بيوت آمنة ، ووسائل وقته تغيرات الطبيعة في صيفها وشتائها .

كان الانسان الابتدائي يكتسب كفاف يومه ، بدون ان يدخر شيئاً ، أو يملك بيتاً ، تهدده المجاعة دائماً ، بينما الانسانية الحديثة ، بفضل مدخراتها ، ونظام التبادل فيها تستطيع ان تعيش فارغة البال ، تكيف بحسب هواها نظام العمل . ولم يكن للانسان الاول في كفاحه الاجسده الضعيف ، ويداها . أما الانسان الحديث فيستخدم الآلات ، ويستغل قوى طبيعية تضاعف قوته الخاصة . ولكن ، مع هذه الحجج التي باتت مبتذلة يجب ان نبحث عن البراهين التي نتقي بها الحملة على التقدم المادي الذي يدفع الانسانية نحو « المادية » ! وهنا يحسن الاستشهاد بما قذفه المفكر الاجتماعي الكبير « اوغست كومت » . فهو يحيل من « الملكية » وتأسيس رأس المال الانساني بصورة عامة نصراً مبيناً كان له اثره الخلقى في مصير الانسان . ساعد على اطلاق الانسان من قيود حياته الابتدائية الحيوانية التي كانت تضطره الى الكفاح كل يوم من اجل الحياة ، وساعد على منحه الامن الكافي لتحقيق عواطفه الاجتماعية القائمة على التضحية ، والايثار . وتبعاً لهذه الفكرة ، يمكن القول بان التقدم المادي كان شرطاً في التكامل العقلي والخلقى ، فلو ان الناس لم يجابهوا الطبيعة ، ولم يتسلطوا عليها بفضل علومهم وفنونهم لما استناعتوا أن يستمتعوا بالامن ، والفراغ الكافي في ابتكار الفنون ، واكتساب المعارف ، والتأمل في حათهم الاجتماعية والخلقية ، فكل اعمال الفكر التي انتجت الفن والعلم والدين والفلسفة ماهي في الحقيقة الانتاج « فراغ » واسع ، لا يقدر ان يناله الانسان الا بعد ان يؤمن اسباب معيشته ، وقوت بدنه . فاذاً ، ترى التقدم المادي هو الذي حرر العقل وضمائر الناس الذين لولاه لذهبوا دائماً ضحية حاجتهم المادية التي لا يستغنون عنها . وآكن من الملحوظ ان كل المنافع المادية ترمي الى تقليل النصيب العقلي في حياة الانسان ، إذ ، الى اي شيء يؤدي مثلاً اختراع الكثير من الآلات ؛ واستخدام القوة الطبيعية ، وابتكار الصناعات السائرة الى السكال بدون انقطاع اذا لم تكن الغاية انماء القوة العضلية أو المادية في عمل الانسان ؟ فمثلاً ، عندما انتهى الفلاح من حراثة الارض بنفسه ، وصار يحرقها

بواسطة فدائه ، أو التراكتور الحديث انتهى ان يكون جسداً ينفذ ، ويضعف . بل صار عقلاً يدرك ويأمر ، فاعتماد الانسان على الآلة ليس معناه اعفاء الانسان من كل عمل — كما يزعم البعض — ولكن معناه ان ينب عنه ، في الاعمال الضخمة مهندساً ، أو عاملاً متخصصاً ، شمله ان يأمر ، وينظم الآلة في دوراتها . والتقدم المادي كله ، إذا أسىء استخدامه سيتهي حتماً الى التسلط على العقل .

وأما نظرة المتفائلين الى الناحية العقلية ... فلا احد يستطيع ان ينكر ما اغنتت به معرفتنا عن الوجود . فقد نمت هذه المعرفة ، وهو ما يثبت التفوق الخارق للقوة البشرية ، وعدد من المخترعات العلمية التي اصبحت الانسانية تلقى تبعاً في اتباعها . وهي لا تزال تجهد ، ولا تتوانى عن استكشاف آفاق جديدة . ولكن مانا ولهذا كله .. فما هي الحجج التي بها ندافع عن التقدم العقلي المتهم بالنفعية ؟

ان « اوغست كومت » يضع مرة ثانية النقاط على الحروف ، اذ يلاحظ ان التقدم العقلي لم ينم مجموعة المعارف الانسانية ، ولكنه بدل ادراك الناس للعالم وفي الحق ، في عصور الديانة الوثنية ، كان الناس ، لكي يفسروا الحوادث الطبيعية ، يخلقون اسباباً غير طبيعية ، ويتخيلون بأن ، في كل كائن ، وان كان مما لا حياة له ، يمر به ما يمر بالانسان . وكل حركة انما تجري بارادة باطنة ، أو بأمر جني ، أو إله خفي . وعلم الاجتماع الحديث أيد هذا المعتقد بدراسة للقبائل الوحشية في افريقيا ، حيث لا يزال هذا الادراك حياً قائماً . وقد نرى ، مثلاً ، ان بعض هؤلاء المتخلفين يقطعون ، أو يحرقون شجرة عثر بها أحدهم ، فأصيب بغصن من اغصانها ، كأنهم يريدون ان يعاقبوا الشجرة . لانها اساءت الى هذا الانسان . واذا مات احدهم ميتة طبيعية فنشوا عن مسؤول ليجازوه ، وهم قاصرون عن ان يدركوا ان كثيراً من الحوادث انما تكون خاضعة لضرورات طبيعية

لأشأن للإرادة فيها... وهكذا عاش الاوائل في عالم تخيلوه مملوءاً بالآلهة ، طافحاً  
بمظاهر الخير والشر . وحياتهم المادية والخلقية كانت قائمة على هذه المدركات .  
وليس باستطاعتهم ان يقفوا موقف الرجل المعاصر الذي يعمل واثقاً ، حين يقتحم  
الطبيعة ، بان الطبيعة كون جامد لا حياة ولا حركة فيه . لا تريد شيئاً من الخير أو  
الشر ، وانما هي تملك قوة طبيعية يستطيع العاقل التسلط عليها والانتفاع بها .

كانوا قديماً يحميون دائماً في الخوف ، أو في الامل المتواتر في اوهاهم عما  
تحفيه لهم هذه الارادات الخفية من خير أو شر في الاشجار ، والحيوانات ،  
والجبال ، والكواكب ، وفي كل كائنات الوجود . وبدلاً من ان يلمسوا الطبيعة  
جسداً بجسد ، وبدلاً من ان يكافحوها بالآلة ، كانوا يجربون ان يتملقوها ،  
ويتقربوا منها بصلوات كهانهم ، وشعوذات رؤسائهم ، فاعتمدوا على الصلاة اكثر  
مما اعتمدوا على العمل . أو ان يعملوا ثم يقطعون عملهم بتنبؤات مفزعة . والانسانية  
كانت لا تزال في طفولة عقلية ، وفي حياة مغمورة بالكسل الصادر عن اعتقاد  
باطل لو لم يدركها التقدم العقلي الذي بدل ادراكها لقيم الوجود ، وقادها الى ان  
تفهم ان الكائنات الطبيعية ليست الا قوة بدون روح ، وانها لا تتحرك الا بقوانين  
طبيعية غير معقدة .

هذا التقدم العقلي ؛ ومنه التقدم العلمي بصورة خاصة ممكن الانسان  
من القبض على ناصية الطبيعة ، واخضاعها بدون شفقة لصناعته ومنفعته . على ان  
النتائج الاجتماعية ايضاً كانت هامة جداً ، ونستطيع القول بأنه لولا هذه المعارف  
العلمية التي كشفت عن وجه العالم الحقيقي ، وانقذت الانسان من الخزعبلات  
والاوهاام لما استطاع مطلقاً ان يرتفع الى مدى الاديان الحديثة التي اضحت تعد  
« الحاداً » و « وثنية » كل عبادة لكائن من كائنات الطبيعة ، وهي تجعل من الآله  
كائناتاً روحياً ، صافياً .

وأما التقدم الخلقى عند المتفائلين فهو يعتمد أكثره على حجج تاريخية رئيسية ، أو على علم الاجتماع نفسه ، أي على دراسة تطورات تحدث ، في اطواء العصور ، في الاخلاق ، والعادات ، والمدارس ، والاديان الانسانية .

ولنا الآن ان نعرض بعض مشاهد لا تترك شكاً في التقدم الخلقى ؛ منها ابطال الرق ، الذي حاربه ادبياً الديانات السماوية كالمسيحية والاسلام ، ثم قضت عليه الثورة السياسية التي بدأت في اوروبا منذ القرن الثامن عشر . واليوم قضى على الرق في الاوساط الاجتماعية وان كان ، هنالك رقيق من نوع آخر .

وهاكم مظهراً آخر ... فعلى الرغم من محاولات يبذلها رجال لجبهة سلطان الدولة بسطان آخر ، نجد هذا الطغيان الطفيلي الذي كان قاعدة المجتمعات القديمة ، حيث ترى الناس يفرض عليهم ان يخضعوا لعامل ديني او شبيهه ... ترى هذا الطغيان قد تلاشى واضمحل ، واصبح كل فرد شاعراً بحريته وكرامته . معتداً بشخصيته ؛ حتى في الدول التي يصول فيها الجور والضغط والارهاب .

ومظهراً آخر أيضاً ، نراه في المرأة التي كانت كأمة عند الرجل ، تمتعت اليوم بحقوقها كمواطنة تشارك المواطن الآخر . وفي كثير من الامم لم يعد هنالك أي تمييز ، في أي حق بينها وبين الرجل .

وهنالك عمل اسمي وأجل ، لاحظته « اوغست كومت » هو ذبوع الشعور العام والايثار الذي كان وقفاً على غرائز طبيعة محدودة في الاسرة — كالأومومة ، ثم اتسع ، حتى شمل محبة الاوطان ، والآن ، يزداد شمولاً وسعة في بعض العقول ، حتى استحالت محبة للانسانية عامة .

ومما لاشك فيه ان الناس قد احدثوا ثورة كبرى على المفهوم الخلقى الذي

بدأ في العصور الابتدائية ، حيث الرجل الوحشي كان يعتبر ، من أعدائه ، كل من ليس من أسرته وقبيلته . بينما اليوم نجد الملايين من البشر في الوطن الواحد يعدون انفسهم اعضاء اسرة انسانية واحدة ، حتى لايشك احدهم في انه يجب عليه — اذا دق ناقوس الخطر — ان يضحي بنفسه من اجل غيره .. واذاً ، فهذه الثورة الخلقية لما تنته ! وبالرغم من هذه الحروب الحديثة ، والمعسكرات المنقسمة نجد ان ايماناً جديداً قد ظهر ، وهو يقتحم كل مكان ، يسكنه الانسان ؛ هو أن الذي خلق الوطن الواحد الاخوي من حياة الاسرة والمقاطعة يجب عليه ان يخلق اليوم اسرة انسانية اخوية واحدة .

ويكفي التقدم الخلقى شرفاً ان يرتفع الى مثل هذه القمة العالية من الفكر والشعور منذ انطلق من الانانية الضيقة السائدة في تلك العصور .



هذا هو وجه المذهب الذي يثبت حقيقة التقدم الانساني ، ووجه المذهب الذي ينفي التقدم الانساني . فهل لنا ان نأخذ بهذا ، أو نأخذ بذلك ؟ ولعلكم تتساءلون : لماذا هؤلاء اخذوا بهذا المذهب ، وأولئك اخذوا بذلك المذهب ؟ الجواب : ان كل مذهب بين المذاهب يبدأ من الحالة التي يقوم عليها نوع التفكير فالذين يشكون في التقدم الانساني هم — غالباً — اصحاب التفكير الجزئي في الحوادث الشخصية ، والافعال الذاتية . والذين يؤمنون بالتقدم الانساني هم ، غالباً ، الذين يطلقون تفكيرهم في جملة الاشياء والحوادث التاريخية من ناحية عامة ، ويستجلون « الفعالية الانسانية » كما وردت في كروار الازمان .

وحقاً ، ان التفكير في الحوادث الفردية والرجال المعاصرين كما نراهم في الحياة أمامنا معناه كمن يجمع الحب والزوان . لأن الحياة العادية ، باستثناء لمعات



من البطولة فيها ، والتضحية ، والنبيل الصحيح ، لا تكشف الاعن مشاهد رتيبة ،  
وحوادث مردودة سوداء ، باهتة اللون ، ضئيلة الغرض ، ليس فيها الا الاكاذيب  
والحيل ، والجن ، والكسل ، وكل ما يحمله الطبيعة من شر وسوء عندما لا تكون  
مدفوعة بسياط الحوادث ، أو العواطف المستثناة نحو المجد والعظمة . وهذا ما نراه  
في تاريخ كل امة حين تركد وتنام ... وهذا ما لا نراه في تاريخ الامة حين  
يشتمل فيها روح الاقدام بدافع ديني ، أو دينوي ، أو مثالي ، أو وطني .

و حين نشاهد الناس ، في كفاحهم البومي المرير ، المتواتر يأخذنا  
الاشفاق على هؤلاء الناس الذين يركبهم هم الحياة ، ويسوقهم ركبا الى غايات  
منحطة . و حين يلمع فجأة حادث عظيم في حياة الامة كثورة ، أو حرب ، يسوء  
حكم الناس عليه مادام قريباً منهم . اذ يرونا منه ما ينشأ عنه من مواقف دموية  
قاسية ، تقع تحت عين المراقب المشاهد . وهو لا يطلق حكمه عليه ، بنظرة مجردة  
بعيدة ، يمسك بها المعنى التاريخي لهذا الحادث . بل قد يكون هذا الحادث الكبير  
وسيلة الى الشك في التقدم الانساني عند من يقف نظرتة على الحاضر الذي هو فيه .  
بينما الحوادث ، في الامم ، لا تولد فجأة ؛ لأن لها جذورها في الماضي ، كما ان  
لها فروعها في المستقبل . كالشجرة كلما كانت جبارة هبطت جذورها في الاعماق  
وسمت فروعها في السماء .

وعلى عكس ذلك . اذا أحسنا التأمل في الاعمال التي تتابعها الانسانية  
خلل العصور ، نجد الاجزاء كلها تدوب في المجموع . فدناءات الافراد ؛ والافراد  
انفسهم يتلاشون كما تتلاشى القطرات في النهر الكبير الذي يمثل اندفاع المجتمع  
الانساني في سيره نحو الامام ؛ فلايين ، حيثئذ ، لعين الملاحظ الا حوادث  
كبرى ، نقيه من التفاصيل الجزئية ، حوادث جارية بمعناها الحقيقي ، مرتبطة  
بالحوادث التي سبقتها ، والتي تبعها . فأية ثورة ، كالثورة الفرنسية مثلا لم يصورها

ملاحظتها القريب منها ، الحى معها ، الا بصور مخيفة ، مؤلة ، لما ارتكبتها هذه الثورة ، تحت عينيه ، من مشاهد دموية ، يشيع فيها القتل والنهب ، والحقد والبغض والانتقام ، ولكن العالم الاجتماعي الذي يدرس هذه الثورة ، بعيداً عن مشاهدتها يدرك ماحقته للمواطنين ، حين حررتهم من قبضة الظلم والاضطهاد ، واقتتحت مشهداً حياً للحرية التي ايدها وبشرت بها .

على أنا نلاحظ التقدم الانساني ، كأنما تسوقه سياط افراد سامين ، نطلق عليهم عادة اسم « العظماء » كما أنا نشاهد ان الافراد العاديين انفسهم يدفعون بالمجتمع الى الامام ، لأن اعمالهم النبيلة ، وآثارهم الصناعية التي يقومون بها ، وافكارهم المظلمة ، المرددة تبني على طول الزمن تقدماً بطيئاً واقعياً في عالم الصناعة والفكر ، والدين ، تتجلى حقيقة ، وعظمة لمن يدرسه من فوق الازمان . باعتبار ان الذين ينشئون المجتمع هم الذين لانراهم ، على الرغم من انحطاطهم . هم هؤلاء الافزاق الصغيرة التي تعمل في هذا المصنع الكبير ...

وهكذا نجد أن التقدم الانساني لا يحسه الامن يحسن ادراك التاريخ الانساني ادراكاً شاملاً ، ومن يشاهد الانسانية كلها كأنها كائن واحد ، حياته واحدة ، غير مرئية .



من خلال هذا العرض الموجز لمرآة تقدم الانسانية ، نجد المتفائلين والمتشائمين مجتمعين اكثر من مرة على الاعتراف بالتقدم الانساني ، ولكن علة الانسانية اليوم ليست في شكها في التقدم العلمي والعقلي ، وشواهدة بارزة بكل مكان . وهنا تقوي حجة المتفائلين ، ولكن علتها الحقيقية هي الشك في انها : هل تقدمت خلقياً كما تقدمت علمياً ، وهل استطاعت ان تغلب على انانيها ونوازعها

نحو الشر؟ وهنا ترجح كفة المتشائمين .

فالنزاع لا يزال حاداً بين الافراد كما كان على طلب الحياة ، وانتقل الى الامم حين صارت الامم مشبعة بروح القومية والعنصرية ، كأنما كل امة كأن واحد يريد ان يتسلط بقوته ، وان يستبد بمن هو اضعف منه وقد اتسع هذه العنصرية ، فتوحد بين امم القارة الواحدة ، فنقول : الشرق والغرب ، والبيض والسود والصفير . ثم تنقل هذه العنصرية — حين يدق ناقوس الخطر — لتذوب فيما نسميه « بالانسانية » . لأن العلماء والادباء والسياسيين اصبحوا لا يجدون كلمة تعري بالسلام ، وتدعو الى الامن الدائم كهذه الكلمة ، باعتبار ان كل انسان مدعو الى الذود عن الانسانية . وهذه « الانسانية » المسكينة نفسها تأتي الان يختلف مفهومها عند هذه المعسكرات الضخمة ، حين يدعي كل معسكر انه وحده مهتم بالانسانية ، وان الانسانية عنده وحده دون سواه . ومن اجل هذه الانسانية يجند ما يملكه من قوة معلومة ومجهولة ، والكل يعلم ان الانسانية وحدها هي ضحية هذا الادعاء ، وهم بذلك كشاعرنا « ديك الجن » الذي خنق جاريته المحبوبة ، لأنه لم يجد تعبيراً أصدق عن حبه ، من خنقها . وأخشى ان يخنقوا هذه الانسانية بهذه الدعوى نفسها .

أما العلماء فهم عاكفون على مخابرة وتجاربهم ، لا يهتمهم الا ان يهتكوا عن الطبيعة اسرارها ، ويصالحوا الى السيطرة عليها . والعالم — غالباً — لا قلب له . والسياسيون ، — وما اقل ايماني بهم ! — يدعون انهم حريصون على الانسانية ، مهتمون بها ، ولا يجدون الا القوة ، وحشد القنابل الذرية على القنابل الهيدروجينية ، كأنهم يفهمون ان استنقاذ الانسانية لا يكون الا بتدمير الانسانية . وهيات ان يعطي السلم هؤلاء الساسة الذين جربت الفلسفة القديمة ان تربهم تربية اجتماعية فما افلحت . والاديان والفلاسة يندرون ، ويملاؤن الدنيا صخباً ، لانهم يخافون العاقبة التي ستؤدي بالانسانية ، وآثار الانسانية حتى يكون العالم فيها ركماً على ركام .

والمفكرون في المشرق والمغرب ، يهتمون بمصير الانسانية ، ويجمعون على اختلاف عناصرهم وافكارهم ليجدوا الحل الملائم ، وما هم مجتمعين . منهم من يرى الحل في الحلول الاقتصادية المادية ، ومنهم من يرى الحل في تغذيتها بالتعاليم الروحية ، ومنها الدينية التي بشرت بالتسامح والمحبة ، ولكن الى اي مدى ينجح هذا الحل حينما تكون الحياة الواقعية سيئة ؟ والمتوسطون منهم يجدون العلة علة الشرق والغرب : الشرق الذي لا يعترف الا بالانسانية الروحية ، والغرب الذي لا يقر الا بالانسانية العلمية المادية ، فيعملون على التقريب بينها ..

الكل اذاً ، في مشارق الارض ومغاربها ، مؤمن بهذا التراث الانساني ، والحياة الانسانية ، والكل متفق ، سواء المتفائلون والمتشائمون ، على انقاذ هذا التراث والحياة الانسانية .. حتى العلماء ؛ رأينا منهم من يشعر بوخز الضمير ، فيترك جهده ، أو يدعي ألا غاية له من العلم الامنعة الانسانية يشاركون في ذلك المفكرون .. ولكنهم لا يملكون الا الكلمة .. الكلمة الضعيفة ، ولكن هذه الكلمة حين يتبلور معناها في الشعوب تصبح اقوى من كل قوة ، ولكن هل يمكن الثقة في هذه الكلمة « السلبية » عندما تدعى الشعوب الى المجزرة المبيدة ؟ ولا تزال تغلب عليها « تلك الكلمة » التي تلو كها المؤتمرات السياسية التي تنظر الى العالم نظرة سياسية ضيقة ، لا ترى فيه الا مناطق نفوذ واستثمار . وقد غاب عنها ان « عليهم » الذي جعل من الارض ذرة حقيرة لم يعد يتسع لامثال هذه النظرات الضيقة ، وغاب عنهم ان مؤتمرات نزع السلاح أو تخفيف التسليح لم تعد هذه النظرة السلبية فيها بكافية لحل العقدة اذا لم تسبقها نظرة ايجابية مخلصـة في احترام الانسانية ، وصيانة الكرامة الانسانية في كل مكان . وتغليب التضحية على الانانية ، اذ ماهو السلام اذا لم نتقدم بالتضحية ؟ والذئب نفسه ، حين يحمل النعجة بانيابه يطلب ايضاً السلام !

وإزاء هذه المجتمعات السياسية تعقد مجتمعات أخرى ليس رجالها من السياسيين ، وإنما هم من رجال الفكر ، وهم اصدق الناس في الحرص على نجاة الانسانية . ولا انكر ان بعض المفكرين قد يقسون في تفكيرهم ، ولكنهم يظنون اعدل ؛ فهذا « نيتشه » مثلا الذي يقول بشريعة القوة كأن لا يخجل ان يؤمن بأن فضيلة الاعداء يجب ان تحيا اذا كانت اصلح من فضيلتك ؛ وذلك « تولاستوي » الانساني الذي قدر الانسانية ، وسعى لها سعيها وهو مؤمن . واحب ان يبنينا على المحبة الواسعة .

في طليمة هذه المجتمعات مجتمع للمفكرين من شرقيين وغربيين عقد في «دهلي» بالهند. واختير له هذا البلد مقراً لأنه يحمل مغزى اجتماعياً ، ورمزاً الى الهند التي تعد احد مواطن التقدم الانساني الروحي . فكان النزعة الروحية هي التي فرضته ؛ ولاخير في أن الخص بعض ماجاء فيه :

عقد هذا المؤتمر لغاية واحدة ، هي معالجة الانسانية ومشاكلها في الشرق والغرب ويشاء وزير التربية في الهند ان يفتح المؤتمر بكلمة تلخص مراحـل الانسانية في العصور السابقة ، وما قدمه لها انسان الشرق وانسان الغرب ... فكان عنده ان الانسان لم يقدر ان يكون فكرة واضحة عن وجوده ، بينما يعلم من اسرار الطبيعة اكثر مما يعلمه من اسرار وجوده ؛ ويبرر قيام هذا المجتمع « بأن المذاهب العامة الفكرية واحدة ، أو تكاد تكون متشابهة ، والعواطف الانسانية تكاد تكون واحدة ، ومادام الامر كذلك فن الطبيعي اذا ان يرى الانسان نفسه ، ويبصر عالمه في نظرة واحدة مها اختلفت الاقطار وتباعدت الاجيال ، لأن اصل نظرتة الى اسرار الوجود المجهولة لم يتغير ولم يتبدل ؛ ويضرب لنا الامثال على وحدة آراء الفلاسفة الشرقيين والغربيين في كثير من المواضيع . الا أن الاقدمين كانوا اميل الى دراسة الانسان ، من حيث هو انسان ، حتى

جاء العصر الحاضر بفلسفة خضعت للعوامل العلمية التي جعل انتصارها يطمع  
 الانسان في قدرته على اخضاع الطبيعة . فراح يعمل الغرب الذي يحمل هذه  
 الفلسفة بهدي هذه المذاهب العلمية ، معتبرا ان الانسان هو شيء بين هذه الاشياء  
 حتى غدت فلسفة علمية الاتجاه ، مادية الصبغة . وازاء ما وصل اليه الغرب في  
 تعريف الإنسان نجد الشرق يخالف هذا الاتجاه كله ، فهو ، منذ البدء ، جعل  
 الروح الغاية والنهاية .. هذا الاتجاه هو الذي ولد فلسفة الاستسلام في الهند ،  
 والصوفية عند العرب . الانسان ، في الفلسفة الغربية ، آله مادية .. وفي الفلسفة  
 الشرقية مظهر لله .. وشعاعة من هذه الشمس التي هي الله .. فهل ترى مقاما  
 للانسان اسمى من هذا المقام الذي اقامته الفلسفة الشرقية له ؟ وهل ترى مثلاً  
 أعلى ينتهي اليه الانسان من هذا المثل الذي جعل الاله نقطة الدائرة في تفكير  
 الانسان ؟ ان الفلسفة الشرقية حين ربطت الانسان بالله رفعتة الى مرتبة الالهية  
 إذ لا غاية للانسان الا ان يحقق هذا الارتفاع ، حتى يغدو سيد الكائنات  
 والاكوان . وعلى خطأ هذه الفلسفة سارت الديانات الشرقية ؛ فالاسلام ، مثلاً ،  
 لا يكفيه ان الانسان مخلوق على صورة الله ، بل يقول له « اني جاعلك في الارض  
 خليفة » . فاذا اعدنا الى الانسان « معنى انسانيته الصحيحة » جعلنا من الارض  
 جنة وارفة الظلال ؛ واذا أقنعناه بأنه حيوان تهمة ذاته ، فلا شيء يمنعه ان  
 يستخدم العلم استجابة لغرائزه التي تشارك غرائز الحيوان . ومن هنا .. كانت  
 انتصارات الغرب العلمية موضع خطر وتهديد للانسانية لانها اهمت الروحانية  
 الشرقية التي تصل بين الانسان والاله .

وبرز ماجاء في هذا المؤتمر كلمة للدكتور الهندي « رادكريسنان » الذي  
 دافع عن حضارة الشرق ، وكلمة الاديب الفرنسي « اندريه روسو » الذي دافع  
 عن قضية الغرب .

ويرى المفكر الهندي المؤمن بالانسانية : « ان الشعوب ، بالرغم من الحروب المشبوبة ، يرتفع منها اتجاه انساني لبناء وحدة انسانية ، وسلم شامل يهيم فيه كل انسان في أى قطر من اقطار العالم آمناً ، وناعماً . وفي الساعة الحاضرة لايمثل الخطر بين مانسميه شرقاً وغرباً ، ولكنه يتمثل فيما يسمونه « الشيوعية » و « غير الشيوعية » . أما الشرق فهو يسمي الى اصلاح تطرف الطبيعة البشرية . بينما الغرب الذي لانجحده تقدمه في فهم الديمقراطية ، يستطيع ان يقتبس عن الشرق الساحة ، والروحية المجردة ، اذ ليس السلم هو انعدام الحرب وحده ، وانما السلم ان تفتح في الشعوب رغبة حية ، اخوية ، لتقبل افكار الغير على غير تعصب .

السنا نرى في عالم العاطفة والحب والبغض والانانية والتضحية قواعد لايميز فيها غرب عن شرق ، ولاشرق عن غرب ؟ ان هذا وحده لدليل على ان بالامكان ان يتعايش العالمان في وحدة سلمية ، وفي هذا العالم الذي يكاد يتشقق غيظاً وغضباً ، حيث نفثس عبثاً عن ابتسامة صافية ، ينبغي لنا ، اذا اردنا صادقين ان نحمل اليه الامل والسلام ، ان نمود الى الدين الروحي الذي لم يعد شرقياً ولا غربياً ، وانما هو انساني قبل كل شيء ...»

أما المفكر الفرنسي فهو يرى ان لم يكن هنالك مايفرق بين الشرق والغرب في اتجاهها ومصيرها . وما هو ذنب الغرب عنده ؟ انه تقدم بحضارة يحملها ويعادها لنتفعه وتقع الآخريين من بني الانسان . انه جاء يصب على بقية الحضارات المتخلفة حضارته العقلية والعالمية ، وهل يجحد احد ماقدمته الحضارة الغربية في حقول المواصلات ، والتقدم المادي والاقتصادي ، ورفع المستوى الصحي ؟ بل انه ليرى فيما قدمه من هذه الوسائل خدمة خالدة للانسانية . وبدلاً من ان يحمده الشرق للغرب ماقدمه اخذ الشرق ينقم على هذه الحضارة ، ويبحث عما ينقده منها .

أريدون ان تقهر الآلة ونبطلها ؟ ألا ان عصر المفزل قد انتهى ، وحضارة  
الصانع اصبحت غير مجدية . والآلة لاثم سوء الا بطريقة استعمالها الحالي . فمجيئ  
منا ان نتقبل خيراتها حين نأبى اطلاقها . وهذه سيارة الشحن تطوي الطرق ليل  
نهار ، حاملة الخير والنفع الى الناس حين يستخدمها صاحبها للخير الانساني .  
والانسان لم يجن على الآلة الا حين سخرها لغايات بريئة من الانسانية .. والله  
خلق الانسان على صورته ليكون خليفة له في ارضه ، والانسان خلق الآلة على  
صورته ليحقق بها عظام الامور ، ويخضع بها القوة التي لم تخضع الا لله . .  
اذ فالعلة هي علة هذا العقل الذي راح يعمل متجرداً من الروح .

ويشاء الرئيس الهندي نهر و أن يحتتم هذا المؤتمر بكلمة وضعت ، كإيقال ،  
النقاط على الحروف .

« انه ابدى قلقه الشديد وخوفه من هذه النهاية التي تنتظرها الانسانية  
اذا ظلت تتخبط في ظلام الكره والبغض والانتقام . والله كان اخوف من مدينة  
الآلة التي اعطت نتائج باهرة في عالم المادة ، سلخت عن الانسان روحانيته .. فهذه  
الروح التي ابتدعت الآلة لتخدمها اصبحت خادمة لها اسيرة . . . ويتساءل بلهفة  
هل فقدنا الجذور التي تمد الجنس والانسانية والفرد بالقوة ؟ فأصبحنا كالحضري  
الذي يعيش بعيداً عن الارض وعن الشمس عيشة مترفة ناعمة ، ولكن ينقصه  
شيء ، شيء من الحيوية ليكون انسانياً .. وهكذا نرى شعوباً عدة تحيما حياة  
صناعية بدون ارض ولاشمس !»

اني اتساءل : « أي وسط ، عادة ، يتحقق فيه التقدم البشري ؟ قد  
تقولون : « المدرسة ، والجامعة » . ولكن أي وسط في الماضي ابداع ازهي مراحل  
الانسانية ؟ فهل نملك اليوم ذلك الوسط الواجب لهذه المراحل ؟ ما عساكم تقولون



عن الثورة الصناعية التي امتاز بها العصر الحاضر ، وعم تمخضت هذه الثورة ؟  
ان تطورها يتوالى ، فالى أين تقودنا ؟ انه قادنا ، بالاس الى معارك ، واعمله  
يقودنا غداً الى معارك اشد هولاً ، واكثر فظاعة يكون وقودها الناس  
والانسانية ...

ثم يلتفت الرئيس ابيصيب ، بضربة معلم ، ما أخطأه الكثيرون ، فييدي  
قلقه الشديد على حياة شعبه ، وتأمين ضرورياته ... « يجب ان اسهر على غذائه ،  
وكسائه ، ومسكنه ، واهتم بتعليمه وصحته . تلك اشياء ضرورية ، اذا اهملناها  
فمن العبث ان نتحدث عن العقل والروح ، اذ كيف نستطيع ان نتحدث عن الاله  
لمن يموت جوعاً ؟ أعطه الرغيف أولاً ثم حدثه بما تريد ! »

ان هذ الرجل الانساني لم يعالج الانسانية بانها قضية شرق وقضية غرب ،  
ولا بانها علة روح ومادة ... وانما عالجها بانها قضية كرامة الانسان في كل مكان ،  
وقضية حق الحياة لسكل انسان ... فهناك روحانيون ، وهناك ماديون ، ولم ينفرد  
قطر من الاقطار يوماً باتجاه واحد . ولذلك لم يجد في الانسانية شرقاً ولا غرباً  
كما وجدوه ، ولا روحاً ولا مادة ، بل وجد انساناً واحداً يعين في الشرق والغرب ،  
بالروح نفسها والمادة نفسها ... هو الانسان ...

على ضوء هذا التعريف « بان الانسان مادة وروح » يجب ان تحل قضية  
الانسان . أما الاتجاه الى جانب واحد من القضية فمعناه ان تطلب الى الطائر ان  
يطير بجناح واحد ، فلا المادة وحدها بمنقذة الانسانية ، ولا الروح وحدها  
بمجدية لها ... اذ كيف تريدني ان اؤمن بأني من بلاد الروح ، والروح — هنا —  
مبتذلة . وكيف نجمع مع الايمان بها مدينة الغرب ومترقاته التي خلقها المادة اذا  
كنا روحيين حقاً ؟ بل كيف اؤمن بروحانية الشرق حين اخرج الآن الى

الشارع ، وقع عيني على السكادحين ، والمتألمين ، والمشردين ، ثم تردمني ان افخر باني من بلاد الروح التي تنقم على المادة ؟ بل كيف لا تريدني ان اخجل ، حين ارى هذا الشقي المهمل ، من ان اجعله خليفة الله في ارضه ؟

ان علة الانسانية لا يمكن حلها بارجاعها الى الروح وحدها ، لان اضطراب الحياة المادية يجعل من الصعب الاستسلام الى الحياة الروحية ، وان الذي احل للجوع أكل الميتة وهي حرام ، يحل للفاضل ان يكذب من اجل الحياة في المجتمع الفاسد .. كما انه لا يعني في حلها ارجاعها الى المادة ، لان النزعات المادية ، اذا لم تجد ما يلجها ، افسدت حياة الانسان .. وما لنا لنبعد الشقة بين عالم المادة والروح ، وهل جاءت الاديان الامبشرة بمجتمع يسوده العدل فهي روحية لغاية مادية ؟ وهل كانت التعاليم الروحية الا للقضاء على الشقاء والفقر والجهل ؟ وان مجتمعا تسود فيه هذه العلة لا تكون التعاليم الروحية فيه حية الا بالمظاهر ، ولذلك لن يداوى المتألم بصبره على الالم ، ولا الفقير ببقائه فقيراً .. اعطه حق الحياة أولاً ، ثم اسم به الى معارج الروح !

ان الانسانية اليوم — عند المتفائلين والمتشائمين على السواء ، تطلب العدالة الاجتماعية التي تعنى بحياة الناس ، وترفيها ، واشاعة الاطمئنان الاجتماعي والصحي والعلمي في حياة الاسرة والقوم والمجتمع .. ولسنا نطالب بهذه العدالة الاجتماعية تعجيراً ، اذ ليس معنى العدالة الاجتماعية ان تعطي الاعمى عيناً ليبرها . ولا الاعرج رجلاً ليمشي بها .. وانما هي عدالة واقعية لا تسمح لك بأن تعمي البصر ، أو تعرج الصحيح .. لسكل حقه في الحياة ، وفيما تمنح الحياة .

ليس باستطاعة الانسانية ان تجعل من الارض نسخة مصغرة عن السماء التي بشر بها الصالحون ، آمنة من جوع ، ومن مرض ومن خوف ؟  
بلى ، وليس من سبيل الى ذلك الا في اخلاصنا وارادتنا .

## مشكلاتنا التربوية

الدكتور جميل صليبا

= القيت بتاريخ ١٥ / ٤ / ١٩٥٥ =



## ١ - انتشار التعليم

ان الأساس الديموقراطي الذي يستند اليه نظام التربية في سورية يقتضي نشر التعليم في جميع طبقات الشعب ، لأن نشر التعليم هو الوسيلة الوحيدة لتهيئة الفرص المتكافئة لجميع المواطنين حتى يبرزوا ما عندهم من قوى كامنة يضيفونها الى حياة الجماعة . فليس بمعجب اذن ان تعلن الجمعية التأسيسية في دستور ١٩٥٠ ان التربية والتعلم حق لكل مواطن ، وان التعليم الابتدائي الزامي ومجاني وموحد البرامج في جميع مدارس الدولة ، وأن من اهداف الدستور الاساسية نشر التعليم وتسهيل اسبابه . واصدق شاهد على تحمس الجمعية التأسيسية لهذه المبادئ ما تضمنه الفصل العاشر من الدستور من الاشارة الى وجوب نشر التعليم الابتدائي ومحو الامية في البلاد خلال عشر سنوات على الاكثر ، والسبيل الى ذلك في نظرها ان يوضع انشر التعليم الابتدائي ومحو الامية برنامج مفصل على مراحل يقر مع اعتماداته بقانون ، وان تكون جميع الحكومات المتعاقبة على الحكم خلال السنوات المذكورة ملزمة بتنفيذ البرنامج الموضوع لبلوغ هذه الغاية .

لقد مضى الآن على نشر الدستور الجديد خمس سنوات دون ان يوضع هذا البرنامج المفصل . ولكن عدم وضعه لم يقف حائلا دون انتشار التعليم انتشاراً

سريعاً تبعاً لحاجة الشعب . والسبب في ذلك ان الشعب السوري يقبل على التعلم طوعاً من تلقاء نفسه ، ويعد حاجته الى العلم أشد من حاجته الى الخبز ، ويكفي ان يراجع المرء احصاءات ١٩٥٤ ويقارن بينها وبين احصاءات ١٩٤٥ ليطالع على صدق ما نقول . وبين يدي الآن احصاء عام بعدد المدارس وعدد الطلاب يشمل جميع مؤسسات التعليم على اختلاف انواعها ويبين لنا تطور هذا العدد بين سنة ١٩٤٥ وسنة ١٩٥٤ اذكر منه مايلي :

عدد التلاميذ		عدد المدارس	
١٩٥٤	١٩٤٥	١٩٥٤	١٩٤٥
<b>المدارس الابتدائية</b>			
١٤٥٣٧٢ + ٢٤٥٠٧٥	٩٩٧٠٣	١٤٤٢ + ٢١٧٩	٧٣٧ الرسمية
١١١٦٦ ÷ ٥٨٣٩٠	٤٧٢٢٤	١٩ + ٣٣١	٣١٢ الاهلية
٣٨١٢ + ٧٠١٩	٣٢٠٧	٧ - ٢٤	٣١ الاجنبية
٨٩٥٤ + ٨٩٥٤	—	٥٠ + ٥٠	وكالة الاجئين —
١٦٩٣٠٤	٣١٩٤٣٨	١٥٠٤	٢٥٨٤
<b>المدارس الثانوية</b>			
١٩٩٥٩ + ٢٨٢٣٥	٨٢٧٦	٣٥ + ٦٣	٢٨ الرسمية
١٨٦٥٩ + ٢١٩٨١	٣٣٢٢	٨٩ + ١٢٦	٣٧ الاهلية
١٩٧١ ÷ ٣٠٤٤	١٠٦٣	٩ + ١٧	٨ اجنبية
٧٩٠ + ٧٩٠	—	٦ + ٦	وكالة الاجئين ٠
٤١٣٧٩	٥٤٠٤٠	١٣٩ + ٢١٢	٧٣ المجموع
<b>المدارس المهنية</b>			
٦٦٠ + ١٥٤١	٨٨١	٥ + ١٠	٥ الرسمية
٦٤ ÷ ٨٤	٢٠	١ + ٢	١ الاهلية
١٥ - ٠	١٥	١ - ٠	١ اجنبية
٧٠٩ + ١٦٢٥	٩١٦	٥ + ١٢	٧ المجموع

عدد التلاميذ			عدد المدارس		
الفرق			الفرق		
١٩٥٤	١٩٤٥		١٩٥٤	١٩٤٥	
دور المعلمين					
٧٢٤ +	١١١٢	٣٣٨	٠	٤	٤
١٤ +	١١٤	٠	٢ +	٢	٠
٨٣٨ +	١٢٢٦	٣٨٨	٢ +	٦	٤
الجامعة السورية					
١٨٧٥ +	٢٩٦٠	١٠٨٥	٤ +	٦	٢
٢١٤١٣٢ +	٣٧٩٢٨٩	١٦٥١٥٧	١٥٦٤ +	٢٨٢٠	١١٦٦
المجموع العام					

ان هذه الاحصاءات تدل على ان معدل من يقرأون ويكتبون في سورية يزداد عاماً بعد عام ، وان الدولة تبذل جهوداً عظيمة لتيسير سبل التعلم لجميع المواطنين . ولا نقصد بهذا اننا بلغنا في نشر التعليم درجة ليس فوقها زيادة لمستزيد ، فهذه الغاية لاتزال بعيدة عنا الآن ، وما وصلنا في عام ١٩٥٤ الا الى تعليم ٦٧ ٪ من الاطفال الذين يحق لهم أن يواظبوا على المدارس الابتدائية (١) .

( ١ ) بلغ مجموع سكان الجمهورية السورية سنة ١٩٥٤ ( ٣,٨٠٦,٩٧٣ ) ، فاذا فرضنا ان نسبة التلاميذ الذين يحق لهم ان يواظبوا على المدارس الابتدائية خلال خمسة سنوات بين السابعة والخادية عشرة من سنهم ١٢,٥ من مجموع السكان بلغ مجموع تلاميذ المدارس الابتدائية ( ٤٧٥٨٧١ ) ولم يكن عددهم في عام ١٩٥٤ الا ( ٣١٩٤٣٨ ) اي ٧٦ ٪ من المجموع .

ان مدارس المدن لا تستوعب جميع الاطفال . وكثير من القرى ليس فيها مدارس . والسبب في ذلك ان التعليم الانزامي يتطلب اموالاً كثيرة ليس انفاقها على وجهها بأسهل من الحصول عليها . لأن نشر التعليم لا يحتاج الى المال وحده ، وانما يحتاج ايضاً الى انشاء المباني واعداد المعلمين ، وتهيئة الاجهزة الفنية . ولا ينجى الدولة ان يزعم لها الزاعمون انها قامت بواجبها ونشرت التعليم بقدر ما ساعدتها موازنتها العامة . فالجهود العظيم الذي يجب على الدولة ان تبذله نحو الامية يدعوها الى تعبئة قواها تعبئة عامة تستمر عشرات السنين . وهذا كله لا يتحقق الا اذا تغلبنا على جميع المشكلات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، ولنتكلم الآن عن كل مشكلة من هذه المشكلات على حدها .

## ٢ - المشكلة الاقتصادية والمالية

ان اولى المشكلات التي يجب التغلب عليها لنشر التعليم هي المشكلة الاقتصادية والمالية ، لأنه لافائدة من وضع البرامج المفصلة على مراحل لنشر التعليم الا اذا عرفنا بصورة عملية كيف نجمع لها المال الضروري . لقد بذات الجمهورية السورية في سبيل التعليم مجهوداً مالياً جديراً بالاعجاب . وصدق شاهد على ذلك ان موازنة وزارة المعارف بلغت في عام ١٩٥٤ ( ٣٧٠٠٩٧٥٠٠٠ ) بعد ان كانت في سنة ١٩٤٥ ( ٩٠٥٣٥٦٨ ) ليرة وان نسبة موازنة وزارة المعارف الى الموازنة العامة بلغت سنة ١٩٥٤ ( ١٧٨٣ % ) بعد ان كانت في سنة ١٩٤٥ ( ٩٦٠ في المائة ) . ويكفي ان يراجع المرء ارقام موازنة المعارف خلال هذه السنوات العشر الاخيرة ويقرن بينها وبين الموازنة العامة ليطلع على ان موازنة التعليم تزداد في كل عام زيادة كبيرة واليكم جدولاً يبين هذه



المقارنة بالارقام :

٩٦٠	٩١٥٣٥٦٨	١٠٣٦٧٨٠٠٠	١٩٤٥
١٠٨٩	١٤٢٧٣٨٨	١٢٩٧٠٤٠٠٠	١٩٤٦
١٣٤٨	١٦٩٦٦٤٥٠	١٢٥٨٢٠٥٣٠	١٩٤٧
١٦٠٠	٢٠٤٥٩٤٠٠	١٢٧٩٠٩٠٠٠	١٩٤٨
١٧٠٤	٢٢٢٧٨٢٠٠	١٣٠٧١٠٠٠٠	١٩٤٩
١٧٩٨	٣٨٧٨٣٠٠٠	٢١٥٧٢٠٠٠٠	١٩٥٠
			١٩٥١
١٨٧٨	٤٩٧٦٩٠٠٠	٢٦٥٠٠٠٠٠٠	١٩٥١
			١٩٥٢
١٧٨٥	٣٦٦٠٤٠٠٠	٢٠٥٠٠٠٠٠٠	١٩٥٣
١٧٨٣	٣٧٠٩٧٠٠٠	٢٠٨٠٠٠٠٠٠	١٣٥٤

فاذا قايستنا بين المبالغ التي تنفق على التعليم والمبالغ اللازمة لتنفيذ التعليم الالزامي تبين لنا ان تنفيذه لا يمكن ان يتم في وقت قريب . اننا نقدر الآن نفقات التعليم لكل طالب في المدرسة الابتدائية بمائة ليرة سورية سنوياً ، ونقدر عدد التلاميذ الذين هم في سن التعليم الابتدائي بـ ( ٤٧٥٠٠٠٠ ) تلميذ ، وهذا يجعل موازنة التعليم الابتدائي وحده ( ٤٧٥٠٠٠٠ ) مليون ليرة سورية . فاذا لاحظنا ان سكان سورية يزدادون في كل عام ( ٦٠ ) الف نسمة وان هذه الزيادة مستتازم زيادة نفقات التعليم الابتدائي اضطراراً وان تطبيق الازامية سيؤدي ايضاً الى زيادة نفقات الادارة المركزية وزيادة اعانات المدارس الخاصة وزيادة نفقات التعليم الثانوي والمهني والعالي ونفقات اعداد المعلمين والبعثات العلمية التي يمكن تقديرها كلها بأربعين مليوناً تقريباً ، بلغت موازنة التعليم ٨٧٥٠٠٠٠٠ مليون ليرة سورية أو أكثر فلا يمكن والحالة هذه تطبيق الازامية الا اذا جعلت موازنة المعارف

ضعف ما هي عليه الآن (١) .

ان هذه الارقام تثبط هم المايين الذين يرون ان الشروط المالية الجاضرة لاتساعد على تطبيق التعليم الالزامي في البلاد ، فيقترحون على وزارة المعارف ان تقف عند الحد الذي بلغته في مجال الكمية ، وان تصرف همها الى العناية بتحسين نوع التعليم ، وان تتبع سياسة التحديد في التعليم الثانوي والعالي .

لاشك ان لهذا الرأي قيمة واقمية كبيرة ، ولكن هل يجوز ان يحول فقدان المال دون تنفيذ الاصلاحات الاساسية في ميدان التربية ؟ . اننا نقول للذين يؤمنون بضرورة التعليم الالزامي ويعلقون تنفيذه على ايجاد المال : إن الامم التي تسير في طريق التقدم لاتعلق الاصلاح على استيفاء الشروط المادية ، ولكنها تندفع الى الامام تحذوها رغبة التقدم ولا يستعصي عليها بعد ذلك ايجاد المال .

لقد كان للحرب الاخيرة اثر بليغ في تعجيل نهضتنا الاقتصادية ، فعلمتنا الحرب صناعات جديدة كنا فيها عالة على الغرب ، اضطررنا اليها لما وضعت الحواجز بين الممالك ، وساعدنا الاستقلال السياسي والمالي على حفظ ثروتنا القومية ، فوسعنا زراعة القطن وحسنا زراعة الحبوب باستعمال الجرارات والمضخات والحصادات ، واكثرنا من المبادلات التجارية بيننا وبين البلاد الاجنبية مما ادى الى ازدهار الحياة الاقتصادية وازدياد الدخل القومي ، وازدياد الموازنة العامة . ولكن ازدياد الموازنة العامة لم يكن متناسباً مع تحسن الحالة الاقتصادية في البلاد ، ذلك لأن

---

( ١ ) بلغت موازنة المعارف في عام ١٩٥٥ ( ٤٩٠٥٤٨٠٠٠٠ ) ليرة سورية وفي عام

١٩٥٦ بلغت موازنة ( ٥٢٠٦٧٨٠٠٠٠ ) ليرة سورية

قيمة الضرائب لم تتبدل بتبدل الاسعار ، كما ان ضريبة الدخل مطروحة على التجار والمحتكرين والمضاربين المالميين لا تستوفى منهم على اساس عادل واضح كما تستوفى من الموظفين ، ومعظم مايجب من الاموال يرجع الى الضرائب غير المباشرة وليس هناك قواعد اقتصادية محكمة في التكاليف والحماية ، كأن الضرائب القديمة السيئة افضل في نظر المالميين من الضرائب الجديدة العادلة ، ولابد لنا تشريعنا المالي ، وغيرنا الاساليب المالية التقليدية لأمكنا ايجاد واردات جديدة للدولة .

وبديهي ان الارض لاتزال حتى الآن المنبع الاساسي للثروة في سورية ، فلو استثمرت الارض القابلة للزراعة استثماراً فنياً ، ووسعت مشاريع الري لازداد الانتاج الزراعي وتحسن معه مستوى الحياة في الارياف ، ولادي ذلك كله الى زيادة قدرة المكلف السوري على الاسهام في النفقات العامة . ولكن الارض المزروعة لاتبلغ في الوقت الحاضر إلا ( ٣,١٩,١٨٠ ) هكتاراً في حين ان المجموع العام لمساحة الارض يبلغ ( ١٨,٢٧٦,٤٧٠ ) هكتاراً ، والباقي من الارض قسماً احدهما غير مستثمر ومساحته ( ٣,٠٨٧,١٨٣ ) هكتاراً والباقي غير قابل للزراعة ومساحته ( ١١,٥٢٠,١٠٧ ) هكتارات ، وهذا كله يدل على ان السوريين لا يستثمرون في الوقت الحاضر الا خمس مساحة الارض تقريباً في حين انه يمكن بالوسائل الفنية ايصال هذه النسبة الى النصف .

يضاف الى ذلك ان الارض في بعض المناطق لاتزال حتى الآن بيد كبار الاقطاعيين يملكونها ولا يحسنون استثمارها . والفلاح الذي يعمل فيها لا يأخذ الا جزءاً من محصولها ، والباقي من محصول الارض يتوزعه المالكون واصحاب الجرارات والمضخات ، ولا يبقى للدولة من هذا الاستثمار الناقص الا حصة صغيرة ، دع ان صغار المالكين لا يستطيعون الآن أن يستعملوا الآلات الزراعية

لقلة وسائلهم المادية ولفقدان التعاونيات الزراعية . واما لك الدولة القابلة  
للزراعة لم يتم توزيعها حتى الآن على صغار الفلاحين ، وعناية الدولة بالتعليم  
الزراعي اقل من عنايتها بالتعليم العام ، وهذا كله لا يجعل نهضتنا الزراعية ، ولا  
يحسن انتاج الارض .

لاجرم ان في جوف الارض السورية ثروة معدنية لم تستثمر بمد  
كلاسفلت والرصاص والكبريت وغيرها ، ولا مشاحة في ان نمو الحياة الصناعية  
يساعد ايضاً على ازدياد واردات الدولة ، ولكن هذه الواردات لاتقاس بما  
يمكن ان يجيء من الزراعة لو عم استعمال الآلات والاسمدة الصناعية وانتشرت  
الصناعات الغذائية ، واصلحت خطوط المواصلات ، وتحسن مستوى العامل  
الزراعي .

ومها يكن من امر فان لزيادة اعتمادات التعليم وسيلة اخرى ، وهي تكليف  
مجالس المحافظات انشاء دور الحضنة والمدارس الاولية والابتدائية والمهنية ،  
وتعليم الاميين ، ومكافحة الجهل ، والاسهام في نشر التعليم . والعناية بالامور  
الصحية والزراعية والاقتصادية . ويمكن ان تتألف موارد مجالس المحافظات  
للتقيام بهذه المهام من حصة مئوية يعينها القانون تؤخذ من اصل الضرائب العامة  
ومن الرسوم المحلية التي يفرضها مجلس المحافظة في حدود القانون . لقد حدد  
الدستور السوري مهمة مجالس المحافظات وبين كيف تتألف مواردها الخاصة .  
ولكن قانون المحافظات لم يصدر حتى الآن ، ولو صدر لامكن تخفيف الاعباء  
المالية عن الموازنة المركزية ، ولادي ذلك الى تعجيل نشر التعليم .

لقد دلت التجربة على ان نشر التعليم العام يؤدي الى زيادة الانتاج وان  
الاموال التي تنفق على تعليم ابناء الشعب تعليماً موافقاً تهيبه اسباب الازدهار

الاقتصادي فكل مجهود مالي تبذله الدولة في التعليم يعود عليها في المستقبل بأحسن الثمرات ، وكل صناعة أو زراعة أو تجارة لا يصحبها تعليم عام تتوقف عن النمو وتعرض نفسها لاشد الازمات .

### ٣ - المسئلة الاجتماعية

يحيط بالتعليم في بلادنا مشكلتان اجتماعيتان : الاولى ترجع الى العوامل التي تحول دون تقدم التربية ، والثانية تنشأ عن التعليم نفسه . ولنبحث في كل من هاتين المشكلتين على حدة .

المشكلة الاولى : نشأت عن العوامل الاجتماعية التي تحول دون قيام المدرسة بمهمتها ، وهي كثيرة نذكر منها على سبيل المثال : الامية ، والجهل ، والحالة الصحية ، ووضع المرأة ، والضغط الاجتماعي ، واشتغال المجتمع السوري على عشار بدوية .

أما اثر الامية والجهل في التربية فيرجع الى ان الاميين الفقراء لا يقدرّون قيمة العلم ، ولا يرسلون اولادهم الى المدارس ، بل يفضلون تشغيلهم ببعض الاعمال الزراعية ليحسنوا بأجورهم رزقهم . وهب انهم ارسلوا اولادهم الى المدارس ، فان تربيتهم البيئية لاتساعد المعلم على تأدية رسالته . وكثيراً ما يتعلم الطفل في المدرسة اموراً ويتعلم في البيت ما يتقضاها . وكيف يبلغ البنيان التربوي تمامه اذا كانت الاسرة تهدم ما يبنيه المعلم . ان الطفل السوري لا يدخل المدرسة الابتدائية الا بعد السادسة من سنه ، والتربية التي يتلقاها في البيت في مرحلة الطفولة الاولى لاتسهل عمل المعلم ، بل المعلم مضطر في بداية الامر الى القيام بعمل سليلي ينزع به معلق في ذهن الطفل من عوامل مضادة لعمله الايجابي — ومع ذلك فان حالة

الاسرة السورية قد تقدمت في يومنا هذا تقدماً محسوساً لانتشار الوعي الاجتماعي وتحسن الحالة الاقتصادية . ويكفي ان يزور المرء في مطلع السنة الدراسية بعض القرى البعيدة عن العمران ، أو بعض الـاـحياء الفقيرة من المدن الناصة بالسكان ، ليطلع على مبلغ ما يبذله الـاهـلون من السعي لادخال أولادهم في المدارس بالرغم من الفقر المحقق بهم . ومن واجب الدولة اذا ارادت ان تسهل عمل المعلم ان لا تقتصر على تعليم الصغار ، وانما ينبغي لها ايضاً ان تكافح الـامـية بين الراشدين وان تعمل على اكبال ثقافة المتعلمين .

وأما سوء الحالة الصحية فانه كثيراً ما يحول دون تقدم التعليم لانتشار الـاوـبئة ، وفقدان الوقاية ، ونقص التغذية ، فينشأ الطفل نحيلاً تؤثر فيه ابسط التبدلات الطبيعية ، وينقطع عن المدرسة لانتفـهـ الـاسباب — ومع ذلك فان الحالة الصحية في المدن والقرى تتحسن عاماً بعد عام ، يدل على ذلك نقص وفيات الاطفال وازدياد وسائل الوقاية . ووزارة الصحة والاسعاف العام تبذل اقصى وسعها لمعالجة المرضى مجاناً ، كما ان وزارة المعارف اخذت اليوم تعتي بصحة التلاميذ وتكـرر في تقديم وجبة طعام مجانية للاطفال في بعض المناطق الفقيرة .

وأما وضع المرأة الاجتماعي فقد كان الى عهد قريب حائلاً دون تعليمها ، لاعتقاد معظم السكان ان المرأة غير مساوية للرجل ، وان حاجتها الى التمرن على اعمال البيت اشد من حاجتها الى علوم الرجال وفنونهم . وهذا الاعتقاد لا يزال مصحوباً بتقليد اجتماعي يمنع المرأة من ممارسة الاعمال الحرة ، ويفضل لها الزواج المبكر على متابعة دروسها الثانوية والعالية — ولكن موقف الـاهـلين من تعليم المرأة قد تغير اليوم عما كان عليه في الماضي تغيراً تاماً ، والدليل على ذلك ان عدد الاناث في المدارس الابتدائية والثانوية قد اصبح اليوم مساوياً لنصف عدد الذكور

تقريباً ، وان عددهن في الجامعة السورية قد زاد اليوم على ربع عدد الطلاب تقريباً . وفي دوائر الدولة موظفات لا تختلف شروطهن عن شروط الموظفين ، كما ان رواتب المعلمات لا تختلف عن رواتب زملائهن . والدولة تمنح المعلمة الحامل اجازة امومة مدتها اربعة اشهر براتب كامل . ولا تقصد بهذا اننا بلغنا في تعليم المرأة ما نتمناه فان هذه الغاية لا تزال محتاجة الى جهود كبيرة ، ولكن تطور تعليم المرأة ينبىء بأن المرأة السورية سائرة في طريق التقدم ، ومن الممكن تعجيل هذا التطور بالاكتثار من المدارس الابتدائية المختلطة أو بتأسيس مدارس ابتدائية للذكور يعهد بالتدريس فيها الى النساء . فقد دلت التجربة التي قامت بها وزارة المعارف في بعض المناطق على ان المعلمات اقدر من المعلمين على تفهم الاطفال ومعرفة غرائزهم وميولهم .

وأما الضغط الاجتماعي فانه كبيراً ما يمنع المدرسة من القيام بعملها التربوي لكثرة تدخل الاهلين في قضايا التعليم ، ولاضطرار المعلمين انفسهم الى مخالفة مبادئهم التربوية في سبيل ارضاء الناس . فالمدرسة خاضعة للضغط الاجتماعي وحرية المعلم مقيدة بالعوامل الخارجية . وكثيراً ما يحاول بعض المعلمين ان يتحرروا من هذا الضغط ، وان يعدوا تلاميذهم لمجتمع افضل من المجتمع الحاضر ، ولكن محاولاتهم هذه تصادف في طريقها مقاومة شديدة قد تجرفهم وتذهب بمحاولاتهم .

وأما مشكلة تعليم العشار البدوية فانها لا تزال مستعصية على الحل ، لأن في سورية الآن ثلاث مائة وعشرين الفا من البدو نصفهم الاول من الرحل والثاني من نصف الحضر بين يعيشون في شروط اقتصادية واجتماعية وادارية خاصة تمنعهم من تعليم اولادهم في مدارس ثابتة . وهم يشرقون في الشتاء ويغربون في الصيف ولهم عصبية قبلية لا تزال تفرق بينهم ، وعرف عشائري ينظم امورهم . فلما اخذت سورية تعالج مشكلة البدو احدثت سنة ١٩٣٥ مدارس صيفية في المناطق المتاخمة

للصحراء تفتح ابوابها في شهر ايار وتغلق في شهر تشرين ، واوفدت بعض المعلمين الى البدو الرحل ليعلموا اولادهم ولكن هذه التجربة لم تقترن بالنجاح لأن معلم القبيلة كان مضطراً الى الانتقال معها من مكان الى آخر ، وكثيراً ما كان ينقلب الى (سكرتير) لشيخ القبيلة يعلم اولاده تارة وينتقل معه الى المدن تارة اخرى ليكتب له . فلما جاء عهد الاستقلال ازداد اهتمام الحكومة بقضايا البدو ، وادي هذا الاهتمام الى وضع نص دستوري يتضمن وجوب تحضير البدو على مراحل ، ووجوب اصدار قانون خاص بهم يرعى تقاليدهم . ولكن هذا القانون لم يصدر بعد (١) ، بل صدر بدلا عنه سنة ١٩٥٢ مرسوم تشريعي يتضمن توزيع املاك الدولة وايجارها ، وهو يشمل البدو نصف الحضريين كما صدر بعده سنة ١٩٥٣ مرسوم تشريعي يتضمن نظام العشار ، وهو يخرج البدو نصف الحضريين من نطاق التعريف العشاري ويدخلهم في عداد الحضريين ولا تزال مشكلة تحضير البدو مشكلة اجتماعية دقيقة لم يوضع لها برنامج خاص . ومع ان الحلقة الرابعة للدراسات الاجتماعية المنعقدة في بغداد سنة ١٩٥٤ اوصت بدراسة احوال العشار البدوية والمتوطنة لرسم سياسة تكفل تطورها نحو الحياه المدنية على ايدي قادة محليين ، فان سورية لم تتمكن حتى الآن من وضع هذا البرنامج الخاص ، بل اقتصرت على احداث مدارس ابتدائية داخلية لهم في بعض المناطق القريبة من البادية .

المشكلة الاجتماعية الثانية : نشأت عن طبيعة التعليم نفسه ، فهو تعليم لفظي نظري لا يثقف الطالب ثقافة حقيقية ولا يهيئ للمجتمع رجالا يعرفون كيف

---

(١) لقد كتب هذا المقال قبل موافقة المجلس النيابي على مشروع قانون العشار الجديد . ولكن هذا القانون لم يغير شيئاً من الاحكام العامة التي اثبتناها هنا .



يؤدون وظائفهم . واكثر ما عني بنا به حتى الآن تأسيس المدارس وارصاد الاموال لها ، وتعليم اكبر عدد من التلاميذ ، مع ان قضية التعليم ليست من قضايا السلم فحسب ، وانما هي قضية ابداعية تتناول المناهج واعداد المعلمين وطرق التدريس . لا يصلح مجتمعنا الحديث تعليم صوري لاصلة له بالحياة وانما يصلحه تعليم حقيقي ملائم لحاجات القرن العشرين ، ومادام انقائمون على شؤون التعليم لا يفرقون بين التربية والمواظبة على المدرسة فان انتشار التعليم في جميع طبقات الشعب لن يحسن المجتمع الذي نعيش فيه . ونحن مازلنا حتى الآن نطبق في مدارسنا طرقاً تقليدية لاتعد لنا المواطن القادر على حل مشكلات بلاده . وعيوب هذه الطرق اهتمها الشديد بالألفاظ ، واهملها الاسس الاجتماعية للتربية ، واعراضها عن دراسة السلوك الانساني دراسة حيوية ونفسية ، وانكارها الاساس الجمالي للتربية . فاذا لم نحسن هذه الطرق فان الجيل الذي ندهه للحياة لن يخلق مجتمعاً افضل من المجتمع الحاضر ، وسواء اجعلنا غرضنا من التربية كسب الرزق أو كسب المعرفة ، أم جعلنا غرضنا منها تنمية قوى الانسان في وزن واحد من الاتساق ، فان الوسيلة المؤدية الى تحقيق هذه الاغراض هي تحسين كيفية التعليم لا الاقتصار على زيادة كميته . وأي فائدة ترجى من نشر التعليم في جميع طبقات الشعب اذا كان كان هذا التعليم لا يهيء للمجتمع رجالاً يحسنون القيام بوظائفهم ؟ لا بل أي نفع يؤمل من اقرار الازامية والمجانبة اذا كان التعليم لا يصنع المواطنين الابصبغنة خارجية لاتتغلغل في نفوسهم : ان عنايتنا بالكمية دون الكيفية لاتخلق لنا جهازاً صالحاً لقيادة الاعمال في ميدان السياسة والادارة والاقتصاد والصناعة والتجارة ، وهذا كله يجعل تعليمنا الحاضر عاملاً من عوامل التأخر ، لاعامل من عوامل البقاء والتقدم .

وما يؤيد ذلك اننا اقتبسنا نظمنا التربوية الخاضرة من الانظمة الغربية دون ان نلائم بينها وبين حاجتنا وغازتنا . ويسير دفعة التعليم في بلادنا اليوم

عاملان متضادان : احدهما متجه الى الماضي لاستمداد احسن مافيه من القيم الروحية ، والثاني متجه الى الغرب لاقتباس احسن مافيه من النظم ، ولكن التوفيق بين هذين الاتجاهين لا يبلغ غايته الا اذا استند الى دراسة مشكلة الذكاء العام دراسة علمية وافية ضمن الاطار الاجتماعي الحاضر ، ومن المؤسف ان نغير مناهجنا مرتين أو ثلاث مرات خلال هذه السنوات العشر الأخيرة دون ان نستند في تغييرها الى مثل هذه الدراسات السيكولوجية والاجتماعية . ان فقدان هذه الدراسات يجعل مناهجنا شبيهة بالتصوير الصينية فيها الكثير من الالوان الرائعة والاشكال الجميلة ، ولكنها غير مرتبطة بالارض .

والواقع ان للتربية الوضعية المألوفة ميلا الى الاحتفاظ بالوضع الاجتماعي القديمة كما هي ، دون ان تدفع بها في طريق التقدم ، ولكن التربية المثالية لا تقتصر على نقل التراث الاجتماعي فحسب ، بل تهدف ايضاً الى مساعدة الجيل الجديد على ادراك مفاصل المجتمع الحاضر وايجاد الوسائل لتحسينه ، ان شباننا الذين نشئهم على منوال الماضي لا يستطيعون ان يسايروا التطور الحديث ، وشباننا الذين نشئهم على مبادئ التربية الغربية لا يستطيعون ان يوالفوا الحياة في مجتمع راكد . وهكذا يتولد من التباين بينهم وبين مجتمعاتهم نوع من الاضطراب يمنعهم من التقدم ، ويثبط همهم ، ويضعف قدرتهم على الانتاج ، وسواء اكانت تربيتنا تقليدية لازاعي شرائط التطور الحديث ، أم كانت تقدمية لاتراعي تقاليد الماضي ، فان نتيجهما في كلا الحالين واحدة وهي انها تحفر بين المتعلم وبينته الحاضرة هوة سحيقة . ان الذين نشأوا على الطريقة التقليدية يجدون انفسهم غرباء في معتك الحياة الحديثة ، والذين نشأوا على الطريقة الغربية لاتينية كانت أو انكلوسكسونية يشعرون بالاستعلاء على اسرتهم أو قريتهم أو على شرائط الحياة التي تنظرهم .

وعندي ان الفشل الكبير في تربيتنا يرجع الى اهمال مبدأ اساسي هام هو

الملاءمة بين المناهج التي وضعناها والمجتمع المتجدد الذي نعيش فيه ، فان فقدان هذه الملائمة يولد مشكلة اجتماعية مخيفة ، تمنعنا من التقدم ، وتبعدنا عن الاستقرار .

لقد كان المظهر الاول لانتقال التربية الاوروبية الى بلادنا اعداد الموظفين الذين تحتاج اليهم الدولة . ومع انه قد مضى الآن على انتقال هذه التربية الينا اكثر من مائة عام فان اعداد الموظفين لا يزال غائتنا الاولى ، بل التعليم الذي يتلقاه طلابنا في المدارس الثانوية والعالية يحولهم الى موظفين يعملون ساعات محددة في النهار تحت اشراف رؤسائهم ، ويتناولون اجراً محدوداً يزيد في فترات معينة بقدر معلوم . ويمضون حياتهم على نظام ميكانيكي لا اثر فيه للمجهود الشخصي ولا يفتح باباً للمجازفة والمغامرة وتحمل التبعات وبديهي ان هذا التعليم لا يفيد الا في تخرج العدد اللازم من الشبان لملء وظائف الحكومة ، ولكنه من جهة اخرى يفسد الغرائز الطبيعية في الشبان الذين يزيدون على هذه الحاجة ، ويقعون تحت طائلة عن العمل بالرغم من الشهادات التي يحملونها ، وكم طالب احرز شهادة التجارة أو شهادة الهندسة أو شهادته الحقوق ضاقت به الحياة فقصد ابواب الحكومة لتميئته في احدى المدارس أو في احد الدواوين ، فاذا لم ينجح في الحصول على وظيفة بقي متعطلاً خاملاً حتى يهيأ له رزق هين من عمل يعتقد هو انه شريف ، وهكذا يصبح معظم حاملي الشهادات موظفين في الدولة ، ويصبح الاتسكال فيهم طبيعة ثانية ، الا فئة قليلة منهم تتعاطى بعض الاعمال الحرة أو تتولى بعض الوظائف في الشركات الوطنية أو الاجنبية . لقد ادركنا عهداً كان فيه اصحاب الشهادات يربحون من الوظائف اكثر مما يربحون من الاعمال الحرة ، فكان من الطبيعي في ذلك العهد ان يقبل المتعلمون على الوظائف الراجعة ، ولكن لما ازدهرت الحياة الاقتصادية في هذه الايام الاخيرة لم يخف غرام اصحاب الشهادات بالتوظيف على قلة ما يربحونه من وظائفهم ، ولو كان للتربية الاستقلالية السلطان

الاكبر على نفوس المعلمين والمتعلمين لما رأينا حاملي الشهادات يتهاكون على الوظائف، ولكن طريقة التدريب الصوري التي نسير عليها في مدارسنا وقلة اعتمادنا على فعالية الطالب ونشاطه، واهمالنا ترويضه على حل المشكلات بنفسه، كل ذلك جعل اكثر المتخرجين من مدارسنا منفعلين، يحبون التواكل والتكاسل، ويكرهون الحرية والاستقلال ويفضلون الامن مع الفقر في الوظائف الثابتة على المخاطرة بانفسهم في الاعمال الحرة الراجحة.

والغالب على التربية في مدارسنا التسلط على ارادة التلميذ وتسخير ميوله وغرائزه لارادة المعلم، فكما يجبل الخزاف الطين كما يشاء اعتسافاً كذلك يصوغ المعلم نفوس تلاميذه في قوالب اصطناعية غير موافقة لميولهم وغرائزهم. وينشأ عن هذا أن طبيعة التلميذ كثيراً ما تستعصي على صياغة المعلم، فيفلت الامر من يديه، ويشكو عصيان الجيل الجديد، ومقاومته وشدوذه. وما يشكوه المعلم في مدرسته يشكوه الحاكم في دأثرته والوالد في اسرته. ونحن جميعاً نطلب من المدرسة ان تعيد الينا سلطتنا المفقودة، واني لها ذلك، لأن طريقة التسلط لا تتفق والنظام الديموقراطي الذي نريد ان نعيش فيه، وليس من المعقول ان ننادي باحترام شخصية التلميذ وتقوية شعوره بالحرية، ولا نغير مع ذلك شيئاً من طريقة السلطة التي الفناها في التعليم. ان هذه التربية السليطة التي تصب التلاميذ في قوالب واحدة تميل بالشخصية الانسانية الى التفاهة. أما التربية التي توفق بين التلميذ وميول التلاميذ وفروقهم الفردية، فانها تفجر في نفوسهم ينابيع المعرفة والابداع. وليس المقصود من ذلك ان يتحرر التعليم من كل سلطة، وانما المقصود منه ان تكون السلطة التي يمارسها المعلمون سلطة روحية يخضع لها التلاميذ لانهم يفهمونها، ويريدونها لانهم يحبونها. والسبيل الى خلق هذه السلطة ان يصبح المعلم زعيماً روحياً، وان تتوفر في التلاميذ على العمل الاداري شروط

الزعامة التربوية المبذورة ، فان اهتمام الوزارة بالعمل ( البولييسي ) وتحكم السجلات الروتينية في شخصية المعلمين واتباع طريقة السلطة في تربية النشء كل ذلك لا ينتج الا الفوضى ولا يولد الا القلق والاضطراب .

### ٤ - المشكلة الادارية والسياسية

نشأت هذه المشكلة عن عدم استقرار السياسة التعليمية في البلاد . فان تغير الحكومات وكثرة تبدل الموظفين المشرفين على شؤون التعليم واختلاف توجيهات الوزارة باختلاف العوامل السياسية كل ذلك ادى الى اضطراب ادارة التعليم وتشويش نظمه ومناهجه . وايس ادل على ذلك من سرعة تبدل الانظمة والمناهج وكثرة تقلب الموظفين الاداريين خلال هذه السنوات العشر الاخيرة . ان الجهاز الفني في وزارة المعارف تابع لتبدلات السياسة ، والوزراء الذين يأتون الى الحكم يمينون اعظم عدد ممكن في الادارة من حزبهم يخلقون لهم اعمالاً يرضونهم بها ولو كانوا غير صالحين ، ويختلف نواب الامة الى ابواب الوزارة يشفعون في توظيف ابناء اقاليمهم وفي ترقية ذويهم وترفيعهم . وموظفو الادارة المركزية لا يجدون من الوقت متسعاً لدراسة القضايا المعروضة عليهم لكثرة المراجعات والمقابلات ، وما من امين عام يستطيع ان يتفرغ لدراسة اوراقه الابدع انتهاء الدوام الرسمي . وهذا كله افسد جهاز الوزارة وافسد نظام المدارس وافسد معه مقاييس المعلمين والمتعلمين .

لم تخف هذه الحالة على واضعي الدستور الجديد ، فرأوا ان ينشأ في الدولة مجلس للمعارف يسهر على تحقيق اهداف التعليم ويعمل على تنفيذ سياسة تعليمية مستقرة ، ويقترح الخطط والبرامج ليكون التعليم في مختلف درجاته وانواعه - محققاً الغايات المتوخاة منه . ولو تم انشاء هذا المجلس لقل تدخل الوزراء في الامور الفنية ، وخلق تأثير سياسة الارضاء في توجيه دفة المعارف .

لقد قلنا في مقال سابق ان ادارة التعليم في سورية خاضعة لانظام المركزية، وان هذا الامر يبدو لاول وهلة طبيعياً في بلاد حديثة العهد باستقلالها. ولكن هذه المركزية مصحوبة في الوقت الحاضر بمراقبة شديدة تمنع اي خروج عن نطاق الخطط المرسومة في وزارة المعارف، ومن ثم تميل طرق التعليم في مختلف المناطق الى ان تكون جامدة على نمط واحد.

وهذا كله يقيد حرية المدارس ويؤدي الى توحيد التعليم توحيداً صورياً، رغم ضرورة مراعاته لحاجات البيئات المحلية، مع ان الوحدة الوطنية العامة ليست وحدة بسيطة مؤلفة من لون واحد، وانما هي وحدة مركبة من لون عام مشترك والوان جزئية كثيرة تنضم الى هذا اللون العام وتزيده جمالاً.

أقد ادرك المشرفون على شؤون التعليم مساوئ هذه المركزية الشديدة فحاولوا تخفيفها بمحض الشيء، بمنح المحافظين أولاً حق تعيين معلمي المدارس الابتدائية، ولكن هذه المحاولات لم تقض على العادات الادارية الرتيبة ولم تخفف شيئاً من اعباء الادارة المركزية، لذلك رأت الجمعية التأسيسية عند وضع الدستور الجديد ان توسع اختصاص المحافظين وان تجعل احكام القوانين مستمدة من مبدأ توسيع الاختصاص لرؤساء الوحدات الادارية ورؤساء المصالح في المركز والمحافظات. وهذا يعني ان جميع القوانين الحاضرة يجب ان تبدل وفقاً لهذا المبدأ، ولكن هذه القوانين لم تبدل بعد فبقيت المركزية على ما هي عليه من جمود وتعقيد، ولا يزال الوزير حتى يومنا هذا يتعب نفسه في حل المسائل الجزئية، وفي التوقيع على المعاملات الادارية البسيطة (١).

ومن المشاكل التي يواجهها التعليم تأثير العوامل السياسية في نظام المدرسة.

---

( ١ ) راجع مقال ادارة التعليم في سورية . مجلة كلية التربية العدد الاول لمن السنة الاولى.

فقد تعود طلابنا ان يتسبوا الى الاحزاب السياسية ، كما تعود رجال  
الاحزاب الاعتماد على حركات الطلاب بلوغ غاياتهم . ومع ان النظام الداخلي  
الموضوع للمدارس يفرض على التلاميذ الابتعاد عن التحزبات السياسية داخل  
المدرسة وخارجها ، فان رجال السياسة لا يزالون يرحبون بطلاب المدارس  
الثانوية ويتخذونهم وسيلة لبث دعوتهم ، ويبلغون بذلك ما يريدون ومالا  
يريدون . وهذا كله يعود الطلاب اهمال دروسهم ويسخرهم لارادة غيرهم ،  
ويقدم الاستقلال الشخصي في الحكم ، ويضيع اوقاتهم ، ويمنعهم من الاستعداد  
للمستقبل .

ان شروط الانتاج التربوي شبيهة بشروط الانتاج الاقتصادي فكما  
ان اضطراب الامن في المدينة يفسد حالتها الاقتصادية كذلك اختلال  
النظام في المدارس لأسباب سياسية أو غير سياسية يهبط بمستواها الثقافي الى  
ادنى الدرجات . ولعمري ان المدرسة شبيهة بالجسم الحي لا تدمم صحته إلا اذا  
قام كل عضو من أعضائه بوظائفه الطبيعية ، فاذا مرض احد الاعضاء وعجز  
الطبيب عن حصر الداء في اوله اختل بعد ذلك نظام الجسم كله ، وانعكست  
قيم الاشياء ، حتى لقد يصبح الفساد محبباً الى النفس والخير بغيضاً والنظام  
مستنكراً ومكروها .

ولا يزيد ان يفهم من قولنا هذا اننا نريد ان نحظر على الطلاب كل عمل  
سياسي أو وطني عام ، فان التربية نفسها يجب ان تعلم الطالب كيف يسوس نفسه ،  
وكيف يسوس أهله ، وكيف يسوس أمته وبلاده ، ولكن السياسة التي نشكو  
الى الله تدخلها في صفوفنا التربوية هي السياسة الديماغوجية أو سياسة الارضاء  
المحلية التي لا تتورع عن اتخاذ اضراب الطلاب وسيلة لتحقيق غاياتها .

لقد كان الطلاب في عهد الانتداب يبحثون عن زعيم روحي خارج المدرسة

يغذي شعورهم الوطني ويوجه اعمالهم ، فلما نالت البلاد استقلالها ثابروا على تلقي هذا الوحي الخارجي من رؤساء الاحزاب . وأدت الحوادث العنيفة التي هزت العالم العربي بعد الحرب العالمية الثانية الى زيادة تحمس الطلاب للقضايا الوطنية ، وتمادى الامر بهم حتى اصبحوا يضربون عن الدروس لائقه الاسباب . وفي كل سنة يعاد تمثيل الرواية وتبرز على المسرح مشاهد جديدة ، وعذر الطلاب في ذلك عدم الاستقرار السياسي ، وشعورهم بالخطر المحدق ببلادهم ، ولوفر قوا بين المصالح السياسية الموقمة ، والمصلحة الوطنية العامة لاعطوا غيرهم من ابناء الامة احسن درس في الاخلاص والايثار والتضحية . ان مصلحة البلاد لاتجزأ ، فاذا كان المحامي والقاضي لا يعرفان القوانين وكان الطبيب لا يحسن تشخيص الداء ولا وصف الدواء ، وكان المهندس لا يعرف مقاومة المواد ، وكان الموظف والتاجر والمزارع لا يعرفون واجباتهم كانت المصلحة المبهود بها اليهم معرضة للضياع . ولا يشعروا الافراد بهذا الخطر الاجتماعي الا عندما يخرجون من بلادهم ، ويتصلون بالامم الاخرى ويجدون سلاحها امضى من سلاحهم ، وعلومها ارسخ من علومهم ، وفتها ارقى من فتنهم ، انهم سيرفعون اذ ذلك اصواتهم الى السماء ، وينحون بالوائم على الذين اسمعوم معسول الانفاظ في شبايهم .

والعلاج الوحيد لهذه المشكلة الادارية والسياسية ان تقسم الاعمال في وزارة المعارف بحسب طبائنها الى اقسام متكافئة ومتعاونة ، وان يعهد في ادارة هذه الاقسام الى رجال فنيين لا تؤثر فيهم تقلبات السياسة المحلية ، وان يكف الوزراء عن التدخل في الامور الفنية ، وان تمتنع الاحزاب عن التدخل في صفوف الطلاب ، وان تحل الزعامة التربوية المبدعة مكان الزعامة السياسية ، فاذا لم تخلق هذه الزعامة الروحية داخل المدرسة بحث الطلاب عنها خارج المدرسة وتعلقوا باذيال الريح ، وعندني ان اول مفاتيح الاصلاح اعداد هؤلاء الزعماء التربويين الذين يوجهون اعمال الطلاب ، وبدخرون قواهم الملمات ويشعرونهم بان





هذه بعض مشكلات التعليم في بلادنا ذكرتها هنا على سبيل التلميح والاشارة لا على سبيل التصريح والابانة ، وهي ترجع في نظرنا الى سبب أساسي واحد اعني عدم الملاءمة بين نظامنا التربوي الحاضر وشروط المجتمع المتجدد الذي نعيش فيه . ولو كانت لنا فلسفة تربوية مستمدة من غرايزنا القومية وبيئتنا الطبيعية وحياتنا الاقتصادية والاجتماعية وعقائدنا وآمالنا لما اضطربنا هذا الاضطراب في اعداد الجيل الجديد . ولكننا نأخذ النظم الادارية والسياسية والتربوية عن الغربيين ولو كانت غير موافقة لواقعنا التاريخي والاجتماعي ، ونتمسك باهداب النظم القديمة التي انتقلت الينا من الماضي ، ولو كانت غير موافقة لحياتنا الحديثة المتجددة ، وعندني ان السبيل الوحيد للاصلاح ان نقوم بدراسة غرايزنا القومية وخصائصنا الطبيعية وحاجاتنا الاقتصادية والاجتماعية دراسة تشمل جميع نواحي الحياة ، وان نستمد من هذه الدراسة فلسفة تربوية متجددة نعتمد عليها في وضع النظم والمناهج . لا يصلح مجتمعا الحديث نظريات خيالية ومبادئ مثالية مكتوبة على الاوراق ، وانما تصلحه دراسات واقعية تقوم على استقصاء مشكلاته ومعرفة اسبابها ونتائجها . وربما كان من الخير لنا قبل وضع خطة جديدة للتربية ان نختبر بعض النظم وان نجربها في بعض المدارس ، فان تأسيس مثل هذه المدارس التجريبية يجنبنا كثيراً من التردد ويوفر علينا كثيراً من العناء . واكاد اليوم اعتقد انه لا يوجد نظام تربوي ومثالي يصلح لكل زمان ومكان وانما يوجد هنالك انظمة تربوية واقعية تختلف باختلاف الامم . ان ادوية الشفاء لا تختلف باختلاف الامراض فحسب بل تختلف باختلاف المرضى ، وكم من نظام تربوي تنتفع به اممة وتستضر به اخرى .

الدكتور جميل صليبا



## الفهرس

	الصفحة
الاستاذ عبد الله عبد الدايم	١
الاستاذ واصف البارودي	٢٩
الاستاذ سامي الدروبي	٥٣
الاستاذ المهندس محمد العالم	٨٧
الاستاذ شاكر مصطفى	١١٣
الدكتور محمد يحيى الهاشمي	١٣٩
الدكتور سعدي بسيسو	١٦٧
الدكتور عادل العوا	١٨٣
الدكتورة زاهية قدورة	٢٠٩
الدكتور كامل عياد	٢٣٧
الدكتور فاخر عاقل	٢٦٧
الاستاذ سامي الكيالي	٢٩٩
الدكتور علي اسعد خانجي	٣٣١
الدكتورة زاهية ايوب	٣٧٥
الدكتور سليم عادل عبد الحق	٣٩٩
الاستاذة زينب لبيب	٤٢٣
الاستاذ خليل هنداوي	٤٤٥
الدكتور جميل صليبا	٤٧٣

## جدول الخطأ والصواب

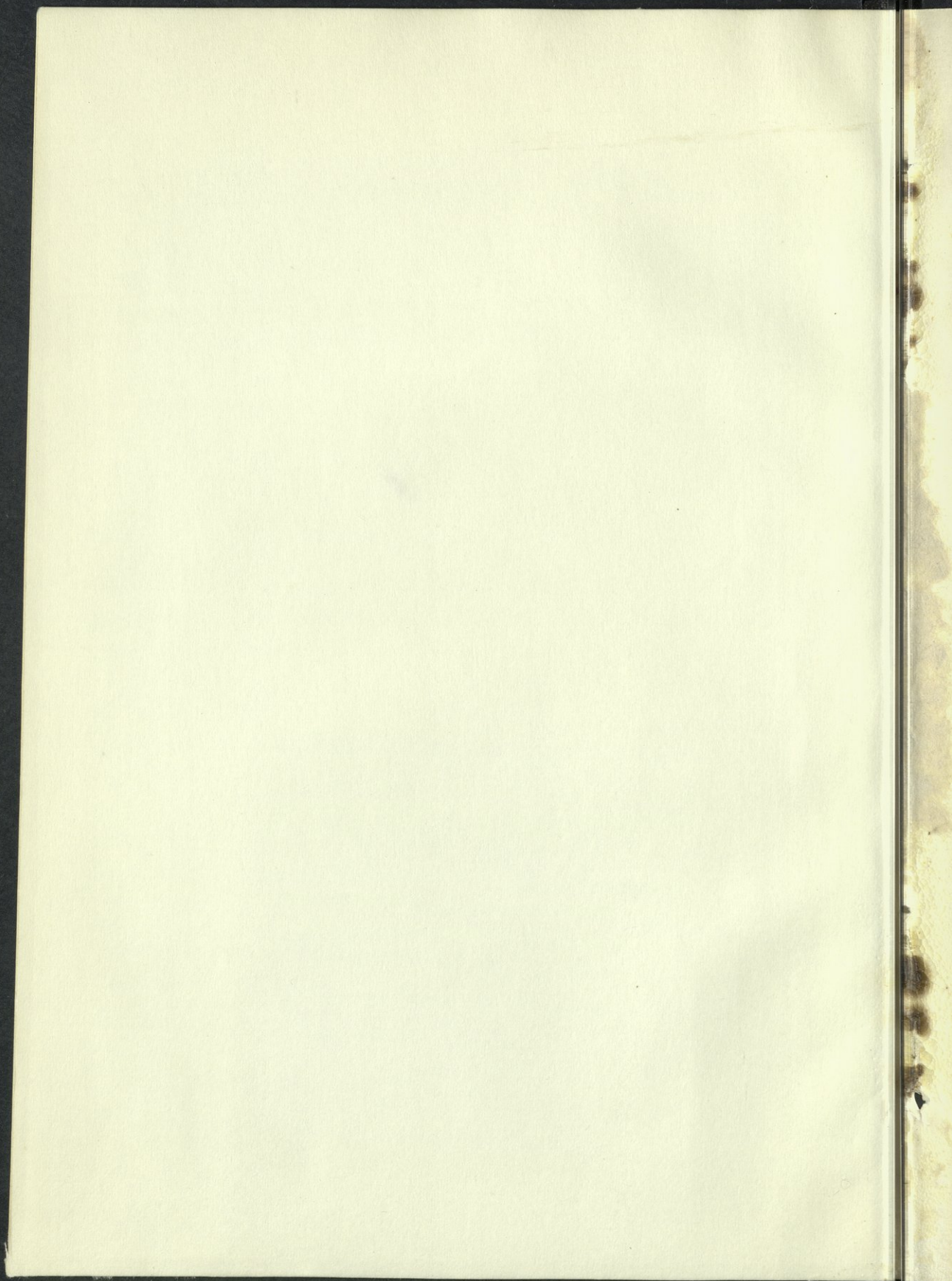
صواب	خطأ	سطر	صحيفة
الناجحة	الفاجمة	٩	٦
صبر	صبور	٨	١٢
بمقدار	بمقداو	١٤	٢٤
تساؤل	تسائل	١٢	٢٥
وانتمساح	وانتمسح	١٠	٣٨
المتصوفة	المتوصفة	١٠	٦٥
كأنأ	كاتيا	٦	٦٦
.....	.....	٦	٩٠
الصهيونيين	الصيونيين	٨	١٢٠
١٥٥	٥٠٥	٧	١٢٦
فلسطين	فلسين	١٥	١٢٦
الطبية	الطبية	١٣	١٦٥
الى مأوى الفساد	الى ملوى الفساد	١٨	١٧٤
الوقائع	الوقائق	١٢	١٩٨
الدولة	الدلة	١٥	١٩٩
الصلبيون	الصبيون	٢١	٢٠١
انسجمت	انسمجت	٧	٢١٢
نشأ	انشأ	١٤	٢١٣
مجتمع	مجتمعمي	١١	٢١٦
كتدمر	كتدهير	١٧	٢١٧
نتائج المتوقعة في	نتأجه المتوقعة	٨	٢٣١
الردى	الروى	٧	٢٦٩

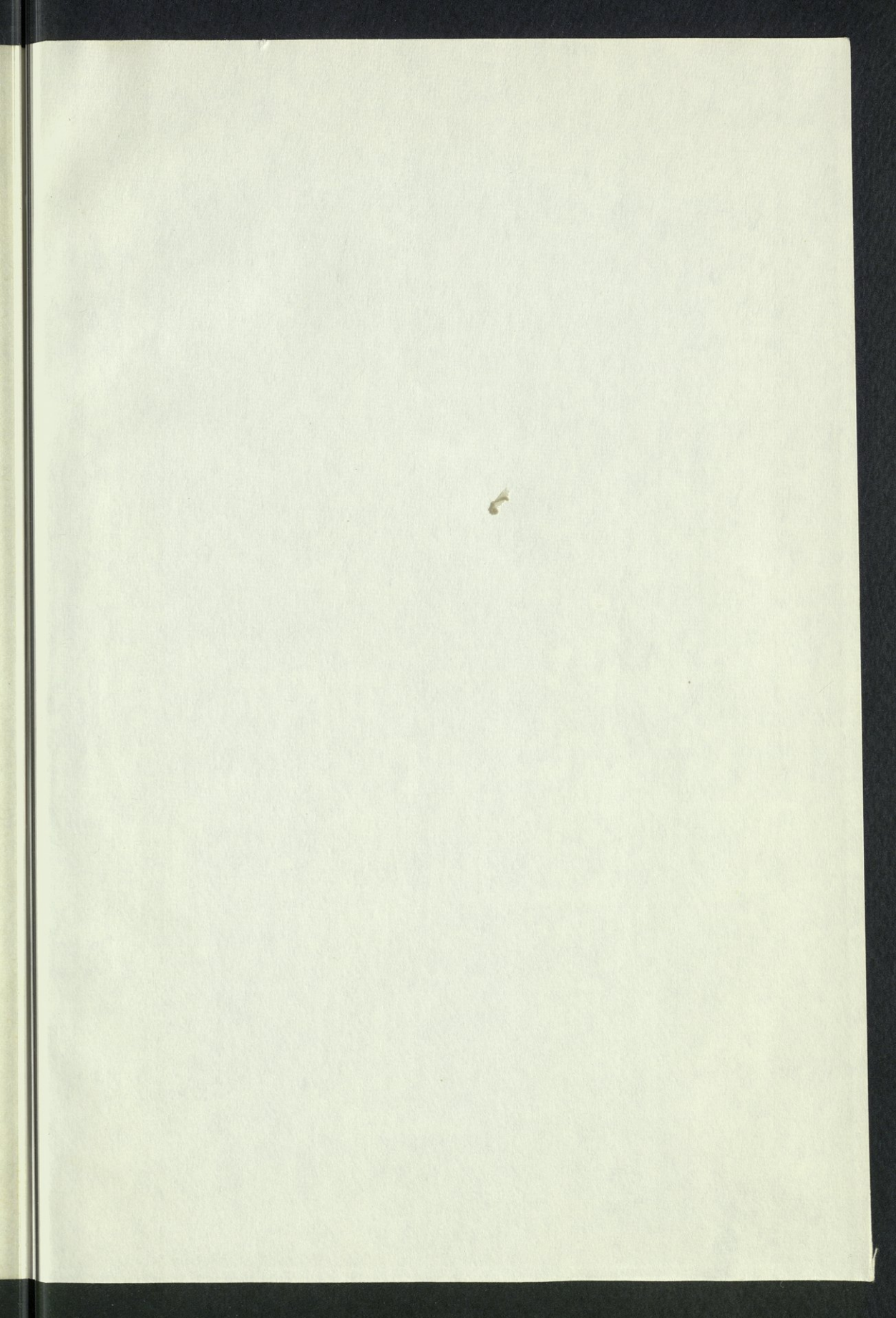
## تابع الخطأ والصواب

صواب	خطأ	سطر	صحيفة
نوعية	عية	٥	٢٩٥
لهذا	بهذا	١٨	٣٠٤
الزائر	الناصر	١٠	٣٠٦
نفي سورية	نضير سورية	٢١	٣٠٦
الغازية	الغازية	٢٠	٣٠٧
ما زال الى ان	ما زال ان	٥	٣٠٨
بمحاضرة	محاضرة	٦	٣٠٨
كاتب	كانت	١١	٣١٢
القضاة	القضاء	٢	٣١٨
قرأوا	قرأو	٧	٣١٨
المجلات	المجلال	٨	٣٢٣
ضعون	صنعون	١٣	٣٢٨
بصحتنا	بصحتنا	١	٣٣٤
تربيتهم	تربتهم	١٥	٣٣٤
وماهي	وماهي هي	١٦	٣٣٦
الخير	السير	٧	٣٣٧
خطا	خطي	٩	٣٤٣
نظامان	نظامين	٧	٣٧١
العجز	الحجز	١٨	٣٧١
واحداً	واحد	١٤	٤٠٤
الادريسي	الاديسي	١٨	٤٠٥
الاسرة	الاثرة	١٢	٤٣٤
من مآسٍ	من مآسي	٨	٤٣٥

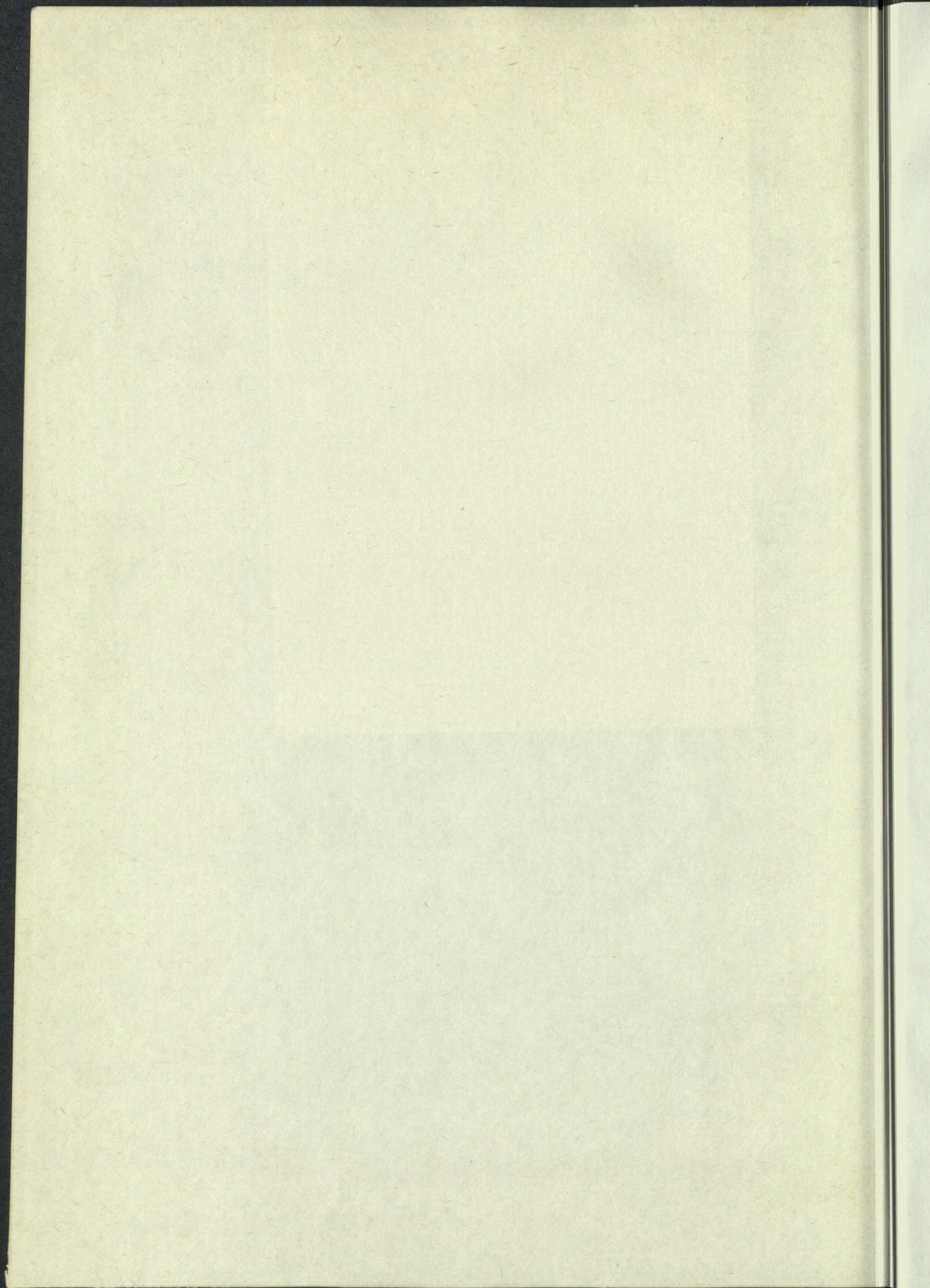
سجل

رقم	الاسم	اللقب	ملاحظات
٥٥٦	س	س	س
٥٥٧	٥٦	س	س
٥٥٨	٥٧	س	س
٥٥٩	٥٨	س	س
٥٦٠	٥٩	س	س
٥٦١	٦٠	س	س
٥٦٢	٦١	س	س
٥٦٣	٦٢	س	س
٥٦٤	٦٣	س	س
٥٦٥	٦٤	س	س
٥٦٦	٦٥	س	س
٥٦٧	٦٦	س	س
٥٦٨	٦٧	س	س
٥٦٩	٦٨	س	س
٥٧٠	٦٩	س	س
٥٧١	٧٠	س	س
٥٧٢	٧١	س	س
٥٧٣	٧٢	س	س
٥٧٤	٧٣	س	س
٥٧٥	٧٤	س	س
٥٧٦	٧٥	س	س
٥٧٧	٧٦	س	س
٥٧٨	٧٧	س	س
٥٧٩	٧٨	س	س
٥٨٠	٧٩	س	س
٥٨١	٨٠	س	س
٥٨٢	٨١	س	س
٥٨٣	٨٢	س	س
٥٨٤	٨٣	س	س
٥٨٥	٨٤	س	س
٥٨٦	٨٥	س	س
٥٨٧	٨٦	س	س
٥٨٨	٨٧	س	س
٥٨٩	٨٨	س	س
٥٩٠	٨٩	س	س
٥٩١	٩٠	س	س
٥٩٢	٩١	س	س
٥٩٣	٩٢	س	س
٥٩٤	٩٣	س	س
٥٩٥	٩٤	س	س
٥٩٦	٩٥	س	س
٥٩٧	٩٦	س	س
٥٩٨	٩٧	س	س
٥٩٩	٩٨	س	س
٦٠٠	٩٩	س	س











892.74:H15mA:1954-55:v.3:c.2

حلب. دار الكتب الوطنية

المحاضرات العامة لعام ١٩٥٢-١٩٥٧

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01039031

